لويس رايت
وجوليا ماكليود

Louis B. Wright
And Julia H. Macleod

الحملات الأميركية على شمالي افريقيا

في القرن الثامن عشر

The First Americans in North Africa

تعريب
محمد روحي البعلبكي

مكتبة الفرجاني
طرابلس - ليبيا

الحملات الأميركية على شمالي إفريقيا

في القرن الثامن عشر

عرض تحليلي وسرد مفصل لحروب الولايات المتحدة
ضد دول شمالي افريقيا
١٧٩٩ - ١٨٠٥

تأليف
لويس رايت
وجوليا ماكليود

تعريب
محمد روحي البعلبكي

مكتبة الفرجاني
طرابلس - ليبيا

The First Americans in North Africa 1799 - 1805

by

Louis B. Wright
And Julia H. Macleod

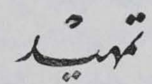
المؤلفان

لويس ب. رايت

ان « لويس ب. رايت » لمن المؤرخين المشهورين الذائعي الصيت ، فهو واضع المؤلفات العديدة وصاحب المقالات المعروفة عن تاريخ الولايات المتحدة المبكّر . وهو ، بالاضافة الى ذلك ، مؤلف الكتاب الذي صدر أخيراً بعنوان : « المذكرات السرية لويليام بيرد المولود في وستوفر » ، وكان قد اشترك معه في التأليف ماريون تينلينغ .

جوليا ه. ماكليود

هي عضو مسؤول في ادارة مكتبة هانتينغتون ، وفي صالـة عرض سان فرانسيسكو الفنية ، في كاليفورنيا .



في عام ١٨٠٥ ، قامت القوى الأميركية بمغامرتها الأولى على أراضي شمالي افريقيا . وكانت الحملة ، آنذاك ، بقيادة رجل ألمعي ، متّقد الذكاء ، وغريب الأطوار في الوقت عينه ، يُدعى « ويليام إيتون » . وكان « ويليام إيتون » ، وهو من سكّان مقاطعة « نيو انغلند » ، يطمح الى إزالة خطر قراصنة شمالي أفريقيا* عن طريق اقامة حكومة صُوَرية في طرابلس تكون موالية للولايات المتحدة الأميركية . وكان « إيتون » سابقاً قنصلاً للولايات المتحدة الأميركية في تونس حيث توفّرت لديه خبرة واسعة ومعلومات مستفيضة عن القرصنة وأعمال القراصنة الذين كانوا يعتمدون في عيشهم على غنائم غزواتهم التي يشنونها على تجار البحر الأبيض المتوسط ، وعلى الجزية التي كانوا ينتزعونها من جميع الدول ، وذلك منذ زمنٍ سحيق مُمعن في القِدم . لقد رفضت روحه المتوثّبة فكرةَ شراء رضى لصوص البحر والتخلّص منهم بدفع

* الكلمة في الاصل الانكليزي Barbary Pirates . وتطلق لفظة Barbary على منطقة من مناطق افريقيا الشمالية ، وهي التي تمتد من غربي الجمهورية العربية المتحدة الى المحيط الاطلسي ، شاملة بذلك « الدول المتبربرة » وهي : المغرب ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس . (المعرب) .

الأموال ، حسبما كانت تقضي به العقلية الأوروبية . وكان واثقاً من ان الولايات المتحدة الأميركية سوف تضرب المثل الأول من نوعه لسائر أصقاع العالم ، بل وستبسط سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط ، اذا ما ساعدته الظروف ... ذلك هو الهدف الذي وجّه إليه « إيتون » قواه ، ونذر له نفسه .

وكان الأسطول الاميركي يشنّ هجمات متقطعة على القراصنة * الطرابلسيين ساعياً إلى افنائهم وابادتهم منذ سنة ١٨٠١ . وفي تلك الفترة من المعارك المتقطّعة ، كان « ويليام إيتون » ، سنة ١٨٠٣ ، يلحّ على الرئيس الاميركي « جفرسون » ويحاول اقناعه بضرورة إرسال حملة بريّة على طرابلس تكون بقيادة « إيتون » نفسه . انه كان يرمي إلى اعادة عرش طرابلس الى « أحمد قرامانلي » بعد ان اغتُصب منه ذلك العرش .

وبالرغم من كثرة المصاعب التي لا تُذلّل ، فقد جهز « ايتون » جيشاً في مصر – كان أقرب الى مجرد « مجموعة أو حشد من الناس » منه الى الجيش بالمفهوم المتداول – ، وعَبَرَ بجيشه الصحراء عَبْر الطريق التي سلكها « مونتغمري » فيما بعد ، وسرعان ما استولى على «درنة». والحق ان البطولة الخارقة التي أظهرها الملازم أول « برسلي ن. اوبانون » وغواصاته السبع (التي كانت تشتمل على مجموعة الاميركيين المدرّبة والمنظمة الوحيدة في « جيش » القائد الاميركي « ايتون ») ، إنما هي التي حققت ذاك النصر وأدخلت عبارة « الى شواطىء طرابلس » الى النشيد الرسمي لأسطول الولايات المتحدة الاميركية . وقد سيطر الذعر على قلب « الباشا » حاكم طرابلس الى درجة انه راح يفاوض ، على

---

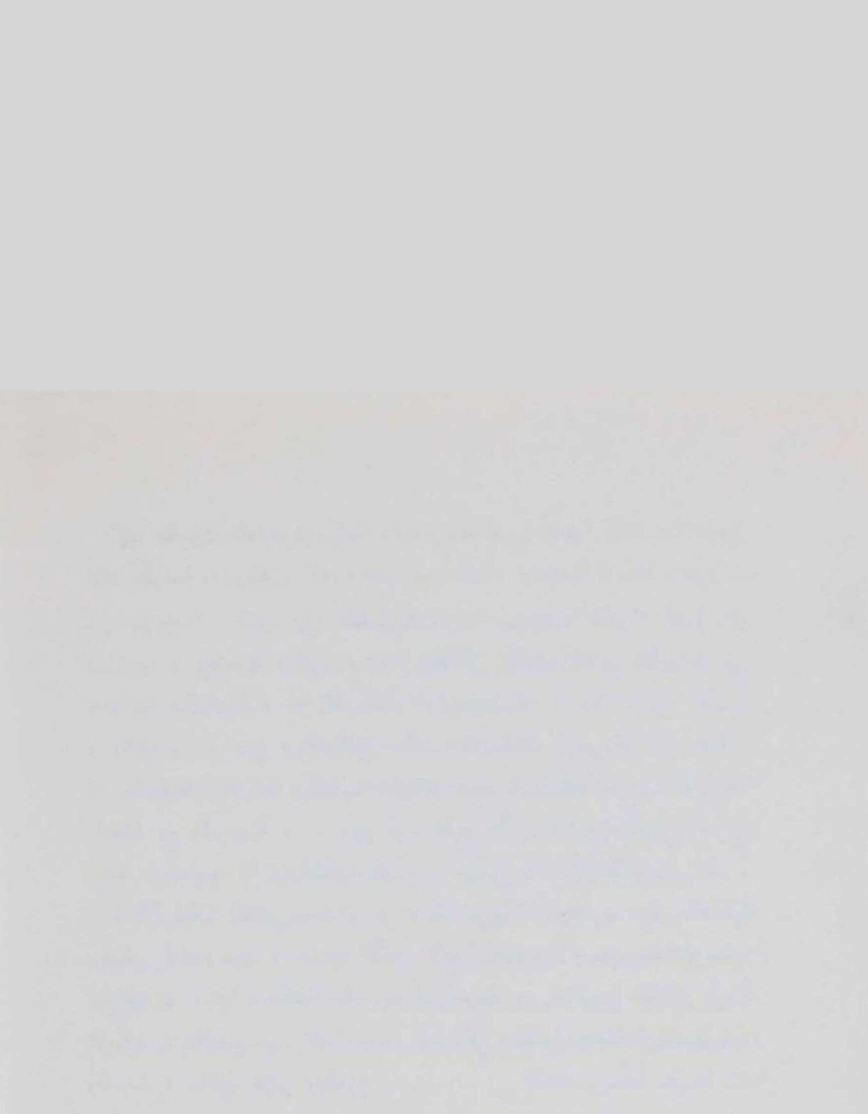
* تعتبر حركة القرصنة في شمالي افريقيا نوعاً من الجهاد لجأ اليه المسلمون دفاعاً عن أنفسهم ، كرد فعل للاضطهاد الذي لحقهم في اسبانيا يوم خروجهم منها (المعرب) .

التوّ ، في معاهدة كانت لصالح الولايات المتحدة ، قبـل ان يتمكّن « ايتون » من تنفيذ خطته الأصلية .

وعلى الرغم من ان « ايتون » قـد فشل في تنصيب « حاكمه الألعوبة » ،فقد كان لتلك الحملة فضل عظيم في بسط السيطرة الاميركية على تلك المنطقة ... ان سقوط « درنة » يمثل نقطة التحول في علاقات الولايات المتحدة من جهة، مع كل من المغرب وتونس والجزائر وطرابلس من جهة أخرى . فعقب ذلك التاريخ بعشر سنوات، كان خطر القراصنة قد زال نهائياً .

ويعثر الباحث على مجموعة فريدة من المخطوطات التي تشرح بتفصيلات وافية وإطناب جميل علاقات الاميركيين مع أهالي تلك المنطقة في السنوات الاولى مـن القرن التاسع عشر ؛ ويُحتفظ بتلك المخطوطـات القيّمة في « مكتبة هانتنغتون » . وتتألف الوثائق من سجلات كان يحتفظ بها « ويليام إيتون » ، ايامَ كان قنصلاً لبلاده في تونس، ومن ثمّ موظفاً بحرياً في منطقة حوض البحر الابيض المتوسط . وبسبب العداوة الحـادة بين القنصل الاميركي العام في الجزائر «ريتشارد اوبراين» من نحو،وبين القنصل الاميركي في طرابلس ويدعى « جيمس لايندر كاثكارت » من نحو آخر ، كـان « ايتون » بمثابة الممرّ الذي تعبره معظم الأعمال والمعاملات الرسمية في تلك المنطقة من شمالي افريقيا . فقد كان من عادته ان يدوّن سجلات جد دقيقة ، وأن يحتفظ بنسخة عن كل رسالة يبعث بها أو تصل إليه ، كما كـان – بالاضافة الى ذلك – يدوّن آراءه الشخصية في دفتر لليوميات . والواقع ان هذه المخطوطات هي الأساس الذي نبني عليه هـذا الكتاب . هذا ، وقد كان « تشارلز برنتيس » أول من استعان بتلك المخطوطات بعد وفاة « إيتون » عام ١٨١١، كما يقوم بكتابة سيرة « إيتون » .

إن ما يحاوله المؤلفان في هذا الكتاب إنما هو تقديم صورة واضحة



-١-

الاطار التاريخي لشمالي افريقيا

منذ ما ينوف عن الثلاثة آلاف عام ، وقبل ان يتخيل أو يحلم الانسان بالولايات المتحدة الاميركية ، كانت المرافىء المستعملة من قبل قراصنة شمالي افريقيا مسرحاً للتمرد والفوضى والشغب ... ومن الطبيعي ان يضيع منا على كرّ الأيام أصلُ كل من سكان ومدن شمالي افريقيا المتوغل في ظلمات القدم ، وذلك بالرغم من ان كل حضارة قامت على شاطىء البحر الابيض المتوسط قد تركت أثراً من آثارها على حدود الشاطىء الافريقي . فقبل ان يتصل الملكُ سليمان الحكيم بملك صور الفينيقي « حيرام » ، طالباً منه الذهب والمعادن الثمينة كيما تُستعمل في معبد القدس بفترة طويلة ، كانت السفن التجارية والسفن الشراعية الحربية الفينيقية قد استكشفت الساحل الافريقي ودارت حوله غرباً باتجاه جبل طارق ، وحول المنحنى الاطلسي في قارة افريقيا حتى حدود الدار البيضاء . وفي القرن التاسع قبل الميلاد،أسس الفينيقيون مدينة «قرطاجة» (في تونس) التي كانت مركزاً للمبادلات التجارية ومسرحاً ، بل ومنطلقاً ، للغزوات البحرية على الساحل الأوروبي . وقد استمرت أعمال السلب والنهب هذه طوال قرون عديدة،الى ان تزعمت الفرغاطات*

* الفرغاطات : جمع فرغاطة ، وهي بارجة بين الطراد والمدمرة . والمرادف الانكليزي لهذه الكلمة هو : « Frigate » . (المعرب)

الاميركية الدولَ المسيحية للقضاء على قوة افريقيا الشمالية البحرية .

كان البربر البدائيون (ومنهم اشتُقت تسمية « الدول المتبربرة ») شعباً قوقازياً من المجموعة الحاميّة ، وكانوا من عرقٍ قاسٍ ، شديد الصلابة ، بحيث انهم احتفظوا – الى حد ما – بخصائصهم العنصرية وبلغتهم الأصلية حتى يومنا هذا ، على الرغم من بعض التغيرات التي طرأت على خصائصهم ولغتهم عن طريق الفينيقيين ، والاغريق ، والفرس ، والرومان ، والونداليين ، واليهود ، والعرب ، والنورمانديين والايطاليين ، والسّلاف (الذين كان يبيعهم الغزاة التيوتونيون رقيقاً في افريقيا في أواخر العصور المتوسطة) ، والبرتغاليين ، والاسبانيين ، والاتراك ، والعبيد (من جنوب الصحراء) ، والافرنسيين ... لقد تدفق سيلُ الغزاة الذين كانوا ينهارون على التوالي ، ليصمد البربر المتوحشون وليزدهروا في وقتٍ كان عنصرهم يمتد من البحر الأحمر شرقاً ، الى شواطىء المحيط الأطلسي (وبخاصة مراكش) غرباً ... على تلك الشواطىء ، اختلط البربر مع جميع الشعوب التي نزلت على شواطىء افريقيا ، فأضفوا شيئاً من قوتهم ووحشيتهم على ذاك المزيج .

وفي القرن الثامن عشر ، أصبحت الشواطىء البحرية والشواطىء التابعة « للدول المتبربرة » مرتعاً خصباً لمزيج عجيب ، بل لحشدٍ ضخم كان يضم كل عرقٍ من الأعراق ، على وجه التقريب ، يتميز كل منها بصفاء نسبي ، كما يتميز كذلك بخاصة فريدة هي أثر من آثار التمازج والاختلاط .

لعل منطقة شمالي افريقيا قد شهدت عدداً كبيراً من المعارك والحروب يفوق ما شهدته أية منطقة أخرى في العالم . فلقد استمرت أمواج الصراع والقتال تتلاطم على تلك المنطقة ، طوال قرون عدّة ، بصورة أشبه ما تكون بالمد والجزر في مياه البحر الابيض المتوسط . وكان من الطبيعي ان يتغير اتجاه الامواج (أمواج الحروب والتلاحم) من حين إلى آخر ؛

فمن القسم الجنوبي من البحر الابيض المتوسط كانت تتجه أمواج الحروب شمالاً لتضرب أوروبا ... ومثال ذلك ، عندما تحدى القرطاجيون رومة نفسها، أو عندما احتل المغاربة اسبانيا فيما بعد . لقد كانت حروب القراصنة الطويلة ضد عمليات النقل التجارية في البحر في المرحلة الأخيرة من مراحل الخطر الشمالي – افريقي على القارة الاوروبية !

أما مدينة قرطاجة الفينيقية ، فقد تبوأت مركز القلب من الشهرة ، كما احتلت المكان الأول من القوة، في قديم الزمان . فالواقع انها كانت تشكل خطراً مداهماً بالنسبة لرومة، وسرعان ما أدركت رومة ان حوض البحر الأبيض المتوسط لا يتسع لهاتين القوتين معاً، أعني قرطاجة ورومة! ومن أهم الدروس والعبر التي تعلمتها رومة :

أولاً : اجتياح « هنيبعل » لايطاليا .

ثانياً : الخسائر الفادحة التي مُنيت بها في الحروب البونية . ان «كاتو» لم يكن يسمح لمواطنيه ان ينسوا ان « قرطاجة يجب أن تُدَمَّر ! » ... وفي آخر الامر ، تمكنت رومة لا من احتلال قرطاجة وحسب (وذلك في سنة ١٤٦ قبل الميلاد) ، بل ومن احتلال الساحل بأكمله ، مضافاً اليه قسم من المناطق الداخلية خلف الساحل.وبعد تلك الاحداث بقرون، كان جنود الدول الغربية يرسلون معداتهم ومحركاتهم الآلية الى المناطق التي سبق ان شيدها الغزاة الرومان ، ويقيمون مخيماتهم بين أنقاض المدن الرومانية .

ظل اليهود يتغلغلون داخل المدن الساحلية ، قبل الفتح الروماني وبعده ... وقد نشطت هذه الحركة بعد ان احتل « تيتوس » القدس، وذلك في سنة سبعين بعد المسيح . وهكذا شكّل اليهود جزءاً مهماً من السكان منذ ذلك التاريخ ، وقد ظلوا يشكلون ذلك الجزء حتى يومنا هذا . وكانوا أحياناً يقومون بدور الوسيط بين المسيحيين والمسلمين في

القرن الثامن عشر ، كما ان قسماً كبيراً من التجارة التونسية والجزائرية وسواهما كان تحت سيطرة التجار والمُرابين اليهود .

أما الاغريق ، فقد تقدموا على الرومان زمنياً في بعض أنحاء افريقيا الشمالية . على ان اهم مراكزهم كانت في « سيرينايكا » وبخاصة في المنطقة التي عُرفت فيما بعد باسم « برقة » الواقعة على الشاطىء الشرقي لخليج « سرت » . وخلال بحثهم الدؤوب عن طريق تنقلهم من « طروادة » الى « ايثاكا » ، نزل رجال « اوليسيس » على « جزيرة جربا » الواقعة على خليج قابس ، حيث أكلوا « اللوطس » ليطلقوا العنان لأحلامهم الفرحة ، ولنشوتهم المشوّشة — وهي حالة عقلية نعتقد ان تجربتها تقتصر على المسافرين في افريقيا الشمالية . ويقول الباحثون ان أن السبب في نشوة مسافري «الاوذيسة» لم يكن زهرة اللوطس،وانما كان تمر « جزيرة جربا » الحلو الطعم . وفي سنة ٥٣٣ ميلادية ، تغلّب جنرالات اليونان البيزنطيون* على الونداليين الذين كانوا قد قضوا على سلطة رومة في افريقيا ، وبسطوا سيطرتهم على المناطق الممتدة من النيل الى مراكش لفترة من الزمن .

•

على ان أبعد الفاتحين تأثيراً على افريقيا الشمالية هم العرب !! فبعد وفاة النبيّ محمد ، صلى الله عليه وسلم ، سنة ٦٣٢ ميلادية ، بزمن قصير ، ابتدأ التوسع العربي الهائل الذي نشر الرعب في اوروبا الجنوبية بأسرها .

---

* بيزنطة مدينة يونانية قديمة على البوسفور بنى الامبراطور قسطنطين في موقعها (عام ٣٣٠ بعد المسيح) مدينة القسطنطينية . (وقد عرفت في العهد العثماني بالآستانة ، وتعرف اليوم باستانبول) .
(المعرب)

وعند نهاية القرن السابع ، كان العرب قد اجتاحوا شمالي افريقيا ، ومسحوا آخر اثر من آثار الحكم البيزنطي ، كما نشروا الدعوة الاسلامية بين البربر ، أو اخضعوا بعضهم لسيطرتهم ، حسب اختلاف المناطق والازمان . وهكذا ، وبالرغم من الاختلاف والانقسام بين المسلمين ، أضحت افريقيا الشمالية تدين بدين الاسلام في معظمها ، وراحت اللغة العربية تضارع اللغة البربرية القديمة كمقياس للتفاهم والتخاطب !!

لقد كان الفتح العربي الاسلامي للساحل الافريقي نذير شؤم وسوء بالنسبة لأوروبا المسيحية . فبعد حوالى اثني عشر قرناً من الزمن ، كانت الجيوش المسيحية تلتحم مع جيوش الاسلام في حروب متقطعة على طول الساحل الافريقي .

وفي سنة ٧١١ ميلادية ، عبر طارق بن زياد مضيق جبل طارق ، ليضع الاسس الاولى للسيطرة الاسلامية على اسبانيا . وعندما أُخرج العرب اخيراً من اسبانيا على يد « فردينان » و « ايزابيل » ، في سنة ١٤٩٢ ، استوطن كثير منهم في مرافىء شمالي افريقيا ، واذكوا نار العداء للعالم المسيحي . وهكذا أُضيفت الى رغبة القراصنة في الغنائم ، رغبة العرب في الثأر والانتقام .

والحق انه كان للصليبيين أثرهم الفعّال على تاريخ شمالي افريقيا البحري والعسكري من نحو ، وعلى باقي حوض البحر الابيض المتوسط من نحو آخر . ولقد ظلت خطوط النار تؤثر على سير الحياة في جميع دول البحر الابيض المتوسط ، وذلك اعتباراً من حدود جبل طارق وحتّى القسطنطينية . وكانت الحملة الصليبية التي كان يقودها « لويس التاسع » الفرنسي (سانت لويس) موجهة سنة ١٢٧٠ ضد تونس ، على اساس انه على كل مسلم (اينما كان) يجب ان ينصبّ غضب النصرانية ... ومن هنا ، كانت تونس مكاناً مناسباً لتلك الغاية . وكان « سانت لويس » الفرنسي هذا قد اكتسب تجربته الصليبية الأولى قبل

احدى وعشرين سنة في افريقيا ، في حملة على مصر .

لقد فشلت الحملة الصليبية على تونس .. ومات « سانت لويس » بعد اصابته بالطاعون . ثم انسحب جيشه شرّ انسحاب .

وفي غضون ذلك ، كان الاسبانيون والبرتغاليون يشنّون حملات متواصلة على افريقيا الشمالية ، كانت موجهة ، بادىء ذي بدء ، ضد العرب المستوطنين في شبه جزيرة ايبيريا ، ومن ثم ضد سائر المرافىء الافريقية . وقد تمكن الأمير « هنري الملّاح » مع ملاحيه البرتغاليين الجسورين من احتلال « سبتة » في مراكش ، في سنة ١٤١٥ . وكان هذا الاحتلال السابقة الاولى التي تلاها الاحتلال البرتغالي لـ « طنجة » وسواها من المواقع الاستراتيجية . وبعد ان أُخرج العرب من اسبانيا ، تبعهم الاسبانيون عبر البحر الابيض المتوسط ، وتمكنوا في اواسط القرن السادس عشر من احتلال « وهران » و « بونة » و « جليطة » وبعض المواقع الاخرى ..

وبقيت مراكش تحت السيطرة البرتغالية حتى سنة ١٥٧٨ ، حين حاول الملك البرتغالي الشاب « دوم سيباستياو » ان يبسط سلطانه على جميع تلك الأراضي ، فهزم عند « القصر الكبير » .

وعلى الرغم من ان البرتغال واسبانيا احتفظتا بقواعد عسكرية على ساحل افريقيا ، لأجيال عديدة تلت ، الا انهما قد عجزتا عن صد غزوات بعض المسلمين ضد شواطئها وسفنها الخاصة .

●

ومهما يكن من أمر ، فلم تكن جميع الحروب في تلك المناطق تدور بين المسلمين والمسيحيين . فلقد كانت تقع بعض المعارك المميتة والضروس بين مختلف الفرق والشيع الاسلامية ، وذلك في وقت لم يعد فيه الالتفاف حول كلمة الرسول ضماناً لوحدة المسلمين البتة .

وفي الفترة الواقعة بين سنتي ١٥١٩ و ١٥٧٣ بسط الأتراك العثمانيون سلطانهم على افريقيا الشمالية بأكملها ، ما عدا مراكش ، التي احتفظت باستقلالها السياسي ، مع العلم بأنها كانت متأثرة ، الى حد بعيد ، بالعادات التركية . ولدى مقارنتهم مع الاتراك ، يبدو لنا بوضوح ان العرب كانوا شعباً طيب القلب وسامي الاخلاق .. إذ بالرغم من مناوشاتهم المستمرة مع كل من البرتغال واسبانيا ، فقد سمح العرب بالتجارة مع اوروبا ، كما اظهروا تسامحاً ملحوظاً في معاملتهم النصارى الذين كانوا يعيشون بينهم . لقد كان من شأن قدوم الاتراك ان قلب كل ذلك رأساً على عقب :

لقد حلّت الوحشية التركية محل الفروسية العربية . وإذ كان الأمر كذلك ، تمكن الخوف من الأسر في قلوب البحارة المسيحيين ، وقاسوا من نير العبودية في السفن الشراعية العثمانية اكثر مما يقاسيه الكفّار من نيران جهنم .

إن البحّارة العثمانيين الذين كانوا يقودون المراكب والسفن التركية هم الذين ضاعفوا من قوة القراصنة ، الى درجة اصبح معها كل مركب مسيحي في البحر الابيض المتوسط مهدداً بالخطر .

كان القرن السادس عشر اشبه بحلبة صراع دموي بحري في البحر المتوسط ، وذلك حين بدأ المسيحيون يتنافسون مع العثمانيين على السيادة البحرية . فقد كانت السفن الشراعية المسيحية التي كان يسيّرها اسرى مسلمون تشتبك مع سفن المسلمين الشراعية التي كان يجدف عليها اسرى نصارى مكبّلين ومقيّدين الى مجاذيفهم . وتحت لسع سياط عريفي الملاحين الذي لا يعرف شفقة ، ولا رحمة ، كان العبيد يجذفون حتى تتوقف قلوبهم عن الحركة . ولم يكن ثمة داعٍ او حاجة الى تغيير العبد — الضحية ، المنهوك القوى ، والاتيان بآخر ليحل محله ، الا حين كان يلفظ النفس الاخير ويُجرّ جثة هامدة لا حراك فيها ! عندها فقط كان

المسكين يتحلل من قيوده التي تشده الى مجذافه الأصم .

ورغم انه كان ثمة بعض الأنواع الأخرى من المراكب المخصصة للاستعمال ، والمستعملة فعلاً من وقت الى آخر ، فان الحروب البحرية التي كانت تقع في البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر كانت ، في اساسها ، مجرد مباريات بين السفن الشراعية الحربية التي كانت تسيّرها مجاذيف العبيد الأرقّاء . وتبعاً لتضاعف عدد قطع الاسطول الاسلامي في المرافىء الشرقية والافريقية على حد سواء ، تضاعفت ايضاً الحاجة الى أرقاء جدُد .. فما كان من القراصنة الا ان اجتاحوا ، بجرأة واقدام ، السواحل الاسبانية والسواحل الايطالية بحثاً عن غنائم بشرية جديدة ، من رجال ونساء .. كان الرجال من العبيد يعملون على مجاذيف السفن الشراعية ، في حين كانت النساء يدخلن ، بصورة خاصة فيعداد الحريم الخاص بحكام شمالي افريقيا . اما عندما يكون الطقس معتدلاً ، اي اعتباراً من شهر نوار (مايو) وحتى رياح الخريف ، فان القراصنة كانوا لا يمنعون هجماتهم عن اية مدينة ساحلية ، اسبانية كانت ام ايطالية ، غير متمتعة بحماية كافية .

ومن الطبيعي ان العالم المسيحي الذي كان يتلقى تلك الضربات لم يكن ليسكت عنها .. فقد حاول ان يرد الهجوم بالهجوم !

كانت الأساطيل البرتغالية ، والاسبانية ، والفرنسية ، والايطالية ، تشن ، من وقت الى آخر ، هجوماً مضاداً على القوات المعادية لها . كما انه كان هناك بعض المراكب المسيحية الأشبه بـ « الرمح الطليق » ، والتي كانت تنطلق من المرافىء المسيحية لتدمر الممتلكات الاسلامية .

والحقيقة ، ان القراصنة النصارى كانوا يُظهرون ، احياناً ، ضراوة وشراسة لا توصفان ، تفوقان ضراوة اعنف رجال الاتراك وشراستهم ! ! ومن ناحية اخرى ، لم يكن المسيحيون يقصرون هجماتهم على المسلمين .. ان القرصنة في البحر الابيض المتوسط لم تكن لتحترم المواثيق .

وكان من ابرز القراصنة المسيحيين ، « فرسان القـديس حنا » (وهو من القدس) ، الذين نقلوا مقرهم (في سنة ١٣١٠) من جزيرة قبرص الى جزيرة رودس ، حيث بنوا حصناً عظيماً في وجه الهجمات الاسلامية . وقد كان هؤلاء « الفرسان » متمرّسين في الابحار وركوب البحر بصورة عامة . وعلماً بأن عدد سفنهم الشراعية التي كانوا يملكون ما كان كثيراً على الاطلاق ، فمع ذلك تمكنوا من تحطيم من كان يقف في وجههم متحدياً .

وفي اوائل القرن السادس عشر وصلت قوة العثمانيين البحريـة الى القمة ، اذ حتى مراكب « جنوى » و « البندقية » المتعجرفتين قد أرغمت على الرضوخ والاستسلام لتلك القوة . وفي سنة ١٥٢٢ ، وجه السلطان سليمان الاول العظيم أسطوله لمحاربة جزيرة رودس ، تلك الجزيرة التي كانت اشبه بمأوى المجذّفين والمحاربين الذين طالمـا أقلقوا راحة أتباع السلطان سليمان الاول ... ولكن ، على كل حال ، لم يكن ذلك الهجوم من جهة الشرق ، الاول من نوعه على جزيرة رودس ، فقد سبق لمحمد الثاني ان أرسل ، في سنة ١٤٨٠ ، جيشاً هائلاً في مئة وستين مركباً شراعياً ، لتحطيم حصن رودس ، غير انه عاد مهزوماً .

كان السلطان سليمان الاول مصمماً على ان يأخذ بثأر سلفه . لذا ، فقد التفت اولاً الى العدد : فبعد ان نظم اسطولاً يتألف من اربعمائة مركب ، تبوّأ بنفسه مركز القيادة ، وحاصر الجزيرة . وهكذا ، كان عدد مراكب « الفرسان » القليل عديم الفائدة ، في ذلك الظرف . لقد أمطر السلطان سليمان وجنوده المئة ألف الجزيرة بنيرانهم . وبعدهـا ، انكبّ المهندسون الاكفاء ، ذوو الخبرة في استعمال المتفجرات ، على تهديم جزيرة رودس . ولكن « فرسان رودس » الذين كانوا يفقهون كيفية استعمال البارود ، وبخاصة اذا ما زُرع تحت اقدام العدو ، انكبوا على حفر الأنفاق ووضع الالغام ، مما ادخل الرعب الى قلوب الاتراك ...

واخيراً ، وبعد مضي ستة أشهر من الحصار من جهة ، والدفاع من جهة اخرى ، ادرك « الفرسان » ان مؤونتهم تكاد تنفد ، وان اعتدتهم الحربية سوف تنتهي بعد وقت قصير جداً، وان ذخائرهم لم تعد تكفي، فارغموا على الرضوخ لشروط الاستسلام التي كانوا قد رفضوها في السابق .

وفي الحادي والعشرين من شهر كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٥٢٢، استسلم « فرسان جزيرة رودس » لفاتح شجاع شهم ، سمح لهم بالانتقال باتجاه الغرب ... ذلك هو السلطان سليمان الاول . ولكن التاريخ أثبت ان كرم اخلاق السلطان سليمان الاول وتسامحه وترفعه ، كل ذلك كان خطأً تكتيكياً .

وبعد ان انتقل « الفرسان » من جزيرة الى اخرى في السنوات القليلة التالية لانهزامهم، استقروا اخيراً ، اي في سنة ١٥٣٠ على وجه التحديد، في جزيرة « مالطة » ، التي كان الامبراطور « شارل الخامس » —امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة — قد تخلى عنها للرهبنة المسيحية ... اما الغاية التي كان يهدف اليها الامبراطور من وراء عمله، فهي ان يُوقع الرهبة في نفوس العثمانيين ، على ان يستأنف القراصنة المسيحيون حربهم ضد المسلمين على شكل حرب عصابات ... ما كان القراصنة المسيحيون في حاجة الى من يشجعهم ، اذ سرعان ما شرعوا في تجهيز اسطول صغير ، ولكنه قوي وقدير ، أصبح يهدد السفن الاسلامية من شواطىء افريقيا الشمالية حتى البوسفور .

وقد اشتهر من بين المناضلين المسلمين في تلك الحقبة ، الشقيقان « خير الدين » و « عروج » وكانا يعرفان باسم « بربروسا » لدى اعدائهم، وذلك بسبب لحية ذاك الاخير ذات اللون الاحمر القاني . ويأتي بعدهما ، من ناحية الشجاعة والاقدام ، الشقيقان « دراغوت » — واحياناً يعرف باسم « طرغود »— و « مراد » ، اللذان خلفاهما في القيادة .

كان « خير الدين » قرصاناً جزائرياً ، وقد نال حظوة عالية في ذلك العهد ، اذ أصبح الأميرال الاول في اسطول السلطان . ومما يحكى عن شجاعة ذلك القرصان ، انه طاف في صيف سنة ١٥٣٤ شواطىء جزيرة صقلية ، وشواطىء ايطاليا واراضيها ، ينهب ويسرق ، ويحرق المدن ، ويسبي اجمل النساء ... ولقد دفعته جرأته ، او بالحري قُل دفعه تهوره الى ان يوفد جماعة من السفاحين الى مدينة « فوندي » ، الواقعة في منتصف الطريق بين « رومة » و« نابولي » ، بغية اختطاف امرأة غاية في الجمال والسحر ، تسمى « غويليا غونزاغا » ، كيما يقدمها الى السلطان ويضيفها الى « حريمه » .

ويروى ان « غويليا » قد هربت وهي ترتدي ثياب النوم ، وان السفاحين الذين بعثهم « خير الدين » دمروا المدينة لشدة غضبهم .

وبعد تلك المغامرة بفترة وجيزة ، قاد خير الدين اسطولاً الى تونس ليُخضع تلك المملكة لسيطرة السلطان .. فنجح في مهمته .. غير ان « شارل الخامس » وأميراله المشهور « دوريا » ، تمكنا من استرجاع تونس في العام التالي ، اي سنة ١٥٣٥ ؛ ومضى جيل آخر قبل ان تثبت دعائم السلطة العثمانية في تلك المنطقة .

ولم يكن في مقدور « دوريا » والامبراطور ان يلقيا القبض على خير الدين ، فما كان منه الا ان ضاعف نشاطه مرعباً جميع السواحل المسيحية ، طوال السنوات الاحدى عشرة التي عاشها بعد ذاك التاريخ.

اما المصاهرة التي عقدها « فرنسيس الاول » — ملك فرنسة — مع الاميرال خير الدين سنة ١٥٤٣ ، خلال حربه مع الامبراطور ، فانها لم تُجدِ العالم المسيحي نفعاً البتة كما كان متوقعاً ، بل وكما كان الهدف من ذلك على الاقل .. ففي طريقه للاجتماع بالفرنسيين في « مرسيليا » ، أغار خير الدين على الساحل الايطالي ، ونزل على مصب ، نهر « التيبر » مروعاً رومة .. ومن ثم اختطف ابنة محافظ مدينة « ريغيو » . وخلال

شتاء سنتي ١٥٤٣ – ١٥٤٤ ، ارتكب اسطوله – وكان يرفع علم السلطان – اعمالاً مخزية وفضائح عديدة في « طولون » ، في حين كان الفرنسيون يسدّون القرصان الاميرال خير الدين ، ويقيمون على شرفه احتفالات مهيبة لا تقام عادة الا للملوك . إن تلك المصاهرة لم تجلب لـ « فرنسيس الأول » الا الحزن والهم ؛ لذلك فقد طلب من خير الدين ان يرحل في فصل الربيع ، بعد ان حمله مبلغاً محترماً من المال .

●

وفي خلال ذلك ، كان « شارل الخامس » ، الذي كان يظن نفسه المجاهد الاكبر ضد الاسلام ، يسعى الى نقل الحرب مرة اخرى الى افريقيا ، وذلك في شهر تشرين الاول (اوكتوبر) من سنة ١٥٤١ ، حينما حاول القضاء على القراصنة في الجزائر . غير ان الطقس لم يكن مؤاتياً على الاطلاق ، فكانت الرحلة عبر شواطىء الجزائر الصخرية في فصل الخريف مهمة غاية في الصعوبة ، الى درجة انها كانت تستعصي على الاميرال « دوريا » نفسه .. وقد حاول البابا ان يثني الامبراطور عن عزمه ، ولكن من غير ما جدوى . وكانت العاصفة التي أرغمت الاسطول على التراجع خلف جزيرة كورسيكا، نذير شؤم وبداية متاعب اخرى ... وبالرغم من ان الاسطول كان على وشك احتلال الجزائر ، فان الاعاصير المصحوبة بالمطر والرعد والبرق أفشلت جميع الخطط ... وصار مسحوق البارود رطباً جداً ، وصارت الاعتدة والذخائر مخضلّة ومبتلّة بالماء .. وما كان بمقدور الاسطول المهاجم ان يحتمل اكثر من ذلك .

لقد هرب الجنود الايطاليون مـذعورين كالارانب .. وحتى الالمان هربوا نحو الشاطىء ! ولم يُنقذ الموقف الا شجاعة الامبراطور نفسه الذي انتصب وسط رجال المشاة الفارين ، وأجبرهم على الصمود .

الا ان الايام التالية لم تكن أرحم من ذاك اليوم أو أخف وطأة ! ففي الخامس والعشرين من تشرين الاول (اوكتوبر) هبّت الاعاصير المدمرة من البحر ، وحملت المراكب الى الشاطىء . مئـة وخمسون مركباً ، بالاضافة الى مئات الرجال ، فُقدوا ! وأخيراً ، عندما هدأت العاصفة ، أدرك « شارل » ان الحظ قد خانه ، وان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قـد هزمه ، فقاد جيشه المكسور حول الخليج وراء رأس « ماتيفو » ، في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) . فسار رجاله تاركين جميع ذخائرهم ومعداتهم لأعدائهم .

وحتّى الرحلة ، في طريق العودة الى اسبانيا ، قد كانت مفعمة بالمخاطر والاهوال ، خاصة وان الأعاصير قد هبت للمرة الثالثة على الاسطول مُحطمة بعض المراكب الاخرى ، قبل ان تصل المراكب الخربة الاخيرة من حيث أتت سالمة . وهكذا انتهت حملة الامبراطور على الجزائر .

●

ولكن ما دام « لفرسان القديس حنا » مقرهم الدائم في مالطة ، وما دام في مقدورهم ان يأسروا عدداً من الارقاء كافياً لتسيير مراكبهم الشراعية السبعة ، فان الخطر سوف يظل يهدد الشاطىء الافريقي والباب العالي* ... وهكذا ، ما ان شرع السلطان سليمان يندم على تساهله مع « فرسان رودس » سنة ١٥٢٢ ، حتى راح يطلب مساعدة مجموعة من البحارة أرادها ان تكون من اقوى المجموعات التي عرفها البحر الابيض المتوسط حتى ذاك اليوم .. وسرعان ما أرسل اسطولاً قوامه مئة وثمانون مركباً ، واكثر من ثلاثين ألف محارب مدرّب ، ضد مالطة في شهر نوّار (مايو) من سنة ١٥٦٥ .

* اي حكومة الدولة العثمانية .

لقد شهدت مالطة هجمات عديدة منذ ايام الفينيقيين .. الا ان حملة سنة ١٥٦٥ كانت أعنفها على الاطلاق !! وكان رئيس دير الرهبنة « جان دو لا فاليت » ، من المحاربين المحنكين في رودس ، وكان يعلم الكثير عن شجاعة العثمانيين وبراعتهم . وكان بين القادة الاتراك ، القائد القرصان « دراغوت » الذي سبق ذكره آنفاً ، والذي كان يعتبر في المرتبة الثانية من الاقدام والشجاعة بعد خير الدين . وهكذا التحم محاربو البحر الابيض المتوسط في معركة غاية في الضراوة والشراسة .

كانت افضل تحصينات مالطة ، في القرن السادس عشر ، مقامة على الشاطىء الشرقي مما كان يدعى الـ « مرسى » أو « المرفأ العظيم » . وعلى « قرن » ذاك المرفأ ، كانت تقع نقطة « القديس إلمو » التي تسيطر على مدخل المرفأ . هناك ، على ذلك الحصن الذي يعتبر بحق المفتاح الاساسي للجزيرة بأسرها ، شنّ العثمانيون هجوماً صاعقاً في الحادي والثلاثين من شهر ايار (مايو) ، حيث احتشد عدد من الرجال يزيد عن مئات يسيرة ، (والحق ان ذاك العدد كان اكبر عدد من الرجال المسلحين الذين يمكن ان يستوعبهم ذاك الحصن) ، لفترة تقدّر بأربع وعشرين يوماً ، ليصدّوا ثلاثين ألف محارب عثماني بأسلحتهم الكاملة .

لقد حارب « الفرسان » حتى آخر رجل منهم ... وحينما احتل الاتراك موقع « القديس إلمو » في الثالث والعشرين من شهر حزيران (يونيو) لم يكن هناك ايما رجل على قيد الحياة ! هذا ، ومما يذكر ان الاميرال « دراغوت » نفسه كان يلفظ انفاسه الاخيرة .

وعلى الرغم من ان العثمانيين قد احتلوا الحصن المنيع الاساسي ، فان شجاعة « جان دو لا فاليت » أبت ان تستسلم . وبعد ان احتلوا « القديس المو » ، كان بمستطاع العثمانيين ان يحتلوا ايضاً « القديس انجلو » ، و « القديس ميشال » الواقعين على شرقي المرفأ الذي يحمي المدينة .

وهكذا تقدم العثمانيون ، ومات منهم الآلاف ... غير انهم تابعوا غاراتهم ، الواحدة تلو الاخرى ، على الحصون المتبقية ، وذلك لمدة شهرين متتاليين . ولطالما حاول السباحون العثمانيون قطع السلاسل التي تحمي المرفأ حتى تدخل السفن الحربية اليه، ولكن النصارى القوا بأنفسهم في المياه لملاقاة العثمانيين ، واشتبكوا معهم في معركة دموية حولت لون المياه الى أحمر دموي ... ولم يتمكن العثمانيون من تنفيذ خطتهم هذه .

واخيراً، في أول شهر أيلول (سبتمبر) وصلت المعونات والمساعدات الاسبانية ، فاضطر العثمانيون الى الانسحاب والعودة الى مراكبهم ، ولم ينجُ منهم الا القليل القليل . وعلى تلك الصورة ، أُنقذت مالطة وبقيت مركز « فرسان القديس حنا » وحصناً في وجه المسلمين ، الى ان احتلها « نابليون » في سنة ١٧٩٨ . وبعد عامين من ذاك التاريخ ، أصبحت خاضعة للحكم الانكليزي .

ان انتصار المالطيين ، سنة ١٥٦٥ ، لم ينه الحرب بين المسيحيين والعثمانيين في المتوسط . فقد استمرت المعارك البحرية حتى آخر القرن السادس عشر بصورة دورية .

وفي شهر آب (اغسطس) سنة ١٥٧١ احتل الاتراك جزيرة قبرص واحدثوا مجزرة دموية في حاميتها العسكرية . ولم يمض على انتصارهم هذا شهران اثنان حتى كان البابا « بيوس الخامس » قد جهز اسطولاً مسيحياً في السابع من تشرين الاول (اوكتوبر) ، تحت قيادة « دون جون » النمساوي ، والتحم جيشه مع جيوش العثمانيين قرب المدخل الغربي لـ « خليج باتراس » وانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً ، يُعرف تاريخياً ، بالغلط ، باسم معركة « ليبانتو » . ولكن ، على الرغم من الانتصار الذى احرزه الجيش البابوي المسيحي على العثمانيين وسفنهم ، فان قراصنة افريقيا وساحل آسيا الصغرى ظلوا يشكلون الخطر الذي طالما شكلوه للعالم المسيحي .

وخلال القرن السابع عشر ، بقيت افريقيا الشمالية مركزاً لقراصنة أشد تهوراً من اسلافهم . وكانت الجزائر ، بصورة خاصة ، قاعدة لنشاط القراصنة الذي لم يكن ليقتصر على البحر الأبيض المتوسط ، وانما قد امتد في المحيط الاطلسي شمالاً متخطياً حدود القنال الانكليزي .

ولم تلبث الجزائر ان غصّت بسفاحي اوروبا اليائسين الذين تحوّل معظمهم الى اتراك ، اعني انهم تخلوا عن نصرانيتهم وأعلنوا اسلامهم . وكان بعض اولئك ارقاء قبلوا باعتناق الاسلام على امل ان يحسنوا وضعيتهم البائسة واليائسة في آن واحد . ومنهم من اكتسبوا الجنسية التركية في سبيل الربح ليس الا . ولكي نفهم مدى الخطر الذي كانت تمثله الجزائر ، يكفي ان نعلم ان « السير فرنسيس بيكون » اعلن لدى زواج « الأمير تشارلز » و « انفانتا الاسبانية » ، سنة ١٦٢٣ ، ان مثل ذاك الاتحاد بين كل من انكلترة واسبانيا سوف يمكّن هاتين الدولتين من التعاون على دحر القرصنة في شمالي افريقيا .

لقد علّم المرتدون الأوروبيون القراصنة وأكسبوهم خبرة جديدة في بناء السفن والابحار ، ساعدتهم في اوائل القرن السابع عشر على ان يتخلوا عن قواربهم الشراعية ذات المجاذيف ويبنوا نوعاً معيناً من السفن ذات الأشرعة والصواري . وكانت تلك الخطوة مرحلة عظيمة من التقدم الحربي . ان النوع الجديد من السفن لم يكن يتطلب عدداً كبيراً من المجذفين .. فصار باستطاعة المراكب ان تبقى في البحر لأسابيع عديدة – بل ولأشهر – دونما حاجة لعدد كبير من الرجال .

وهكذا اصبحت شواطىء انكلترة وايرلندة مهددة الآن بالخطر اكثر من اي وقت سابق ، كما ان المراكب الجزائرية قد توصلت الى حدود الدانمارك وايسلندة .

وعند انتهاء ولاية الملك « جيمس الأول » ، ابتدأ التجار الانكليز يتذمرون ويشتكون ، لدى البرلمان الانكليزي ، من ان العثمانيين يحطمون

سفنهم .. مئاتٌ من السفن الانكليزية تحطمت وسُلبت في تلك الحقبة ، ومنها ايضاً ما كان يُسلب على مرأى من اصحابها القابعين في مرافئهم . وفي سنة ١٦٣١ ، تمكن احد المرتدين الفلمنكيين العاملين في الجزائر ، من نهب عدة مدن على الشاطىء الانكليزي اولاً ، والشاطىء الايرلندي ثانياً ، كما تمكن من اسر ما يربو على المائتين من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، الذين عوملوا معاملة الرقيق في افريقيا الشمالية .

وحسبما يعتقد النقيب « جون سميث » ، فان سياسة الملك جيمس المسالمة قد ادت الى تشجيع القرصنة الى حد كبير . فقد كان « جيمس » يحاول دوماً ان يسترضي اسبانيا ، كما انه كان يمنع التجار الانكليز من نهب السفن الاسبانية . وكنتيجة لذلك ، فان القراصنة الانكليز الذين تنازلوا عن مواطنتهم وجنسيتهم ، وفقدوا احترام الناس لهم ، حاولوا ان يجربوا حظهم وان يُلقوا قرعتهم مع قراصنة كل من الجزائر وتونس ، وسالي على الساحل الأطلسي من مراكش . وإذ انهم كانوا يفضلون بحارة شمالي افريقيا ، فقد اثبت اولئك القراصنة الانكليز انهم عامل فعال اخطر من القراصنة الوطنيين الانكليز انفسهم .

اما اشهر المرتدين الانكليز في القرن السابع عشر دون منازع ، فكان النقيب « جون وارد » الذي كان اسمه مرادفاً للاثم والشر ، والذي كانت اعماله مصدراً يستقي منه الشعراء ومؤلفو الملاحم . وكان مقرّه الرئيسي في تونس .. لقد نشر « جون وارد » الرعب في البحار فيما بين عامي ١٦٠٢ و ١٦١٢ ، وعُرف عنه انه كان يجد لذة خاصة في نهب سفن دولته عينها (اي انكلترة !) . ولكم كان عدد المحاربين الجدد والمتطوعين البائسين والفدائيين المندفعين الذين انضموا تحت رايته عديداً ، ومن بينهم ، على الأخص ، « السير فرنسيس فرني » سليل احدى الاسر النبيلة .

وقد كان القرصان الالماني « سيمون دانسيكر » شريكاً لـ « جون وارد » في الاجرام والقرصنة لفترة من الزمن . ولقد خلد ذكر هذين المتشردين

الفذين كتيّب مشوّق عنوانه :

« اخبار البحار عن قرصانين شقيين ، وارد الانكليزي ودانسيكر الألماني » (سنة ١٦٠٩) .

●

نجح قراصنة افريقيا الشمالية نجاحاً هائلاً ، بحيث ان خطرهم كان يهدد كل مركب اوروبي خارج الحماية التي تؤمنها له القوة المواكبة او المرافقة . لقد كان عدد المراكب التي سلبها اولئك القراصنة كبيراً جداً الى درجة ان الدول البحرية المشهورة بقوتها العسكرية – في ذلك الحين – كانت تعاني نقصاً عظيماً في المراكب والبحارة .

وبديهي ان يتجمع الأرقاء النصارى بالآلاف في كل من سالي ، والجزائر ، وتونس ، وغيرها من المرافىء ، حيث كانوا ينتظرون فديتهم ، وكانوا يباعون ويسخرون للخدمة والأعمال الحقيرة الوضيعة .

ولقد حاول « رهبان القديس ماثورين » – وكانوا يؤلفون جمعية دينية في العصور الوسطى غايتها التخفيف من عذاب الارقاء ، وتحسين حالة العبيد المسيحيين الذين كانوا تحت سيطرة المسلمين – أقول انهم حاولوا بذل اكبر مجهود ممكن من أجل نصرة اخوانهم في الدين ، ولكنهم لم يتمكنوا الا من تخليص عدد ضئيل من المأسورين . وفي سنة ١٦٣٧ ، نشر « الاب بيار دان » ، عضو الجمعية المذكورة أعلاه ، والذي كان قد أرسل الى افريقيا الشمالية ، نشر كتاباً اسماه : « تاريخ شمالي افريقيا وقراصنته » سجل فيه ملاحظاته ومشاهداته . وحسب تقديراته ، فان الجزائر تضم لوحدها خمساً وعشرين ألف مسيحي في الاسر ، مضافاً اليهم حوالى ثمانية آلاف اوروبي مرتد عن دينه .

وفي خلال القرن السابع عشر ، كانت القسطنطينية تعيّن حكام بلدان شمالي افريقيا (ما خلا مراكش) ، وكان الجنود العثمانيون يقيمون في تلك

الديار كحاميات . ولكن هذا لا يعني ان الحكم العثماني كان سلمياً خلواً من الاضطراب ، أو أن الحكام الذين كان يعينهم العثمانيون كانوا مستقرين في مناصبهم . فالواقع ، ان الفوضى قد سادت معظم تلك الفترة ، اذ ان العثمانيين كانوا أضعف من ان يمنعوا الثورات او يخمدوا الفتن ...

وكانت الجزائر اول بلدان افريقيا الشمالية لتتحرر من الحكم العثماني . وبعد عام ١٦٧١ ، اصبح « الداي » * الذي كان ينتخب بواسطة جنود الحامية العثمانية بموافقة الباب العالي ، اصبح يحكم بمساعدة مجلس او ديوان يتألف من زملائه الضباط . ومع مرور الزمن ، اخذ نفوذ الديوان يتضاءل تدريجياً الى ان اصبح منصب « الداي » متمتعاً بالصلاحية المطلقة ، بالرغم من ان صاحب ذاك المنصب ما كان ليطمئن الى دوام ولايته كلها .. ولكم كان ذاك « الداي » الذي توفي – بسلام – وفاة طبيعية على فراشه سعيداً ومحظوظاً اذ ان الجنود المتآمرين كانوا قد اعتادوا على اغتيال حكامهم بصورة مستديمة وروتينية .

ومن ثم نالت تونس استقلالها الذاتي من تركيا – ما عدا دفع الإتاوة بعد سنة ١٦٨٤ – وذلك حينما نجح « الباي » ** نجاحاً غير قائم على اساس وطيد في جعل الحكم على اساس الوراثة في السلالة الحاكمة . ولم يكن « بايات » تونس ، مع ذلك ، آمنين في امتلاك عروشهم حتى اواخر القرن الثامن عشر . فحتى سنة ١٧١٤ ، ظلت طرابلس الغرب مقاطعة عثمانية يحكمها « باشا » يعينه السلطان . في ذلك الحين ، اقدم « احمد القرمانلي » (او « حامد ») على عصيان الحامية العسكرية ، بصورة مفاجئة ، وقضى على جميع جنودها . غير انه سرعان ما

* لقب سابق لحكام تونس والجزائر وطرابلس .

** لقب حكام تونس القدماء .

اشترى سكوت السلطان وأخمد حنقه وغيظه الشديدين بالهدايا ، وأمّن عرش طرابلس الغرب لنفسه ولخلفائه من بعده .

ولقد حافظ كل من ابناء وأحفاد «القرامانلي الأول» هـذا على مناصبهم ، وثبتوا دعائم حكمهم ، عن طريق الاغتيال المنظم ، ونفي الأقارب الطامحين الى الحكم ، وكل من كانت تدفعه نفسه الى حب القوة والسلطان .

وعلى الرغم من ان سيطرة تركيا على تلك الدول الافريقية الثلاث قد اصبحت محدودة جداً ، فان السلطان العثماني ظـل يمارس نفوذاً ملحوظاً .

والحق يقال ، ان الدين الاسلامي قد اضفى شعوراً من الوحدة التي جمعت شتات سكان شمالي افريقيا . وهذا العامل كان ، بالفعل ، من العوامل التي ساعدت السلطان العثماني ، بوصفه الزعيم الروحي للمسلمين على الأقل ، على ان يحتفظ بهيبته وبقسم من قوته الفعلية ، وذلك بعد ان تلاشت سيطرته على تلك الدول بزمنٍ طويل . وفي القرن التاسع عشر، أمنت الدول الغربية الأوروبية – في آخر الأمر – سلامـاً غير مستقر لشمالي افريقيا .

اما في سنة ١٦٦٢ ، اي بعد مضي قرن من الخسائر المتواصلة التي مُني بها قراصنة افريقيا الشمالية ، وقّعت انكلترة «معاهدتها» الأولى مع القراصنة . وكان يحكم تونس ، في ذلك الحين ، باي تونس . ومن ثم ، وقّعت انكلترا معاهدات مماثلة مع كل من الجزائر وطرابلس الغرب . وسرعان ما حذت بعض الدول الأوروبية الاخرى حذو بريطانيا في التفاهم مع القراصنة . والواقع ، ان تلك المعاهدات الاولى مهـدت الطريق نحو المساومة مع القراصنة خلال المئة والخمسين سنة التالية . ومع ان كلمات المعاهدات تبدو مبهمة في معظمها ، وبخاصة فيما يتعلق بالمبالغ النقدية ، فان الاتفاق قد جرى ، في الواقع ، على اساس يشمل دفع

الجزية والرشوة .

ومن جملة ما كان يحدث احيانــاً ، ان تجبر قوة عسكرية الحاكم المحلي على وضع اتفاق يكون لصالحها . وقد كانت المعاهدات الخاصة باطلاق سراح الأسرى ، تحت شروط معينة ، وبعد فترات محددة ومتفق عليها ، كانت تلك المعاهدات تضمن سلامة المواطنين في كل من البلدين الموقعين على المعاهدات . وزيادة في الأمن والاطمئنان ، كان قد سُمح للدول الاوروبية بأن توفد قناصلهــا الى كلٍ من المرافىء الرئيسية في افريقيا الشمالية .

ولعله من الطريف ان نعلم ان المراكب كانت تحمل « جوازات مرور » كيما تكون في مأمن من الهجــوم ، في الفترة التي يكون فيها مفعول المعاهدة سارياً . غير انه لم تكن اية معاهدة دائمة المفعول ، او مرضية تماماً ، حتى إبّان تنفيذها . وغالباً ما كانت تُلغى المعاهدات لدى نزوة يبديها الحاكم المحلي ، معبراً عن عدم رضاه بإرسال جنوده لتحطيم سارية علم الدولة المناوئة . وهذا ما كان يقود ، بطبيعة الحال ، الى مباحثات جديدة تكون الاتاوات فيها اكبر والرشوات أفحش ، في حين يُبحر القراصنة على مراكب سيئة الحظ محفوفة بالمخاطر .

بدأت الهيبة الاوروبية تتلاشى خــلال اواخر القرنين السابع عشر والثامن عشر .. ففي سنة ١٦٦٢ ، تنازلت البرتغــال عن « طنجة » لانكلترة كجزء من المهر (او البائنــة) بمناسبــة زواج « كاترين » و « تشارلز الثاني » .. غير ان انكلترا سرعان ما اكتشفت ان تكاليف حماية « طنجة » ضد المسلمين المغاربة كانت كبيرة جداً . واذ ذاك ، تخلت عنها في سنة ١٦٨٤ ، لامبراطور مراكش .

وتركت البرتغال آخر اثر من آثارها في مراكش فيما بين سنة ١٧٦٩ وسنة ١٧٩١ . وكذلك تخلت اسبانيا عن « وهران » ، آخر الحصون المتبقية والصامدة في وجه الجزائر .

وأما خلال القرن الثامن عشر ، فقد كان القراصنة مُطلَقي الحرية في ان يتناوشوا فيما بينهم ، وحينما تدفعهم حماستهـــم ، وأحياناً كانوا يجمعون صفوفهم للانقضاض على الاسطول التجاري العائد للعالم المسيحي. ومع ذلك ، فقد كان من النادر اللجوء الى طريقة الحملات التأديبية ، اذ انها كانت قلما تنجح او تأتي بنتيجة .

وكانت بعض الدول الاوروبية القوية – ولأجيال طويلة – ترضخ امام كل من الجزائر ، وتونس ، وطرابلس ، لتضمن مساعـــدة قراصنـــة تلك الدول ضد عـــدد من اعدائها الاوروبيين ، علماً بأنها كانت تعاني من الاهانات التي يُلحقها بها اولئك القراصنة . ولقد ابدى القراصنة اندفاعاً وشجاعة كاملين – ولو كان ذلك مما يبعث على الازدراء والاحتقار – ، فساعدوا بعض الدول المسيحية في حروبها مع بعضها الاخر في مرات عديدة .

ويروى ان الملك « لويس الرابع عشر » قد صرح في ذات مرة انه لو لم يكن هناك دولة الجزائر ، لكان أبدع وأوجد واحدة .

هذا ، وقد أكد « اللورد شيفيلد » ، في سنة ١٧٨٣ ، في كتيّب صغير هاجم فيه اقتراحات « ويليام بيت » الذي كان يسعى لايجاد تجارة حرة بين الولايات المتحدة الاميركية وبين انكلترا ، أكد على أهمية دول افريقيا الشمالية بالنسبة لميزان القوى البحرية ، اذ انها تحافظ على مستوى التنافس في البحار . كما اتهم فرنسا بأنها تعمل على خلق جو من السلام المسلح – أي بواسطة السلاح – في البحر الابيض المتوسط ... وقـــد وصف « شيفيلد » ذاك السلام المسلح بأن خطره بالنسبة للقوى البحرية عظيم جداً ، مثلما يعتبر وجود دول شمالي افريقيا عظيماً جداً ايضاً !! واعترف « شيفيلد » أنه يستحيل على الولايات المتحدة ان تتحدى دول شمالي افريقيا ... وهكذا يتضح لنا ان الدول الكبرى التي كانت تطمح الى احتكار الملاحـــة ، ارتأت اخيراً انه من الافضل بالنسبة لها ان

تستفيد من قراصنة شمالي افريقيا وتستميلهم الى جانبها .

والذي يجب ألا ننساه هو ان انكلترا قد وفقت في ان تخدع دول شمالي افريقيا ، وان تأمن شر قراصنتها في اواخر القرن الثامن عشر . ولكن ، بالرغم من انها لم تكن تنوي القضاء على اولئك القراصنة ، إلا انها كانت تهددهم وتخيفهم من وقت الى آخر ، حينما كانت ترسل اسطولها ليطوف في بحارهم ، من غير ان يحتاج اميرال الاسطول الى القيام بعمل معين يثبت قوة اسطوله ... وقد جاءت محاولة انكلترا الجدية والقوية لافناء قراصنة البحر الابيض المتوسط ، متأخرة بعض الشيء ، أعني في اوائل القرن التاسع عشر ، وذلك في الوقت الذي ضرب الاسطول الاميركي الصغير مثلاً يُحتذى لسائر دول العالم .

٢

قنصل يقظ في تونس

ما ان جفَّ حبرُ وثيقة اعلان استقلال الولايات المتحدة الاميركية ، حتى وجدت تلك الدولة الفتية ان تجارتها مهددة بخطر القراصنة القابعين في منطقة عريقة في الحضارة – ألا وهي حوض البحر الأبيض المتوسط. فمن الشاطىء الافريقي الشمالي انطلقت المراكب المراكشية ، والجزائرية ، والتونسية ، والطرابلسية ، السريعة ، وانقضّت كالصواعق على مراكب تحمل علماً جديداً لم تره عينٌ من قبل، في تلك المنطقة من العالم، وأجبرت تلك المراكبُ المراكبَ الاميركية ان تلتجىء الى المرافىء الايطالية .

ففي المحيط الاطلسي ، كان ينبغي على البحارة الاميركين ان يتقبلوا تحدي البحارة الانكليز ... وفي البحر الابيض المتوسط، خاطر الاميركيون بحياتهم وحريتهم عندما كانوا يدنون من مراكز القراصنة في شمالي افريقيا . وهكذا، وأمام هذين العاملين المخيفين ، توقفت التجارة* مع اوروبا الجنوبية ، اذ ان المراكب التي كانت تصل الى « جنوى » ، و « نابولي » ، و « بالرمو » بسلام ، كانت تصلها مرهقة متعبة !

ومـا دامت المستعمرات جزءاً من الامبراطورية الانكليزية ، فان المراكب الاميركية التي كـانت تطوّف في البحر المتوسط ، لأغراض تجارية، كانت تتمتع بالحماية وتنعم بالاطمئنان، اذ ان الحكومة الانكليزية

* واغلب الظن ان المؤلفين يقصدان التجارة الاميركية . (المعرب)

كانت قد اشترت قراصنة شمالي افريقيا واستمالتهم بدفع الاتاوة الى الحكام. وما ان أعلنت المستعمرات استقلالها، حتى فقدت المراكب الاميركية تلك الحماية ، وحتى راحت انكلترا تستفيد من القراصنة ليساعدوها على خنق اقتصاديات المستعمرات الثائرة .

وفي الاربعين سنة التي تلت اعلان الاستقلال الاميركي ، انخرطت الولايات المتحدة الاميركية في سلسلة مُضنية وطويلة من المفاوضات مع حكـام القراصنة البارزين في شمالي افريقيا ، الى ان ادرك الاميركيون، أخيراً ، ان القوة يجب ، ولا يمكن إلا ان تجابـه بالقوة . وفي آخر الأمر ضربت الولايات المتحدة مثلاً لسائر الدول البحرية حينما ضمنت للعالم هدوء القراصنة ورضوخهم التامّين معاً .

وكان من أعنف مناهضي سياسة دفـع الأموال للقراصنة في سبيل استمالتهم والتخلص من شرورهم ، « ويليام إيتون » ، وهو جندي من ولاية « نيو إنغلند » ، كان قد أوفده الرئيس « جون أدامس » — في سنة ١٧٩٩ — ليكون أول قنصل اميركي في تونس . وسرعان ما أدرك « إيتون » ان البارود هو أنجع دواء وأفضل سلاح يمكن ان يستعمل في مواجهة القراصنة بدلاً من الرشوة . ومن هنا ، راح يعمل على اقناع المسؤولين الاميركيين ، باندفاع واخلاص وايمان بقضيته ، بأن الفرغاطات الاميركية اذا ما طوّفت في حوض شمالي أفريقيا سوف تكون أقل كلفة من الجزية والرشوة ، واعظم تأثيراً ، وأشد فعلاً ، بالاضافة الى كونها لا تمسّ كرامـة دولة مستقلة مثلما يكون الحال لدى دفع الجزيات والرشوات ...

والواقع ، ان تعيين « ايتون » في منصب قنصل اميركي في تونس كان جزءاً من سياسة جديدة رسمتها حكومة الولايات المتحدة ، من أجل تحسين العلاقات بينها وبين دول شمالي افريقيا ، ومن أجل ضمان الحماية الكافية للتجارة الاميركية الآخذة في النمو والاطراد، والتقدم والازدهار ،

في المتوسط . أما في السابق فقد كان يمثل الجانب الاميركي في المباحثات الدبلوماسية التي كانت تدور بين أميركـا والقراصنة ممثلون مختلفـون ومتفاوتون ، فمنهم من كان خير ممثل لبلاده أمثال : « جون أدامس » ، و « بنيامين فرانكلين » ، و « توماس جفرسون » ؛ ومنهم من كان مجرد صورة في المباحثات ، لا سيما وان البعض منهم لم يكن يهمهم أمر تصفية الخلافات بين الولايات المتحدة ودول افريقيا الشمالية البتة .

وكان « إيتون » أحد ثلاثة اميركيين عُينوا في شهر تموز (يوليو) من سنة ١٧٩٧ ، ليكونوا قناصـل اميركيين دائمين في دول افريقيا الشمالية . وأما القنصلان الآخران ، فقد سبق لهما ان عملا عـلى السفن الاميركية التي كانت تجوب البحر الأبيض المتوسط ، وهما :

– « جيمس لايندر كاثكارت » المعيّن في طرابلس .

– « ريتشارد اوبراين » ، الذي كان قد عُين قنصلاً في الجزائر ، وقنصلاً عاماً للساحل الافريقي الشمالي برمّته .

●

وفي الخامس والعشرين من شهر تموز (يوليو) ١٧٨٥ ، كـان « كاثكارت » في عداد البحارة الذين أسرهم الجزائريون من على السفينة « ماريا » ؛ وهناك في الجزائر ، أمضى « كاثكارت » أحـد عشر عاماً من عمره ، باعتباره واحداً من الرقيق .. وأخيراً توصل الى منصب سكرتير لدى الداي .

أما « اوبراين » ، فقد كان قبطان السفينة « دوفين » التي وقعت فريسة في أيدي الجزائريين ، في اليوم الثلاثين من شهر تموز (يوليو) سنة ١٧٨٥ . وبالرغم من انه لم ينتقل الى طبقة الرقيق ، بالمعنى التكنيكي للكلمة ، فانه قد قضى المدة نفسها في الجزائر . وهكذا كان الرجـلان على اطلاع واسع على نوع المباحثات والمفاوضات التي كان من عـادة

الاوروبيين ان يجربوها في معاملاتهم مع القراصنة ... أما « إيتون » ، فكانت تنقصه تلك التجربة السابقة مع القراصنة . وهنا كان يكمن سرّ تفوقه : لقد نادى بآراء جديدة ، وكان يتمتع بالقوة والشجاعة الكافيتين لأن تجعلا نفوذه ملموساً لمس اليد . أضف الى ذلك كله ، انه كان الصديق الوفي المخلص لـ « تيموثي بيكرينغ » ، وكان ناظر الخارجية الاميركية الذي كان يعتمد عليه بشكل خاص من أجل تزويده بالمعلومات الأكيدة والمفصّلة .

غير ان « ايتون » كانت تعوزه الخبرة البحرية . وقد سبق له ان خدم في الجيش . وفي سنة ١٧٨٠ ، حين كان في السادسة عشرة من عمره ، هرب « ايتون » الشاب من منزل والده في « مانسفيلد » ، من اعمال « كونكتيكت » ، لينضم الى الميليشياه . وتوصّل في نهاية حرب التحرير الى رتبة رقيب . وقد كان من شأن خبرته تلك ، علاوة على قراءاته لكتاب « بلوتارك » ان وجّهت أفكاره نحو العمل العسكري. وفي سنة ١٧٩٢، أي بعد مضي عامين على تخرجه من جامعة «دارتماوث» حظي « ايتون » بدعم سياسي من السيناتور (أي عضو مجلس الشيوخ) « ستيفان ر. برادلي » ، من « فرماونت »، وعُيّن في منصب نقيب للفوج الرابع من المشاة .

وقد انخرط « ايتون » ، مدة من الزمن ، في التجنيد وعمل فيه في ولاية « نيو انغلند » الاميركية . ولكن ذلك لم يمنعه من اختيار شريكة حياته ، وكانت أرملة ميسورة تدعى « إليزا دانيلسون » . وقد اشترك « إيتون » في الحملة التي قادها الجنرال « انطوني واين » على الهنود الحمر في منطقة « اوهايو » .

---

* الميليشيا ، جزء من القوات المسلحة النظامية يدعى الى الخدمة عند الطوارىء فحسب . وتستعمل كلمة الميليشيا أحياناً بمعنى جميع المواطنين الذكور الاصحاء الصالحين للخدمة العسكرية . (المعرب)

كان « ايتون » رجلاً متقلباً ، زئبقي المزاج ، لا يعرف اللباقة . ففي سنة ١٧٩٦ ، وبينما هو في وظيفته في الحامية العسكرية على جبهة « جورجيا » ، اذا بقائده المقدّم « هنري غايثر » يتهمه بالربح غير الشرعي من وراء مبيع البضائع والأعتدة والذخائر ، ويُحيله الى المحكمة العسكرية . وقد أكد « ايتون » ان « هنري غايثر » قد اتهمه اتهامات باطلة . والواقع ان « غايثر » كان يُخفي ضيماً في قلبه .. وسبب ذلك ان « ايتون » كان قد تلقى بعض الأوامر الخاصة من « تيموثي بيكرينغ » — وكان وزير الحربية آنذاك — تُلزمه بكتابة تقارير صريحة عن أحوال ولاية « جورجيا »،وخاصة فيما يختص بعلاقة أهالي«جورجيا» مع الهنود الحمر المقيمين في تلك البقاع . وقد اقترح الوزير «بيكرينغ» ان يُعامل الهنود معاملة متسامحة ، وذلك بدلاً من استخدام المواطنين البيض المجاورين واستفزازهم ضدهم . وكانت تقارير « إيتون » مطابقة ومؤيدة لآراء الوزير . ومن طبيعة الحال ، ان يرغب « غايثر »—الذي كان على أتم الودّ مع التجار البيض — في التخلص من ذلك المصدر المزعج للمعلومات .

وبالرغم من ان المحكمة العسكرية لم تعثر على أي دليل يكفي لاثبات التهمة على « ايتون » — ما عدا تهمة بسيطة لا تذكر — فان «غايثر» أمَرَ « ويليام ايتون » بالحضور الى مركز الحكومة .

أما « بيكرينغ » — وكان يشغل حينئذ منصب وزير الخارجية — ، فلم يثق بالاتهامات التي ألصقت بـ « إيتون » ، بل لقد أبدى كل رحابة صدره إزاءه . وهكذا ، لم ينتقل « ايتون » من وظيفته في جيش الولايات المتحدة الاميركية ، غير انه،بالاضافة الى تلك الوظيفة، أمضى سنة ١٧٩٧ في وظائف خاصة وأعمال متعددة . وقد عهد اليه « بيكرينغ » مهمة التحقيق في قضية الدكتور « نيكولاس روماين » ، أحد اطباء نيويورك الذائعي الصيت ، الذي كان متهماً بالاشتراك في

مؤامرة « ويليام بلونت» لتحريض التخوميين* على غزو منطة «لويزيانا» الاسبانية بمساعدة الانكليز . على ان « ايتون » لم يبرز في ذاك التحقيق، اذ أنه أسهب في كلامه حول دور الوزير البريطاني في المؤامرة . ومهما يكن من أمر دوره في ذلك التحقيق ، فان « ايتون » لم يفقد ثقة « بيكرينغ » ، فتسلّم في آخر تلك السنة وظيفة قنصل في تونس .

كان « بيكرينغ » ينظر الى « إيتون » نظرته الى ملاحظ مدقّق ، وصاحب عين ثاقبة مخلصة ، ولذا فقد أفضى اليه بتعليمات تفصيلية حول التقارير التي كان عليه أن يكتبها حول الوضع السائد في تونس من نحوٍ وحول نجاح التجارة مع بلدان شمالي افريقيا من نحوٍ آخر .

●

كان ملاحو « نيو إنغلند » الشجعان ، الذين سبق لهم ان اكتشفوا مدى الربح الذي يعود على من يتاجر مع الهند والصين ، كانوا — في أواخر القرن الثامن عشر — متشوقين لأخذ المبادرة في الاتجار مع بلدان البحر الأبيض المتوسط . والواقع ان الحروب والاشتباكات المتواترة التي كانت تدور في أوروبا (باستثناء الجزر البريطانية) سمحت للولايات المتحدة المحايدة آنذاك، بأن تلعب دور نقل البضائع أو الشحن . أضف الى ذلك ، ان البضائع الاميركية ، وبخاصة الحبوب ، والمعدّات البحرية والقُدّ** المجفف ، والرّمّ*** ، كانت مطلوبة ورائجة في مرافىء المتوسط الأوروبية . ولقد باشر التجار الاميركيون ببيع تلك البضائع قبل الثورة الاميركية ؛ غير ان الملاحة الاميركية كانت قد اضطرت الى

---

* جمع تخومي ، بمعنى ساكن التخوم او الحدود .

** القد : سمك يؤكل من اسماك شمالي الاطلسي .

*** شراب مسكر .

الابتعاد عن البحر الابيض المتوسط بسبب العقبات التي وضعتها بريطانيا قصد عرقلة المصالح الاميركية خلال الحرب . أما بعد الحرب ، فقد تحسنت التجارة الاميركية هنالك تحسناً بطيئاً .

وفي سنة ١٧٩٧ ، وعلى الرغم من مشاغبات قراصنة شمالي افريقيا، كانت التجارة الاميركية عبر مضيق جبل طارق تخطو خطوات سريعة نحو الازدهار . وإنه لمن نافلة القول ان أكثر ما كانت تحتاج اليه التجارة الاميركية في المتوسط هو انعقاد هدنة مع قراصنة شمالي افريقيا .

لقد عُرف عن « بيكرينغ » – والجدير بالذكر أنه كان من أقوى دعامات الحزب الفيدرالي السابق–اندفاعه الشديد لتوسيع التجارة الاميركية، ذلك الهدف الذي نذر حياته لأجله ! كان « بيكرينغ » وصديقه «فيشر آيمز » يعتقدان أن أساس المناقبية الأميركية يكمن في الاميركيين : « الحكماء ، والطيّبين ، والأغنياء » الذين أسّسوا الارستقراطية التجارية في ولاية « نيو انغلند » . إذاً ، كان « بيكرينغ » مصمماً على أن يضاعف من قوة البحارة الاميركيين وان يعزز أمجادهم .

وجدت آمال « بيكرينغ » تجسيداً حيّاً لها في شخص « ويليام ايتون » . فالحقيقة ان « ايتون » كان بمثابة النفس الثانية بالنسبة لـ « بيكرينغ » ، كما كان أيضاً صدى لأمانيه ورغباته ، بل ومرآة لتصرفاته الفريدة من نوعها !! كان كل من الرجلين شريفاً ، صادقاً ، تُعوِزه اللباقة ، صريحاً ، موالياً متعصباً ، ويبني نتائج آرائه على حكم سبقيّ – وجميعها من الصفات التي لا تخوّل الانسان ولا تساعده على ان يكون دبلوماسياً ناجحاً !!... ومع ذلك كله فان استقامة « ايتون » كانت خير عون له – كما كانت من الأمور غير المألوفة – في شمالي افريقيا ، اذ انها قد مهدت الطريق الى نوع جديد من التفاهم كان النجاح حليفه في آخر الأمر ، في حين فشلت جميع انواع المفاوضات المراوغة والمخادعة .

لقد كانت وظيفة قنصل في تونس ، تعني بالنسبة « لإيتون » معنى أعمق بكثير من معناها المادي أو السطحي المجرد . كان يؤمن في قرارة نفسه بأن واجبه في تونس هو ان يفسح المجال لتوسيع التجارة الاميركية ونشرها في ذلك الجزء من العالم !... وهكذا ، فسرعان مـــا اتضح لـ « بيكرينغ » مدى براعة «ايتون» في مواجهة المشكلات والصعوبات، من خلال التقارير التي كان يبعثها له .

كان وضع القناصل الثلاثة الذين عُيّنوا عام ١٧٩٧ ، وضعاً حرجاً وعلى جانب عظيم من الصعوبة في شمالي افريقيا . كان قراصنة الجزائر، وتونس ، وطرابلس ، الجشعين يترقبون ، بفارغ الصبر ، قدوم المراكب الاميركية كي ينهبوها ، علماً بأنهم لم يرضوا بعقد معاهدات رضائيـــة مع تلك الدولة الفتية الواقعة خلف المحيط الاطلسي . وكانت مراكش أيضاً مصدراً للمشاكل ، مـن حين الى آخر ؛ غير ان قضية مراكش كانت منفصلة نوعاً ما ، وكان من السهل حلها .

أما دول شمالي افريقيا الثلاث الآخريات ، فكان يخدم علمها جماعة من البحارين الذين كان يجب استخدامهم والاستفادة منهم . إن السلام العام كان يعني حتماً مصيبة عظيمة في الداخل . ولقد اعترف حكـــام الجزائر ، وتونس ، وطرابلس ، بصراحة ، انهم لن يجرؤوا على ان يواجهوا ذلك اليوم الذي لن تكون فيه أية سفن معاديـــة ، ومراكب للسلب والنهب ، اذ ان قراصنتهم أنفسهم سوف يصبحون عاطلين عن العمل ، الأمر الذي قد يحملهم على قطع رقبة المسؤول عن تلك الحالة الشاذة . وفي أواخر القرن الثامن عشر ، كانت السفن الاميركية أشبه بالاستجابة الحلوة لصلوات الحكام من أجل مرتع خصيبٍ ومجال واسع للربح .

فما ان فقدت الولايات المتحدة الحماية التي كانت تؤمنها لها بريطانيا في البحر الابيض المتوسط ، كما سبق ان بيّنا ، حتى راحت تسعى لحث

فرنسا – وكانت حليفتها في ذلك الحين – على ان تؤمن لهـا حمايةً مماثلة ضد هجمات القراصنة . لكن فرنسا رفضت تحمـل تلك المسؤولية بتهذيب وأدب .

وفي سنة ١٧٨٢ ، وحسب نصوص المعاهدة التي عقدهـا الرئيس الاميركي « جون ادامس » مع البلاد المنخفضة (النذرلاند) ، وافق الهولنديون على مساعدة الولايات المتحدة الاميركية في عقد معاهدات مع دول افريقيا الشمالية .. ولكن ذلك لم يضمن اية حماية معينة ! وكذلك حـاولت الولايات المتحدة ، من غـير جدوى ، أن تقنع انكلترا باستئناف تأمين الحماية لها من جديد ، في معاهـدة الصلح التي أنهت الثورة .

وأخيراً ، وفي عام ١٧٨٤ ، وبعـد ان أدرك « الكونغرس » ان على الولايات المتحدة الاميركية ان تعقد معاهداتها بنفسها مع دول شمالي افريقيا ، عيّن «الكونغرس » كلاً من « أدامس » ، و « فرانكلين » و « جفرسون » لدراسة المشكلة ووضع تقرير حولها يُرفع حال انتهائه الى « الكونغرس » . وكان « دايفيد هامفريز » سكرتيراً للّجنة. وبعد مرور سنة ، منح « الكونغرس » اللجنة المذكورة سلطات جديدة تتيح لها البدء في مفاوضات مع السلطات الافريقية الشمالية .

عُقدت اتفاقية الصداقة والتجارة الأولى مع مراكش. ومن المستغرب، ولعل مرد ذلك كرهه للانكليز ، ان امبراطـور مراكش ، « سيدي محمد » كان من أول الحكام الذين اعترفوا باستقلال الولايات المتحدة . الا ان الصداقة المغربية سرعان ما فترت فيما بعد ؛ ففي سنة ١٧٨٥ ، احتجزت السفينة « بتسي » لفترة مـا في طنجة . وفي سنة ١٧٨٦ ، أوفد اعضاء اللجنة المذكورة – الذين لم يدنوا من شمالي افريقيا اكثر من لندن وباريس – ، أوفدوا « توماس باركلي » الى مراكش ، للتفاوض مع الامبراطور ولجمع المعلومات . وقد أنذروه بوجوب الحذر من المكائد

الاوروبية التي تهدف الى اضعاف الجهود الاميركية ... نجح « باركلي » في عقد معاهدة مشرفة ، أوجبت على أميركا دفــع مبلغ خمسة آلاف جنيه استرليني .. اما « جون ادامس » ، فراح ينلب ويُعوِل لدى سماعه هذا الرقم . ولسوء حظ الولايات المتحدة، كانت المعاهدات الناجحة مع شمالي افريقيا مُذِلة ، ومُخزية ، ومرتفعة الاسعار .

تفاءل أعضاء اللجنة الاميركية خيراً،وظنوا ان معاهدتهم مع مراكش سوف تزيل خطر القراصنة من المحيط الاطلسي ، الا انها لم تُجد نفعاً في تحسين الموقف في البحر الابيض المتوسط .

وانطلاقاً من كـــون الجزائر اقوى دول البحر المتوسط بالنظر الى قراصنتها ، فقد كان أمر عقد معاهدة مع الجزائر الخطوة الاولى نحــو السلام في ذلك البحر . غير ان اعضاء اللجنة الاميركية لم يُوفقوا هـذه المرة الى غايتهم (في الجزائر) . فمن سوء حظ الولايات المتحدة،هذه المرة أيضاً ، كان ثمة هدنة بين اسبانيا والجزائر سمحت للقراصنة بالمرور عبر مضيق جبل طارق ، سنة ١٧٨٥ . وفي شهر تموز (يوليو) من ذلك العام ، وقعت سفينتان اميركيتان في الأسر ، وهما « ماريـــا » و « دوفين » ، كما أُسر واحد وعشرون رجلاً ، كـــان من بينهم « كاثكارت » و « اوبراين » السالفي الذكر . وكانت الفدية الباهظة المعيّنة لاولئك الاسرى سبباً لاضطراب المفاوضات وتأجيل يــوم توقيع المعاهدة .

شجب رئيس الولايات المتحدة الاميركية « جفرسون » — بشدة — فكرة دفع الجزية الى الجزائر أو غيرها . لقد كان مُحقاً في أنــه لن يكون هناك نهاية لمهزلة دفع الاموال ، اذا ما ابدت الحكومة الاميركية رغبة في الدفع . ومن هنا ، راح يطالب ، باندفاع عظيم ، بوجـوب تشكيل منظمة مـن الدول البحرية كيما تقف حائلاً دائماً وسداً منيعاً في وجه القراصنة ، وكيما تعيد الحق الى نصابه في البحر الابيض المتوسط.

وقد عرض « لافايت » — صديق « جفرسون » — فكرة تجهيز حملة على القراصنة تكون بقيادته هو نفسه ، اي « لافايت » . أما « الكونغرس» فقد حجب موافقته على مشروع انشاء المنظمة ، وكان من أسباب ذلك التكاليف الباهظة التي يجب ان تُخَصَّص لتأمين الفرغاطات . ولكن « جون ادامس » الذي كان يعتقد انه من الارخص والاسلم شراء السلام في المتوسط ، فقد أشار بوجوب دفع الجزية . والواقع ان الاشتراك في منظمة تفرض السلام في المنطقة ، ما كان ليحمّل الخزينة الأميركية عبئاً ثقيلاً باهظاً مثل ذلك الذي تتحمله وتنفقه سُدىً في سبيل شراء الاطمئنان وإبعاد الخطر .

والجدير بالذكر ، ان « جفرسون » أوضح ذات مرة ان قراصنة افريقيا الشمالية ليسوا بالاقوياء ، غير أنهم سادوا واستقووا بسبب ضعف اعدائهم ، وحروب اعدائهم ، وجشع اولئك الأعداء .

دامت المفاوضات مع الجزائر حوالى أحد عشر عاماً . وقد جَرَّب العديدُ من المبعوثين الأميركيين حظهم في العمل الدبلوماسي ، ومنهم من كان يُعين نفسه لتلك المهمة ، والبعض الآخر كان يشغل ذاك المنصب بصفة رسمية . وكان « جون لامب » أوّل رجل أرسلته اللجنة الاميركية الى الجزائر . وسرعان ما اكتشف « لامب » عدم استعداد « الداي » للمناقشة إلا بشرط ان تفتدي الولايات المتحدة الاميركية الاسرى الاميركيين بمبلغ باهظ من المال .. وعندها غادر الجزائر ساخطاً حانقاً . ولعلّ من اسباب فشله تصرّفه غير اللائق ، بالاضافة الى أنه كان لا يحقّ له أن يعرض أكثر من مئتي دولار كفدية للاسير الواحد ، في حين ان الداي كان يطلب مبلغ ٥٩,٤٩٦ دولاراً كفدية للواحد والعشرين اسيراً . غير انه من المعتقد أنه قد توصّل الى نوعٍ من الاتفاق حول ذاك المبلغ المطلوب . وعلى كلّ حال ، فقد وعد الأسرى بأنه سوف يعود ومعه المال في خلال أربعة أشهر ، الأمر الذي عرقل سير المفاوضات اللاحقة.

وفي غضون ذلك ، كان « جفرسون » عــلى اتصال ببعض الاديرة المسيحية ، على امل الاستفادة من نفوذها في إطلاق سراح الاسرى . هذا ، وقد بحث كل من « جفرسون » و « أدامس » مشروع عقــد معاهدة مع طرابلس ، مع مبعوث طرابلسي في لندن ، ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق .

وبعد أن تبنت الولايات المتحدة الأميركية الدستور ، وعقب تأسيس حكومة وطنية قوية ، لاح في الأفق بريقٌ من الأمل يبشر بإمكانية تحسن الأوضاع في البحر الابيض المتوسط . لقد اعتُبِر الاحتجاز الطويل للأسرى في شمالي افريقيا فضيحة وطنية ، إلى درجة أنّ أصدقاء الأسرى وأقاربهم أمطروا الحكومة بوابلٍ من أسئلتهم ومطالبهم حول يوم نجاة الاسرى .

وفي سنة ١٧٩١ ، استلم زمام الحكم داي جديد ، هو « حسّان باشا » .. وفي ذلك الحين ، كتب « ريتشارد اوبراين » الى حكومته مشيراً عليهــا بوجوب بذل مجهود جديد في سبيل عقد معاهدة وافتداء الأسرى . وبالتالي ونزولاً عند رغبة الرئيس « واشنطن » ، خصص « الكونغرس » مبالغ من المال لتحقيق المفاوضات وإنجازها . ومن ثمّ عيّن « جون بول جونز » مبعوثاً خاصاً . ولكن شاءت الظروف ان يتوفى « جونز » في باريس ، فانتقل منصبه الى « توماس باركلي » الذي أحرز نجاحاً ملحوظاً في مراكش. ولكن هذا الأخير توفي ايضاً قبل سفره من أوروبا .

وأخيراً، وفي أواخر سنة ١٧٩٣ على وجه التحديد، عُهِدَ الى « دايفيد هامفريز » ، وزير الولايات المتحدة المفوّض الى البرتغال ، بالسفر الى الجزائر ... وفي جبل طارق ، حيث كان يرزم الهدايا التي سوف يهديها إلى الداي ، علم ان بريطانيا العظمى قد نظمت هدنة بين البرتغال والجزائر ، كان من شأنها ان تسمح للقراصنة بالانتقال الى المحيط الاطلسي . أما القنصل البريطاني في الجزائر ، فكان يلفت نظر الداي الى ان المراكب الاميركية في المحيط الاطلسي لتشكل غنائم قيّمة . ومهما يكن من أمر ،

فلقد زادت المباحثات الاميركية تعقيداً بسبب احتجاز احد عشر مركباً ، ومئة وتسعة عشر سجيناً في شهري تشرين الاول (اوكتوبر) ، وتشرين الثاني (نوفبر) . ليس هــذا فحسب ، بل لقد تناهى إلى اسمــاع « هامفريز » ، بواسطة القنصل السويدي في الجزائر ، « ماثياس سكجولدبراند» أن « حسّان باشا » كان مصمماً على ألاّ يستقبل أيّ مبعوث أميركي .

ومما لا شك فيه ، ان غنائم دول افريقيا الشمالية من التجارة الأميركية كانت عظيمة جداً ، الى درجة ان تلك الدول ما كانت لترى داعيــاً إلى عقد معاهدة ... لذا ، فقد فَقَدَ « هامفريز » كلّ أملٍ بالنجاح ونذر نفسه الى رسالة انسانية ، ألا وهي مواساة الأسرى ، والترخيص بمبلغ متواضع من المال للتخفيف عن كربهم .

ولقد أثار السلب والنهب الأخيرين موجــةً من التذّمر الغاضب في مرافىء الولايات المتحدة . كانت مطالب التجار – وخاصة ما كان يتعلق بالحماية منها – ملحاحةً الى درجة ان « الكونغرس » قرّر في شهر آذار (مارس) ، من سنة ١٧٩٤ ، تأسيس أسطول بحري ، وذلك بعد ان وافق على مشروع بهذا الصدد ، في العاشر من آذار (مارس) بأغلبية أحد عشر صوتاً ، عقب مناقشة حادة . ونص المشروع على أربع سفن حربية ذات أربعة وأربعين مدفعاً، واثنين من ذوات الستة وثلاثين مدفعاً، وأشار الى وجوب التخلّي عن الفكرة من اساسها اذا ما حــل السلام مع الجزائر .

ومن الطريف ، ان ممثلي الولايات التي يهمها امر التجارة الخارجية قد صوتوا لصالح المشروع ، في حــين ان سائر الولايات والمناطق لم تكترث للفضيحة الوطنية .. فعلى سبيل المثال ، عارضت «كارولينا» المشروع بعنف ، ورفضت تأسيس أسطول لمحاربــة القراصنة البعيدين عن شواطئها .

وفي تلك الاثناء ، اتصل الداي بـ « هامفريز »، وأعلمه ان الجزائر

سوف تتفق مع الولايات المتحدة على نشر السلام ، شريطة ان تكون فدية الأسرى مبلغ ٢,٢٤٧,٠٠٠* دولار ، بالاضافة الى فرغاطتين مطليتين بالنحاس تقدّر قيمتهما بحوالى ٢٤٨,٠٠٠ دولار . توجه «هامفريز» الى بلاده لينقل الخبر الى حكومته . وفي طريق عودته الى اوروبا ، اختار « جوزف دونالدسون » لاستئناف المباحثات مع الجزائر والمساومة مع الداي . وفي باريس ، أقنع « هامفريز » شخصاً يدعى « جول بارلو » — وكان مواطن شرف لفرنسا — بالذهاب الى افريقيا للعمل كمفوّض خاص في دول شمالي افريقيا .

أما « دونالدسون » ، الضيّق الخلق ، السريع الاهتياج ، والكثير التذمر ، فقد وصل الجزائر في الثالث من شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٩٥ ، وبدأ يساوم ويقايض حول الشروط .

وبعد ان تصبب عرقاً خلال المناقشات ، وافق أخيراً على ان يدفع للداي مبلغ ٦٤٢,٥٠٠ دولار نقداً ، وجزية سنوية قوامها بضاعة بحرية بقيمة ٢١,٦٠٠ دولار . وبعد موافقة « هامفريز » ، صادق «الكونغرس» على تلك الاتفاقية في اليوم الثاني من شهر آذار (مارس) سنة ١٧٩٦ . ولقد عبّر الداي عن رضاه وسروره بعد تلك الاتفاقية بأن أهدى « هامفريز » سيفاً وحزاماً . وفي مقابل تلك الهدية الجميلة ، أنفقت الولايات المتحدة حوالى ٣٠٠ دولار ثمن هديتها ، وكانت عبارة عن طقم مذهّب من أدوات الشاي .

وبما ان السلام قد حلّ قبل ان ينتهي العمل في الأسطول المرتقب ، فلقد توقّف بناء السفن الحربية . ولكن « الكونغرس » وافق في الثلاثين من نيسان (ابريل) على ضرورة اتمام بناء اثنتين من السفن الكبيرة

---

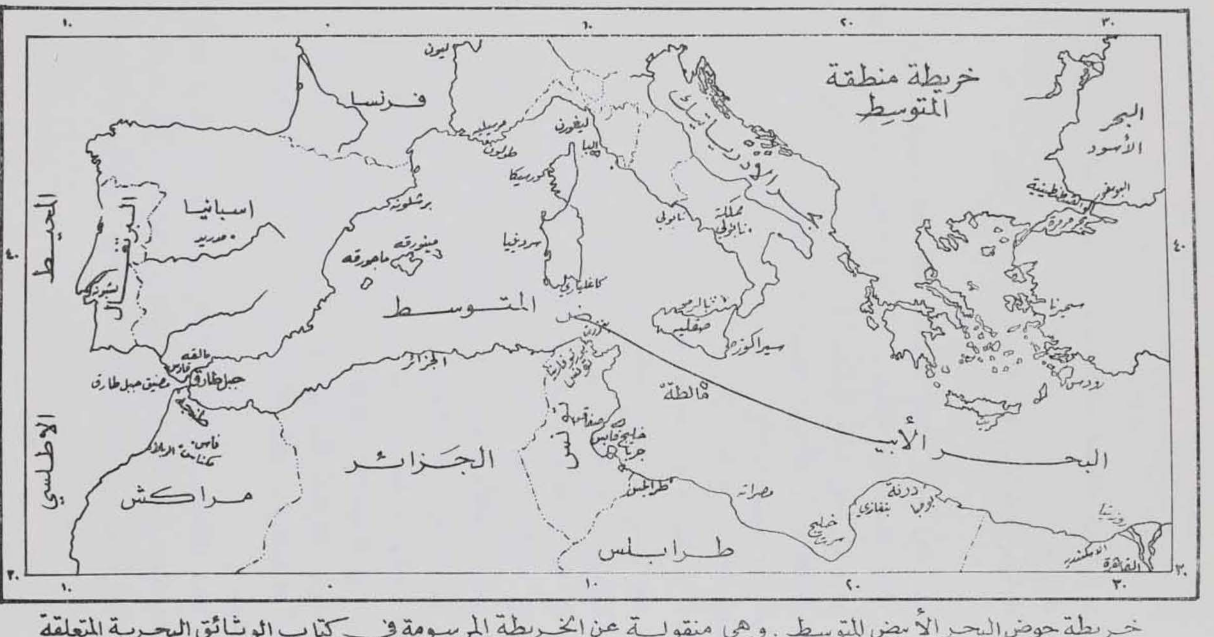
* اغلب الظن ان هذا خطأ مطبعي في الرقم في النسخة الانكليزية الأصلية ، كما يتبين لدى مقارنة هذا الرقم مع سواه من الارقام (المعرب) .

وواحدة من السفن الصغيرة .

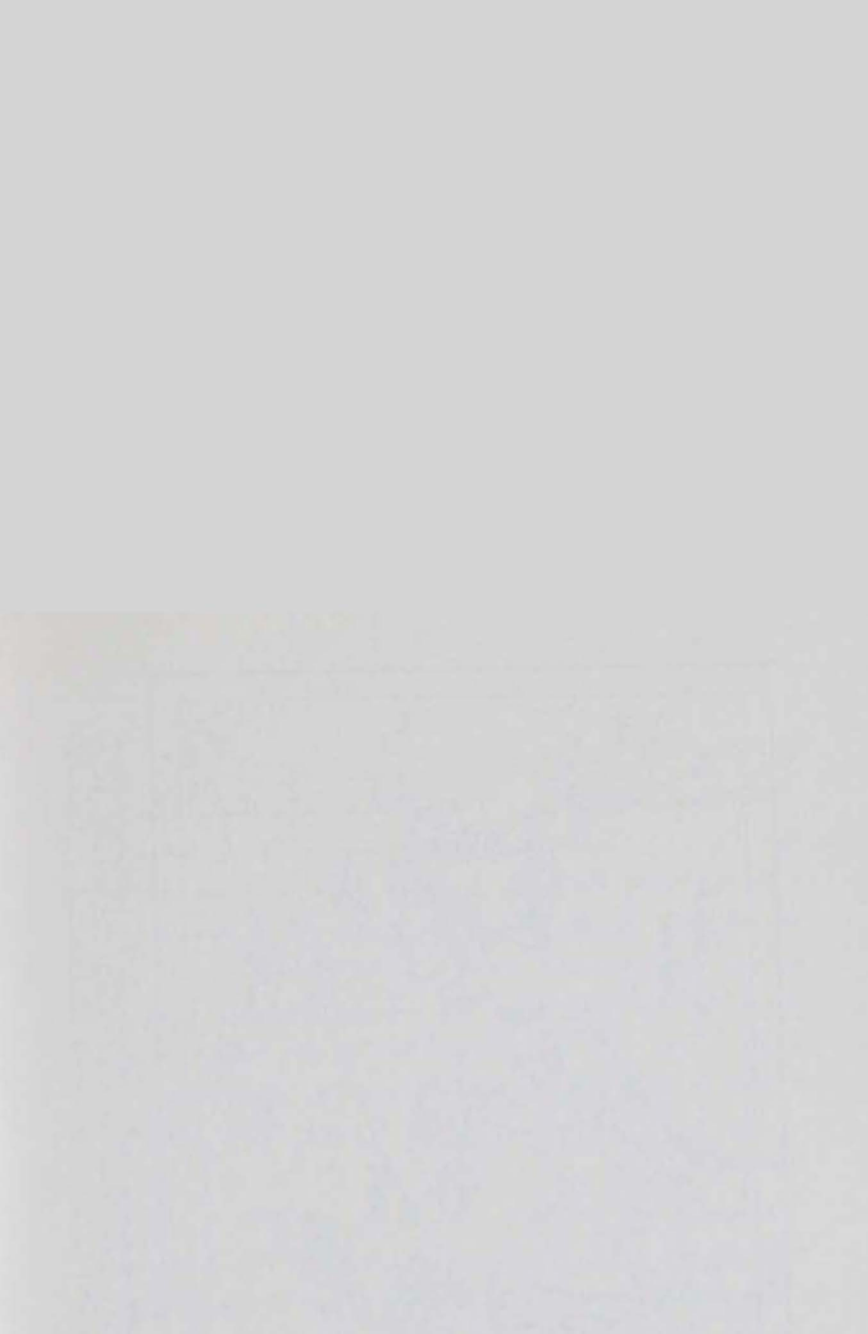
على ان الوعد بالدفع شيء ، وتنفيذ الوعد بتسليم المـــال والبضائع شيء آخر !!! لقد تأخرت الولايات المتحدة الاميركية عن الدفـــع . وكان على القناصل الثلاثة الذين أرسلهم « بيكرينغ » ان يتحملوا نتائج ذاك التأخير . وفي تلك الاثناء ، كان « جول بارلو » يجمع الهدايـــا والأموال النقدية في أوروبا ، ويسرع الى الجزائر ليُسكِت حسان باشا الذي كان قد بدأ يهدد بالحرب ان لم يتسلم المبلغ المتفق عليه في شروط الاتفاقية . هذا ، وقد أصدر الداي أوامره الى عبده السابق وسكرتيره « كاثكارت » ،بأن ينتقل الى « فيلادلفيا » — على حسابه الخاص — ، من أجل أن يأمر بارسال السفن والأعتدة التي جرى الاتفاق حولها في الاتفاقية .

وأخـيراً ، تمكن « هامفريز » من اقتراض مبلغ كاف من المال في ايطاليا والبرتغال ؛ وفي حزيران (يونيو) من سنة ١٧٩٦ ، طـــالب « بارلو » باطلاق سراح الأسرى الاميركيين . غير ان المال لم يكن قد وصل بعد الى يدي « الداي » ... فلقد أسر « ريتشارد اوبراين » ، الذي كان مكلفاً بنقل المبلغ ، أسر في طريق عودته الى الجزائر ... لقد أسره الطرابلسيون ! وبعد فترة من الاتصالات ، اطلق باشا طرابلس سراحه (مع المال) ، وأخيراً وصل المبلغ الى يدي حسان باشا . ولشد ما كانت فرحة الداي عظيمة ، في تلك اللحظة ، حتى أنه وعـــد « بارلو » بمساعدته في الحصول على معاهدات مع كـــل من تونس وطرابلس .

وفيما كان يجري كل ذلك ،كانت الاضطرابات قد بدأت في مراكش من جديد . لقد مات الامبراطور الأخـــير ، وراح خليفته « مولاي سليمان » يهدد بالحرب كل دولة لم تجدد معاهداتها التي كانت قد عقدتها مع والده ، بعد دفع مبلغ معين عند التجديد . ولكن سرعان مـــا



خريطة حوض البحر الأبيض المتوسط . وهي منقولة عن الخريطة المرسومة في كتاب الوثائق البحرية المتعلقة بحروب الولايات المتحدة ضد دول شمالي افريقيا (واشنطن، ١٩٣٩) . وهي من تحضير المكتب الأميركي للسجلات البحرية ، دائرة الأسطول .



عقدت الولايات المتحدة معاهدة مناسبة ، وعادت علاقاتها مع مراكش على ما يرام .
أما تونس وطرابلس فما زالتا مستعصيتان على الحل .

•

كان داي الجزائر غاضباً عندما اعتقل الطرابلسيون « اوبراين » الذي كان يحمل أموال الفدية .. وقد قرر الداي الجزائري ان يضغط على جاره من أجل صالح الولايات المتحدة الاميركية . وعلى الرغم من ذلك الضغط – أو بالأحرى كنتيجة لذلك الضغط – ، تمسك باشا طرابلس « يوسف قرامانلي » بشروط صعبة . غير ان « اوبراين » استطاع اقناعه ، في آخر الأمر ، أي في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٩٦ ، بعقد معاهدة حدّدا سعرها بـ ٥٦٤٨٦ دولاراً . وقد وافق داي الجزائر على ان يضمن ويكفل تنفيذ شروط المعاهدة . ثم جاء دور « الكونغرس » في العاشر من شهر حزيران (يونيو) سنة ١٧٩٧ ، أي قبل شهر واحد من تاريخ تعيين القناصل ، فأقر المعاهدة .
وفي الجزائر ، عقد « بارلو » العزم على التوصل الى اتفاقية مع باي تونس ، فكلّف تاجراً فرنسياً في تونس يدعى « جوزف ايتيان فامين » بأن يتولى أمر المباحثات . والواقع ان تعيين « فامين » كان هفوة ارتكبها « بارلو » ، إذ ان حِيَل « فامين » المخادِعة كانت السبب في الاضطرابات اللاحقة مع تونس . وقد حدث في ذلك الوقت ان استولى القراصنة التونسيون على سفينة تجارية اميركية تسمى «اليزا» ، وجرّوها الى المرفأ ... فطالب الباي بمبلغ عشرة آلاف دولار كفدية للمركب وملاحيه .
كانت المناقشات على وشك الاخفاق حينما ألمح داي الجزائر بامكانية ارساله قوة مسلحة لارغام الباي على توقيع المعاهدة . ولكن سرعان ما توصلت كل من الجزائر وتونس الى اتفاق ، فاضطر « بارلو » الى

استئناف مساومته . وأخيراً قبِلَ « فامين » بدفع مبلغ ١٠٧،٠٠٠ دولار للمعاهدة . وفي السادس من شهر آذار (مارس) من سنة ١٧٩٨ ، صوّت مجلس الشيوخ الاميركي حول ذلك الموضوع ، دارساً بامعان المواد الثلاث التالية : اولها ، المادة التي كانت تُلزم الولايات المتحدة الاميركية بتزويد تونس ببرميل من البارود مقابل كل طلقة تُطلق تحية للمراكب الاميركية ... وثانيها ، المادة التي تسمح للباي باستخدام المراكب الاميركية لأغراضه الخاصة ... أما ثالث تلك المواد فكانت تفرض ضريبة قدرها عشرة بالمئة على البضائع والسلع المصدرة الى تونس ، في حين كانت الضريبة نفسها محددة بثلاثة بالمئة على البضائع التونسية التي كانت ترد الى الولايات المتحدة . وهذا ما دعى « ايتون » ، فيما بعد ، الى اتّهام « جوزف فامين » بادخال تلك المادة الثالثة من أجل ربحه الخاص ومنفعته الشخصية .

•

وهكذا ، وفي ربيع عام ١٧٩٨ ، بدا ان الولايات المتحدة قد نجحت في تأمين علاقات سلمية مع دول شمالي افريقيا . وكان « ريتشارد أوبراين » قد استلم مهام وظيفته كقنصل عام في الجزائر . وفي نهاية ذلك العام اصدر « تيموثي بيكرينغ » أوامره الى كل من « ايتون » و « كارثكارت » بالاستعداد للابحار الى تونس وطرابلس .

وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر كانون الاول (ديسمبر) ، من سنة ١٧٩٨ ، استدعى « بيكرينغ » القنصلين الى مركز عمله الرسمي في « فيلادلفيا » ، وأعطاهما الأوامر والمعلومات والتوجيهات الأخيرة . ولقد فوّض كل من « اوبراين » ، و « ايتون » و « كاثكارت » مجتمعين باعادة النظر ثانية في امر المعاهدة مع تونس . غير انه تولى مهمة التفاوض الحقيقي مبعوثان اثنان من الوافدين الثلاثة الجدد . أما

« ايتون » فكان قد تلقى من « بيكرينغ » مجموعة دقيقة من التعليمات الشخصية . اما الوافدان الاثنان الآخران فكانا قد تلقيا أوامر للركوب على متن سفينة حربية شراعية بصارين ، اسمها « صوفيا » كانت على أهبة الابحار بقيادة الربان « هنري غديس » .

وفي ٤ كانون الثاني (يناير) ، أبحرت السفينة الحربية الاميركية « صوفيا » من « خليج ديلاوار » يصحبها مركبان اثنان مخصصان كجزء من المدفوعات الاميركية الى داي الجزائر . هذان المركبان الصغيران كانا يعرفان باسم « حسان باشا » و « سكجولد براند » ، وكان من المقرر ان تلتقي تلك المجموعة مع السكونة* « لالا عائشة » ، التي كانت متوجهة أيضاً إلى الجزائر، وان تلتقي مع « الهيرو » التي كان جزء من حمولتها قد تم التعاقد عليه في المعاهدة المعقودة مع تونس . ان انفصال « الهيرو » عن هذا الاسطول الصغير وتأخرها الطويل في الوصول ، كانا السبب في قلق « ايتون » الكبير .

كان برفقة « جيمس لايندر كاثكارت » خطيبته – وكان قد مضى على خطبتها ستة أشهر – التي جلبت معها فتاة انكليزية رقيقة « بتسي روبسون » .وسرعان ما أظهرت تلك الفتاة كرهاً عنيفاً نحو «كاثكارت» كما كانت سبباً للانشقاق .

أما « ايتون » فلم تكن برفقته أيما زوجة ، اذ انه كان قد ترك زوجته « اليزا » في « بريمفيلد » لتتولى بنفسها تسيير شؤونها . والحقيقة انه لم يظهر أي أسف على تركه اياها . وبعد وصوله تونس بقليل ، عرضت عليه امرأة ايطالية ان تهتم بشؤون منزله القنصلي ، فكان جوابه :

« لقد قطعت مسافة خمسة آلاف ميل بواسطة نقل خطرة ، وفي فصل غير ملائم ، من أجل ان اتخلص من زوجتي ، ولن أسمح لنفسي

* مركب شراعي ذو صارين او اكثر .

بأن أُبتلى بامرأة اخرى ها هنا ... إن هذا ليشعرني بأن الشيطان يقيم في منزلي » .

وعلى الرغم من ان ذاك الجواب القاسي كان من المفروض ان يضعف عزيمة تلك السيدة الايطالية المهذبة ، لا ان يبين سرور « ايتون » لتركه منزله ، فـان « ايتون » قلما أبدى شعوره بالحنين الى حياته البيتية في « بريمفيلد » . ومهما يكن ، فقد أرسل « ايتون » ، بعد شهور قلائل لزوجته « اليزا » ختماً عتيقاً من العقيق الاحمر « كانت تملكـه سيدة رومانية أو قرطاجية – لست ادري – منذ مئات الأعوام » ، راجيـاً منها ان تستعمله كختمها أو بالحري كقفلها الخاص « من أجل الرجل الذي يعبدك » . انه رمز العفة والطهارة!!!

كانت تعليمات « بيكرينغ » الخاصة التي وجهها الى « ايتون » تظهر بوضوح كلي خطة وزير الخارجية (أعني « بيكرينغ ») الهادفة الى توسيع التجارة الاميركية في البحر الابيض المتوسط ، والقضاء عـلى قراصنة شمالي افريقيا . وبما أن السلالة الحاكمة في تونس كانت تؤمن وجـود حكومة ثابتة ، بالاضافة الى ان تجارتها كانت أقوى من تجارة سائر بلدان شمالي افريقيا ، فقد آمن « بيكرينغ » ايماناً عميقاً بأنه مـن المفيد جداً توطيد العلاقات التجارية بين تونس والولايات المتحدة . لذلك كله ، نصح « ايتون » بأن يكون محترساً ، وبأن يحاول جهد المستطاع اقناع الباي وموظفيه بعظيم أهمية التجارة والتخلي عن القرصنة . قـال « بيكرينغ » :

« قد يبدو خيالياً ، بل وهمياً ، التفكير بأن دول شمالي افريقيا سوف ترضى بالانقطاع عن الاشتباكات ، وان تكف عن الحروب . إن بعض الدول المسيحية سوف تشجع ، ولا شك ، دول شمالي افريقيا على متابعة الحروب بدلاً من ان تحاول ردعها عن ذلك . فالطبيعة الانسانية تحاول ان تجني الارباح وتؤمن صالحها عن طريق تحريك مشاعر الرجال المسيطرين

والاقوياء . ولكن ، ومع ذلك كله ، فلا ينبغي ان نهمل تلك الفكرة الوهمية او نتجاهلها . فالتجارة القوية مع تونس ، حيث الحكم وراثي ، لتشجعنا على المضي في محاولتنا اذا ما توخّينا احراز النجاح .»

كان « بيكرينغ » يرغب في تعجيل قدوم ذلك اليوم الذي تكون فيه التجارة الاميركية مزدهرة . ومن هنا راح يوجه « ايتون » لجمع كافة المعلومات المتوفرة والمتعلقة بتجارة تونس من جهة ، وبمنتجات البلاد من جهة ثانية ، وبطرق تسيير الاعمال من جهة ثالثة . كان « بيكرينغ » يطلب معلومات دقيقة بل غاية في الدقة : كمية البضائع المستوردة والمصدرة على حدّ سواء ، اسعار تلك البضائع ، ومستوى التبادل .. وهلم جراً .. كان يؤمن بأن « حب المغامرة عند التجار والبحارة والملاحين الاميركيين سوف يحدوهم على زيارة مرافىء شمالي افريقيا » ، شريطة ان يتمكنوا من القيام بتلك الزيارات وهم آمنين مطمئنين اولاً ، وشريطة ان تتوفر لديهم معلومات افضل فيما يختص بالتجارة هناك ثانياً .

وأضاف « بيكرينغ » :

« ان الدول الافريقية الشمالية اذا ما فكرت يوماً بالتخلي عن نهب تجارة الدول المسيحية ، فان الدافع الى ذلك سوف يكون حتماً انتشار وتوسع تجارتها الخاصة ، اذ انهم سوف يدركون آنذاك اين تكمن مصالحهم الحقيقية ، والربح العظيم الذي تعود به التجارة » .

أما في الوقت الحاضر ، فاقترح « بيكرينغ » انذار المراكب الاميركية وتنبيهها الى الابتعاد عن مرافىء شمالي افريقيا ، ما لم تُعتبر الحكومة مسؤولة عن الخسائر . هذا ، وقد توقع ان يأتي يوم تصبح فيه التجارة في اوْج ازدهارها بين اميركا من نحو ، وبين شمالي افريقيا من نحو آخر .

جميع تلك التعليمات اوضحت « لإيتون » ان مسؤولية خطيرة قد أُلقيت على عاتقه ، ألا وهي تطوير التجارة . ولقد لفت « بيكرينغ »

نظر « ايتون » الى مشاريع مبعوث « بارلو » الوهمية – عنيت « جوزف فامين » الذي تقدم ذكره – الذي لم يوفق بتاتاً في مباحثاته التي اجراها في تونس ... كما لفت نظره الى مكائد الاوروبيين ، وبخاصة الفرنسيين منهم الذين طالما حاولوا عرقلة مصالح الولايات المتحدة الاميركية . ومما يذكر في هذا المجال ، ان « بيكرينغ » لم يأمن في حياته الى ايما فرنسي ، وهذا ما دفعه الى تنبيه « ايتون » كي لا يخدعه احد مواطني الدول المناهضة سياستها لسياسة الولايات المتحدة الاميركية .

وصل « ايتون » – تصحبه عائلة « كاثكارت » – في اليوم التاسع من شهر شباط (فبراير) ، أي بعد ان كابدوا مدة ثلاثة وستين يوماً عاصفاً مليئاً بالاعاصير التي زادت من اضطراب مزاجهم . وحالاً عند وصولهم ، كانت تنتظرهم زوبعة في فنجان عملت على تحضيرها الشقية « بتسي روبسون » التي أعلنت عن عزمها على العودة على السفينة ذاتها عوضاً عن مرافقة عائلة « كاثكارت » . ويتضح لمن يقرأ الملاحظات التي دونها « ايتون » ان « كاثكارت » حاول استخدام سياسة اللاعنف مع تلك الفتاة غير انه لم يفلح ... وعلى كل حال ، فلقد وقع شجار كان بالامكان تفاديه .

راح « كاثكارت » يلعن الفتاة مستخدماً شتى اللعنات التي تعلمها ايام خدمته البحرية من جهة ، وعهد عبوديته في الجزائر من جهة اخرى ... مما دفع « بتسي » الى طلب حماية القنصل الاميركي العام . ومن الطريف ، ان رقة ودماثة اخلاق « اوبراين » دفعتاه ، يوم ٢٥ آذار (مارس) ، الى الزواج من الفتاة . عندها ، لم يعد ثمة قوة تستطيع ان تكبح جماح ثورة عائلة « كاثكارت » .

شرع « كاثكارت » يصب جام غضبه على « ريتشارد اوبراين » متهماً اياه بأنه قد اغرى خادمته . أما السيدة « كاثكارت » ، فقد وقعت فريسة الكآبة والاسى والشقاء ، لا لسبب الا لأن خادمتها السابقة قد

اصبحت في منزلة ارفع من منزلتها الدبلوماسية البروتوكولية ! والجدير بالذكر ان « كاثكارت » كان يحسد « اوبراين » على وظيفته ومسؤولياته. وها ان حادثة زواج « اوبراين » من « بتسي روبسون » تذكي نـــار كراهيته للقنصل العام وتؤثر على علاقته معه في المستقبل .

وفيما يختص بـ « كاثكارت » ، فقـــد كتب « ايتون » بأنه رجلٌ صادق بلا ايما ريب . ولكن كان من سوء حظ اصدقائه انه انهى ايام خبرته وتجاربه في مناطق شمالي افريقيا .

وبالرغم من جميع ما تطرقنا اليه من امر المضايقات التي واجهت القناصل الثلاثة ، فانهم ظلوا سوية في الجزائر لحوالى شهر واحد من الزمن ، في حين كانوا يرسمون الخطط لتحسين العلاقات الاميركية مع الجزائر ، وتونس ، وطرابلس .

وقع نظر « ايتون » على حاكم من حكام افريقيا الشمالية للمرة الاولى، في الثاني والعشرين من شباط (فبراير) ، عندما استقبل الداي المبعوثين الاميركيين في قصره . كان الداي الأسبق ، حسان باشا ، قد توفي في عام ١٧٩٨ . وكان خليفته ، « بابا مصطفى » ، يشك في محاسن عقد معاهدة ما مع الولايات المتحدة الاميركية ، فراح يتذمر امام « اوبراين » من عدم وصول الفديـــة الاميركية . ولحسن حظ الاميركيين ، ان « ايتون » و « كاثكارت » قد وصلا في اللحظة الملائمة ومعهما البضائع والمراكب للداي .

ولما اراد الداي ان يُعبر عن غبطته ، دعا القناصل وربابنة السفن الاميركية الى مقابلة رسمية مع شخصه . لم يكن « ايتون » مسروراً لتلك الدعوة ، والدليل على ذلك انه دوّن ملاحظات سمجة في مذكراته .. فبعد ان عبروا مجموعةً من الدهاليز المظلمة ، وصل المدعوون الى جناح الداي الخاص . ونترك الكـــلام الآن « لايتون » ليشرح لنا ما حدث تلك الليلة .

« وهنا قلعنا احذيتنا ، ودخلنا الى مكان اشبه بالكهف .. الانوار جد ضئيلة ، وضئيل عددها .. ثمة قضبان حديدية هنا وهنالك .. وما هي الا لحظات حتى كنا نقف امام وحش * ضخم الجثـة ، مخيف المظهر يجلس على مقعد منخفض عليه وسادة من المخمل الموشى . وكان يجلس وساقاه الخلفيتان مضمومتين وكأنه خياط او قل دب ** . وعندما دنونا منه مد الينا كفه وكأنه يريد ان يمسك شيئاً ليبتلعه . وعندها أشار علينا دليلنا بأن « قبلوا يد الداي .. ! » فانحنى القنصل العام باحترام كبير وقبل يده ، فحذونا حذوه على التوالي . بدا الداي *** في تلك اللحظة في حالة لا تشعر بأنه سوف يقدم على عمل مؤذ . لقد كشر مرات عدة ، ولكنه لم يأت بضجة تذكر . وبعد ان قمنا بالواجب ذاك، ووقفنا لحظات قلائل في صمت مؤلم ، هممنا بالانصراف وبأخذ احذيتنـا وأغراض اخرى . وتركنا العرين من غير ان يصيبنا سوء ، اللهم الا اننا قد اجبرنا ، على ذلك النحو غير الارادي ، ان نبدي خالص الأدب والاحترام .

«هل يمكن لأنسان ان يصدق ان ذلك الشخص البهيمي **** يملك سبعة ممالك اوروبية وجمهوريتين وقارة خاضعة له ، في حين ان جميع قواته البحرية لا تساوي صفين من المراكب الحربية ؟ ! إن ذلك لواقعي ، وإن كان من العسير تصديقه » .

---

* لم نكن نتوقع ان تصدر تلك الكلمات النابية عن رجل واع مثل « ايتون » القنصل الاميركي، الأمر الذي يدل على حقده الفظيع (المعرب) .

** نذكر القارىء بأن هذا الشرح مقتطف من كتابات « ايتون » (المعرب) .

*** آثرنا استعمال هذه الكلمة بدلا من كلمة حيوان الواردة في الاصل (المعرب) .

**** رأينا من واجبنا ان نبقي على كلمات « ايتون » ذاتها ، محافظة منا على امانة الترجمة .. (المعرب)

ليس هذا فحسب ، بل لقد ازعج منظر الرقيق الجزائريين « ايتون » ، كما انه راح يفكر في جوهر البؤس الذي رآه يحيط به من جميع الجهات. وقد كتب في يومياته بعد مضي يومين على مقابلته الداي فقال :

« إن شمالي افريقيا هو الجحيم بعينـــه ! .. فواحسرتاه ، هل ان كل اميركا جنوبي « بنسلفانيا » لأن الظلم والاضطهاد ، والعبوديــة والرق ، والبؤس والشقاء ، هم هنالك » .

●

ومن المشاكل التي واجهت القناصل الاميركيين ، كانت الحاجة الى طريقة ملائمة وفعالة من اجل تسوية الأمور المالية وتسديـــد الديون الناشئة عن الاتفاقات التي سبق ان تمت مع حكام شمالي افريقيا . لقد تسبَّب التأخر الطويل في الدفع في تذمر القراصنـــة وفقدانهم ثقتهم بالأميركيين . ومما لاحظه قناصل الولايات المتحدة الاميركيـــة انه من الممكن تفادي المشكـــلات عن طريق وساطة البنك اليهودي القوي « بكري وبوسنـــة » الذي كان مركزه الرئيسي في الجزائر ، وكانت فروعه في فرنسا وسواها من بلدان البحر الابيض المتوسط . والحق ان افراد عائلة « بكري » وشركاءهم قد لعبوا دوراً اساسياً في دبلوماسية البحر الابيض المتوسط في تلك الحقبة ، كما انهم احتكروا مهنة البنوك في دول شمالي افريقيا .

وفي الجزائر ، راقب « ايتون » عن كثب العمليات المالية الملتوية ، وتعرّف الى « دايفيد بكري » . وليكن معلوماً ان داي الجزائر ، كان على استعداد لأن يتوسط مع باي تونس من أجل ما فيه خير صديقته الولايات المتحدة الاميركية . أما « بكري » ، فقـد أكد على صداقتـه المخلصة مرشداً « ايتون » الى ابرع وسيلة للتخلص من « جوزف فامين » بصفته مندوباً اميركياً في تونس . ومن ثم ، عرض عليه كيفية الاتصال

بتونس عن طريق ممثل يقيم هناك يدعى « سليمان عازولاي » ـ كل ذلك، بالطبع ، في مقابل أجر محترم .

كان « ايتون » يكره عائلة « بكري » وممثليهم ومن لفّ لفهم مذ بادىء الامر . ولقد عارض معظم مقترحاتهم . وقد كتب يقول ، وكان ما يزال مقيماً في الجزائر :

« يتراءى لي ان افكار اولئك الرجال شريرة ، ناهيك عن ان صداقتهم فضولية . والذي يدلني على ذلك ، ويفضح امرهم في الوقت عينه ، هو ذلك القلق والهمّ والعناية المفرطة التي يبدون ، علماً بأن تفكيري لم يستطع ان يستكشف ذلك » .

ثم بدأ « ايتون » يميل الى الاعتقاد بأن جماعة « بكري » كانوا يجنون الارباح بواسطة السعي وراء المتاعب والتفتيش عليها بوصفهم وسطاء وحلاّلي مشاكل ، وانه يمكن للمرء ان يعزو قسماً من المشكلات المستعصية مع دول شمالي افريقيا الى مكائد اصحاب البنوك هؤلاء ، وخضوع الدبلوماسيين الاعمى لهم .

وبعد ان تعلم ما تعلمه في الجزائر ، أبحر « ايتون » في اليوم الثاني من شهر اذار (مارس) على متن السفينة « صوفيا » ليتسلم مهام منصبه في تونس . وكذلك ، توجه « جيمس لايندر كاثكارت » الى تونس ، اذ كان عليه ان يعاونه في مهمة اعادة النظر في المعاهدة التونسية ... اما « ريتشارد اوبراين » ، فقد بقي في الجزائر . وفي طريق الرحلة حشرت الرياح المعاكسة سفينة « ايتون » في خليج « بنزرت » ، وذلك بعد مضي اسبوع من الاقلاع . ثم بعث ركاب السفينة برسول الى « سليمان عازولاي » ، كيما يخطره بأنهم يحملون رسائل هامة جداً من عائلة « بكري » راجين منه ان يؤمن منزلاً مناسباً مزوداً باثاث ملائم لاستقبالهم . ويذكر « ايتون » ان مما لفت نظره ونظر « كاثكارت » حسن الضيافة هنالك ، مع انهم دفعوا ثمنها غالياً ونقداً .

رست « صوفيا » في خليج تونس في الثـاني عشر من شهر اذار (مارس) . وبعد يومين ، أذن للقناصل الاميركيين بأن يقوموا بزيارة لمنزل « جوزف فامين » .

كانت رايات الترحيب ترفرف على كل مبنى قنصلية . وقد أسدى القنصل الانكليزي نصيحة اخوية مفادها ان الفرنسي « فامين » وغد ، ونذل وضيع ، فلذا لا ينبغي ان يكون موضعاً للثقة ... وأضاف ان على الاميركيين ان يكونوا حذرين جداً من أجل تفادي الاشراك العديدة التي نُصبت للايقاع بهم .

بعد ذلك شرع القناصل الاميركيون يستعدون لمقابلتهم الاولى مع الباي « حمودة باشا » في الساعة الثامنة من صباح الخامس عشر من شهر آذار (مارس) . لقد قبّل القناصل يده ، كما شربوا قليلاً من القهوة التذكارية ، ومن ثم دخلوا في موضوع العمـل . لم يكن مزاج الباي على ما يرام ، إذ انه لم يُعْلَم مُسبّقـاً عن ان وصولهم قد اوشك، ناهيك عن انه لم تُطلق اية تحيات رسمية . ليس هذا فقط ، بل لقد تذمر من انه مضى اكثر من سنة على عدم وصول ملاحين او بضائع بحرية . وهكذا وجد القناصل انفسهم تواً على جانب الدفاع ، فابتدأوا بداية غير حسنة . والحقيقة ان السفينة « صوفيا » كانت قد دخلت المرفأ خلسة ، وبهدوء كلي ، من اجل ان تتحاشى التحية الرسمية ، اذ ان تلك التحية كانت ستكلف الولايات المتحدة برميلاً من البارود في مقابل كل طلقة تطلقها المدافع التونسية .

ان تلك المادة المستغربة التي تنص على ذلك ، كانت — ولا شك — احدى المواد المتضمّنة في المعاهدة التي اتى القناصل من اجل اعادة النظر فيها . ومن الطبيعي ، ان الولايات المتحـدة قد اخرت شحن المعدات والبضائع حتى تصبح المعاهدة مقبولة ونافذة.

كان « حمودة باشا » قد سمع عن المراكب البحرية التي استلمها داي

الجزائر من حكومة الولايات المتحدة الاميركية ، فأثار ذلك جشعه ، وهدّد باعلان الحرب ما دامت البضائع لم تصل . وقد قال ببرودة :

« ... ان رفع رايتكم لن يكلفكم الا القليل ، ولكن انزالها ليكلفكم اقل .. »

وقد اشار القناصل الاميركيون الى ان الولايات المتحدة هي في حالة حرب مع فرنسا بصورة فعلية وان المضايقات ، التي صدرت عن المراكب الحربية الفرنسية كانت السبب في تأخير شحن البضائع الى تونس . ولقد اقترحوا فكرة جديدة ، الا وهي ان يدفعوا دفعة نقدية بدلاً من البضائع .. ليس هذا فحسب ، بل لقد اقترحوا ايضاً تقديم طراد من القيمة ذاتها ، ولكن حمودة باشا رفض جميع مقترحاتهم ، وودّعهم تاركاً إياهم يفكرون ملياً بتهديده بالحرب . والجدير بالذكر ، ان الباي رفض السماح « لايتون » بأن يستأجر منزلاً ، وذلك حتى تسوى المسائل الأهم والأخطر .

وسرعان ما تعقدت المباحثات بصورة لا تكاد تصدق . ولقد اشترك العديدون في تلك المباحثات ، نذكر منهم « فامين » السالف الذكر ، و « سليمان عازولاي » سفير الجزائر في تونس .. فبات « ايتون » حائراً مشمئزاً . اما « كاثكارت » ، فبفضل الاحدى عشرة سنة التي كان قد قضاها في الجزائر ، فقد تمكن من ان يفهم مجاري الدبلوماسية الخاصة بدول شمالي افريقيا ، فحافظ على هدوء اعصابه ، ولم يتوعك مزاجه كثيراً مثلما حدث لصديقه « ايتون » . كان السفير الجزائري يرجو الأميركيين الاعتصام بالصبر ، وألا ييأسوا من الباي الجفص لأن امراء شمالي افريقيا يقطّبون احياناً من غير ما معنى .

كانت الجزائر قد اتخذت لنفسها موقف الوسيط المخلص بين الولايات المتحدة وتونس ، لا لسبب إلا لأن تفرض نفوذها على جارتها .

اما « جوزف فامين» ، الذي جاء « ويليام ايتون » ليحل محله، فكان

واحداً من التجار الذين ينظرون الى الأمور نظرة تجارية محضة ، معتبرين ان المعاهدات لَمِن الأشياء التي يجب ان تُشترى في الأسواق الحرة . كان يود ان يبقى له اصبع في العملية الدبلوماسية .. ولكنه كان يوجه جل اهتمامه الى الربح الذي سوف يعود عليه من الصفقة ، متناسياً بذلك مسؤولية مراجعة المعاهدة بسرعة .

وأما « سليمان عازولاي » ، فكان دوره يتلخص بالاطمئنان الى ان « بنك بكري وبوسنة » سوف ينال عمولة محترمة من اصل الترتيبات المالية المتخذة . ومما زاد المناقشات تأزماً ، ان المسؤولين التونسيين على مختلف درجاتهم احتشدوا واندفعوا كسرب جراد على الاميركيين ، مطالبين بالراشن ، او البقشيش ، مدّعين بأنها العادة السائدة في كل مرة تعقد فيها معاهدة او تعدّل . كذلك ، فان الباي نفسه توقع ان يتلقى هدية خاصة بالاضافة الى سائر الهدايا العامة للدولة التي يجري الاتفاق عليها . كما طالب الوزير الأول بهدايا ثمينة . اما « السابيتابا » ، والذي كان بمثابة القاضي الأول ، فكان اطمع اولئك جميعاً . ومهما يكن من أمر ما حدث ، فان « ايتون » استغرق في تفكير طويل ، مستنتجاً ان الرشو (اعطاء الرشوة) ان لم يكن ذا اصول تاريخية ، فهو على الأقل عادة قديمة خاصة ، وأن ملكة « سبأ » نفسها حملت أثمن الهدايا للملك « سليمان » .

وبعد ان تأمل « ايتون » حالة الدول التي تظهر بمظهر الخاشع المتواضع امام اصحاب النفوذ في شمالي افريقيا ، انقلب سخطه الى غيظ وحنق شديدين .

اعتاد « ويليام ايتون » و « جيمس لايندر كاثكارت » ، يوماً بعد آخر ، على الذهاب الى القصر ، وخلع احذيتهم ، وتقبيل يد الباي السمينة ، والدوران حول المواد المتنازع عليها في المعاهدة ، والمساومة عليها . كان « ايتون » يتأجج غضباً ، بينما كان « كاثكارت » يميل

يوماً بعد يوم الى التذلّل ، لا سيما وانه كان قد سبق له ان تعلم كيف يتملّق أيام كان السكرتير – العبد عند داي الجزائر . وكان الباي أحياناً يدعوهم الى الانصراف على نحو بات أو نهائي . ولقد هدر بعد مقابلتهم الأولى :

« لقد أطلتم المكوث بحيث أن طعام عشائي أخذ يبرد . انصرفوا الآن ، وجيئوا غداً صباحاً في تمام الحادية عشرة . »

وعندما التمس المبعوثون الاميركيون ذريعة مفادها ان البارود وسائر المعدات الاخرى التي طلبها الباي لم تُصنع في الولايات المتحدة قصد التصدير ، لم يُبد الباي ايما اكتراث ، واكتفى بقوله :

« جيئوني بها ! »

أما عندما أوضحوا له بأن لا مفرّ من التأخر ،لأنه ينبغي ان يصادق مجلس الشيوخ الاميركي على المعاهدة ، فما كان منه الا ان ابدى امتعاضه وازدراءه لمثل تلك المعاملات الرسمية . وحينما عرضوا عليه المدفوعات النقدية عوضاً عن البضائع والمؤن ، أظهر انزعاجه ، وفاخر بأن لديه الكثير الكثير من الذهب والفضة الخاصين به . إن أيام المساومة المملة تلك لكفيلة بأن تُفقد الانسان صبره...فاستخلص « ايتون » أن القوة هي الوسيلة الفضلى – بل الوحيدة – للتفاهم مع الحكام الافريقيين .

وفي الاسبوع الأخير من شهر آذار (مارس) ، استطاع المبعوثون الاميركيون ، أخيراً ، اقناع الباي العصبي المزاج ، والصعب المراس ، بتعديل المواد المختلف عليها في المعاهدة ، فوافق ، بصورة عامة ، على مطالب الحكومة الاميركية . وقد سُويت المادة رقم (١٢) ، القاضية باخضاع السفن الاميركية لخدمة تونس بحل وسط . واتفق القناصل على القول بأنه من الممكن اكراه السفن الاميركية على الخدمة في تونس، شريطة أن يُعوّض على أصحابها .

أما المادة رقم (١١) ، والتي كانت تقضي بدفع برميل من البارود

مقابل كل طلقة تطلقها تونس تحيّة لمركب اميركي، فقد أعيدت كتابتها من جديد ، وأصبحت كما يلي: يجري الاطلاق تحية للمراكب الاميركية عندما يطلب ذلك مركب اميركي فحسب .

أما المادة رقم (١٤)، والمعروف انها كانت - في الاصل - تفرض ضريبة على البضائع التونسية المصدّرة أقل من تلك الضريبة المفروضة على البضائع الاميركية المصدرة الى تونس ، فأصبحت تقضي-بعد تعديلها- بجعل الضريبتين متساويتين . وبعد ان حصلت دردشةُ مساومةٍ وتنازلات أخرى حول موضوع الهدايا والرواشن ، وقّع الباي وكبار موظفيه على المعاهدة التي أرسلت الى الولايات المتحدة الاميركية ... فصادق عليها مجلس الشيوخ في ١٠ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٠٠ .

•

وفي مطلع شهر نيسان (ابريل) من سنة ١٧٩٩، أبحر «كاثكارت» من تونس على متن السفينة « صوفيا » متوجهاً الى طرابلس ، وترك « ايتون » يتأمل - وحيداً - مجاري السياسة في افريقيا الشمالية ... والواقع ان رحيل « كاثكارت » كان فرصة مناسبة من أجل توضيح سوء نية الباي . فراح يشكو من ان السفينة « صوفيا » - التي كان ينوي ضمناً ان يحتجزها - قد تركت تونس من غير موافقته . وهدد بإكراه «ايتون» على العودة الى وطنه على متن السفينة حالما ترجع من طرابلس... وفي لحظة غضب عاصف ، انتصب الباي ، وغادر قاعة الاجتماع ، تاركاً « ايتون » مع « السابيتابا » الجشع .

وقد وصف « إيتون » لصديقه « بيكرينغ » اشمئزازه والمرارة التي يعانيها ، في أحد التقارير التي كان يرسلها له :

« انه لمن الصعب جداً ان نتفاهم حينما تكون شروط الاتفاق متحيزة كلّية .. فمن عادات المسؤولين في شمالي افريقيا ، ان يفرضوا شروطهم

الخاصة على من يريدون الاتفاق معه . فحتى القنصل الانكليزي ـ كما أخبرني بنفسه ـ وجد نفسه مضطراً ، يوم وصوله واستقباله ، ان يقدم للباي هدية نقدية بالاضافة الى مواد وحاجيات أخرى تُقدّر قيمتها ، في انكلترة ، بمبلغ سبعة عشر ألف جنيه استرليني . غير ان تونس ترتعد فرائصها وينخلع فؤادها لدى سماع كلمة انكلترا !.. ولا أشك في ان تلك الطريقة حيلة سياسية تبنّتها انكلترة من أجل احراج موقف سائر الدول المسيحية التجارية ... كما اني لا أشك في مدى نجاحها وفعاليتها.

« أما بالنسبة للولايات المتحدة الاميركية فيعتقدون هنا ان بمقدورهم ان يفرضوا شروطهم الخاصة عليها ... ولم لا ؟ وما الداعي لأن لا يفكروا في ذلك ؟ فان الولايات المتحدة لم تقم بأيما عمل يُستفاد منه ان موقفهم ذاك انما هو موقف خاطىء بالنسبة لها . لقد أدركوا ان جميع أحاديثنا حول الصمود في وجههم والتغلب عليهم ، لم تكن اكثر من تبجح فارغ ليس إلا ...

« انهم ، في الوقت الحاضر ، يخشون قيام حلف هجومي ـ دفاعي ما بين الانكليز والاميركيين . ولقد تحولت تلك الخشية الى نوع من الاخبار الشائعة المتناقلة ؛ وها اني أحاول ارساخها في الاذهان ، وبخاصة عندما أظهر برفقة القنصل البريطاني في مناسبات عديدة ،أو عندما أتناول طعام العشاء معه متظاهراً بأننا نتكلم في موضوعات سرية خطيرة. ولكن ، مهما كانت ضروب الحيل التي نستعملها قوية ، فاني لست أرى من سبيل يؤدي الى الصداقة الدائمة مع هاتيك الدول سوى سبيل الذهب أو القنابل.

« على ان السؤال الأهم ، هو التالي : أي وسيلة من الوسيلتين هي الأفضل ، الذهب أم القنابل ؟! فبما أنهم يودون فرض شروطهم الخاصة ، فلا يمكن تحديد المبالغ المتوجب دفعها لتأمين السلام » .

كان من المنتظر ان تعلن الولايات المتحدة الاميركية الحرب ـ رسمياً ـ على فرنسا . ولذا كان المبعوثون الانكليز في دول شمالي افريقيا يتظاهرون

بالصداقة ازاء الاميركيين، فما كان من « ايتون » الا ان استغل موقفهم هذا أحسن استغلال . وعلى الرغم من ان القنصل الاميركي لم يكن « يحب » انكلترا أو فرنسا ، الا انه كان يأمل بتوطيد علاقات الصداقة مع الانكليز .

وسرعان ما وصلت آراء « ايتون » ، التي تتلخص بأن القنابل هي الوسيلة الوحيدة التي ينبغي اعتمادها مع دول شمالي افريقيا ، الى ولاية «فيلادلفيا». وكان « ايتون » في ذلك الحين ، يفكر جدياً بالطرق التي تستطيع الولايات المتحدة ان تضغط فيها على دول شمالي افريقيا التي كان يضمر لها « ايتون » كرهاً شديداً لا يعادله إلا احتقاره اياها .

٣

تقارير ومناقشات

في شمالي افريقيا

١٧٩٩

في ربيع ١٧٩٩ ، كان « ويليام ايتون » في تونس ، وعلى عاتقه مهمة إحلال السلام بين الباي من جهة ، وبين حكومة الولايات المتحدة الاميركية من جهة ثانية . وقد شعر ، في ذلك الحين ، انه على وشك الغرق في وحول السياسة الاوروبية القوية والفعّالة.وفي العام المنصرم، كان الفرنسيون قد شنّوا حرباً بحرية غير مُعلنة على الولايات المتحدة.ولكن، مهما يكن من أمر ، فان الخطر الذي كانت تشكلّه مراكب القرصنة * الفرنسية على المراكب الاميركية ، كان العذر الذي قدّمه القناصل الاميركيون عند تأخر وصول البضائع والمؤن التي كانوا قد وعدوا دول شمالي افريقيا بها .

* مراكب القرصنة، مفردها مركب القرصنة : هو مركب مفوض من قبل الحكومة بمهاجمة سفن العدو ، والاستيلاء عليها .

كانت أوروبا من أقصاها الى اقصاها تمر في فترة اهتياج وقلق في سنة ١٧٩٩ . فكان الحكم في عهد حكومة المديرين* في فرنسا حكماً فاسداً يعتمد على الرشوة . ولكن ، بالرغم عن السخط الداخلي ، فقد احرزت الجيوش الفرنسية انتصارات رائعة في أوروبا ، بفضل عبقرية الجنرال الشاب « نابوليون بونابرت » . لقد استولت فرنسا على جاراتها واكتسحت اراضيها ، فأضحت بلجيكا ، وهولندة ، وبلاد الراين ، وبعض اقسام شمالي ايطاليا ، أضحت كلها تحت رحمة فرنسا ... وقد ابتزّت حكومة المديرين الاموال الضخمة من المناطق التي استولت عليها ، لتدفعها بالتالي الى جيوش الاحتلال التي « حررت » هاتيك المناطق .

أما انكلترة فكانت تعمل على الصعيد الدفاعي ... لقد لقّب « نابوليون » بقائد « الجيش الانكليزي » ، وكثرت الاشاعات حول غزو قريب . كان « نابوليون » الداهية أذكى من ان يعبر القنال الانكليزي قبل ان يتفشّى الضعف في جسم انكلترة. ولمّا كان «نابوليون» يخشى جانب روسيا التي لم يكن يعرف مدى قوتها، فقد حاول ان يقوم بهجوم غير مباشر على الانكليز بحملة يشنها على مصر ، في صيف سنة ١٧٩٨ . ومن مصر ، كان ينوي الانقضاض على الهند التابعة لانكلترة .

ولقد استولت جيوش « نابوليون » على مصر بسهولة تامة، وتوغلت في داخل سوريا . غير ان أسطوله مُني بهزيمة مُنكرة في معركة النيل في اول آب (اغسطس) سنة ١٧٩٨ . وفي غضون ذلك ، عقدت انكلترة تحالفاً مع كل من النمسا وروسيا بهدف الى مواجهة قوة فرنسا النامية والمتزايدة . أما المعارك التي دارت في ربيع وصيف سنة ١٧٩٩ ، فقد كانت سجالاً .

---

* وهي الحكومة الفرنسية التي حكمت من ١٧٩٥ الى ١٧٩٩ . (المعرب)

وفي شهر تشرين الاول (اوكتوبر) ، ترك « نابوليـون » جيشه في مصر ، وعاد الى فرنسا – مخترقـاً الحاجز الانكليزي – ليفرض سيطرته عليها ويعود سيدها المطلق ، كما كان سوف يصبح ، بعد قليل، السيد المطلق لمعظم القارة الاوروبية .

•

شكلت أنبـاء الحرب الأخيرة جزءاً مهماً من اتصالات « ايتون » بزميليه في شمالي افريقيا . ان تغيّر الاحوال وتبدل الظروف – مثل احتلال فرنسا للمدن الايطالية الصغيرة ، ومن ثم حمايتها لها ، وتصرّف القراصنة تجاه الاميرال « نلسون » واسطوله الانكليزي – أثّر تأثيراً بعيداً على المناورات العسكرية والسياسية التي كانت تحبك خيوطها على سواحل شمالي افريقيا . وكان همّ القناصل الأول ان يسبقوا القراصنة (متخذين بذلك الخطوة أو المبادرة الأولى) ، اذا مـا قرّر أولئك القراصنة ان يبدلوا علاقاتهم مع الولايات المتحدة المحايدة . وتظهر الاتصالات التي كان يجريها « ايتون » مع « اوبراين » و « كاثكارت » ، ان الاصدقاء الثلاثة قد تعاونوا على تحقيق منهاج ممتاز ينم عن الذكاء وانهم كانـوا مستعدين لمواجهة ردود فعل غير مرضية من حكام الدول المتبربرة .

وقد فقه قناصل الولايات المتحدة الاميركية في دول شمالي افريقيا ان احتلال احـدى الدول القوية لدول البحر الابيض المتوسط الضعيفة ، سوف يؤمن لتجارة تلك الدول المتوسطية الضعيفة حمـاية فعالة ، فيمنع بالتالي القراصنة من ممارسة نشاطهم السابق ، فلا يعيثون فساداً من جديد. وكما صرح « ايتون » ، فـان « نلسون » كان « نبتون »* (أي سيد) البحر الابيض المتوسط في ذلك الوقت ، فقد كان جميع قراصنة

* نبتون ، هو إله البحر عند الرومان (المعرب) .

شمالي افريقيا يرتجفون سراً عندما يفكرون في فرغاطة انكليزية ذات أربعة وأربعين مدفعاً .

وبعد معركة النيل، فقدت فرنسا- بصورة مؤقتة – هيبتها التي كانت قد فرضتها على البحار . فشن القراصنة – بتشجيع من تركيا ، ونزولاً عند رغبة بريطانيا – حرباً على الملاحة الفرنسية . إلا ان ذلك الحال لم يدُم طويلاً . والواقع ان النفوذ الفرنسي في شمالي افريقيا كان قوياً جداً الى درجة ان « ايتون » قد اعتبره من أكثر العوامل ضرراً وشؤماً التي سوف تقف حجر عثرة في سبيل اي سلام دائم بين الولايات المتحدة من نحو ، ودول شمالي افريقيا من نحو آخر .

وعلى الرغم من ان « ايتون » و «كاثكارت» كانا قد تمكنا من اقناع باي تونس بالموافقة على تعديل معاهدة الصداقة المعقودة مع الولايات المتحدة ، وعلى الرغم ايضاً من انهم قد أرسلوا المعاهدة المعدلة الى « فيلادلفيا » ، فان السلام الدائم ما كان امراً اكيداً على الاطلاق. وسرعان ما أدرك « ايتون » ان حاكم تونس الاستبدادي وحاشيته ينظرون الى الولايات المتحدة الاميركية نظرتهم الى مصدر مثمر لدفع الفديات ، ويسعون جاهدين لاستعمال شتى الوسائل الممكنة في سبيل استئناف ابتزازهم لأموال تلك الدولة الاميركية .

كانت المعاهدة تُلزم الولايات المتحدة بتقديم هدايا ، واعتدة بحرية، وسوى ذلك من البضائع والمؤن والسلع المشار اليها في نص المعاهدة. والى جانب الشروط المحددة في المعاهدة ، فقد ادعى المسؤولون التونسيون ، في الحال ، ان القنصل إنما هو مدين لهم ببعض «الفوائد المالية العرفية» الا وهي رواشن وبقاشيش باهظة الثمن كان من عادة القراصنة الأجانب ان يدفعوها عند اقرار المعاهدات . ولا تسل عن ذعر « ايتون » عندما تبيّن له ان كل فرد في تونس سوف يطالب ببقشيشه . فالباي ، والوزير الأول ، و« السابيتابا » ، وسكرتير الباي ، وسكرتارية السكرتارية ،

بل وحتى الحراس والخادمات الجميلات في القصر ، جميعهم بسطوا ايديهم لأخذ المكافآت المعتادة .

وقد أُخبِر القنصل بأن الهدايا المناسبة يجب ان تتألف من المجوهرات والبنادق . اما المسدسات والساعات المذهبة ذات السلاسل الذهبية ، والعكازات ذوات الرؤوس المطلية بالذهب ، فجميعها تعتبر من الهدايا الوضيعة التي لا قيمة لها . وقد اوضح « السابيتابا » :

« ان القنصل الأميركي لا يرضى طبعاً ان يقال عنه إنه بخيل شحيح ، كما انه لا يرغب ان تُتَّهم دولته بأنها اقل كرماً من الدويلات الايطالية الصغيرة » .

لقد انقلب مفهوم « ايتون » للاستقامة التي عهدها في ولاية « نيو إنغلند » فراح يصر بأسنانه في غضب عاصف .

ومما زاد الطين بلّة ، ان الاعتدة والبضائع المتفق عليها لم تصل ، الامر الذي جعل الباي رجلاً لا يقر له قرار . فانتهز الممثلون الاجانب ، المناوئة سياسة بلادهم لسياسة الولايات المتحدة ، تلك الفرصة لينشروا شائعات خلاصتها ان الولايات المتحدة دائبة على التهرّب من مسؤولياتها والتزاماتها . وقد رفض الباي عرضاً مالياً نقدياً قيمته خمسون ألف دولار اميركي عوضاً عن البضائع والمؤن ، مطالباً ببعض المجوهرات المعينة ... كما أشار « السابيتابا » ، في اول مناسبة ، أنه هو نفسه يود الحصول على برميلين من البارود ، مع سلسلة ذهبية للساعة — تلك المطالب التي كان المبعوث الاميركي « فامين » قد وعده بتحقيقها . فانفجر « ايتون » يقول :

« انه لمن الاوفر والانسب سياسياً للولايات المتحدة أن ترسل قوة عسكرية الى تلك البحار لحماية تجارتها ، عوضاً عن ان تستسلم لتلك المطاليب المتراكمة . »

فما كان من « السابيتابا » إلا أن نقل ذلك الحديث الصريح الى الباي

الذي استدعى « ايتون » للحال ، ومن غير ما تردد ، وراح يقول ببالغ التأثر :

« إتصل بحكومتك .. اني اعطيكم مهلـــة ستة اشهر كيما تعطوني جوابكم وترسلوا إليّ بهداياكم ... فوصولها في الموعد المحدد ينهي المشكلة ؛ والا ، انزعوا رايتكم ، واقفلوا راجعين الى بلادكم . »

وفي تقريره الذي بعثه الى حكومة الولايات المتحدة، قال « ايتون » :

« ان الولايات المتحدة قد بدأت بداية خاطئة واستمرت في ارتكاب الاخطاء ... تنازلات عديدة ، وامتيازات لا تحصى ، قمنا بها على سبيل تهدئة الجزائر . في اعتقادي ، انه ليس ثمة لغة يمكن التفاهم بها مع اولئك البشر سوى لغة الرعب . »

غير ان « ايتون » لم يكن واثقاً من ان حكومته سوف تتخـــذ خطوات حاسمة حول ذلك الموضوع . فلعل السياسة المسالمة التي كانت تتبعها الولايات المتحدة ، لعلها كانت تتطلب منها مزيداً من الوقت والنضال من اجل احراز السلام . ولذلك ، فقد شدد على وجوب ارسال البضائع والمؤن المتفق عليها تواً . ومهما يكن من أمر ، فقد كان يتمنى ان ترفض حكومته طلب المجوهرات الذي تقدم به الداي . وهذا ما كان يُحتّم بالطبع ارسال قوة بحرية مع البضائع المذكورة ، « اذا ما ارادت حكومتي ان تبرهن لهؤلاء القراصنة بأننا لسنا ايطاليين . »

اما اصعب ما كان عـــلى « ايتون » ذلك المواطن « النيو إنغلندي » الصرف ، بكل ما في الكلمة من معنى ، ان يتحمله ، فكان تصرّف « فامين » غير اللائق الذي كان قد ورثه عن « جول بارلو » . والحق أنه كان من الصعب ايضاً بالنسبة له ان يتخلص من « فامين » مع ان « بيكرينغ » كان قد سمح له بأن يُقيل « فامين » من أي منصب ذي علاقة بقنصلية الولايات المتحدة .

كانت الظروف قد ارغمت « ايتون » على ان يشاطر « فامين » بيته

ردحاً من الوقت عقب وصوله . ولم يحاول ذاك الاخير ان يكف يده عن التدخـــل في اللعبة الدبلوماسية بالرغم من الارتياب الواضح الذي اظهره « ايتون » تجاهه .

ولسوء الحظ ، ان الباي – لأسباب معينة خاصة به – كان مُصراً على اعتبار « فامين » مسؤولاً قنصلياً اميركياً ... ومما لا شك فيه ، ان « ايتون » لاحظ ان « فامين » كان اداة طيّعة في يد الباي ، وانه كان يشجع هذا الاخير ، بصورة مستمرة ، على الاكثار من مطالبه الجديدة من الولايـــات المتحدة . أضف الى ذلك ، ان « فامين » كان جاسوساً فرنسياً من غير ما ريب البتة ... فكان يتحايل دوماً ويعمل على عرقلة مصالح الامم المعادية لفرنسا ، حتى في الايام التي كانت فيها تونس تخوض حرباً عملية ضد فرنسا .

وفي حوالى منتصف شهر نيسان (ابريـــل) اكتشف « ايتون » ان « فامين » كان رجلاً ذو وجهين ، فاتهمه في حضرة القنصلين الانكليزي والسويدي بأنه : « خائن مخادع ، منافق مزدوج الشخصية ، ومحتال دجال ... » .. وقد تنحّى « فامين » لفترة لم تطل ، اذ انه سرعان ما عاد يزعج القنصل الاميركي .

ثم تأكد « لايتون » ان النشاط الذي كان يمـــارسه بنك « بكري وبوسنة » – عن طريق عميله المحلي « سليمان عازولاي » – ، كـــان المقصود منه إلحاق الضرر بالمصـــالح الاميركية ... وفي طرابلس وجد « كاثكارت » أنه كان يُتوقع منه تسيير جميع الشؤون المالية عن طريق « ليون فرفارا » الذي كان واحداً من عملاء « بكري » . ولم يمض كثير من وقت ، حتى تيقن القناصل الثلاثة ان رجال البنوك والسماسرة اولئك يتآمرون بالاتفاق مع فرنسا ، ويعـــارضون – بصورة سرية – كل المحاولات الهادفة الى احلال السلم بين الولايات المتحدة وشمالي افريقيا ... كانت الارباح العائدة لهم كسماسرة ووسطاء بين الدول الدافعة للجزيـــة

تتضاعف نسبياً تبعاً لتعقد المباحثات وتأزمها . ان واجبهم المحدد كان يتلخص بابقاء المياه الدبلوماسية في حالة متواصلة من الغليان .

وغالباً ما كان القناصل الاميركيون الثلاثة يستعملون في اتصالاتهم عبارة « حكومة المديرين اليهودية » في الجزائر ، – أي مؤسسة « بكري وبوسنة » وفروعها – التي كانت تقبض على زمام الامور في شمالي افريقيا ، وفي حوض البحر الابيض المتوسط ... وكان القناصل بذلك يربطون عبارتهم تلك بحكومة المديرين الفرنسية التي كانت في حالة تدهور مالي وسياسي معاً .

وان من يطّلع على المناقشات التي كانت تدور بين اولئك للقناصل ، ليتبادر الى ذهنه أنهم كانوا ثلاثة من الاميركيين المناهضين للسامية ، والذين يوجهون الاهانات للجنس اليهودي. والواقع ، ان نقدهم الساخر العنيف انما كان موجهاً الى جماعة معينة من رجال المصارف اليهود ، لا الى اليهود بصورة عامة . ان عداءهم الخاص قد نشأ غبَّ تأكدهم من تواطؤ رجال المصارف مع رجال السياسة الفرنسيين .

•

وفي التقرير الذي بعثه « ويليام ايتون » الى « بيكرينغ » ، كتب القنصل الاميركي أن حكومة المديرين الفرنسية كانت تستخدم وكالة « بكري وبوسنة » لتمهيد الطريق نحو اتفاق فرنسي مع الجزائر ، وسواها من دول شمالي افريقيا ، ذلك الاتفاق الذي قد يعني القضاء على جميع المصالح الاميركية .

كتب « ايتون » في ١٥ تموز (يوليو) ١٧٩٩ :

« منذ اواخر شهر شباط (فبراير) الماضي ، حين كنت في الجزائر ، صدق حدسي عندما بعثت حكومة المديرين الفرنسية بمبلغ ١,٢٠٠,٠٠٠ ليرة صادرة عن مؤسسة « بكري وشركائه » في فرنسا الى اشقاء « بكري

وبوسنة » وعملائهم وموظفيهم في الجزائر ، وأعقبت تلك الدفعة بأقساط شهرية يوازي كل منها مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ ليرة (أي كل شهر) ، شريطة أن يتابع الدائنون ارسال البضائع الى مالطة ، وهذا ما ضمن لفرنسا ان يبقى جميع اليهود في شمالي افريقيا الى جانبها ، كما ضمن لها ايضاً ان هيمنتهم على مصالح الدولة في الجزائر سوف تكون خير عامل مساعد فعّال لصالحهم ... اذاً نستطيع التكهن بأن اليهود سوف يتخلون عن الولايات المتحدة ، ان لم نقل سوف يخونونها ، مما يدفعنا الى الاحتراز والحذر من جعلهم محلاً لثقتنا . »

وفيما بعد ، راح « ايتون » يتهم « اوبراين » نفسه بأنه يخضع لضغط ممثلي « بكري وبوسنة » ونفوذهم ، وانه كان يستقرض منهم الاموال ليقوم بمضاربات خاصة في البورصة ، وانه كان بالتالي يميل الى ارضائهم ... على ان تلك التهمة تحتمل الشك والمداولة ، اذ ان « اوبراين » كان محيطاً وعالماً بمكائد اصحاب ذلك البنك . وعلى كل حال ، فان تعليمات القنصل العام الموجهة الى كل من « ايتون » و « كاثكارت » ، والمتعلقة بتعديل المعاهدة مع تونس ، كانت تطلب من السفير الجزائري في تونس ومن موظف بكري المدعو « عازولاي » أن يضطلعا فعلياً بأمر استئناف المناقشات . وكان من الطبيعي أن يرفض القناصل ذلك ، وان يكتب « ايتون » الى « اوبراين » بان المصالح الاميركية سوف تسير الى الزوال اذا ما تنفذت طلباته وأوامره ، اذ ان « عازولاي » قد فضح عن طيش ، جميع اسرارهم ، مما أثار عداوة الباي وكراهيته لهم ، وجعله يمتعض ويستاء من تدخل داي الجزائر ومؤسسة « بكري » .

وعندما وجد « عازولاي » انه غير مرغوب فيه في تونس ، راح « ايتون » يعمل على اثارة خلاف بينه وبين « اوبراين » ، وعلى توقيف الرسائل التي كان يبعث بها « عازولاي » .

وتظاهر الفرنسيون بأنهم يؤيدون الاميركيين في قضيتهم . وفيما يتعلق بالفرنسيين ، فقد كتب « ايتون » في يومياته يوم ١ آب (اغسطس) ما يلي :

« لقد بات حقيقة لا تقبل الشك ان توسُّط المندوب الفرنسي والبنك اليهودي في الجزائر ، إنما يهدف الى تقوية نفوذ – او ترسيخ أقدام – المندوب الفرنسي والبنك اليهودي ها هنا . وقد بات من الواضح ، ايضاً ، ان نفوذهم قد تخطى نفوذ جميع مندوبي حكومتنا الذين تأخّروا عنهم بأشواط . وأصبح من المؤكد عندي ، ان روح « فامين » الضعيفة ، والمخادعة ، والأنانية ، والمراوغة لم تستطع ان تقوم بعمل من ذلك النوع ، وان تدبيره الفاشل خانه ولم يساعده على تحقيق هدفه . واتضح عندي ايضاً وأيضاً ، ان اليهود لم يتخلوا عن مشروعهم . إنهم حاولوا استخدام « كاثكارت » واستخدامي انا ايضاً كأدوات منفذة لسياستهم . ومن الواضح كذلك ، ان القنصل العام كان معصوب العينين ، فلم يفقه شيئاً من ذلك » .

ومن غير تردد او خجل ، اتاح « ايتون » لنفسه الفرصة لفضح خطة الفرنسيين والجزائريين في محاولتهم السيطرة على المفاوضات الاميركية مع تونس ، ومن ثم توجيه العلاقات التونسية – الاميركية لملاءمة اغراضهم المتبادلة . ففي الثامن من شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٧٩٩ ، اورد القنصل في يومياته عرضاً ملخصاً لتاريخ المفاوضات السابقة بين الاميركيين وتونس – طبعاً ، كما فهمها هو . وقد اتهم « جول بارلو » الذي كان قد عيّن « فامين » في منصب مندوب لأميركا بأنه سكن مدة طويلة في فرنسة ، الى درجة ان مَلَكَة التمييز عنده قد تشوشت ! ! والجدير بالذكر ، ان « اوبراين » قد وقع ، في وقت لاحق ، فريسة في الأفخاخ التي نصبها كل من الفرنسيين ، ومؤسسة « بكري » ، و داي الجزائر . على ان مكائد الفرنسيين ، واليهود والجزائريين ، فقدت

مفعولها حال وصول « ايتون » الى تونس .

وختم « ايتون » ملاحظاته بقوله :

« ولكننا نأمل ان تلفت المصاعب التي واجهناها هنا نظر حكومة الولايات المتحدة الى انها يجب الا تخطىء فتلجأ مرة اخرى الى ارسال مندوبين اجانب . ففي اللحظة التي كان الفرنسيون فيها « أعز اصدقائنا » ، كانوا يعملون على تأخير نشر السلم بيننا وبين السلطات الافريقية الشمالية من جهة ، وعلى طرد تجارتنا من البحر الأبيض المتوسط من جهة اخرى . اما الانكليز ، فاذا لم يحاولوا ان يسلكوا السبيل نفسه للتوصل الى غاية مماثلة ، فانهم على الأقل سوف يكفّون عن ان يتصرفوا تصرفاً « انسانياً » او « دولياً » يليق بمقامهم » .

بدأ ازدهار تجارة الولايات المتحدة في المتوسط يثير حسد دول اوروبا البحرية .. ولقد لاحظ « ايتون » ، بنظره الثاقب ، اي المصالح التجارية الاوروبية لن تسمح للدولة الغربية الفتية الناشئة — ان الولايات المتحدة — بأن تزاحمها وتأخذ قسطاً من ارباح تلك الدول التجارية . ولمنع ذلك ، بل وللوقوف في وجه ازدهار التجارة الاميركية ، لم ترَ تلك البلاد بدأً من مد يد المساعدة الى قراصنة شمالي افريقيا .

كتب « ايتون » في التقرير الذي ارسله الى « بيكرينغ » يوم الخامس عشر من شهر حزيران (يونيو) سنة ١٧٩٩ :

« إني اميل الى الاعتقاد بأن الولايات المتحدة سوف تتمكن سريعاً من ان تسيطر على التجارة في حوض المتوسط ، او انها — على الأقل — سوف تأخذ حصتها المناسبة من تلك التجارة . ومن بين العوامل التي تساعدها على تحقيق ذلك ، موقفها المحايد ، وقربها من جزر الهند الغربية ونشاط ملاحيها الملموس .

« إن اوروبا سوف تشهد بأم عينيها تلك الثروة الهائلة وذلك النفوذ العظيم يتحولان الى الغرب بفضل ذلك الاحتكار . وهكذا ، فان حسد

تلك الدول ، وحقدها ، وخوفها على مصالحها الخاصة مجتمعين ، سوف يدفعونها الى محاربة الولايات المتحـــدة ، ولسوف يتم ذلك عن طريق المكائد والاغتيالات .. وها ان القراصنة يعرضون خدماتهم من اجل تنفيذ تلك الخطة . لقد نذروا حياتهم لا لغاية سوى تلك الغاية . فالقراصنة يعتبرون السلام والحرب ، على حد سواء ، اداتين من ادوات التجارة، وبالامكان – بسهولة فائقة – شراؤهم ، اذ انهم يميلون الى العمل مع من يدفع لهم الاجر الاكبر » .

وهكذا تجمعت لدى « ايتون » الدلائل على ان انكلترة وفرنسة قد عقدتا العزم على تحطيم التجارة الاميركية في البحر الأبيض المتوسط ، فبعث بتلك المعلومات الى « بيكرينغ » ، مضيفاً اليها تعليقاته القاسية . اما الانكليز المقيمون في شمالي افريقيا ، فلم يبذلوا ايمـــا جهد لاخفاء مشاعرهم . فمثلاً ، قال القنصل البريطاني في تونس ، لدى سماعه ربّان احدى السفن يُعلن ان ثمانين مركباً اميركياً قد عبرت مضيق جبل طارق ذلك الربيع :

« يا إلهي ! يجب ان نضع حداً في وجه اولئك الناس .. انهـــم يقضون على كامل تجارتنا هنا وفي جزر الهند الشرقية » .

كان المراقبون الاميركيون واثقين من ان دول اوروبا التجارية لن تتأخر عن ، او بكلمة اوضح ، لن تتردد في القضاء على الولايـــات المتحدة والاستيلاء على ثرواتها ، اذا ما واتتهـــا الظروف . وقد كتب « ايتون » لـ « بيكرينغ » :

« لكم اتمنى ان أُقنع نفسي بأن الدول الاوروبية المتنافسة لن تقدم على غرز براثنها في جسد اميركا النامي .. ولكن هيهات » .

كانت جميع الدلائل في شمالي افريقيا تؤكد « لايتون » بأن احداً من بلدان اوروبا لا يتمنى للولايات المتحدة ان تحقق اهدافها .

وحينما تأكد « لايتون » ان الدول الاوروبية تميل الى تحطيم الولايات

المتحدة والتخلص منها كمنافس تجاري ، راح يراقب الصراع الدامي بين فرنسا والدول المتحالفة ضدهـــا . فكتب « لاوبراين » في ٥ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٧٩٩ :

« بصراحة ، ايها الأخ الصديق ، اني لجـــدّ مسرور بأن القوى المحتشدة قد هُزمت في سويسرا وهولندة ؛ كانت سطوتهم ستبلغ الذروة.. ولكن من المؤسف ان تُضحّى الحياة البشرية . ولكن ، مرة اخرى ، لمّا كان الطموح لا يعرف حدوداً ، فاني اتمنى ان تنهك دول اوروبا المتنافسة قوى بعضها البعض في القارة الاوروبيـــة . بل وأتمنى ايضاً – اكثر من ذلك – ان تدوم الاشتباكات في ما بينهم الى ان تخور قواهم ويصبحوا مرغمين على النهوض بصناعتهم ، من جديد ، لتعويض الخسائر التي حلّت بهم بعد حروبهم الوحشية . اما اذا تغلب فريق من الفرقاء الاوروبيين على الآخر ، فمن يضمن لاميركا ، حينئذ ، حماية معقولة في وجه ذلك الطاغية ؟ » .

•

لقد اوضح « ايتون » ان التناحر الأوروبي ما كان سوى نتيجة للطموح القومي والتوسع الاقليمي ، علماً بأنه ليس من دولة تتمتع بجدارة او فضيلة اكثر من غيرها . وبديهي ان يتمنى جميع الفرقاء الاوروبيين ان تتحمل الولايات المتحدة جميع اضرار الحرب بدلاً من ان يطوّروا صناعتهم من اجل اعادة بناء ما تهدم لديهم . وأضاف « ايتون » :

« إني لا أُصلي الا نادراً .. ولكني في هذه المناسبة اتضرع الى الله بحرارة ، لكي تفتك الجيوش الاوروبية بعضها بالبعض الآخر ، الى ان يفقد الاوروبيون وعيهم من كثرة ما نزف منهم من دماء » .

وعلى الرغم من ان الدول المتحالفة كانت تبدو اعظم قوة من فرنسا ، فان « ايتون » كان يعتقد ان الحرب سوف تنتهي بورطة كبيرة . وقبل

ان يبدي الانكليز تعقلاً وتفهماً في اختيار جنرالاتهم ، ظل يعتقد ان فرنسا ستدحر الدول المتحالفة ضدها .. وقد جاء تعيين « دوق اوف يورك » المغفل والأبله قائداً عاماً ، دليلاً جزئيـاً على صواب وجهة نظره . فكتب « لاوبراين » :

« ان الوزارة البريطانية لتستحق الدفن لتعيينها ذلك الأحمق على رأس جيش يتألف من اشجع الرجال وأقدر الجنرالات » .

كان شعور « ايتون » المتزايد بأن الولايات المتحدة كانت الضحية المقصودة للمؤامرة الاوروبية يُبقيه على حذر في معاملاته مع سائر القناصـل في تونس . وهذا ما اوضحه في رسالته الى « اوبراين » ، حينما قال :

« إن جواً من التفاهم يربطني بكل واحد منهم ، ولكني لست على اية علاقة متينة بأحدهم . اما من ناحية المعتقدات السياسية ، فان احداً منهم لا يعرف معتقداتي الخاصة . فبما ان دولتنا ليست على وفاق مع اوروبا ، فأرى انه ليس من الحكمة بمكان ان اكشف عن معتقداتي امامهم » .

هكذا تكلم احد المؤيدين للانعزالية الاميركية ، تلك الانعزالية التي قامت على اساس الخوف من ان تحاول اوروبا المتدهورة اخلاقياً وسياسياً، اغتصاب اميركا الضعيفة .

وكلما كانت رحى الحرب الاوروبية تدور ، كان قناصل الولايات المتحدة الاميركية في شمالي افريقيا يتبينون ان الخطر المحدق بالتجارة الاميركية في المتوسط آخذ بالازدياد ، كما كانوا يحثون حكومتهم على اتخاذ خطوات حاسمة تجاه بلدان شمالي افريقيا . وفي ٢٩ نيسان (ابريل) سنة ١٧٩٩ ، كتب « ايتون » لـ « بيكرينغ » مُنبئاً اياه ان باي تونس كان يبحث عن سبب لنقض المعاهدة مع الولايات المتحـدة ، بحيث يصبح في مقدوره ان يستولي على السفن الاميركية المسالمة . ولا تسلني عن جزع « ايتون » وقنوطه ازاء قضية السلام في شمالي افريقيا ، بل

اعلم انه كتب « لأوبراين » – في ٥ ايار (مايو) – انه اذا ما كانت مشاعره تستطيع ان توجه السياسة الاميركية ، فان الولايات المتحدة ، عندئذ ، سوف تجهز اسطولاً ، وتقضي على كل قرصان « وليصب الباشوات جام غضبهم على القناصل ، بل وليأكلوا لحمنا اذا ما طاب لهم ذلك » .

•

بدا آنذاك ان الحرب اصبحت وشيكة ، اذ ان الولايات المتحدة لم تكن مضطرة الى مكافحة جشع حكام شمالي افريقيا فحسب ، بل كان عليها ايضاً ان تواجه مكائد اوروبا برمّتها . وكان « ايتون » يقول إنه حتى الجزائر التي تدّعي انها صديقة الولايات المتحدة ، « تخدعنا ضمنياً في الوقت الذي تلعب فيه دور الدمية في ايدي صديقتيها تونس وطرابلس .. » وبعد مضي شهر على تلك الحال ، اخبر « ايتون » القنصل العام « اوبراين » بأنه يضيق ذرعاً بسياسة شمالي افريقيا ، وانه لن يقوى على تحمل المتاعب التي يسببها له منصبه اكثر من ذلك .

ثم اضاف :

« ينبغي ان ترسل الحكومة ، بعد موافقة « الكونغرس » ، قوة الى تلك البحار ، وذلك لكي تتأكد على الاقل من غطرسة اولئك الأشرار ، وتبعث الاحترام اللائق بها في النفوس » .

وفي مطلع فصل الصيف ، وصلت الحرب الاوروبية الى حالة نشأ معها نوع من القلق الذي لا يحتمل في نفوس القناصل الذين كانوا اشبه بالجالسين على براميل من البارود في شمالي افريقيا . وفي التاسع من حزيران (يونيو) ، كتب « ايتون » الى « كاثكارت » – في طرابلس – بأنه من المحتمل وقوع اي شيء لا سيما وان كلاً من الاسطولين الفرنسي والانكليزي يبحث عن المغامرات ، ولكنه كان يتوقع كل ما سوف

يحدث في غير صالح اميركا .

وتابع « ايتون » يقول :

« إن جزر البحر الابيض المتوسط بدأت تتمتع ، او قل سوف تتمتع ، بحماية الدول الكبرى .. « فالبندقية » لم تعد هدفاً لهجمات القراصنة، اذ انها موالية للامبراطور من جهة ، ومؤيدة « للسنيور الأكبر » (اي سلطان تركيا) من جهة اخرى . اما فرنسا واسبانيا ، ففي مُكنتيهما الدفاع عن نفسيهما ضد هجمات القراصنة . اما البرتغال ، فعلاوة على انها تنتصر عليهم في بحارهم ، فانها تفرض عليهم شروطها الخاصة في عقر دارهم .. وتملك الدانمارك والسويد في تلك البحار فرغاطات كفيلة بأن ترغم القراصنة على التزام السكينة . أما من جهة الهولنديين ، فليس لديهم تجارة يمكن ان تثير جشعهم ... وهكذا ، بعد أن فقدت تونس معظم ضحاياها ، لا بد ان تحاول ان تعيش على سلب خيرات الولايات المتحدة الاميركية » .

ثم استنتج « ايتون » — بعد كل ذلك — أنه حتى الرئيس « جون ادامس » ، بل وحتى النبي محمد ، صلى الله عليه وسلم ، و «جوبيتير» كبير آلهة الرومان ، لن يستطيعوا التغلب على قراصنة شمالي افريقيا ما لم يُحضروا معهم أسلحتهم .

شدد « ويليام ايتون » على جميع تلك الحقائق في تقريره الذي أرسله لـ « بيكرينغ » في ١٥ حزيران (يونيو)... في الحقيقة أن تونس كان لا يقر لها قرار ، اذ لم يكن لديها أية فريسة يتسلى بها قراصنتها . أما حربها ضد فرنسا— التي ارغمتها بريطانيا العظمى على خوضها بواسطة تركيا — ، فما كانت حرباً مُجدية ، وكان « ايتون » واثقاً من ان تونس سوف تطلب عقد الصلح مع تلك الجمهورية . كان « ايتون » يعتبر الحرب التي كانت تخوضها دول شمالي افريقيا ضد فرنسا حرباً زائفة ، اذ أنه لم يعثر على دليل يؤكد له ان سياسة المكائد والمؤمرات

الفرنسية بدأت تضعف على الاطلاق . كانت فرنسا – والحقيقة ان بريطانيا العظمى كانت تعرقل سير خططها جزئياً – مستعدة لدفع أثمان باهظة بغية شراء الحبوب وزيت الزيتون من شمالي افريقيا . وفي الوقت الذي كان يجني فيه أصحاب مؤسسة « بكري » أرباحاً فاحشة عن طريق تجارة تهريب البضائع مع فرنسا ، كانوا – من جهة ثانية – يعملون باستمرار على تقويض الجهود التي كان يبذلها اعداء فرنسا . وهكذا تلاقت المصلحة الخاصة مع النهج السياسي وتعاونا على القضاء على الاعمال التي كانت تقوم بها منطقةُ شمالي افريقيا ، بأمر من تركيا المتسلطة * التي كانت تتلقى تلك الاوامر – بدورها – من بريطانيا نفسها . واذ ان دول شمالي افريقيا لم تكن لتجرؤ على مس السفن التي كانت تحمل جواز مرور بريطاني، فان زعماء القراصنة اصبحوا على وشك الانفجار... لذلك فقد اوضح « ايتون » ، بعد فترة وجيزة، بأن باي تونس سوف يضطر الى ان يطلق العنان لقراصنته للانقضاض على المراكب الاميركية .

وفي الواقع ، ان العيون التي بثها القنصل في المنطقة قد زودته بمعلومات مفصّلة عن تقديرات الغنائم التي يتأمل القراصنة بالسطو عليها.

وفي الوقت الذي علم فيه قناصل الولايات المتحدة الاميركية ما علموه ، فان الشعب الاميركي ، بصورة عامة ، لم يكن يعلم عن اخطار الحرب الاوروبية شيئاً . ان الذي اثار الولايات المتحدة ، بعامة ، هو طلب الرشوة الذي تقدمت به حكومة المديرين الفرنسية في عملية (XYZ) المشهورة ... ومن عجب ، الا تكون الحرب التي شنتها فرنسا على التجارة الاميركية قد حرّكت اي شعور حربي لدى ملايين الاميركين.

أما فيما يتعلق بتهديد قراصنة شمالي افريقيا بالنهب والسلب ، فان

---

* المتسلطة : هي دولة تفرض سلطانها ، في حقل الشؤون الخارجية ، على دولة تابعة ، تاركة لها حرية التصرف في الشؤون الداخلية .

ذلك التهديد انما كان موجهاً الى الولايات ذات المصالح التجارية فقط .

وعلى الرغم من ان التجارة الاميركيـــة في حوض البحر الابيض المتوسط قد حققت ثروات هائلة لمن كان يتولاها ، فان احداً في اميركا لم يرَ من ضرورة لحماية تلك التجارة بالقوة العسكرية ... أما الرئيس « جون ادامس » ، فانه ظل يعتقد انه من الاوفر والارخص دفـع الاموال للقراصنة استرضاء لهم كلما عاثوا فساداً . واما « الكونغرس » ، فقد كان يتبع سياسة الاقتصاد في التوافه والاسراف في عظائم الامور ، تلك السياسة التي قـــادت المفوضين الدبلوماسيين الاميركيين في شمالي افريقيا الى اليأس والقنوط .

●

ان قصر نظر السياسة الاميركية التي رفضت تقدير النصائح والمجادلات ومحاولات الاقناع المتزايدة الرامية الى مجابهة المحن مسبقاً بتجهيز عسكري مناسب حق قدرها – وقد كان قصر النظر ذلك من نقـــاط الضعف المزمنـــة في تلك الامة – قد أزعج « ايتون » وأربكه . وقد كتب « ايتون » لـ « بيكرينغ » بسأم وضجر بارزين :

« ان مواطني الولايات المتحـــدة حريصون على الاحتفاظ بحريتهم ، ومتشبثون بأملاكهم. وهذا ما يجعلهم عديمي الاكتراث ، فيتأخرون عن بذل المجهود في سبيل الاحتفاظ بأحب الاشياء الى قلوبهم . ان الحرب الاوروبية وما رافقها من نهب وتخريب واتلاف لم تقنعهم بأن موقفهم الشاذ وعدم تفكيرهم بالدفاع عن أنفسهم يُلحقان بهم الخزي والعار . ولست ادري الآن كم سيكلفنا تأمين سلامتنا وحمايتنا – في تلك البحار – من خطر القراصنة » .

لم يعد لدى « ايتون » ايما شك في أنه ينبغي على الولايات المتحدة ، ان عاجلاً أم آجلاً ، ان تحارب من أجل نيل حقوقها في البحر الابيض

المتوسط . والحق ان « ايتون » قد أثبت أنه منـــدوب ممتاز وبارع ، وبخاصة في قدرته على جمع المعلومات الدقيقة والجزئية عن قوة تونس الحربية ، وعن افضل الطرق التي يمكن الهجوم بها على مراكبهـــا وحصونها . ولا نعدو الحقيقة اذا ما قلنا ان تقاريره كانت غاية في الوضوح ، الى درجة انه بامكان الباحث في ايامنا هذه ، ان يستفيد من وصفه الدقيق للتضاريس والمناطق الطبيعية .

كان « ايتون » يقوم برحلات الى مختلف المناطق المشوّقة في انحاء تونس رجاة جمع المعلومات ... غير انه كان يتذرّع بحجة التنزه وتأمل المناظر الطبيعية . فعلى سبيل المثال ، تمكن في زيارته التي قام بها الى انقاض مدينة قرطاجة من أن يقوم بدراسة حول الريف بالنظر الى الدور الذي يمكن ان يلعبه في الاعمال الحربية . وخلال زيارته الى شاطىء البحر (قرب بنزرت) ، اكتشف نقاط الضعف في امكانيات تونس الدفاعية ، فقدم بذلك لبلاده مفتاح تطويق مدينة تونس نفسها .

وحالاً بعد وصوله الى تونس ، قام « ايتون » بتحضير تقرير اوّلي ضمّنه نظرات على القوة العسكرية لكل من الجزائر وتونس بمقدار ما سمحت له ملاحظاته بأن يقدّرهـــا . فكان في مستطاع تونس ان تجند حوالى مئـــة وعشرين طراداً ، معظمها من الحجم الصغير ، وبعض المدافع من فئة معينة. وكانت المراكب التونسية تفضُل المراكب الجزائرية ، كما ان البحارة التونسيين كانوا اشد نشاطاً من اصدقائهم الجزائريين . ومع ذلك ، فان « ايتون » قد اخطأ في تقدير مقدرتهم ، فهو كان قد سمع الكثير عن منجزاتهم واعمـــالهم ، ولكنه نسي أنهم كانوا ــ في الواقع ــ محاربين صناديد واشداء خاصة حين يبحرون في مراكبهم .

اما مدينة الجزائر ، فلم تكن حصينة ، فقد كانت عرضة للسقوط بيد الاعداء ، أأتى الهجوم من جهة البر او البحر. فكان من السهولة بمكان عظيم ، انزال الجيوش في الخليج على قاب قوسين من غربي

المدينة ، علماً بأن تلك الجيوش لن تجد أية صعوبة في استكشاف المدينة والاطلال عليها ... كانت سرية صغيرة من المدفعية – اذا ما تمركزت على الهضبة الغربية – كفيلة بالقضاء على القلعة من دون عنـــاء . فان جنود الحامية العثمانيين الجائعين جوعاً شديداً ، والمرابطين حول القلعة ، لن يكون لدفاعهم اعتبار يذكر .

أما تونس ، فكانت أشد تحصيناً واقل عرضة للسقوط ، اذ انـــه كان من الصعب نقل المدافع اليها من البحر ، ناهيك عن انها لا توفر للعدو مكاناً صالحاً لانزال جيوشه ، الا على بعد خمسة عشر ميلاً ... ولكن اذا ما تمكنت قوة عسكرية ، لا تتألف الا من مدافع يسيرة ، ان تصبح على مقربة من المدينة ، فان المدينة سوف تسقط بسهولة ، اذ ان تحصيناتها ضعيفة ومهدمة .

وكانت « بنزرت » – في نظر « ايتون » – عقب أخيل (يقصد انها موقع غير منيع) ، يستطيع العدو اذا ما وصلها ان يشل الحركة في تونس. ومن الطريف ، انه تقدم باقتراح جريء مفاده أنه ينبغي على حكومة الولايات المتحدة في المرة المقبلة التي تجري فيها مفاوضات بينها وبين تونس ، ان تضرب ضربتها الاولى على « بنزرت » وتأسر عدداً من ابنائها ، ومن ثم ترسلهم الى اميركا قبل ان تفتح باب المساومة مع الباي . وأشار الى ان « بنزرت » ضعيفة من الوجهة الدفاعية ، وان ليس لديها من التحصينات سوى القديم المهترىء . ومن المستغرب أنه لم يكن ثمة حامية للقلعة ... لقد قال « ايتون » ان :

« وكيل القلعة يعتمد في كل ليلة على ان النبي محمـــد ، صلى الله عليه وسلم سيحرسه كما انه يؤمنه على روحه » .

وكان يرابط عند كل من المرفأ المصان بحاجز للامواج وتحصينات خاصة ، سبعون جندياً وعلى رأسهم قائد تركي ، غير انهم لم يكونوا مزودين تزويداً حسناً بالسلاح ، كما انه لم يكن ثمة مخزن للاسلحة في المدينة . فكان من السهل ، اذاً ، بالنسبة لثماني كتائب من المشاة الاميركيين ان

يحتلوا المدينة .. ان مثل تلك العملية سوف تكون ضربة موفقة اكثر من عملية مطاردة الطرادات التونسية التي إن استولت عليها دولة محاربة فسرعان ما تكتشف انها لم تكن جديرة بالمطاردة .

وتبرز اهمية هذا الاقتراح على ضوء خطة « ايتون » الاخيرة لقهر طرابلس . كانت الخطة عملية وواقعية ، وقد اظهرت تفهماً واعيـــاً للطريقة المثلى التي يجب ان يعامل بها القراصنة . وبعد ان ترعرعت تلك النواة في ذهن « ايتون » ، شرع يعمل على تحليل الموقف العسكري في تونس وسائر دول شمالي افريقيا تحليلاً مفصلاً .

وعند الخامس عشر من شهر حزيران (يونيو) ، كان قد تجمع لدى « ايتون » عدة بيانات ، ومجموعة هائلة من المعلومات التي ضمّنهـــا تقريره الرائع ليرسله الى « بيكرينغ » ، وبالرغم من تعدد الموضوعات التي عالجها في تقريره ، فان موضوع البراعة العسكرية قد احتل المكان الأكبر من التقرير . فعلى سبيل المثال ، دعم القنصل تقريره بلائحة عن الطرادات التونسية مع بيان تفصيلي عن ملاكيها ، ومرافئها الاصلية ، وعدّتها الحربية ، وعدد الرحلات التي قامت بها خلال السنة السابقة . كما اضاف الى تقريره ملحقاً يبين الأشهر التي يبلغ فيها نشاط القراصنة اوجه . فالقراصنة لا يبتعدون عن مرافئهم ــ بصورة عامة ــ الا مسافات قليلة في شهر شباط (فبراير) ، اي عندمـــا يكون الطقس في اسوأ حالاته .. ولكن حتى ذلك النوع الرديء من الطقس ، لم يكن ليمنع الملاحين الاشداء الذين اعتادوا الابحار شمالاً من ركوب البحر .

والحق ان المعلومات التي جمعها « ايتون » كانت تفي بمطاليب اية حملة عسكرية ، اذا ما فكرت احدى الدول بتجهيزها على تونس ، اذ ان تلك المعلومات قد تناولت ــ على الاخص ـــ موضوعات عديـــدة تتخللها تفصيلات جزئية حول : ساحل شمالي افريقيا ، المرافىء ، الرياح والطقس ، التحصينات ، والقوة العسكرية للحاميات . فقـــد وصف

« ايتون » ، مثلاً ، وصفاً تحليلياً دقيقاً جميع امكانيات المرافىء الواقعة على طول الساحل التونسي . واليك ما قاله في هذا الصدد :

« ان اهم المرافىء البحرية هنا هي : « بورتو فارينا » ، صفاقس وقابس ، وسوسه ، وبنزرت » .

ثم اضاف :

« ... إن « بورتو فارينا » هو ملتقى المراكب الحربية ، اذ انه لا يُسمح لسواها بزيارته » .

إن ذلك المرفأ الذي يقع على بعد خمسة وعشرين ميلاً شمالي – شمالي غربي تونس ، اي على بعد مسافة قصيرة من « بنزرت » ، ليحتوي على اهم مخازن ومستودعات الاسلحة البحرية . وقد كان مدخل هذا المرفأ ضيقاً وضحلاً ، الى درجة انه كان من المستحيل ان تدخله الطرادات والمراكب الا بعد إمالتها على جانبها . وعلى ذلك النسق ، كان « ايتون » يبيّن خصائص سائر المرافىء .

وفي معرض حديثه عن مدينة بنزرت ، عاد « ايتون » ليقول – مرة ثانية – بأنها موقع مناسب للهجوم الخارجي ، وذلك لأنها :

« مرفأ واسع ، ولأن ارضها مناسبة لرسوّ السفن على قاب قوسين من القلعة .. »

ولكنه لم ينسَ ان يحذر من ان :

« الممر المنفتح من جميع جوانبه معرّض لأعمال البحر القاسية من الجهة الشمالية الشرقية . وتتوفر بنزرت على مرفأ واسع يصونه حاجز للأمواج . وعند ذلك الحاجز للأمواج ، تُجمع الطرادات وتُخفى مثلما يتم ذلك عند مدخل بورتو فارينا » .

اما فيما يتعلق بالقوة العسكرية لتونس ، فقد أبدى « ايتون » ازدراءه واحتقاره لها عندما كتب يقول :

« ان قوة تونس العسكرية لخيالية اكثر منها منطقية .. وكل تركي ،

وكل من تحدر من اصلي تركي ، هو جندي .. ويبلغ مجموعهم ٦٨٠٠ ، وهم يؤلفون ما يطلق عليه اسم المشاة النظـامين ، مع العلم بأنهم لا ينتظمون ولا يجتمعون أبداً . على ان البعض منهم يبرز في الميدان مرة او مرتين ، من كل عام ، ليجوب المقاطعات الداخلية بغية جمع ضرائب الدخل من المسلمين الفقراء » .

لم يفرض العثمانيون نظاماً صارماً مثل نظـام الميليشيا * الأميركية . وبالاضافة الى الاتراك العثمانيين ، كان بامكان البـاي ان يحشد حوالى عشرة آلاف مسلم من غير النظاميين والذين لم يتدربوا الا تدريباً لا يذكر . اما التزويدات التي كان يزود بها « جيشه » ، فكانت احقر من ان تكون جديرة بالذكر . استمع اليه يصفهم متهكماً :

« فحتى الخيول التي يمتطيها الخيالة التونسيون ، كانت – في الواقع – أردأ من خيـول الطواحين التي كنت اشاهدهـا في مسقط رأسي « نيو انغلند » ، بدلاً من ان تكون من الخيول الاصيلة مثلما يتوقع » .

●

وصفوة القول ، ان « ايتون » كان يعتقد ان تونس كانت ضعيفة عسكرياً الى درجة انه كان من العار بالنسبة لدولة قصيّة كالولايـات المتحدة ، ان تضيع وقتها في محاولات لاحلال السلم مع اولئك المتشردين المتسولين .

ومما شغل بال « ايتون » ، بل ومن جملة الافكار التي انتابته ، مسألة السهولة الفائقة التي تستطيع بها قوة عسكرية صغيرة تحطيم قوة تونس العسكرية برمتها . فقام في شهر ايلول (سبتمبر) ، بتحضير دراسة وافية اخرى عن الخط الساحلي ، مسهباً ومطيلاً الشرح عن كل

---

* وقد سبق لنا ان شرحنا معنى هذه الكلمة (المترجم) .

من بنزرت و « بورتو فارينا » . ثم انه ارســل في السادس من شهر تشرين الأول (اوكتوبر) ، معلومات جديدة وملاحظات مفيدة اخرى الى « تيموثي بيكرينغ » ، وأرفقها بخريطة لـ « بورتو فارينا » ، كما فصّل طريقة الهجوم .

وقد كتب يقول :

« لقد قضيت الأيام الستة الاخيرة من شهر ايلول (سبتمبر) في استطلاع واستكشاف الساحل من تونس الى بنزرت ، بعد ان سمح لي الباي بالذهاب الى شاطىء البحر محافظة على صحتي . وقد قضيت ليلتين مع محافظ « بورتو فارينا » .. وقد تمكنت من رسم الخريطة المرفقة من على قمة برج المراقبة من دون ان استعمل اية ادوات هندسية لتحديــد الرسم والزوايا . ومع ذلك ، فان تلك الخريطة لتساعد على ابراز النقاط الحساسة في ذلك المكان » .

وبالرغم من انه كان من المتعذر بلوغ المدينة من جهة البحر ، فقد اقترح « أيتون » القيام بهجوم مثلث من الجهة الشمالية الغربية لتحطيم التحصينات المقامة على الجهة البحرية ، والتسلل بعد ذلك عبر التلال .

وقد اشار « ايتون » على خريطته الى خمسة ممرات جبلية خلف المدينة . والحق ان ثلاثة افواج عسكرية كانت تكفي للقيام بتلك المهمة على اكمل وجه . وفي الوقت الذي تشن فيه تلك الافواج حملتها البرية ، ثمة ثلاث فرغاطات تكون مرابطة عند مدخل المرفأ بغية منع الطرادات من الهرب .

ولم ينس « ايتون » ان يقول :

« وبفضل تلك الافواج القليلــة ، سوف نستطيع ان نشل القوة البحرية هنالك . إني لواثق من سهولة تلك العملية ، واني لأتبرع بالقيام بتلك المهمة اذا ما دعتني الظروف » .

وفي خلال « عطلته » ، في شهر أيلول (سبتمبر) ، قام «ايتون»

باستكشاف آخر لمعالم بنزرت . ومما كتبه في تقريره ما يلي :

« لقد تأكدت الآن من صحة الفكرة التي كونتها عن بنزرت . فما ان قدمت نفسي الى المحافظ ، وكان رجلاً عثمانياً ضخماً ومغفلاً ، حتى راح يرجوني لأن ازور كل جزء من المدينة والساحل ... لست أرى أية عوائق في سبيل الخطة ... ولكن « بورتو فارينا » هو الهدف . »

وشدّد القنصل ، في تقريره الذي أرسله الى « بيكرينغ » ، على أنه من واجب الولايات المتحدة أن تؤدّب تونس وتلقنها درساً قاسياً ، اذا ما اضطرها الباي عِنداً الى ان تقوم بعمل عدائي .

ولقد أوضح « ايتون » انه قد باشر العمل في تحضير خطة عسكرية تستهدف وضع حد للاضطهاد الذي عانته الولايات المتحدة من دول شمالي افريقيا . فقال في رسالته الى « بيكرينغ » :

« إني مُكِب على دراسة الطرق الصغيرة والعمليات الجزئية التي سوف تساعدنا على تحقيق المشاريع الكبرى . وانه لمن الضروري ان ندرك أن كل شيء في شمالي افريقيا في حالة من التهدم والخراب ، وانه حتى العقل البشري إنما هو في حالة من الضعف والوهن . ليس هذا فحسب ، بل علينا ان نعلم – ايضاً – ان السبب في استقواء المسلمين انما كان جبن المسيحيين وسياستهم المهترئة ، لا القوة التي يتمتع بها المسلمون . »

لم يستطع ذلك « النيو انغلندي » الجريء ان يتحمل مجرد التفكير بالطريقة التي أذلّت فيها الدول الاوروبية نفسها وأظهرت جبنها في معاملتها قراصنة شمالي افريقيا ... وقد عقد العزم على ان يدفع حكومته الى ان تضرب للعالم المثل الحي للطريقة الصحيحة التي يجب ان يعامل بها القراصنة .

ولكن مهما كانت افكار « ايتون » ومخططاته رائعة ، فانها لم تكن تجدي نفعاً من غير موافقة الحكومة الامير كية في « فيلادلفيا » ...

ولا غرو ان المسافات كانت شاسعة ، ووسائل الاتصال بطيئة ... وعلى الرغم من ان القنصل قد زود « بيكرينغ » بعدد لا يحصى من التقارير. فقد كان عليه ان ينتظر شهوراً طويلة ، متعلقاً بحبال الصبر أكثر مدة يطيقها ، لمعرفة ردود الفعل عند الحكومة الاتحادية الاميركية .

وفي تلك الاثناء شرع القنصل يزود نفسه بكل ما يمكنه التقاطه وجمعه من معلومات عن الأحوال الاقتصادية من جهة ، والاحوال السياسية في دول شمالي افريقيا من جهة ثانية ، وبخاصة في مقره تونس . وكان يعمد الى نقل بعض تلك المعلومات ، بعد صوغها بصورة تقارير رسمية ، الى حكومة الولايات المتحدة ، في حين كان يرسل البعض الآخر منها الى « بيكرينغ » في رسائل شخصية ... أما ملاحظاته اللاذعة الاخرى ، فقد كان يدونها في رسائل يبعث بها الى اصدقائه في « ماساتشوستس » .

وكان «ايتون» يحاول ان يجمع اكبر كمية ممكنة من البيانات المتعلقة بالصادرات والواردات ، حسب تعليمات « بيكرينغ » ، ليدعم بها تقريره الطويل المؤرخ في ١٥ حزيران (يونيو) ... واليك بعض المقتطفات من ذلك التقرير :

« يحتكر اليهود الجزء الرئيسي من تجارة تونس . إن جلود الحيوانات والشمع في جميع انحاء المملكة ، والتي تعتبر من اهم الصادرات ، هي بيد جماعة من التجار ، معظمهم من اليهود، يعرفون باسم « غيورناطة » ، مع العلم بأنهم يدفعون في مقابل سيطرتهم على تلك البضائع مبلغ ستين الف قرش للباي سنوياً ... وكان يملك اولئك « الغيورناطة » مصنعاً أسسوه في مدينة « ليغورن » ، الى حيث كانت تُصدر تلك المواد الخام ، غير أنهم ما لبثوا أن نقلوه الى « مسينا » عقب العمليات التي قامت بها فرنسا في ايطاليا . وتتضمن اللائحة السنوية لتلك الشركة

الكبيرة مئتين وخمسين ألف قطعة من جلد الحيوان ، وأربعمائة قنطار * من الشمع ... أما بضائع التصدير الاخرى ، والاكثر أهمية ، فهي : الزيت ، والحنطة ، والشعير » .

كذلك كان يجري تصدير بعض الحبوب ، والبيقة (نبات علفي) ، والبقر ، والماعز ، الى جنوبي اوروبا . أما الادوات المصنوعة ، والتي كانت تتألف من القبعات والطرابيش والأحزمة ، فكانت تصدّر الى تركيا .

وهكذا ، فقد كانت تونس ، كما هي اليوم ، بلداً مهماً بالنسبة للاقتصاد الاوروبي باعتبارها مصدراً للاغذية والاطعمة . وكانت فرنسا ، بصورةٍ خاصة ، تحتاج الى مثل تلك البضائع المتوفرة في هاتيك المناطق . ولكن التجارة التونسية مع فرنسا وصلت الى نهايتها بسبب نشاط فرغاطات « نلسون » . ومما لاحظه ايتون :

« ان الحرب التي تدور رحاها الآن قد قلبت اقتصاد هذه المملكة رأساً على عقب . إن « راغوزا » ** ، هي الآن التي تتولى شحن البضائع التونسية ؛ أما الجزء المتبقي من تجارة تونس ، فتركّز ، بخاصة ، على « سميرنا » وسواها من مرافىء الشرق الواقعة على ساحل « المريه » !... »

ومحافظةً منه على مصالح التجّار الاميركيين ، وصف القنصل الاميركي « ايتون » البضائع التي تحتاج اليها تونس ، وهي التالية :

« الموسلين ، والأنسجة الصوفية ، والالبسة الرقيقة ، والحديد ، والبن ، والسكر ، والفلفل ، والبهارات والتوابل من جميع الانواع ،

---

* القنطار ، او الكنتال ، وهو مئة باوند في الولايات المتحدة الاميركية... و١٢٢ باونداً في بريطانيا ... ومئة كيلوغرام في فرنسا .

** الواقعة في جزيرة صقلية (المعرب) .

والقناديـــل الشمعية ، والقرمز * ، والسمك المجفف ، والخشب المنشور على شكل ألواح ... جميعها من المواد التي تستوردهـا تونس ، والتي هي في أمسّ الحاجة اليها ، والتي يستطيع تُجّارنا ان يقبضوا ثمنهـا مبالغ نقدية تُقدّر – على أقلّ تعديل – بثلاثة أضعاف ثمنها في اسواق الولايات المتحدة . »

ولكنه أردف ذلك بقوله انه يجب ألا يحاول التجار الاميركيون توسيع تلك التجارة قبل ان تُسوّى علاقات الولايات المتحدة مع تونس... كما انه من الضروري تعديل المادة رقم (١٢) من المعاهدة – والتي كانت تفسح المجال أمام تونس لاستخدام المراكب الاميركية – قبل ان يخاطر التجار بحياتهم وبمراكبهم في المياه التونسية .

•

وبعد مرور ستة أشهر، نجح « ايتون » في اقناع المسؤولين التونسيين بأفضلية التجارة على القرصنة ، فكتب الى « بيكرينغ » ، متفائلاً ، في يوم ٦ كانون الاول (ديسمبر) :

« يطيب لي ان انبئك ، بكل سرور وبنجاح كلي ، انه في غضون أيام قلائل ، قد تحسنت علاقاتنا وتقدمت مصالحنا نحو الأفضل ... فلقد قمت بزيارة « السابيتابا » الجشع ، وتمكنت من اقناعه اخـيراً بحقيقة لا يختلف عليها اثنان، وهي ان مصلحته الخاصة تكمن في اقامة علاقات تجارية مع اميركا بدلاً من اعلان الحرب عليها ؛ وان الاميركيين سوف يقدمون له أحسن خدمة في شحن بضائعه الى اسبانيا التي كانت مسرحاً واسعاً لتجارتهم ... إن الحماية التي يستطيع التجار الاميركيون تأمينها لا تستطيع ان تؤمنها أية دولة أخرى ، اذ ان سائر الدول مهدّدة بالقوى

* وهو صبغ احمر فاتح .

الاوروبية المتصارعة من نحو ، ويخطر قراصنة الجزائر من نحو آخر .»

كان تعديل المعاهدة لجعلها تؤمّن سلامة التجار الاميركيين ، الخطوة الايجابية الاولى نحو تطوير التجارة الاميركية ... هذا ما اوضحه القنصل الاميركي « للسابيتابا » . ومن المدهش ، ان الباي نفسه أبدى اهتماماً غير منتظر بالفكرة . ولكنه أشار من جهة ثانية،الى ان البضائع الموعودة لم تصل حتى تلك الدقيقة ، وأنه لا يستطيع ان يحترم دولة تتأخر ، الى تلك الدرجة ، في تنفيذ التزاماتها . ثم اضاف انـه سوف ينتظر مدة ستين يوماً آخرى ، ليقرر بعدها : اما السلام ، أو الحرب ... وعلى الرغم من امكانيات تونس ، التي لا تقبل الجدل ، والتي تساعد على قيام علاقات تجارية في البحر المتوسط تعود على الاميركيين بأرباح طائلة، فان تفاؤل « ايتون » سرعان ما تبخر .

لقد كـان بالامكان اقناع الباي بفائدة التجـارة ، ولكن « ايتون » عاد الى فكرته السابقة التي لا ترى بُـداً من فتح النيران الاميركية كعلاج وحيد .

ان مراسلات « ايتون » و « بيكرينغ » لتظهر بوضوح ان الرجلين كانا يبديان اهتماماً بالغاً بمزارعهما الخاصة في « نيو انغلند » ، برغـم المشاغل والمشاكل السياسية . فعندما أبحر القبطان « هنري غديس » عائداً من شمالي افريقيا على سفينته « صوفيا » ، في ربيع سنة ١٧٩٩ ، فانه كان يحمل معه رزماً من بذور القمح والشعير ، التي كان ينوي «ايتون» ارسالها الى « بيكرينغ » . وكان يحمل معه أيضاً اربعة خراف ، وستة حملان من فصيلة خاصة ، كان « ايتون » يعتقد بأنها سوف تتمكن من العيش على هضاب « ماساتشوستس » . ويقول « ايتون » انه اذا مـا اثبتت الحبوب بأنها أفضل نوعاً من سائر انـواع الحبوب الاميركية ، فعلى « بيكرينغ » ان يقنع الشريف « صاموئيل ليمان » ان يزرع مـن ذلك النوع كميات كافية في وادي نهر « كونكتيكت » .

لقد أعجب « ايتون » بالنخيل، والتين ، والزيتون ، فاقترح ادخال تلك الانواع من المزروعات الى الولايات المتحدة. فأرسل الى «بيكرينغ» في تشرين الاول (اوكتوبر) ، مجموعة من نوى البلح مقترحاً عليه ان يعرضها على مُزارع من « جورجيا » كما يزرعها في أرض تلك الولاية . وقد تمنى القنصل الاميركي أن يتمكن، فيما بعد، من ارسال بعض الشتلات من التين والزيتون ، اذ كان يعتقد ان التين سوف ينبت في « جورجيا » ، وان الزيتون سوف يلائم تربة « وادي اوهايو » ، و « وادي الميسيسبي » الغنيّة بالمرل* ، كما انه سوف يلائم اراضي الولايات الجنوبية الطينية . هذا ، وقد أرسل « ايتون » ايضاً مجموعتين مختلفتين من بذور البطيخ ، راجياً من « بيكرينغ » ان يتقاسمها و « ليمان » .

وقد استغل « ايتون » علاقته الشخصية التي تربطه بـ « بيكرينغ » ليطالب بزيادة الرواتب والمخصصات القنصلية، وباتخاذ الخطوات اللازمة من أجل تأمين مبنى قنصلي خاص . كان على القناصل الاميركيين في شمالي افريقيا ان يُظهروا كرماً زائداً ، اذا ما ارادوا ان يحتفظوا باحترام الافريقيين الشماليين لهم . ولقد كان مستوى المعيشة هنالك أعلى من المستوى الذي تصوره القناصل . ومن هنا ، وجد القناصل أنفسهم مضطرين للقيام ببعض الاعمال الشخصية التي ما كانت تعود عليهم الا بالمشاكل والخصومات ، ناهيك عن انها كانت تزيد من تسلّط المسؤولين المحليين وتقوّي نفوذهم عليهم . وعلى الرغم من ان « ايتون » قد اقترح تحريم تعاطي مثل تلك الأعمال بقانون خاص ، فانه راح يبحث عن مورد له، فاشتغل في المضاربات التجارية التي كانت تشمل المراكب الممتازة .

ومع أنه كان منهمكاً ومشغولاً في معظم أوقاته، فقد وجد « ايتون »

---

* المرل : طين غني بكربونات الكالسيوم ، يستعمل سماداً .

ان الحياة في تونس مملة الى درجة لا تحتمل . ولكن هذا لا يعني انه كـان ينظر الى حالته من زاوية غير عملية . فقد كتب الى « ستيفان بينكون » ، من مواطني « بريمفيلد »،وصفاً واقعياً لتونس عن اماكن الضعف فيها... لقد هز الظلم والجور فيها مشاعره . ولم يكن يشاهد أية جاذبية على وجوه التونسيين . وقد أكد ذلك لـ « بينكون » حين قال:

« انها لمن احـدى الهفوات التاريخية التي ارتكبها العلماء الجغرافيون قولهم بأن النساء التونسيات جميلات . فالواقع ان سيدات شمالي افريقيا اللواتي نراهن يسرن في الطرقات ، أشبه بالاشباح المتحركـة في أسمال بالية . فلو اتفق ان اجتمع كل ما فيهن من جمال ، فانه لن يكفي لأن يلهمني تسطير قصيدة عاطفية قصيرة . »

أما الناحية الوحيدة التي حازت عـلى اعجابه في تونس ، فهي تلك الحقيقة العجيبة بعدم وجود اي محام هناك . ومع انها كانت خلواً مـن المحامين،فقد كانت موبوءة بعدد كبير من الشيوخ... وهذا ما أثار أسف « ايتون » ؛ فحسب اعتقاده ان المهنة الكهنوتية ، أكان ذلك في الدين الاسلامي ام المسيحي ، لمهنـة حقـيرة ، خسيسة ، جديرة بالازدراء ، بل ومسؤولة عن قسم كبير من الفوضى التي تسود العالم .

وفيما كان « ايتون » يتذكر التاريخ الروماني والتاريخ الاغريقي اللذين سبق ان درسها في أيام دراسته ، اخذ يسعى الى التطواف عـلى المدن القديمة المجاورة لتونس .

وفي شهر تشرين الأول (اوكتوبر) ، أرسل « لبينكون » جردة بانقاض قرطاجة وآثارها ، مستخلصاً بعض النتائج التي تدل عـلى أصله « النيو انغلندي » :

« يشاهد المرء في أماكن متفرقة حول تلك الآثار بعض الخيام التي ينصبها العرب الرحّـــل ، وبعض الاكواخ الموحلة العائدة للمسلمين الذين قد لفعتهم الشمس بسياط أشعتها ... ان قلمي ليعجز عن وصف

ذلك الفرق الشاسع بين الحاضر والماضي ، بين ما كانت عليه ليبيا بالأمس وما أصبحت عليه الآن تلك المنطقة من شمالي افريقيا !! ولكن ذلك الفرق ليبدي بوضوح صامت ما يستطيع كل من الجهل ، والترف ، والخرافات ، ان يفعله من جهة ، ومقدار ما يمكن انتاجه باستخدام العقل البشري واليدين الانسانيتين من جهة أخرى ! »

ان الواجبات الدبلوماسية ، وعلم الآثار القديمة ، لم يكونا كافيين لأن يُنسيا « ايتون » واقعه الذي يعيشه في شمالي افريقيا ، فكان غالباً ما يتلوع شوقاً لموطنه . ولكنه ، مع ذلك ، أسَرَّ ما يلي لصديقه « بينكون » :

« لن أندم يوماً على زيارتي لشمالي افريقيا ... انها سوف تُعلمني دوماً كيف اقدر قيمة خيرات الوطن الذي يضيء فيه نور الله على العقل والوعي الانسانيين ، والذي تؤمن قوانينه المساواة بين الناس لتضمن لهم التمتع بثمرات انتاجهم الخاصة . »

ولكن تشاؤمه كان قد بلغ الذروة في شهر تموز (يوليو) ، عندما قال في رسالته التي وجهها الى « صموئيل ليمان » :

« إني اذا ما حاولت ان اتخيّل نفسي في المطهر* ، فلسوف أجد اني من الكفّار الملعونين بسبب بعض الهفوات التي ارتكبتها في عالم النور والضياء، ولسوف أتمنى من كل قلبي ان يُصلي أصدقائي من أجل تخليصي وانتشالي من تلك الورطة . »

حاول « ايتون » اقناع الدكتور « جون شو » – طبيب السفينة « صوفيا » – بالبقاء في تونس ليشغل منصب نائب القنصل الاميركي ، أملاً منه في ان يساعده ذلك الشاب الاميركي على التخفيف من عذاب

---

* المطهر ، في الدين النصراني ، موطن تطهر فيه نفوس الابرار بعد الموت بعذاب محدود الأجل (المعرب) .

وحدته في عمله القنصلي . ولكن ، عندما وقع الدكتور « شو » في غرام الفتاة « دليلة » ، المشكوك في أصلها ونسبها ، أمره « ايتون » بالعودة الى الولايات المتحدة على جناح السرعة .

ومما زاد في شعوره بالوحدة في تونس،انقطاع الاخبار والانباء عنه. فبالاضافة الى انه لم يتلق جواباً على تقاريره التي كان يرسلها الى مركز الحكومة ، فقد انقطعت عنه ايضاً أخبار الوطن حتى منتصف شهر تشرين الاول (اوكتوبر) . وكان من عادته ان يراسل زوجته « إليزا » — ليس باستمرار ، ولكن كلما سنحت له الظروف — ... وبدأت علامات التساؤل والشكوك حول حالة « نيو انغلند » تتكاثر ، ومن ثم تتكاثف، أمام ناظريه . وفي الثاني والعشرين من شهر تمــوز (يوليو) ، أرسل الى زوجته خطاباً يقع في صفحة واحدة ، يخبرها فيه انه كان قد بعث إليها ثلاثة خطابات سابقة دون ان يصله ايما جواب عليها .

ربما كانت خطابات « ايتون » جافّة وتقريرية الى حد كبير ممــا جعل « اليزا » ، المنهمكة في تدبير شؤون منزلها ، تستنكف عن الرد عليها . وأخيراً ، وصلت الى « ايتون » حفنة لا بأس بها من أخبـار الوطن؛ومنذ ذلك الحين، أصبح يحرر الرسائل بصورة مستديمة ومتواصلة، محاولاً ان يبدو فيها ، اكثر واكثر ، زوجاً يغمره الحنين الى وطنــه غمراً حتى يملأ عليه دنياه .

واستمرت علاقات الصداقة بين « ايتون » وزميليه في شمالي افريقيا — « اوبراين » و « كاثكارت » — فترةً طويلة ، على الرغم مــن انه كان يختلف معهم في وجهات النظر أحياناً ، فيروح يتكلم ويتحدث بصراحته المعهودة ، حتى ولو سئم الحاضرون منه . ان الرسائل الوديـة وغير الرسمية التي كان يتبادلها مع كل من « اوبراين » و « كاثكارت» كانت تذكره ، على الاقل ، انه ثمــة بعض الجيران الاميركيين الذين يستطيع ان يعبر لهم عن شعوره تجــاه اهالي شمالي افريقيا . وكــان

« اوبراين » يضمّن رسائله الى « ايتون » وصفاً بذيئاً وسفيهاً عن داي الجزائر ومعاونيه . أما « كاثكارت » فكان يبعث بأخبار ابنته الصغيرة « اليزا » التي ولدت في أول ايار (مايو) . وقد كتب ذات مرة ، في نفس الفقرة التي ضمنها تنبؤاته الحزينة عن قرب موعد الحرب مع طرابلس ، انه قد برز « لاليزا » اثنان من اسنانها ، الأمر الذي أضفى جواً من الغبطة على والديها . وكذلك ، كتب « اوبراين » بلغة بحرية ، ان زوجته قد « أخذت حمولتها » ، وانه يتوقع ان يصبح أباً عن قريب.

وبسبب العداوة المُرّة المستحكمة بين « جيمس لايندر كاثكارت » و « ريتشارد اوبراين » ، فقد كان من واجب « ايتون » ان يتوسط بينهما ويزودهما بآخر المعلومات والتطورات . وكان « كاثكارت » يتذمر باستمرار من تصرفات القنصل العـــام الذي لا يجيبه على مطالبه ، في حين كان « اوبراين » — في خطاباته التي يحررها « لايتون » — يكتب باستخفاف عن القنصل الاميركي في طرابلس .

لم يكن « اوبراين » الشخص الوحيد الذي يبغض « كاثكارت » . كانت النيّة السيئة ملازمة لشخص هذا الأخير ، وكانت تلاحقه دوماً الى درجة ان « ايتون » قد شعر من الضروري إخطار حكومته في شهر آب (أغسطس) بذلك ، واعلامها بأنه قد تلقى معلومات شخصية جداً مفادها : « ان ثمة تقارير مضرة واجراءات مؤذية بالنسبة للسيد « كاثكارت » سوف يجري تحضيرها وتنفيذها في مقر الحكومة » ... وأعرب عن أمله بأن تُتخذ خطوات مناسبة لأنه « ثمة كراهية فظيعة بين السيد « كاثكارت » والسيد « اوبراين » الى درجة انهما لا يتركان نقيصة الا ويلصقانهـــا أحدهما بالآخر . » ليس هذا فحسب ، بل ان الربان « غديس » وجميع معاونيه على السفينة « صوفيا » أبدوا كرههم له ونفورهم منه ، بسبب من تصرفاته البغيضة والمنفرة والمثيرة للاشمئزاز .

ولكن ، بالرغم عن صفاته السيئة وخصاله البغيضة التي لا تقبل الجدل ،

فان « ايتون » كان يعتقد انه « رجل مخلص جداً ، ومستقيم جداً » بمقدوره ان يسدي أجلّ الخدمات لحكومته . ومما لا شك فيه ، ان « ايتون » كان يثق بـ «كاثكارت» أكثر مما كان يثق بـ «اوبراين».

وفي نهاية عام ١٧٩٩ ، كان القنصلان الاميركيان في تونس وطرابلس على اتفاق تام ومتبادل حول قضية المصالح الاميركية في شمالي افريقيا... كانا يشكّان في ان « اوبراين » يخضع خضوعاً كبيراً لنفوذ مجموعة من أصحاب المصارف واهل السياسة في الجزائر ؛ كما كانا يتطلعان معاً ، بفارغ الصبر ، الى الوقت الذي يتمكن فيه اسطول اميركي قوي في المتوسط من تقويتهما وتثبيتهما في مركزيهما ، وترسيخ كلمة الولايات المتحدة وآرائها .

٤

غيوم الحرب تتلبد

١٨٠٠

عندما بدأت خيوط القرن الجديد (سنة ١٨٠٠) تسطع في الافق، كان القناصل الاميركيون الثلاثة ، في بلاد شمالي افريقيا ، على استعداد لمواجهة اسوأ الاحداث وأقسى المصاعب التي يمكن ان تقع بين ليلة وضحاها ، وعلى يقين من أنه لا مفر من الرزايا التي ستحل بالتجارة الاميركية المزدهرة والمتطورة ، ما لم تتصرف حكومة الولايات المتحدة بحزم وبسرعة . ولسوء حظوظهم ، انه كان من عادة الحكومة الاميركية ان تماطل وتسوّف ، وتؤجل وترجىء ، في ذلك الوقت من المواصلات البطيئة ، حتى انها لم تترك للقناصل أيما منفذ من الامل والتفاؤل .

فعلى الرغم من تصريحاتهم المتكررة بأن على الولايات المتحدة إما أن تسلك طريق الرشوة لتأمن شرّ القراصنة ، وذلك بواسطة ارسالها البضائع والمؤن المتفق عليها دون مماطلة أو تأخير ، وإما ان تحاول بثّ الذعر في صفوفهم ، وذلك بالقيام بعرض قوتها البحرية أمام أعينهم ، فان الحكومة الاميركية لم تعمل بأية نصيحة من النصيحتين ... لقد

طالت فترة وصول البضائع الى الجزائر ، وتونس ، وطرابلس ، مع ان جميع السفن الاميركية التي كانت تُشاهد في البحر الابيض المتوسط ، كانت مثقلة بالبضائع ، كما كانت تبدو عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، علماً بأنها كانت تشكل مصدر اغراء واثارة بالنسبة للقراصنــة الذين كانوا يعتبرونها بمثابة دجاجة مسمنة يسيل لها اللعاب . وفي الوقت الذي كان فيه كــل من « ريتشارد اوبراين » ، و « ويليام ايتون » ، و « جيمس لايندر كاثكارت » ، يتضرع لرؤية بعض الفرغاطات القوية التي تحمل العلم الاميركي ، كان كل منهم يعترف للاخرين بأن أملهم جد ضعيف .

كان الجو كئيباً ، وموحشاً ، وقابضاً للصدر في شمالي افريقيا ، عام ١٨٠٠ ، حتى ان القناصل الثلاثة كانوا مستعــدين لتقديم استقالتهم ، وقد أخبروا حكومتهم عن عدم ارتياحهم أو رضاهم . فبالاضافة الى قضايا الدبلوماسية ، كان هناك العديد من المضايقات الصغيرة التي كانت تثيرهم وتزعجهم ... ان « اوبراين » العنيد وغير المحتشم توصــل الى درجة احتمال مظالم داي الجزائر الاحمق ومحكمته المتحررة وغير الملتزمة للقواعد الصارمة . أما « كاثكارت » ، فكأنما لم يكتف بمنظر غيوم الحرب المتلبدة ، بل راح يقول ان هواء طرابلس هو المسؤول عن تقرّح عينيه ... وكان يرافقه شعور بالوحدة والانعزال والانفصال ، حتى انه كتب موقعاً في ذيل احدى رسائله « لايتون » : « المدفون حياً ! ... فلان ! ... » .

أما مصدر ازعاج « ايتون » ، أو بالحري كارثته الكبرى ، فقــد كانت مخادعات « فامين » ومناوراته ، مضافاً اليها مكائد سواه من المتآمرين ، تلك المكائد التي كان يشتم رائحتها من غير ان يستطيع الحيلولة دون مفعول نتائجها وتأثيرها على باي تونس .

وكان « ايتون » يضيق ذرعــاً ، يوماً بعد يوم ، بظروف شمالي

افريقيا ، فلم يستطع ان يهدىء من روع « اوبراين » حينما كتب له عن تهديدات الجزائر . وقد أجاب على احدى الرسائل قائلاً :

« تسألني : هل ان الله عادل ؟ فأجيبك : اعتقد ذلك . غير أنه، كما يتراءى لي ، لا ينزل الى مستوى المكائد الدنيئة اللعينة التي يحوكها المسيحيون ، وبالتالي الى مستوى القراصنة » .

ثم أضاف انه مهما كان نوع العدالة الالهية ، فان من الثابت ان الالوهية لم تعتبر شمالي افريقيا بقعة ملائمة ، فغاب عن بالهـا وجود القناصل الاميركيين هنالك . وهكذا ، راح القناصل ينتظرون مصيرهم بعد ان تناساهم « جون ادامس » والعزة الالهية .

ومما زاد في خيبة أمل القناصل وتثبيط عزائمهم ، شعورهم بأن أحداً من المسؤولين في حكومتهم لم يُلق نظرة على تقاريرهم ورسائلهم . وعلى الرغم من العلاقات الشخصية التي تربط « ايتون » بناظر الخارجيـة ، وعلى الرغم ايضاً من تعليمات « بيكرينغ » الخاصة والمتعلقة بامكانية تطوير التجارة مع تونس ، فان « ايتون » لم يكن واثقاً من انه كان لتقاريره ايما صدى او ردة فعل . فقال « لاوبراين » ذات مرة :

« يبدو ان حكومتنا : إما لا تفهم رسائلنا ، او لا تصدقها ، او انها لا تهتم بها (وهذا امر مستحيل) ... »

وفي رسالته التالية الى « اوبراين » هنأه لاهدائه أحد قناصل شمالي افريقيا انجيلاً ... ثم قال :

« انه مرساة* للروح مزودة بحبل غليظ يمتد من الجزائر الى الجنة... أرجو المعذرة لهذا النفَس الديني » .

وفي غضون ذلك ، كانت القضايا السياسية في الولايات المتحـدة الاميركية السبب الذي أعاق البتّ بمشكلات شمالي افريقيا . ففي الثاني عشر من

---

* اي ملاذ . (المعرب)

نوّار (مايو) ، ـ أي في اليوم التالي لليوم الذي تذمر فيه «ايتون» لدى «اوبراين» من اهمال حكومة الولايات المتحدة ـ أقال الرئيس «جون ادامس» الوزير «تيموثي بيكرينــغ» ، بعد أن رفض ذاك الاخير ان يستقيل . وفي الاشهر القليلة المنصرمة ، كانت معظم الاعمال الحكومية قد تعطلت وتأخرت كنتيجة للاختلاف الحـــاد بين الرئيس الغضوب للولايات المتحدة ، وبين بعض كبار معاونيه . والواقع ان تنحية «بيكرينغ» كانت ضربة قاسية موجهة الى صدر «ايتون» الذي كان يؤمن بآراء ذلك الوزير السياسية ، كما كان معجباً بشخصيته كل الاعجاب.

ومن اسباب التأخير الاخرى ، كانت الفوضى العـــامة التي نشأت : اولاً عن انتقال عاصمة الولايات المتحدة من «فيلادلفيا» الى مدينـــة «واشنطن» الجديـــدة وثانيـاً ، عن انتشار الحمى الصفراء * في مدينة «فيلادلفيا» . وقد كتب «تشارلز لي» في ١٧ نوار (مايو) ، معترفـــاً بانه كان من الضروري جداً اهمال قضايا افريقيا الشمالية الى حين ، وذلك بسبب التغييرات المتلاحقة التي طرأت على «الكابنت» من جهة ، وبسبب انتقال العاصمة من «فيلادلفيا» الى «واشنطن» من جهة ثانية ... كما اعترف بأن جميع الاوراق والمعاملات والرسائل قد جمعت في رزم خاصة ، ولكنه وعد باستئناف العمل في اسرع وقت ممكن . ولكن ، حتى ذلك العذر نفسه لم يصل الى يدي القنصل العام في الجزائر الا في اليوم الثالث عشر من شهر آب (اغسطس) .

على أنـــه مهما كانت اسباب التأخر متعددة ومختلفة ، فانها لم تكن لتهدىء من روع القناصل الاميركيين في افريقيا الشمالية الذين لم يستطيعوا فهم معنى التغييرات الطارئة على «الكابنت» ، أو معنى نقل العاصمة .

---

* الحمى الصفراء : حمى من حميات المناطق الحارة تتميز بالبول الزلالي ، وباليرقان ، والنزف ..

ثم جاءت حادثة وفاة الجنرال « جورج واشنطن » ، في اليوم الرابع عشر من شهر كانون الاول (ديسمبر) من سنة ١٧٩٩ ، لتزيد من غم القناصل الذين لم تصلهم انباء تلك الوفـــاة الا في اواخر شباط (فبراير) ، بل واوائل اذار (مارس). وكان لحادثة وفاة « واشنطن » نتائجها السياسية في شمالي افريقيا . ان « اوبرايــن » الذي كان يعرف – عن كثب – عادات البلد المقيم فيه ، لم يُعلن رسمياً نبأ وفاة أول رئيس اميركي ، بل لقد راح يخفي عن الناس الصحف والمجلات الاميركية . وعلى نقيض ذلك، فقد نكّس « كاثكارت » العلم الاميركي حداداً ، واعلن عن فترة حداد بالنسبة له ولموظفي قنصليته ... فما كان من باشا طرابلس ، الذي اعتقد ان مثل تلك الحادثة تدل على تبدّل في الحكومة ، الا ان راح يطالب حكومة الولايات المتحـــدة بالمزيد من الهدايا ، على اساس ان جميـــع الدول الاجنبية قد درجت على عادة تقديم الهدايا في مثل تلك المناسبات.

وعندما رفض الاميركيون تلبية طلب الباشا الطرابلسي ، زاد التوتر في العلاقات بين الولايات المتحدة وطرابلس .

اما « ويليام ايتون » ، فقد كان حذراً لئلا ينتشر خبر الوفاة التي أقضّت مضجعه طويلاً . وعندما شرع باي تونس يستفسر عن معنى لباس الحداد الذي يرتديه « ايتون » ، أجابه بأن قائداً محبوباً ومتقدماً في السن من قواد الجيش الاميركي قد توفي . ومن أجل عزائه النفسي الخاص ، نظم « ايتون » قصيدة غنائية بعنوان :

« استقبال الجنرال « واشنطن » في عاصمة السماء : – نُظمت يوم سمعنا نبأ وفاته » .

واليك مطلع القصيدة :

« كان صباحاً سعيداً ، فوق في السماء ، عندما أعلن الله ، أن « واشنطن » يصل اليوم ! »

وقد أرسل « ايتون » قصيدته تلك الى مواطنيه في الولايات المتحدة ، وارفقها بكلمة تعزية ، وبملاحظة ختامية في مدح الرئيس الجنرال « جورج واشنطن » ، قال فيها :

« لا تبكوا « كولومبيا » ، فان « واشنطن » ما زال حاميكم العبقري ، ومرشدكم الخالد الى الابد » .

والجدير بالذكر ان « ايتون » قد بعث بقصيدته الى صديقه «ستيفان بينكون » راجياً منه ان ينشرها في زاوية من زوايا احدى الصحف .

كانت الحالة العامة قاتمة وحالكة .. ومما زاد في حلكتها — في شهر آذار (مارس) — تهديد البـــاي بسجن « ايتون » ان لم تصله المؤن والبضائع قريباً .

ولحسن الحظ ، ان السفينة « هيرو » قد وصلت في اليوم الثاني عشر من شهر نيسان (ابريل) ، وعليها قسم من الذخائر والبضائع البحرية المتفق عليها ... أعجب الباي — الذي كان بحاجة ماسة الى تلك البضائع — بالنوعية الفريـــدة التي تميز بها كل ضرب من ضروب الصواري ، والالواح الخشبية ، والحبال الغليظة التي جلبتها السفينة « هيرو » ... ولكن مظهر السفينة الخارجي — هيكل قديم مهترىء لسفينة عتيقة غير صالحة للعمل ، تقدّر حمولتها بستمائة طن ، تنقصها الاسلحة والعدة الحربية — خفض من قدر الولايات المتحدة واعتبارها في نظر التونسيين ، الذين كانوا يعتقدون ان الاميركيين ليسوا سوى طائفة ، قليلة العدد ، من النصرانية ، وانهم قد حصلوا على استقلالهم « كهدية من فرنسا » . أما الذين أوهموهم بذلك ، بعد تدبير وتخطيط ، فكانوا بعض المبعوثين والمندوبين الفرنسيين هنالك .

كانت السفينة « هيرو » قد قطعت المسافة كلها من مدينة « نيويورك » الى مدينة تونس من غير مواكبة تؤمن لها الحماية . فعلى وصولها كانت تعتمد سلامة اميركا والاميركيين في حوض البحر الأبيض المتوسط ،



ويليام ايتون : صورة من رسم ويليــام م. س. دويل ، وحفر ه. و. سنايدر ، لمجلــة بوليناثوس ، المجلد الخامس (بوسطن ، ١٨٠٧) ... منقولة عن النسخة المحفوظة في مكتبة هانتنغتون .

وهذا ما اعتبره « ايتون » (اي وصولها) معجزة رائعة استطاع ان يحققها الربان القدير « روبنسون » . والحق ان القناصل الاميركيين في شمالي افريقيا كانوا يعتقدون ان سماح الحكومة الاميركية لهذا المركب بالابحار ، من اجل تحقيق مهمة خطيرة ، من غير ان ترافقه قوة مواكبة تؤمن له الحماية ، نوع من الاهمال المفضوح .

وبالرغم من ان جميع المسؤولين في العاصمة الجديـدة « واشنطن » كانوا غير منتبهين او مهتمين بأمور شمـالي افريقيا ، فانهم لم يكونوا مهملين لها كما كان يعتقد قناصل الولايات المتحـدة في منطقة البحر المتوسط .. فالواقع ان الاسطول الأميركي المتواضـع كان عاجزاً عن تأمين الحماية في جميع ميادين نشاط التجارة الاميركية التي كانت تشمل العديد من البحار والمحيطات .

ان تاريخ الولايات المتحدة ليظهر بوضوح عجز تلك الدولة عن حماية مصالحها في اكثر من مياه بحر واحد في وقت واحد . فالذي كان يقف حجر عثرة في سبيل ارسال قوة بحريـة الى المتوسط ، انما هو الحاجة الملحة لاستخدام السفن الاميركية في مناطق اخرى . والمثال على ذلك ، ان الفرغاطة « فيلادلفيا » قد اضطرت لأن تنوب مناب الفرغاطة « كونستليشن » في جزر الهند الغربية ، اعتباراً من مطلع سنة ١٨٠٠ .. كما ان تحطم ساري « الكونغرس » قد ارغم « تشيزابيك » على مرافقة « إيسيكس » الى جزر الهند الشرقية . وإلا لكان باستطاعة سفينتين من تلك السفن الثلاث الانتقال للعمل في حوض المتوسط .

•

نعود الآن لاستئناف حديثنا عن السفينة « هيرو » .

لم تجلب السفينة « هيرو » معها الا قسماً ضئيلاً من السلع والبضائع البحرية الموعودة . اضف الى ذلك ، ان طلب الباي اهـداءه الحلى

والمجوهرات قد رُفض ، او — على الأقل — لم تصدر الموافقة عليه بعد . وهكذا ، فما ان مرت سحابة الغبطة المؤقتة الناشئة عن استلام جزء من البضائع ، حتى بدأ الباي يلاحق « ايتون » ، ولا ينفك يطالبه بما تبقى من البضائع والمجوهرات التي كان يُمنّي نفسه بها . فنصحت الحكومة الاميركية قنصلها بمساومة الباي ومماحكته في امر المجوهرات التي طلبها ، والتي كانت تشمل اسلحة مرصعة بالجواهر واللآلىء : كالبنادق ، والمسدسات ، والخناجر ، والساعات ، وسوى ذلك من الأشياء النفيسة والثمينة ، إلى ان يتمكن من انهاء الموضوع معه . اما اذا اصر الباي على مطاليبه بعناد ، فمن الافضل شراء المجوهرات من انسب الاسواق ، مثل سوق لندن .. كذلك ، فمن الممكن كسب الوقت عن طريق شراء بعض المجوهرات المزيفة واللمّاعة من شمالي افريقيا بالذات ، بانتظار وصول الباقي من انكلترة .

اما صاحب تلك الفكرة ، فقد كان الرئيس « أدامس » نفسه . وعلى الرغم من ان « ادامس » كان يلتزم سياسة شراء السلم عوضاً عن فرضه بالقوة العسكرية ، فان فكرة شراء البنادق المرصعة بالجواهر قصدَ ارضاء ظالم تافه على ساحل افريقيا قد كانت بمثابة المكبَح بالنسبة « لايتون » .

كانت محاولة ارضاء باي ساخط بغية المحافظة على السلام بينه وبين الولايات المتحدة ، اقوى من ان تتحملها اعصاب « ايتون » الذي طلب — من جديد — العودة الى وطنه . فكتب الى وزير الخارجية في اول نوّار (مايو) ، انه يود الوصول الى « نيو إنغلند » ، بصورة خاصة في اوائل الربيع القادم ، كيما يتمكن من زرع بستان فاكهة .

ثم حرر ، بعد ثلاثة اسابيع ، خطاباً الى زوجته عدّد فيه اعماله ومنجزاته ومحاولاته مفاخراً بنفسه وبنجاحه ، قال لها فيه:

« كانت السنة المنصرمة سلسلة من القلق ، والحيرة ، والارتباك ،

والتعقيد ، والاغاظة بالنسبة لي . لقد تمكنّا ، بكل صعوبة ، من ان نتفادى خطر وقوع حرب بيننا وبين تلك المملكة .. ولقد استهلكت مخيلتي وعبقريتي في سبيل تجنب تلك الحرب .

« ثم إني حاولت الاستفادة من قوة حياتي كلها ، اذا كان لديّ شيء من ذلك .. ومن صبري كله ، اذا كان عندي شيء من ذلك .. ومن عنادي كله ، وانت تعلمين ان لدي القليل من ذلك .. ومن وقاحتي كلها ، وأحمد الله على ان عندي منها الكفاية .. اجل ، حاولت الاستفادة من جميع ذلك لاحبـــاط مساعي « اخواني المسيحيين » من جهة ، ولمواجهة وقاحة القراصنة وصفاقتهم من جهة اخرى .

« فنجحت !

« لقد رفَعْتُ الولايات المتحدة الاميركية الى مرتبة عليا من الاعتبار والاحترام ، تفوق مرتبة اية دولة مسيحية اخرى ، ما خلا بريطانيـــا العظمى ، كما انني سررت جداً لسماعي عبارات الإطراء تنهال عليّ من حكومتي » .

ومن الواضح الذي لا يرقى اليه الشك ، ان القنصـــل كان يبغي مغادرة افريقيا الشمالية وهو مـــا يزال يحتفظ بهذا السجل المشرّف ؛ وقد أكد لزوجته « اليزا » انه ينتظر إذْن رئيس الولايات المتحدة حتى يعود الى بلاده . والذي حدث ، ان بستان « ايتون » بقي غير مزروع في حين كانت احداث خطيرة تشغل اذهان الناس وتملأ اوقاتهم . هذا، وقد ملأت النشوة قلب « إليزا » عندما تسلمت صورة بعنوان « الطمأنينة الزوجية » كان « ايتون » قد ارسلها مع احد خطاباته .

كان من شأن وصول السفينة « هيرو » ومعها المعدات البحرية ان عجّلت ، وبطريقـــة غير مباشرة ، وقوع الحرب بين تونس والدانمارك. اما « ايتون » ، فقد لعب في تلك الحرب دور الوكيل المفوض للشؤون الدانماركية . ان المعدات التي احضرتها السفينة الاميركية قد زادت من

قوة الطرادات التونسية ، وجعلتها في حالة تستطيع معها ان تشن هجوماً على المراكب الدانماركية .

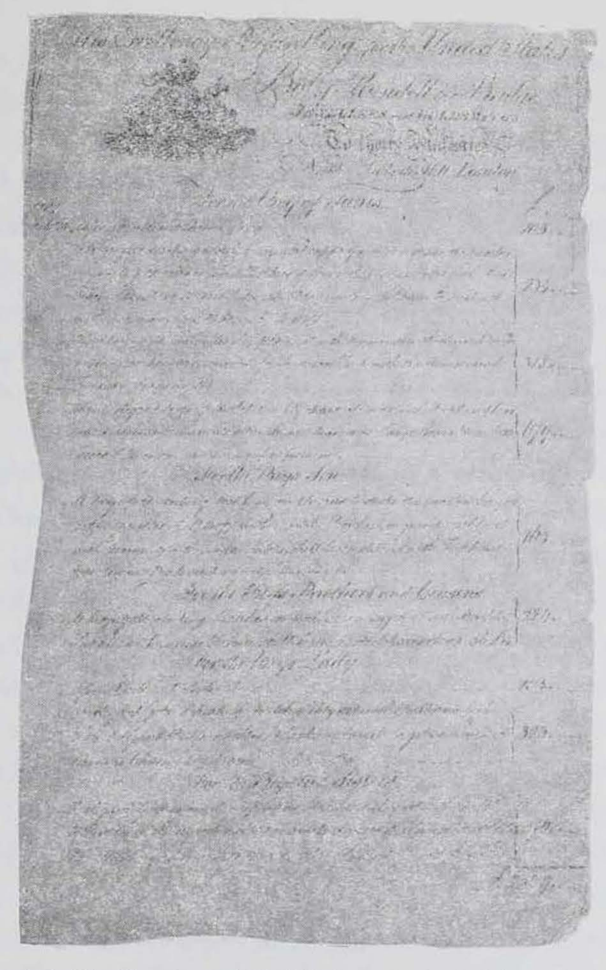
كان قد مضى على حقد تونس على الدانمارك اكثر من سنتين . ففي سنة ١٧٩٧ ، وقّع الباي على معاهدة مع الدانماركيين ضَمِنت له حقه في جزية مؤلفة من بضائع مختلفة ومعدات بحرية ، لكن الشحنة الاولى التي وصلت في الصيف اللاحق ، كانت تتألف من بضائع متدنية النوع الى درجة ان الباي التونسي قد رفضها جميعها ، تاركاً اياها عرضة للبلى والفساد . والحق ان جودة البضائع الاميركية الممتازة قد اوضحت ، اكثر واكثر ، رداءة البضائع الدانماركية . ولقد بلغ من حنق البـــاي – نتيجة لارسال الدانماركيين بضائـــع من الدرجة الثانية – ان اطلق لطراداته العنان لكي تنقض على السفن الدانماركية ، فاستولت على بعضها في شهر ايار (مايو) من سنة ١٨٠٠ .

وفي ٢٨ حزيران (يونيو) ، حطم التونسيون سارية العلم امام قنصلية الدانمارك مُعلنين حرباً مكشوفة على الدانمارك . وكانت تجوب الساحـــل سفينتان حربيتان دانماركيتان ، الا انهما لم تضعفا من اقدام التونسيين وعزمهم .

وفي غضون اسابيع قلائل ، وقع في الأسر من السفن والبضائع والرجال الدانماركيين ما يقدر ثمنه بـ ٤١١,٠٠٠,٠٠٠ دولار اسباني .

بعد كل ذلك السلب والنهب ، وبخاصة سلب حمولات السفن ، عرض القراصنة المراكب الدانماركية للبيع . ثم اخذ قباطنة تلك السفن والمراكب يتوسلون الى « ايتون » كي يستردها ويعيدها الى اصحابها ومالكيها ، بعد ان وعدوه بتسديد ديونه مها بلغت قيمتها . وقام « ايتون » بصفقة تقدر قيمتها بعشرة آلاف دولار ، ليجد نفسه بعدها مالكاً لستّ سفن خاوية .

وعلاوة على صفقة السفن ، عقد « ايتون » اتفاقيـــة مع القنصل



فاتورة المجوهرات الصادرة عن شركة راندل وبريدج للصياغة في لندن. وهي بيان بالمجوهرات التي ارسلت الى باي تونس وعائلته؛ وقد سجلت الفاتورة باسم روفوس كينغ، سفير الولايات المتحدة في بريطانيا العظمى، وذلك في ١٠ شباط (فبراير) سنة ١٨٠١. وقد عثرنا عليها في محفوظات ايتون في مكتبة هانتنغتون.

الدانماركي ، « لويس هامكين » ، لافتتاح خط تجاري لبيع القمح والحنطة ما بين تونس و « ليغورن » *. وكان من المقرر ان تُشحن الحنطة والحبوب عن طريق « توماس ابلتون » ، القنصل الاميركي في « ليغورن » من جهة ، وشركة « اوتو فرانك وشركائه » من جهة اخرى .

وبالرغم من تصريحاته السابقة ، من انه يجب الا يتعاطى القناصل اعمالاً خاصة ، فسرعان ما وجد « ايتون » نفسه وسط لجة هائلة من العمليات التجارية والمالية . وكان يحاول اقناع ضميره بأن ما يدفعه الى تلك الاعمال انما هو دافع انساني يحدوه على تسيير الشؤون الدانماركية ورعاية مصالح الدانمارك ، وان تلك الاعمال لا تمس الولايات المتحدة ولا تتعلق بها من قريب او بعيد .

وفي خلال صيف عام ١٨٠٠ ، واوئل خريف ذاك العام ، كان « ايتون » منهمكاً في رعاية الشؤون السياسية والاقتصادية للدانمارك ، الى درجة انه لم يكن يجد متسعاً من الوقت ليفكر في ضياع أمله بالعودة الى الولايات المتحدة الاميركية. وعندما وقعّت كل من الدانمارك وتونس على هدنة بينهما في نهاية شهر آب (اغسطس) أعاد « ايتون » السفن الست الى مالكيها السابقين ، وقبض مكافأة محترمة كانت كافية لتسديد دينه . فشكر الله على تخليصه من عبء تلك المسؤولية الثقيل . وتعبيراً عن تقديرها لخدماته ، ارسلت له الحكومة الدانماركية رسالة مزدانة بالزهور تشكره فيها ، وتبجّله لعظيم تضحياته من أجلها ، كما أنعم عليه ملك الدانمارك بصندوق ذهبي جميل نُقش عليها الطُغراء ** الملكي .

على ان تلك الهدايا قد أربكت « ايتون » وأحرجت موقفه على اعتبار

---

* في ايطاليا .

** الطغراء : حروف رمزية متشابكة ، وبخاصة الحروف الاولى من الاسم متشابكة .

انها صادرة عن رئيس دولة أجنبية . ولكنه لم يعتّم ان أرسل الصندوق الى حكومـة الولايات المتحدة ، ومن ثم كتب الى زوجته « اليزا » ، وكله امتنان لتقدير الدانماركيين لمساعيه المحمودة .

وعلماً بأنه كان يدّعي أن صفقة شراء السفن الست – ومن ثم بيعها ثانية – لم تعد عليه بأية قطعة نقدية ، فيبدو انه قد ربح ربحـاً وافراً من أشغاله الخاصة الأخرى . هذا وقد ابتاع – فيما بعد – غنيمة دانماركية من « السابيتابا » ، لم تكن سوى السفينة « غلوريا » التي استغلها في تجارة المتوسط .

•

وفي الوقت الذي كانت تشن فيه تونس الحرب على الدانمارك – تلك الحرب التي اقتصرت ، بصورة رئيسية ، على الاستيلاء السلمي على السفن الدانماركية من غير مقاومة معاكسة – ، استهلت طرابلس هجومها على التجارة السويدية ، وهددت باعـلان الحرب على الولايات المتحدة في خلال ستة أشهر ، ما لم يبعث رئيس الولايات المتحدة بخطاب جوابي الى الباشا . وكان « كاثكارت » واثقاً من ان الحرب قد أصبحت على الابواب ، فأرسل تعميماً في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) يُنذر فيـه جميع السفن الاميركية ، كيما تكون على أهبة الأستعداد لصد اية محاولة قد تقوم بها الطرادات الطرابلسية للاستيلاء عليها .

ان اتفاقاً – أو تعاوناً – بين الولايات المتحدة والدول السكاندينافية في ذلك الظرف ، كان كفيلاً ببث الذعر في ارجاء ايالات شمالي افريقيا ، وردعها عن الاتيان بأية حركة عسكرية ... ولكن وكالعادة طبعاً ، فان الانقسام في الرأي والعمل معاً ، فتح مجال النهب والسلب امام القراصنة. ومما يذكر ان السويد قد اقترحت القيام بعمل تعاوني مشترك ، ولكـن الرئيس « جون ادامس » الحذر ، والمتقيد بسياسة الانعزالية ، لم يرغب

ذلك . وقـــد تقدمت السويد بذلك الاقتراح عن طريق الوزير البروسي « جون كوينسي ادامس » وسفير السويد في « برلين » ، ولكن رئيس الولايات المتحدة أجاب ان بلاده ترى من واجبهـــا ان تتقيد بنصوص المعاهدات التي عقدتها مع دول شمالي افريقيا . والحقّ ان القناصل الثلاثة قد وجدوا صعوبة في محاولتهم استحسان ذلك الرد الذي يُظهر الولايات المتحدة بمظهر المحافظة على الشرف العالمي ، وذلك بالنظر الى التهديدات المتوالية التي كانت تصدر عن الحكام المحليين الراغبين في خرق المعاهدات وأسر كل اميركي تطاله ايديهم .

وشاءت الاقدار والصدف ، في تلك الحقبة من الأحداث المتلاحقة ، ان يعلن مصرف « ليغورن » عن افلاسه في شهر تمـــوز (يوليو) ، سنة ١٨٠٠ ، مما زاد في الصعوبات التي كانت تعترض سبيل علاقـات الولايات المتحدة مع دول افريقيا الشمالية . وهنا تجدر الاشارة الى انـــه لولا يقظة « ايتون » واحتراسه ، لكانت الولايات المتحدة قد اعتُبرت المسؤولة عن الخسائر الفادحـــة التي مُني بها المضاربون ، والمغامرون ، واصحاب رؤوس الأموال بصورة عامة ، في شمالي افريقيا .

وفي خريف سنة ١٧٩٩ ، وصل الى تونس رجـــل يعرف باسم « يوليوس قيصر ألبرغنتي » ، وراح يطالب لنفسه بامتيـازات المواطنة الاميركية وحقوقها ، على اساس جنسيته الاميركية . وعلى الرغم من انه كان ايطالياً ، لا محالة ، فقد أبرز شهادة موقعة من القنصل الاميركي في « ليغورن » ، « توماس أبلتون » ، تثبت جنسيته الاميركية. والواقع ان « ألبرغنتي » يعود أصله الى مدينة « ميلانو » الايطالية ، وكـــان مشكوكاً في سمعته . وقد قام بزيارة واحدة للولايات المتحدة الاميركية ، كما أسند اليه احد الايطاليين وظيفة تسيير الشؤون الاميركية في « رومة » لفترة مؤقتة . وقد حصل على شهادة اثبات جنسيته الاميركية من ذلك الرجل . وكان قد وصل الى تونس بصفة مندوب الشركة التجارية « سوم

وسوارتز » ، وهي من شركات مدينة « ليغورن » ذات السمعة الرديئة التي لا توازيها الا سمعة ممثلها « البرغنتي » !

منذ بادىء الامر ، لم يثق « ايتون » بـ « ألبرغنتي » ، فلم يقدم له أكثر من حماية محدودة الى ان يتمكن من تقديم اثباتات صادقة ، لا يرقى اليها الشك ، تدل على مواطنته الاميركية . ولطالما حاول « ألبرغنتي » بمكائده الشيطانية ان يورّط القنصل الاميركي في علاقات تجارية مع شركة « سوم وسوارتز » ، مثلما حاول - أيضاً - ان يؤكد ان الحكومة الاميركية قد وافقت على جميع الاعمال التي تتعاطاها تلك الشركة التي كانت قد انشأت علاقات مالية وتجارية هائلة ، في تونس ، وذلك مع فروع بنك « بكري وبوسنة » في الجزائر .

وفي ذلك الحين ، كانت تلاعبات « البرغنتي » ومناوراته في الأسواق التجارية ، للتأثير على الاسعار ، قد رفعت أسعار تصدير الحنطة ، بالرغم من ان السوق في « ليغورن » كان مُتخماً بعد اغراقه بالسلع ، كما أنها قد أحدثت هبوطاً في النقد التونسي بالنسبة للمبادلات الخارجية .

أما أصحاب المصارف في شمالي افريقيا ، فبالرغم عما ذاع عنهم من براعة واشتهروا به من دهاء ، فكانوا اشبه بفاقدي الوعي في دوامة من المضاربات والمعاملات التجارية مع شركة « سوم وسوارتز » في الفترة التي أعلنت فيها تلك الشركة المذكورة افلاسها . والواقع ، ان ذلك الافلاس لم يكن الاول من نوعه في تاريخ تلك الشركة .. فقد سبق لها ان اعلنت افلاسها ثلاث مرات متتالية ؛ والآن ، لم يعد أمام المرابين الجشعين في كل من تونس ، وطرابلس ، والجزائر ، الا ان يلوموا أنفسهم للخسارة التي أوقعوا أنفسهم فيها . وكان « البرغنتي » قد باع في تونس وحدها عدداً من سندات شركة « سوم وسوارتز » تفوق قيمتها المئة والعشرين ألف دولار اميركي . وها ان أصحاب تلك السندات يثورون ، ويهددون بالويل والانتقام ، مطالبين الولايات المتحدة

الاميركية ان تعوّض لهم خسائرهم التي تسبب لهم فيها واحدٌ من مواطنيها !!

رفض « ايتون » تحمُّل اية مسؤولية ، وأثبت ان « البرغنتي » كان دجالاً ، أفاكاً ، محتالاً . وحينما أخذ الدائنون يطلبون مساعدة «ايتون» من جهة ، ومساعدة « ابلتون » (وكان في « ليغورن ») من جهة ثانية ، بغية تصفية قضايا شركة « سوم وسوارتز » ، تنصل الاثنان من كل مسؤولية ، ولكنهما وعدا ، على سبيل اظهار النيّة الحسنة ، باستخدام نفوذهما من أجل جمع بعض موجودات الشركة الميتة . ومما لا شك فيه ، ان جميع تلك الاضطربات المالية قد اثرت تأثيراً بعيد النتائج على سير الاعمال في « ليغورن » ، وذلك في الوقت الذي كان فيه « ايتون » منصرفاً الى مجازفاته التجارية التي كان يخوضها لصالحه ولصالح الدانماركيين ... ولكنه سرعان ما تخلّص من المأزق ، وخلّص الولايات المتحدة من أية مسؤولية يُمكن ان تُلصق بها ، وخرج من جميع تلك العمليات بشرف واعتبار شخصيين عظيمين .

أما الشيء الذي أفرح قلب « ايتون » فرحاً كبيراً ، فكان، بصورة خاصة ، خيبة « فامين » – الذي شغل منصب مندوب الولايات المتحدة في تونس فترةً من الزمن – ، اذ انه كان قد حاول اقناع الباي وكبار موظفيه بدعم مشاريع « ألبرغنتي » .

بات انتصار « ايتون » على « فامين » الآن تاماً ونهائياً . فقبل ذلك بفترة وجيزة ، أي في السابع والعشرين من حزيران (يونيو) ١٨٠٠ ، على وجه التحديد ، كان « ايتون » قد أرسل الى « ويليام لوغتون سميث » ، الذي كان سفيراً في « لشبونة » ، يخبره انه قد جلد « فامين » بالسوط على « البوابة البحرية » ، وذلك لنشره اشاعات عن ضعف الاميركيين من جهة ، وعن اعتماد الولايات المتحدة على فرنسا فيما يتعلق بحريتها واستقلالها من جهة أخرى .

وعندما استدعى الباي القنصل الاميركي ليعلّل اعتداءه على «فامين» ، اثبت « ايتون » ان ذلك الفرنسي لم يكن خائناً لأميركا ومصالحها فحسب وانما كان خائناً ونذلاً في حق الباي الذي جعله محلاً لثقته . ليس هذا فحسب ، بل لقد أعلم « ايتون » الباي انه سوف يأمر بجلد « فامين » بالسوط من جديد اذا مـا أحوجه او اضطره الى ذلك ... غِبَّ ذلك كله ، تأثر الباي بقدرة « ايتون » على فضح خيانة « فامين » ،فأقرّه على ما فعل ، وأنهى المسألة .

هذا ، مع الاشارة الى انه مما عزّز سمعة « ايتون » الطيبة ، أولاً : نجاحه في تسيير الشؤون الدانماركية ، وثانياً : قدرته على تفادي الاشراك التي نُصبت للايقاع به في عملية « البرغنتي » المُخفقة . ولكم كـان اعجاب القنصل البريطاني العام عظيماً (وكان يدعى «بركينز ماغرا») ، حتى أنه أوصى الاميركيين بادارة دفّة الشؤون البريطانية في حال حصول حادث للقنصل البريطاني . وقد وافق «ايتون» على ذاك الاقتراح شريطة ان يتعهد القنصل البريطاني بتحمل المسؤولية عينها فـيما يختص بشؤون الولايات المتحدة ، وفي الشروط ذاتها .

تأزمت علاقات الولايات المتحدة مع افريقيا الشمالية في شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٠٠ ، عندما وصلت الفرغاطة « جورج واشنطن » – وكانت بأمرة القبطان « ويليام باينبريدج » – الى الجزائر ، ومعها الجزية المستحقة للداي . وكانت غاية الحكومة الاميركية من وراء ارسال سفينة حربية فرض هيبتها ، ولكن داي الجزائر لم يتأثر ، ولم يكترث لمدافع « جورج واشنطن » . بل على العكس ، فقد تجرأ وطلب مـن الربان « باينبريدج » ان يرفع العلم الجزائري على الفرغاطة الاميركية ، وان ينقل سفيراً جزائرياً وهدايا مرسلة من داي الجزائر الى سلطان تركيا في « القسطنطينية » . فرفض كـل من الربان والقنصل العام ، بادىء ذي بدء ، تحقيق رغبة الداي ، ولكن الربّان « باينبريدج » عاد ووافق

على طلب الداي في آخر الأمر ، بدلاً من اشعال فتيلة الحرب .

أبحرت السفينة الحربية الاميركية في اليـوم التاسع عشر من شهر تشرين الاول (اوكتوبر)، رافعة العلم الجزائري ، وهي تحمل أغرب حمولة عرفتها أية سفينة في العالم ! فإلى جانب السفير وحاشيته التي يربو عدد أفرادها على المئة ، كان هنالك ايضاً ، مئة من الرجال، والنساء، والاطفال الزنوج الذين كانوا بمثابة هدية للسلطان. وكان على متن السفينة ايضاً ، أربعة خيول ، وخمسة وعشرون ثوراً ، ومئة وخمسون خروفاً، وأربعة أسود ، وأربعة نمور ، وأربعة ظباء ، واثنا عشر ببغاء، وبعض النعامات ... وكانت جميعها تُضفي نوعاً من الزينة على السفينة .

كانت الرحلة نحو الشرق نوعـاً من التجربة ، ان لم نقل المحنة القاسية ، التي كان يمر بها البحارة الاميركيون ، اذ ان السفينة كانت مكتظة الى درجة انه كان من العسير تنظيفها . وكان المسلمون يجتمعون على ظهر المركب خمس مرات في اليوم لتأدية فريضة الصلاة،ووجوههم باتجاه مكة المكرمة . اما اذا ما اتفق ان غيّرت السفينة وجهتها ، فكان المسلمون يعتبرون تغيّر اتجاههم عن مكة دليلاً عـلى خبث المسيحيين وتعمدهم الأذى . وأخيراً عيّن السفير واحداً من المسلمين ، ليقف عند البوصلة في فترات الصلاة كيما يُبقي اتجاه السفينة مستقيماً .

أُعجب السلطان العثماني بالربّان « باينبريدج » ومعاونيه الكبـار ، فاستقبلهم استقبالاً ودياً حافلاً كان أكثر اجلالاً وحفاوة من الاستقبال الذي لاقاه السفير الجزائري نفسه. وقد أثارت اتفاقية السلام المعقودة بين الجزائر وفرنسا غضب الدولة العثمانية، فأصدرت أمرها الى الداي لاعلان الحرب على « نابوليون » من جهة ، ولإرسال هديـة جديدة (تقدّر بمليون قرش) الى الباب العالي ، كدليل على ندمه لاهماله محاربة جيش دولة معادية لتركيا ولبريطانيا العظمى من جهة ثانية .

وهكذا تمكنت الجزائر من استخدام سفينة أميركية في مهمة خطيرة

ومزعجة .. وسرعان ما انتشر ذلك الخبر انتشار النار في الهشيم،فأصبحت تلوكه الألسن كموضوع من موضوعات الساعة في شمالي افريقيا . فهبطت أهمية اميركا الى القاع . وفي تونس ، كـان « ايتون » يقلّب المسألة في ذهنه ، في غم وكدر يملآن عليه نفسه الحزينة ، فقال معترفاً بصراحة :

« اننا موضوع سخرية .. بل اننا السخرية بعينها ، عن حق ، ومن غير مواربة . ليس امامنا من وسيلة سوى الدم ، بغية محو تلك الفكرة الشنيعة . فلو حدث لي مثل ذلك الحادث ، لفقدت أعصابي، ولطلبت ان أموت على الخازوق ، بدلاً من ان استسلم مثـل ذاك الاستسلام . هلا يثير ذلك حكومتي أو ينفخ فيها الحماس ؟ »

وفيما خلا بريطانيا العظمى التي حافظ اسطولها على احترام القراصنة لهـا ، فإن اعتبار الدول المسيحية كان آخذاً في التدهور . وكان فشل الدانماركيين والسويديين – على حد سواء – في تحقيق مقاومة فعّالة في وجه القراصنة ، سبباً في هبوطهم الى مرتبة الازدراء . أما جُبن ايطاليا ، فكان مشهوراً ومُشهّراً . وهـا ان الولايات المتحدة تُبدي استعداداً للخضوع لتهديدات الجزائر فتسمح لسفينة حربية – تحمـل اسم اعظم أبطالها – بأن تنفذ تعليمات تلك الدولة ... لقد ارتسمت في الافق خيوط تنبىء بالشر وبالخطر بالنسبة للمسيحيين .

كان الموقف ، في مفهوم « ايتون » ، موقفاً سخيفاً جداً ومنافياً للعقل . فكما كان يكتب في تقاريره بصورة مستمرة ، فإن دول شمالي افريقيا كانت ضعيفة ، وعرضة للسقوط بيد الاعداء ، وعاجزة عـن الدفاع عن نفسها الى درجة انه كان بمقدور اية قوة عسكرية محترمة ان تستولي عليها ... ولهذا ، فانـه لمن الأمور المناقضة للمنطق ان يُسمح لكل من الجزائر ، وتونس ، وطرابلس ان تهـدد الدول التي تمتلك أساطيل جبارة وملاحين لا يُجارون ... وقـد طرح « ايتـون » السؤال

التالي في احدى رسائلـــه التي بعثها الى حكومته ، وذلك بطريقة تهكمية :

« اذا ما زودت جزيرة « رودس » سفينتين قديمتين بالأسلحة ، وعلى احداهما أحد المرتدين الايرلنديين ، وعلى الاخرى أحد المبشّريـــن الميثوديين * (او المنهجيين) ، وارسلتهمـــا للمطالبة بجزية من الدولة العثمانية ... ؟ »

ثم يجيب بما معناه :

... فما اشبه تلك المحاولة السخيفة بمحاولة بعض المسلمين في طراداتهم المهترئة ، وهم يفرضون جزيتهم على الدول المسيحية . أما الفرق المؤلم بين المحاولتين ، فهو ان مطالب المسلمين وأمانيهم كانت تنجح وتُلبّى دوماً .

•

ازدادت التهديدات باعلان الحرب على الولايات المتحدة، والتي كانت تطلقها دول شمالي افريقيـــا ، في اواخر الخريف . كان باي تونس ، مثلاً ، حانقاً بسبب تأخر وصول بقية البضائع الموعود بها ، وكان يوبخ « ايتون » بقسوة لأن بلاده قد حنثت بالعهد الذي كانت قد قطعته على نفسها ، مشيراً الى ان الاحداث المقبلة سوف تـــدل بوضوح ، وفي اقرب وقت ، على عزم تونس على تحقيق مطالبها بقوة السلاح .

وفي اول شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ، أدرك « ايتون » أن فترة ما قبل انتخابات الرئاسة في الولايات المتحدة سوف تكون عذراً مـــلائماً للتأخر ، ولكنه لم يستطع أن يفهم لماذا لم يكن لرسائله الرسمية أي صدى

* الميثودي او المنهجي : احد اتباع الحركة الدينية الأصلاحية التي قادها في اوكسفورد (سنة ١٧٢٩) تشارلز وجون ويزلي محاولين فيها احياء كنيسة انكلترة .

أو رد فعل ، وبخاصة بعد مرور اكثر من عام على وصولها ؟ ! ثم راح « ايتون » يطالب باعفائـه من منصبه وارسال شخص آخر ، الى تونس ، في مستطاعه ان يجعل الناس يقرأون رسائله ، بعد ان يئس من ان تلقى اتصالاته وتقاريره ايما تجاوب من حكومة « واشنطن » . ومن ثم ، أي بعد يومين اثنين على وجـه التعيين ، كتب الى « ويليام لوغتون سميث » قائلاً بأنه من المرجح انه ليس ثمة شيء يوقظ حكومة الولايات المتحدة من سباتها العميق ، « سوى أنين المواطنين الاميركيين الواقعين في الاسر والعبودية ، وصلصلة السلاسل التي تكبلهم » .

بدا ان الباي اصبح على وشك ان يفقد آخر ذرة من ذرات صبره . وفي ذلك الحين ، وصلت انباء الى « ايتون » مفادها ان السفينة التجارية الاميركية ، « آنا ماريا » ، قد رست في « بورتو فارينا » في السادس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ، ومعها بضاعة من النوع الذي تم الاتفاق عليه مـع تونس . وفي ٨ كانون الاول (ديسمبر) ، أعلم « ايتون » صديقه « اوبراين » بأن حمولة السفينة « آنا ماريا » تتألف من :

« الالواح الخشبية ، وقطـع الاخشاب الكبيرة ، والصواري ، والمجاذيف والحديد — ويقدر ثمن السلع بحوالى ١٢,٠٠٠ دولار » .

وأضاف : « اعتقد اننا لن نستطيع ان نفـاخر بتلك الحمولة مثلما فاخرنا بحمولة السفينة « هيرو » . وجل ما أخشاه ان يكون ثمة بعض الاسباب السياسية لذلك » .

كان احد اسباب تصرف الباي الفظ والشكس ، عدم وصول هدية المجوهرات التي كان قد عقد النية على استلامها ، مع الشحنة الاميركية. وما كان في مقدور « ايتون » ان يفعل شيئاً . لم يكن في متناوله اية مجوهرات ملائمة في شمالي افريقيا .. اضف الى ذلك ، ان « روفوس كينغ » ، سفير الولايات المتحدة الى انكلترة ، كـان قد اهمل طلب « ايتون » بوجوب ارسال المجوهرات من هناك ، ولم يتصل به الا في

الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ، ليقول انه لمّا كان يأمل الاستغناء عن فكرة اهداء المجوهرات ، فلم يقم بأية خطوة في سبيل شرائها .

وكل ما كان يستطيع « ايتون » ان يفعله ، هو ان يقتلع شعره ، ويتحسر ، ويعود الى تقديم الأعذار الواهية وغير المقنعة للقصر الملكي ، ويفكر فيما اذا كان من واجبه ان يرسل انذاراً للسفن الاميركية ليحذرها من طرادات الباي .

•

وفي غضون ذلك ، كانت الولايات المتحدة قد بدأت تقطع الأمل في استقرار السلام بينها وبين طرابلس . فعلى الرغم من ان جميع القناصل كانوا قد كتبوا بصراحة بأن امامهم احد حلّين : اما الدفع او الحرب ، فان قصة التأخر ذاتها ما انفكت تتكرر وتتكرر ، هذه المرة مع طرابلس ، اضعف دول شمالي افريقيا الثلاث ، حيث كان الباشا يستعد للاستيلاء على المراكب والسفن الاميركية . وفي اواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ، كتب « كاثكارت » « لايتون » ، بعد ان سيطر عليه اليأس ، طالباً منه التوسط لدى القنصل العام وحثه على استعمال اية قوة ممكنة بغية الاسراع في ارسال الهدايا التي طلبها الباشا . فقد كان يظن ان انباء وصول السفينة « آنا ماريا » الى تونس سوف تحرّض جشع الباشا ، من غير ان يتمكن من معرفة النتائج ! فكتب « كاثكارت » :

« سوف اتمهل ما فيه استطاعتي على امل ان اتلقى رسائل من الجزائر و « لشبونة » ، وبعض التعليمات من حكومتي .. واذا لم يكن هنالك من حل ، فانني سوف استعمل علاجاً مُسكناً مجازفاً « بخلاصي » السياسي .

« يجب ان نشتري السلام بالذهب ، اذا كان الرئيس يعتقد انه ليس

من المناسب ارسال قوة عسكرية ، ولكن ، مهما تكن الظروف ، فينبغي الا يذوق مواطنونا ذل الأسر وهوانه » .

وزاد باي تونس الامور تعقيداً ، عندما طلب في يوم ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ، من السفينة «آنا ماريا» ان تنقل له بضائع معينة الى « مرسيلية » مجاناً وبدون مقابل . ومما يذكر انه قال : انه ما دام في مقدور الجزائر ان ترغم سفينة حربية اميركية على الابحار الى « القسطنطينية » ، فانه لمن المؤكد ان تونس لتستطيع بالمثل ان تأمر سفينة اميركية اخرى بالابحار الى « مرسيلية » مثلاً . فأشار « ايتون » الى ان المعاهدة التونسية – الاميركية تمنع استخدام المراكب والسفن من غير دفع اجرة الشحن . فاقتنع الباي اخيراً ، ولو على مضض ، بدفع مبلغ اربعة آلاف دولار كأجرة للشحن – اي اقل من اجرة الشحن العادية – فوافق « ايتون » على ان يعوّض للمالكين خسارتهم . وبما ان وقوع الحرب كان يرتكز على خيط واهٍ ورفيع يكفي لاشعال خلاف بسيط مثل ذلك الاختلاف في اجرة الشحن ، لم يجرؤ « ايتون » على التصلب والتمسك بالحقوق التي تضمنها له نصوص المعاهدة .

وهكذا ، فان علاقات الولايات المتحدة بدول شمال افريقيا لم يكن ينجم عنها الا المشاكل والفوضى ، وخاصة في اواخر سنة ١٨٠٠ . فالحقيقة انه لم يكن الملاحون والعاملون في مهنة الابحار واثقين من ان مراكبهم وسفنهم التي كانت تُبحر من مدن « سالم » ، و « بوسطن » ، و « فيلادلفيا » الاميركية متجهة نحو « ليغورن » ، وسواها من مرافىء البحر الابيض المتوسط – اقول ، لم يكونوا واثقين من ان مراكبهم وسفنهم تلك سوف تصل الى وجهتها سالمة . اما القناصل الاميركيون في شمالي افريقيا ، فكانوا اكثر قلقاً وانزعاجاً . ففي احدى رسائله الى « روفوس كينغ» ، المؤرخة في ٢٩ كانون الاول (ديسمبر) ، شدد « ايتون » مرة اخرى على ضرورة ارسال المجوهرات الى باي تونس

الذي كان آنذاك لا يهدأ له عصب من اعصابه .

ثم اضاف :

« ان الامور في طرابلس تهدد بالانفجار .. ان اكثر ما يخيفني هو انه اذا لم يتلق السيد « كاثكارت » معونة كافية من الحكومة قبل ان يحل فصل الربيع ويدعو القراصنة الى ركوب البحر ، فاننا سوف نهان اي اهانة . اما في الجزائر ، فان الولايات المتحدة تحذو حذو اسبانيا بصفاء الدين المسيحي ونقائه وطهارته ، اعني انها « تتحمل كل شيء » ... اننا لسوف نسير دوماً بهَدْي ذلك المبدأ النصراني ، ما دامت هنالك شركة يهودية تتولى توجيه شؤوننـــا في الجزائر . تلك صورة مصغرة للوضع الراهن ، ولكنها على كل حال ، صادقة ومعبرة » .

وقد سبق « لويليام ايتون » ان كتب بقسوة ، وحدّة ، وعنف ، الى « جيمس لايندر كاثكارت » ليخبره ان « ريتشارد اوبراين » اشبه بالدمية التي يتسلى بها اصحاب بنك « بكري وبوسنة » ، الذين كانوا يحاولون بمكائدهم ، وخططهم ، ومؤامراتهم ، القضاء على المصالـــح الاميركية في المهد . والحق ان « اوبراين » كان قد اقترض بعض الاموال من اولئك المرابين ، ولكنه كان يُصر على ان تلك القروض كانت ضرورية بالنسبة لدولته ، حينما كان يُنذر تأخر الحكومة بقرب حلول المصائب .

ومع نهاية العام ، لم يكن اي واحد من القناصل الاميركيين الثلاثة يعتقد ان السلام سوف يسود شمالي افريقيا اكثر من اثني عشر شهراً اخرى .

٥

اندلاع الحرب مع طرابلس
١٨٠١

كانت الاربعة شهور الاولى من سنة ١٨٠١ عبارة عن فترة تأزم الامور وتعقدها تدريجياً في منطقة شمالي افريقيا. لقد تابعت السفن الاميركية رحلاتها وجولاتها في حوض البحر الابيض المتوسط ، فكان من غير المستبعد ان تثير رؤية تلك السفن الغنية والثمينة وغير المحمية ، في اية لحظة ، واحدة او اكثر من دول شمالي افريقيا لتقرر ان الولايات المتحدة قد خانتها في تنفيذ وعودها والتقيّد بنصوص معاهداتها ؛ والحق أن ذلك كان صحيحاً نسبياً . وكان القناصل الاميركيون يعيشون في سجن من المخاوف اليومية ، وهم يتوقعون ، بين هنيهة واخرى ، انقضاض القراصنة على التجارة الاميركية واستيلاءهم على سفن الاميركيين ورجالهم وتجارتهم .

وكانت طرابلس ، التي تعتبر أضعف بلدان شمالي افريقيا عسكرياً ، منهمكة في اعداد طراداتها وتجهيزها لعمليات بحرية مقبلة . وكما لاحظ

الجميع ، فان التجارة الاميركية كانت الهدف الاخير الذي ترمي اليه جميع تلك الاستعدادات القائمة في طرابلس على قدم وساق ، ولكن احداً لم يكن يعلم متى سوف يكون موعد الضربة الاولى . وكان من المرجح ايضاً - في تلك الاثناء - ان تعتزم كل من تونس والجزائر على أن تأخذ نصيبها من الغنائم ، أي ان تشارك في الحرب المقبلة .

بات القلق اليومي ، تدريجياً ، امراً لا تطيقه اعصاب المندوبين الدبلوماسيين الذين عُهدت اليهم مهمة رعاية المصالح الاميركية في تلك المنطقة . فبالاضافة الى عدم وصول أية معلومات مُرضية من حكومة الولايات المتحدة ، فقد كان القناصل عاجزين عن منع حدوث المصيبة التي كانوا يعتقدون انه بالامكان تفاديها بقليل من الثبات والذكاء ، فراحوا يلعنون الحظ والحكومة الاميركية ، ويلومونها بألفاظ جارحة . وكلما كانت تضيق فسحة الامل في وجوههم ، كانوا يفقدون السيطرة على أعصابهم ، فينفسون عن كربهم بصب جام غضبهم على بعضهم الآخر .

مسكين « ريتشارد اوبراين » ! ... فعلاوة على كره « كاثكارت » له ، فقد بدأ « ايتون » الان يرتاب في امره ، ولا يثق به . ولربما كانت اتهامات « كاثكارت » المتكررة على نحو مضجر من الاسباب التي حملت « ايتون » على ان يشك في « اوبراين » ، لمدة طويلة ، وان يتهمه بالخضوع لنفوذ المؤسسة المصرفية الجزائرية العائدة لـ « بكري وبوسنة » . وفي محنة سنة ١٨٠١ ، جزم « كاثكارت » بأن « اوبراين » يتآمر مع اصحاب ذلك المصرف الذين كانوا يأملون تحقيق ربح محترم من وراء اندلاع حرب في المتوسط ، وبالتالي من وراء الاستيلاء على بعض الغنائم ، وبخاصة السفن منها ، وذلك في مرافىء افريقيا الشمالية . ولكن لم يكن ثمة أي دليل يدعم تلك التهمة . كان « اوبراين » لا يجيب على رسائل « كاثكارت » الا بطريقة جافة ... ولكنه ، مع ذلك ، كان

يحدوه الشوق – كصديقيه الاخرين – لتجنب اندلاع نيران الحرب .
ومهما يكن الامر ، فلعلّ « ايتون » اقتنع باتّهمات « كاثكارت » ، فراح يتصرف تصرفات مريبة لا تعرف الصبر نحو القنصل العام ... ليس هذا فحسب ، بل لقد تذمر في احدى رسائله التي ارسلها الى حكومته من محاباة « اوبراين » ، وتحامله ، وانحيازه ، وتفكيره الخاطىء .

وصلت الحرب الشخصية التي كانت تدور رحاهـــا ما بين القناصل الثلاثة الى الذروة عندما بدأ « اوبراين » يعترض سبيل بريد « ايتون » و « كاثكارت » ، حين كانت تمر رسائلهما بقنصلية الجزائر . وقد كتب « ايتون » الى « اوبراين » محتجاً – بطريقة تهكمية – ، ومؤنباً اياه لأنه اساء التصرف بفتحه ثانية عدداً وافراً من الرسائل . هذا ، ولقد أكد « ايتون » ان « اوبراين » كان يستعمل كُرية معدنية تارة، وختماً عتيقاً خاصاً به طوراً ، كما كان يستعمـــل « رأس عكاز بكري » ، ولكن جميع تلك الادوات والاختام لم تستطع ان تخدع مستلمي تلك الرسائل . ومن ثم وجه « ايتون » نصيحة الى « اوبراين » قائلاً :

« دعني انصحك ، يا صديقي ، « اوبراين » ، أنك لن تنجح في التزوير والتزبيف ، ما لم تبلغ درجة عليا من التخصص » .

هذا ، وقد تذمر ايضاً – وباللهجة نفسها – مندوب انكليزي في تونس ، وكان صديقاً « لايتون » ، من ان « اوبراين » كان يعبث برسائله ويتلاعب بها . اما « اوبراين » ، فقد اجاب ان الرسائل كانت تصله مفتوحة ، وأنه لم يحاول ان يزّيف ختمها .

ان تلك الحادثة لتظهر بوضوح التغير الذي طرأ على علاقات «ايتون» بالقنصل العام . ومع تعاقب الايام، صار « ايتون » يوافق « كاثكارت » ، ويقره على اتّهاماته المكررة التي كانت تدعي ان « اوبرايـــن » ما كان اكثر من آلة في ايدي المرابين الجزائريين واسيادهم الفرنسيين ... ففي ذلك الجو من المكائد المستمرة والقلق العام ، لم يكن من الصعب الشك

حتى في اقرب المقربين والزملاء . واصبحت فكرة نفوذ « بكري وبوسنة » الشامل – باعتباره العامل الاول المسؤول عن نصف المشاكل في شمالي افريقيا – مُلازمةً لكل من « ايتون » و « كاثكارت » ، الى درجة انهما كانا يعتبران اية علاقة مع تلك الشركــة كدليل على النوايا السيئة .

وقد تمكن « كاثكارت » من ان يجمع الدلائل الكافية ليثبت ان المجوهرات والساعات التي اشتراها « اوبراين » في الجزائر وارسلها كهدية الى باشا طرابلس في شهر كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٠٠ ، قد كلفت تقريباً ضعف ما كانت ستكلفه فيما لو اشتراها من « ليغورن » .

وبما ان الولايات المتحدة قد ابتاعت ، في فترات مختلفة ، بما تبلغ قيمته ١٥٠,٠٠٠ دولار من امثال تلك الهدايــا من الجزائر – وذلك بوساطة مجموعة « بكري » – فقد استنتج « كاثكارت » ان « اوبراين » قد ساعد اصدقاءه اليهود بحوالى ٧٥,٠٠٠ دولار .

لقد نسي كل من « ايتون » و « كاثكارت » ان « اوبراين » ، شأنه في ذلك شأن كل فرد في الجزائر ، كان مضطراً للتعامــل مع المرابين اليهود اصحاب بنك « بكري » ، وانه لم يكن في مقدوره اخفاء المعاملات عن انظارهم الشاخصة المحدّقة ، خاصة وأنهم كانوا يقدمون اموالهم لتحمّل النفقات والمصاريف التي كانت تتوجب على الولايات المتحدة في شمالي افريقيا . ومهما يكن ، فان « اوبراين » كان قد دخل في حقل العمليات التجارية الخاصة ، مثلما فعل « ايتون » و « كاثكارت » على حد سواء ، كل يعمل لمصلحته الخاصة .

وعلى كل حال ، فقد ظل قنصــلا طرابلس وتونس يعتقدان – ويذيعان – ان القنصل العام خاضع لتأثير بنك « بكري » ، وانه لا يمكنه القيام بأيما عمل لا يرضى عنه ذلك البنك . وعلى الرغم من ان « اوبراين » لم يكترث ولم يحرك ساكناً للكلمات القاسية التي كان

يكتبها « ايتون » في اكثر من خطاب ، فان التنافر المتزايد بين القناصل الثلاثة زاد من صعوبة الأزمة العامة في ربيع سنة ١٨٠١ .

•

كان الجو قاتماً ومكفهراً في شهر نيسان (ابريل) ، حتى ان «ايتون» قد عقد النية على ارسال رسائل سريعة الى « واشنطن » مباشرة ، كما انه قد عمم انذاراً ثانياً على السفن الاميركية في حوض المتوسط . ولكي يضمن وصول رسائله الى حكومة الولايات المتحدة على جناح السرعة ، فقد لجأ الى الربان « جوفاني جركوفيتش » ، قائد السفينة « بن فنوتو » الدوبروفنيكية * ، راجياً منه ان يسرع ، قدر المستطاع ، اقصى سرعة ممكنة . وبما ان جمهورية « دالماتيه » الصغيرة التي تضم مدينة « دوبروفنيك» ، او « راغوزا » على حد قول الايطاليين ، لمّا تزل تحت السيطرة العثمانية ، فكان « ايتون » واثقاً من انه ليس ثمة قرصان واحد يجرؤ على مضايقة السفينة . ولكن ، وبعد جميع محاولات « ايتون » ومساعيه ، فان الربان « جركوفيتش » راح يتسكع بسفينتـــه ولم يصل الى شواطىء اميركا الا في وقت كانت فيه الحلول الدبلوماسية لا تجدي نفعاً البتة .

اتضح « لايتون » ان الطريقة الوحيدة لنقل الرسائل والمعلومات الى « واشنطن » والعكس بالعكس اي تلقي الانباء والتعليمات من هناك ، انما هي تخصيص سفينة لهذا الغرض بالذات .

لم يعد « ايتون » يقوى على الصبر وانتظار التعليمات او حتى اخبار اصدقائه وعائلته. فالرسائل الموجهة اليه كانت تمر على الدوائر الحكومية في وزارة الخارجية ، حيث تبيت هناك عدة اشهر . وقد كتب « ايتون »

---

* نسبة الى « دوبروفنيك » او « راغوزا » كما يسميها الايطاليون ، وهي مرفأ يقع في جنوبي غربي يوغوسلافيا ، على البحر الادرياتيكي . (المعرب)

الى « ويليام لوغتون سميث » في لشبونه ، ذات مرة ، حينما كان يلفه الحزن ، وذلك في اليوم الثالث عشر من شهر آذار (مارس) سنة ١٨٠١ ، على وجه التحديد :

« ارجو منك الا .. تحرمني من رسائلك وخطاباتك ، فانها وساطتي الوحيدة تقريباً مع عالم النور .. »

ثم تابع يقول :

« مضى الآن ثمانية عشر شهراً ، وأنا لم أستلم اية رسالة من أي صديق لي في اميركا ... ان الرسائل المرسلة الي « تنام » الآن في احدى دوائر حكومتي » .

كانت وسائل الاتصال بطيئة الى درجة ان القناصل الاميركين في شمالي افريقيا لم يعلموا من الذي اختاره الشعب الاميركي رئيساً للولايات المتحدة الاميركية في انتخابات عام ١٨٠٠ إلا بعـد مضي شهور على استلام « جفرسون » منصب الرئاسة . فعلى الرغم من ان حوض البحر الابيض المتوسط كان ، في ذلك الحين ، يغص بالسفن الاميركية ، فان معظم تلك السفن تكون قد قامت برحلة طويلة وقطعت مسافات شاسعة عن طريق جزر الهند الغربية ، ونادراً ما كانت تصل الى مرفأ من مرافىء افريقيا الشمالية ... ولكن ، ومع ذلك كله، فانه من الصعب تعليل عدم وصول اخبار انتخابات الرئاسة الاميركية الى القناصل الاميركين في افريقيا الشمالية إلا في شهر ايار (مايو)... وعلى الرغم من ان بعض الاشاعات كانت قد تناهت الى اسماعهم من ذي قبل ، فان « ايتون » لم تصله انباء تؤكد انتخاب الرئيس « جفرسون » إلا في ٩ أيار (مايو) ، فأسرع في نقل النبأ الى زميله « كاثكارت » .

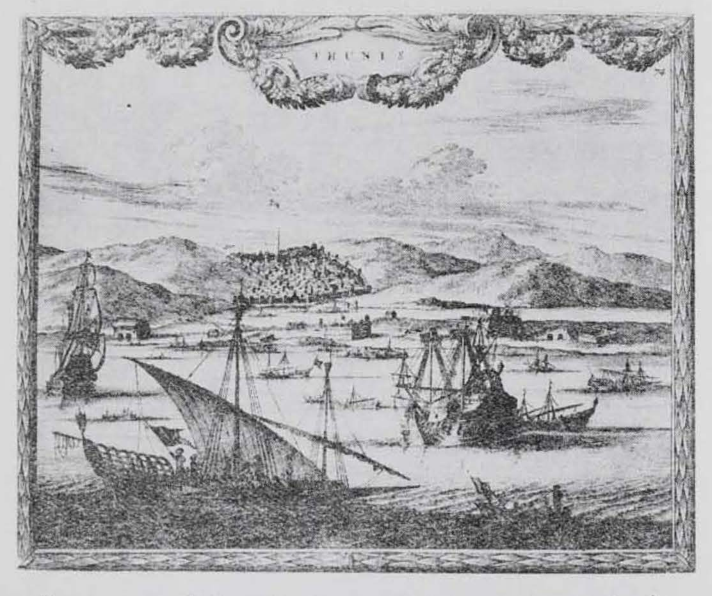
سبق « لايتون » أن عبّر عن أمله باعادة انتخاب « أدامس » رئيساً للولايات المتحدة الاميركية ، فقال في رسالته التي وجهها الى صديقه « ستيفان بينكون » ، في ١٨ آذار (مارس) سنة ١٨٠١ :

« لست أدري من هو الرئيس الآن ... آمل ان يكون «أدامس»... أما اذا وقع الاختيار على السيد « جفرسون » ، فلا أرى داعياً للخوف على كياننا السياسي .

« اني لم اعتقد يوماً من الايام ان هنالك فرقاً شاسعاً في المعتقدات السياسية لهذين الرجلين .. فهما ، في الواقع مواطنان اميركيان ، وكفى. أما من ناحية ديانتهما ، ... فلا أعتقد أنهما يختلفان عني وعنك وعن أي رجل مستقيم مخلص في ايمانه . »

ولما كان على القناصل ان يسرعوا في اتخاذ القرارات في الحالات والظروف الطارئة من غير التفات الى نصائح حكومة « واشنطن » ، فمعنى ذلك ان سرعة خاطر اولئك المندوبين الدبلوماسيين ، وأمانتهم ، واستقامتهم ، قد تُقرر مصير أمم بحالها . وفيما كان « ايتون » يُميت موضوع الحالة الافريقية تقليباً في عقله، وفيما كان يفكر أيضاً في نقائص القنصل العام في الجزائر ، استنتج ان الوظيفة القنصلية بحاجة الى تعديل وتغيير جذريين . وقد أسرَّ خطته الى صديقه «ويليام لوغتون سميث»... ينبغي على جميع القناصل ان يغادروا شمالي افريقيا . ومن ثم ، يعيَّن في مكانهم ، بعض المندوبين المقيمين ليكونوا مسؤولين امام قنصل عام أو سفير ، يتخذ مركزاً له « بورت ماهون » في جزيرة « مينورقة » – البعيدة عن مناطق نفوذ « بكري » وغيره من أصحاب المكائد.ومن الضروري،أن يُحدد راتب ذلك القنصل العام السنوي بما لا يقل عن خمسة آلاف دولار ، أي بحيث يكفيه – حسب اعتقاد « ايتون » وتقديره– ويساعده على صرف النظر عن تعاطي التجارة الخصوصية . أما راتب المندوبين المحليين ، فيجب ألا يقل عن ألف دولار في السنة ، كما انه يجب الاستغناء عن خدماتهم عند أقل تقصير أو اهمال .

ان اولئك الممثلين المحليين ، الذين يُفترض بهم ان يكونوا من شمالي افريقيا بصورة مستمرة ، « لا فرق في ان يكونوا من اليهود أم



مرفأ تونس : من رسم توماس دوسبروغ، الفنان الهولندي ، ومن حفر كاريل ألارد ، بأمستردام . وقد نقلناها عن كتاب تاريخ اسطول الولايات المتحدة ، كما عثرنا عليها في مكتبة هانتنغتون .

من النصارى » ، كما ان صلاحياتهم تتحدد بما يلقيه عليهم القنصل العام من تعليمات . وعلى هذا الاساس ، تصدر القرارات الدبلوماسية من غير خوف ولا استرضاء ، أي على نقيض ما يعانيه القناصل الآن ، وبخاصة حين يضطرون للتنازل عن بعض حقوقهم وامتيازاتهم عندما تكون حياة كل منهم في خطر داهم .

ان « سميث » نفسه قد شارك « ايتون » وزوده ببعض فكراته ، ولكن جميع مقترحاتهما لم تأت بنتيجة . فاذا افترضنا ان تلك المقترحات قد وصلت الى الحكومة الاميركية ، فانها ، من غير أدنى شك ، قابعة في احدى الزوايا مع تقارير « ايتون » ورسائله .

كان « ايتون » واثقاً من ان تعديل الوظيفة القنصلية هو وحده الكفيل باخراجه من شمالي افريقيا ، اذ انه كان قد فقد آخر امل له في مغادرة تلك البلاد والعودة الى الولايات المتحدة ، وذلك اعتباراً من ربيع عام ١٨٠١ عند انفجار الأزمة في طرابلس .

وفي نهاية شهر كانون الثاني (يناير) ، أصبحت المياه السياسية في حالة من الغليان . فقد شرعت تركيا ، بتشجيع من انكلترا ، تطالب دول شمالي افريقيا بتجديد الحرب ضد فرنسا . كانت تلك الدولة تبغي التخلص من السيطرة العثمانية ، ولكن مثل هذا العمل ، بالاضافة الى رفضها اعلان الحرب على فرنسا ، كان يعني التعرض لخطر انتقام الاسطول البريطاني في الحال . وهكذا وجد القراصنة أنفسهم مرتبكين ، وفي حيرة من أمرهم : ماذا يفعلون ؛ وكيف يتصرفون ؟!

لم يروا داعياً ملحاً لاعلان الحرب على فرنسا التي كانت بالنسبة لهم بمثابة سوق لبيع البضائع المهربة التي كانوا يهربونها من مناطق الحصار الانكليزي .

أما بنك « بكري » ، فانه راح يبذل أقصى جهوده للمحافظة على السلام مع فرنسا من نحو ، ولتوجيه القراصنة المندفعين الى الحرب الى

أعداء آخرين أوفر مالاً من سواهم . والمقصود طبعاً بأولئك الاعداء : الولايات المتحدة الاميركية . وهذا ما أخطر به القناصل الاميركيون المقيمون في دول شمالي افريقيا حكومتهم في « واشنطن » .

ومهما يكن من أمر ، فان تلك الدول سرعان ما أُرغمت على الدخول في حرب علنية ضد فرنسا ، في حين كانت مستعدة للهجوم على تجارة مزدهرة عائدة لدولة أخرى .

ما كان « ايتون » – رجل الشجاعة والاقدام – ليقوى على ان يقف مكتوف اليدين في تونس ويترك المجال مفتوحاً أمام طرابلس للسطو على السفن الاميركية . فعلى الرغم من اصابته بداء « الروماتيزم » الذي اضطره الى الانتقال الى أحد المصحات الواقعة على شاطئ البحر ، وذلك في شهر كانون الثاني (ينـاير) ، فقد خُوِّل صلاحيات قنصل عـام وشرع يرسم الخطط لتفادي وقـوع الحرب مع طرابلس . ثم نصح « كاثكارت » بأن يُبعِد عـائلته عن طرابلس ، وان يستعد للانتقال الى تونس . وما ان عـلم باي تونس بذلك الاقتراح ، حتى حذر القنصل انه لن يتحمل مثل ذلك المشاغِب في بلاده. أما « كاثكارت » فقد غادر طرابلس متوجهاً الى « ليغورن » . وقد أرسل « ايتون » ، في ٢٣ آذار (مارس) ، بعض المعلومات للقنصل الدانماركي في طرابلس ، « نيكولاس نيسان » الذي وعد « كاثكارت » بتولي امـور المصالح الاميركية في حال وقوع حرب ؛ والواقع انه كان من المفروض ان يقوم « اوبراين » بتلك الاتصالات مع القنصل الدانماركي ، ولكن « ايتون » علّل ذلك بأنه أقرب من « اوبراين » الى طرابلس ، وان الاعتبارات البروتوكولية لا يمكن ان تقف حجر عثرة في سبيل الشؤون الانسانية .

وقد لفت « ايتون » نظر « نيسان » الى ضرورة الاعتناء صحيـاً وطبياً بالبحارة الاميركيين المعتقلين في طرابلس من جهة ، والى ضرورة تزويد كل منهم بثُمن دولار اسباني في اليوم من جهة ثانية . أما كبار البحارة – بالاضافة الى المسافرين – فينبغي ان يُدفع لهـم ضعف ذلك

المبلغ . وكان على «ايتون» ان يُعيد الى « نيسان » ما كان قد دفعه من نفقات بعد مضي ثلاثين يوماً على تحويل فاتورة الحساب الى تونس .

لقد كان « ايتون » مستعداً لاستعمال رصيده الخاص بغية نجدة مواطنيه من العذاب والهوان .. انه لتصرُّف ينم عن كرم ونبل ، من غير ادنى شك .

ومن ثم ، انكب « ايتون » على تحرير الرسائل الى وزارة الخارجية الاميركية ، والى السفراء الاميركيين في « لندن » وفي « لشبونة » ، والى كل من يتوقع منه مساعدة ما أو نصيحة ما ، وفي فؤاده شعور من الرضى يخالجه ويُشعره بأنه يبذل أقصى جهده في سبيل تجنّب المصيبة .

ومما تجدر الاشارة اليه ، هو ان « ايتون » كان يخشى امكانية دخول تونس الحرب ضد الولايات المتحدة ، اذا ما نجحت طرابلس في الاستيلاء على المراكب الاميركية . وكان الأساس الذي بنى عليه مخاوفه هو ان الباي طلب من رئيس الولايات المتحدة ان يرسل له أربعين مدفعاً يُطلق كل منها قذائف زنة واحدتها أربعة وعشرون رطلا ، كيما يزود بها حصونه الساحلية . ففي الخامس من شهر نيسان (ابريل) ،استدعى الباي القنصل الاميركي الى قصره ، وأملى عليه طلباته . ولمّا رفض « ايتون » نقل ذلك الطلب الى رئيس الولايات المتحدة ، أجاب الباي انه سوف يكتب بنفسه الى الرئيس مباشرة . وتذرّع بأنه ما دام باستطاعة الولايات المتحدة أن تزوّد الجزائر بالسفن الحربية ، فانها قادرة حتماً على إرسال المدافع الى تونس ... واذ ان الباي كان قد تقدم بطلب مماثل قبيل دخول تونس الحرب الاخيرة مع الدانمارك ، فقد آمن « ايتون » بأن الباي يمهد طريق الأزمات والمشاكل . هذا ، وقد لفت الباي نظر الولايات المتحدة مرة اخرى الى ان السلع والمؤن التي جرى الاتفاق عليها في المعاهدة قد تأخرت أربع سنوات عن موعد وصولها . وفي تقريره

الى الحكومة الاميركية ، أشار « ايتون » الى انه ليس امام بلاده إلا ان تدفع أو تحارب .

وفي حال نشوب حرب مع تونس ، كان « ايتون » سينفذ خطته الهادفة الى تحطيم قوة الباي والقضاء على نفوذه . وعلى الرغم من الرغبة الجامحة التي كانت تعتري جميع الاطراف المعنية من أجل ضمان استقرار السلام ، في الحين الذي كانت تهدد فيه طرابلس بالويل والثبور وعظائم الأمور ، فان القنصل قد نوه باستعداده لتجهيز حملة اذا ما أرسلت حكومته قوة عسكرية بحرية بدلاً من الهدايا والمجوهرات .

وقد كتب « إيتون » الى « واشنطن » يقول :

« اذا ما أرسلت لي حكومتي ألف رام بحري تتراوح أعمارهم* بين العشرين والثلاثين سنة،مع بعض القادة الاميركيين المدربين تدريباً حسناً ، وفرغاطة ذات أربعة وأربعين مدفعاً ، فاني أقطع عهداً على نفسي بأن أفاجىء « بورتو فارينا » ومستودعات الأسلحة الخاصة بالباي ...

« أكرر أيضاً بأنه يجب ان نفعل شيئاً ما ، ويجب ان نعتمد ــ وان نعتمد فقط ــ على قوتنا العسكرية . »

ومعنى ذلك ، ان « ايتون » كان يؤمن بأنه ليس للولايات المتحدة ان تنتظر مساعدة ايــة دولة أخرى فى سبيل ضمان مصالحها في حوض البحر الأبيض المتوسط . وعلماً بأنه هو نفسه كان صديقاً مقرباً لكل من القنصل العام البريطاني ومندوبيّ الدانمارك والسويد ، فلم يكن ليثق بحكوماتهم !!... كانت الدانمارك والسويد تعتبران التجارة الاميركية تهديداً دائماً لمصالحها الخاصة . ان جزءاً رئيسياً من تجارة الدانمارك كان

* اذا صح التعبير .

أما الحكومة الاميركية، فكأنها لم تعلم بعد بأن طرابلس قد اعلنت الحرب عليها ، اذ انها شرعت تدرس مشاريع توطيد السلام في البحر الأبيض المتوسط ، مع انهـا كانت تستعد لارسال اسطول كتمهيد نافع ومقنع للمفاوضات التي ستلي – على حد اعتقادها وتقديرها .

•

تقبل القنصل الامير كي « جيمس لايندر كاثكارت » نبأ اعلان الحرب وهو مشوّش الذهن . وعلى الرغم من قلقه وخوفه على الامير كيين فقد كان مسروراً لمغادرته طرابلس ... ان « ليغورن » بالنسبة لطرابلس ، جنة وأي جنة !!

كان اعلان الحرب بمثابة الأوج الذي وصلت اليه المباحثات المملة مع طرابلس بعد ان استغرقت وقتاً طويلاً جداً من الزمن . ان الذي كان يستغرق وقت « كاثكارت » برّمته انما هـو مجرد المفاوضات المرفقة بمساومـات بارعة وتنازلات عديدة ... أما القنصل الامير كي السابق ، « جوزف انغراهام » ، فلم يكن يفعل شيئاً سوى تعكير علاقات الولايات المتحدة مع الباشا ، وكان « يوسف قرامانلي » حينذاك ، وتلقي الفواتير الفاحشة المقيّدة على حساب الولايات المتحدة .

وعندما وصل « كاثكارت » الى هناك ، كـان الباشا الطرابلسي « يوسف قرامانلي » ثائراً وهائج الأعصاب ... وكان المندوب الانكليزي الدكتور « بريان ماكدونوغ » ، قد أقنعه بأن الولايات المتحدة قـد عاملته بطريقة جائرة وعلى نحو غير منصف في الاتفاقية الأصلية للسلام والصداقة . ولكم كان فرح الدكتور « بريان ماكدونوغ » عظيماً عندما بيّن للباشا ان طرابلس قد نالت نصيباً يقل عن نصيب كل من الجزائر وتونس !! ... فندم يوسف قرامانلي الآن عـلى تساهله في معاهدة ١٧٩٦ – ١٧٩٧ الرخيصة التي أطلق – بحسب ما تقضي به نصوصها–

سراح أربعة أسرى ، ووعد بحسن التصرف تجـاه السفن الاميركية في مقابل مبلغ أربعين الف دولار اميركي ، وبعض الهدايا الحقيرة التافهة ، مع قليل من البضائع والسلع التي تُقدّر قيمتها بحوالى اثني عشر الف دولار اميركي اضافي .

ليس هذا فحسب، بل لقد قرّر يوسف قرامانلي انه ليس ثمّة حاجة لدفع دفعات جديدة—وهي هفوة غريبة لم يكن من المتوقّع ان تصدر عن أي حاكم خبير من حكام دول شمالي افريقيا . ولقد وصل موقف يوسف المحرج الى قمّته عندما وعد دايُ الجزائر الولايات المتحدة ، في لحظة من التفاخر والتعالي والتعاظم ، بالتقيد بنص المعاهدة وروحها . وبعد ان أطال يوسف التفكير ، استخلص ان الولايات المتحدة كانت قد وعدته بطراد بالاضافة الى بعض الاعتدة والسلع الأخرى . ومن هنا ، حاول الاستيلاء على السفينة « صوفيا » التي نقلت «كاثكارت» الى طرابلس .

وهكـذا ، باشر « كاثكارت » عمله القنصلي والمصاعب واقفة له بالمرصاد . فقد رفض الباشا ، في بادىء الأمر ، ان يستقبله قبـل أن يسلّمه هدية السفينة « صوفيا » أو ٥٠,٠٠٠ دولار ، مضافاً اليها بعض السلع والهدايا القنصلية ، وذلك في خلال أربعين يوماً . وأخيراً ، ذكر « كاثكارت » في تقريره أنه لمّا كانت البضائع لم تصل بعد ، فانـه تمكن من اقنـاع الباشا بقبول مبلغ ٨,٠٠٠ دولار عوضاً عن السفينة « صوفيا » ، مع مبلغ اضافي قدره ١٠،٠٠٠ دولار ، في مقابل جميع مطاليبه من الولايات المتحدة . وقد انفق « كاثكارت » كذلك نحـواً من ١,٥٠٠ دولار كمصاريف طارئة غير متوقعة – كانت احداها رشوة محترمة دُفعت للدكتور « ماكدونوغ » – كما وزّع المزيد من الهدايـا التي يُقدّر ثمنهـا بـ ٤,٠٠٠ دولار في قصر الباشا الرسمي . وانهى « كاثكارت » المساومة بأن دفع دفعة نقدية قدرهـا ٣,٥٠٠ دولار ، وسجّل الفواتير عـلى اسم « ايتون » و « اوبراين » . جميع تلك

المصاريف والدفعات والسحوبات قد اثقلت كاهل الميزانية الاميركية المخصصة لمنطقة شمالي افريقيا ... هذا وقد رفض الباشا – بحدّة – التأكيدات الجزائرية المتعلقة بضمان تنفيذ المعاهدة والتقيّد بنصوصها ؛ بيد أن القنصل الجديد أرضى غرور طرابلس وأبقى الباشا هادئاً مستكيناً لمدة سنة .

عندما تقدم الباشا بطلب العشرة آلاف دولار بمناسبة وفاة «واشنطن» – انطلاقاً من العادة المتبعة في مثل تلك المناسبات وتمشياً عليها – ، فقد استطاع القنصل ان يتجنب وقوع كارثة بصعوبة هائلة ، وذلك بواسطة ارساله خطاباً مباشراً من يوسف قرامانلي الى رئيس الولايات المتحدة الذي كان صمته وعدم اهتمامه بالموضوع نذيري سوء ... وفي غضون ذلك ، بل وفي خلال الحرب المظفرة التي شنتها طرابلس على السويد ، استولى القراصنة الطرابلسيون على السفينة الاميركية « كاترين » .

وقد تمكن « كاثكارت » ، بمشقة وجهد ، من ان يخلّص السفينة من أيدي القراصنة. بيد ان الباشا طالب حينئذ بدفع جزية سنوية، مهدداً بالحرب ما لم يتسلّم جواباً مرضياً على طلبه في خلال ستة أشهر ... عندها ، يئس « كاثكارت » من الموقف المتأزم ، فأرسل في التاسع والعشرين من شهر تشرين الاول (اوكتوبر)،سنة ١٨٠٠ ، احتجاجاً رسمياً وأرفقه ببيان تفصيلي عدّد فيه المرات التي خرقت فيها طرابلس اتفاقية السلام . كما أرسل الى داي الجزائر طالباً منه العمل على تنفيذ المعاهدة عملاً بالمادتين رقم (١٠) ورقم (١٢) .

حدث كل ذلك في الفترة التي سبقت كارثة نوار (مايو) سنة ١٨٠١ . وحينما أعلنت طرابلس الحرب في ذلك الوقت ، لم يقم داي الجزائر بأيما عمل ، اللهمّ سوى انه حرر رسالة تحذير ودية الى الباشا، واقترح على الولايات المتحدة بأن تجود على شقيقه باشا طرابلس بهدية صغيرة لا تزيد عن المئة الف دولار !

ما كان باستطاعة القنصل العام « ريتشارد اوبراين » ان يأتي عملاً مجدياً له تأثيره في الجزائر . كان هنالك بعض الريب يخالج الافئدة فيما اذا كان بمقدور الداي ان يضغط على طرابلس ، او اذا كان يتمتع بنفوذ يمكنه من ذلك . وأشار « اوبراين » الى انه حتى لو كان للداي مثل ذلك النفوذ ، فانه ما من شيء سوف يحمله على استعماله الا رشوة كبيرة . والحق ان الولايات المتحدة كانت قد ضخمت ديونها بعد ان اقترضت ما ينوف عن المئة الف دولار اميركي من مصرف «بكري» .

أما بالنسبة للداي ، فان الجزية الموعود بها كان قد تأخر وصولها اليه مدة سنتين ، مما دفعه الى ان يهدد بدوره بالحرب ما لم يصله المبلغ.

وفي النصف الاول من عام ١٨٠١ ، كان القناصل جميعاً–«اوبراين» و« كاثكارت » ، و « ايتون » – مركزين انظارهم غرباً ، وهم يصعّدون صلاة حارة من اجل وصول الفرغاطات الاميركية . ومن الطريف ان « اوبراين » قد تخيّل أسيطيلاً (اسطولاً صغيراً) وصفه لكل من « ايتون » و « كاثكارت » في رسالتين وجهها اليهما ... وقد ذكر اسماء ثماني سفن واسماء قباطنتها ، متوقعاً وصولها الى البحر الأبيض المتوسط في العاشر من شهر آذار (مارس) على وجه التقريب . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان من المنتظر ان ترسل الولايات المتحدة اربع سفن ، كلاً منها ذات اربعة وسبعين مدفعاً في شهر ايار (مايو) . والطريف ايضاً ، انه نوّه في ملاحظة خبيثة انه قد حلم بتلك المعلومات لا غير ، ولكنه قد يكون مفيداً تعميمها أو نشرها .

فكان جواب« ايتون » على ذلك النوع من الدعاية ، انه « لن يجعل من نفسه أداة لأحلام السيد « اوبراين » ورؤاه . »

أما « كاثكارت » ، فكان يعتقد ان الجهود التي بذلها « اوبراين » ، أكان ذلك قبل اعلان طرابلس الحرب أم بعده ، كانت أقل من عقيمة ! ! وقد تذمّر واحتج لأن « اوبراين » لم يُرشده بأي ضروب من ضروب

التعليمات من جهة ، ولأنه لم يؤمن المال الكافي الذي يتطلبه حسن سير الدبلوماسية مع طرابلس من جهـــة اخرى .. فحتى اسلوب رسائل « اوبراين » كان بغيضاً ذميماً لدى « كاثكارت » ، الذي طالما ضاق ذرعاً بذاك الاسلوب الذي لم يكن – على حد قوله – سوى عبارة عن خليط متشابك وبغيض من :

« الصخور ، والمياه الضحلـــة ، والمراسي ، والحبال الغليظة ، والصواري ، والأشرعة ، وسواها الآلاف من السخافات والخرافات التي ستحيّر المحامي « لويس » او اي رجل آخر يحاول فهمها » .

ثم اضاف « كاثكـــارت » ان استعاراته البحرية – اي استعارات « اوبراين » – ما كانت لتقل سخفاً الا عن الامثال والحِكم التي كان يطلقها « سانشو بانزا » .

كانت نكبة عام ١٨٠١ خاتمة سنوات طويلة من المباحثات العقيمة مع طرابلس ... وفي ربيع ذلك العام ، كان كل شيء يحمل الاميركيين المقيمين في شمالي افريقيا على الايمان بأن الولايات المتحدة سوف تضطر لاستعمال القوة بغية احراز السلم مع طرابلس ، اذ ان المطـــاليب المالية كانت قد بلغت درجة من السخف بحيث اصبحت منافية للعقل وغير جديرة بأقل اهتمام .

وكان الباشا يقاوم بعناد من أجل معاهدة جديدة تعقد من غير الاتيان على ذكر الجزائر ، لكي يضمن لنفسه دفعة اولى قدرها ٢٢٥,٠٠٠ دولار ، وجزية سنوية لا تقل عن ٢٠,٠٠٠ دولار . وفي سبيل كسب الوقت ، تابع « كاثكارت » مساوماته ، حتى انه عرض مبلغ ٣٠,٠٠٠ دولار على يوسف قرامانلي ليحصي مطاليبه ويحافظ على السلام لمدة ١٨ شهراً ، كل ذلك بانتظار ورود جواب من رئيس الولايات المتحدة ومجلس الشيوخ الاميركي . إلا ان يوسف رفض هذا العرض ، واظهر ميله الى

الدخول في حرب .

•

ونتنقل الان من منطقة شمالي افريقيا الى « واشنطن » فنلقي نظرة على ما كان يحدث هنالك في العاصمة الاميركية من مشاورات واستعدادات.

ففي ربيع سنة ١٨٠١ ، كانت الاستعدادات قائمة في « واشنطن » على قدم وساق رجاة ارسال قوة عسكرية الى البحر الابيض المتوسط ، بقيادة القائد « ريتشارد ديل » ... وتشدد تعليمات القائد المذكور ، المؤرخة ٢٠ ايار (مايو) سنة ١٨٠١ – أي بعد اعلان طرابلس الحرب بأيام قلائل – ، على ان الولايات المتحدة ما زالت مصرّة على السلام، وان الغاية من وراء تطواف سفنها في عرض المتوسط ما هي الا مساعدة رجال البحرية الاميركية الصغار وتوجيه التعليمات اليهم من جهة ، وفرض هيبة التجارة الاميركية على دول شمالي افريقيا وحملها على احترامها من جهة ثانية .

كان اسطول « ديل » يتألف من فرغاطتين مزودة كل منهما بأربعة واربعين مدفعاً : الاولى بقيادة الربان « جيمس بارون » واسمها « بريزيدنت » ، والثانية بقيادة الربان « صموئيل بارون » واسمها « فيلادلفيا » ... أما السفينة « ايسيكس » فكانت تحمل اثنين وثلاثين مدفعاً وبأمرة الربان « ويليام باينبريدج » . أما السكّونة (مركب شراعي ذو صاريين او اكثر) « انتربرايز » ، فكانت بأمرة الملازم اول « اندرو ستيريت » .

والواقع ان تلك القوة لم يكن من شأنها ادخال الرعب الى نفوس من أرسلت اليهم ، بيد انها كانت افضل ما تستطيع الولايات المتحدة تجهيزه .

ما كان الرئيس « جفرسون » بحاجة الى من يقنعه بأن القوة ، لا الرشوة ، هي السبيل الذي يجب ان تسلكه السياسة الاميركية بالنسبة

لقراصنة شمالي افريقيا . فالواقع انه عندما عمل في البعثة الاميركية الى شمالي افريقيا ، سنة ١٧٨٦ ، ادرك عن كثب ان الولايات المتحدة لن تتحمل دفع الجزية الى لصوص البحـــار اولئك . ومن هنا ، كان « جفرسون » يطمح الى ارسال قوة بحرية الى حوض المتوسط ، غير انه لم تكن لديه الصلاحية من « الكونغرس » – الذي تجب موافقته على امثال تلك الامور– لفتح نيران حرب مكشوفة، حتّى ولو وجد الاسطول ان دول شمالي افريقيـــا تقوم بأعمال عدوانية ضده ... اذن ، كانت التعليمات الّتي ألقاها « جفرسون » على القائد « ديل » متفقة تماماً وافكاره.

إن السبب في ضآلة القوة البحرية المخصصة للخدمة في البحر الأبيض المتوسط قد عُزِي خطأً الى سياسة « جفرسون » القاضية بالحدّ من نمو الاسطول . هناك العديد من الكتاب الذين اتّهموا « جفرسون » ، إمـــا بدافع التحامل او بدافع الجهل ، بأنه « يُجري تصفية على الاسطول »، وبأنه يتصرف تصرف الجبان الرعديد امام القوى والحروب الافريقيـــة الشمالية معاً ، الى ما هنالك من الاتّهامات الكاذبة الّتي لا اساس لها من الصحة كارتكاب الاخطاء ، وعدم الأهلية لتولي زمام شؤون المتوسط..

وفي يوم تسلمه مهام الرئاسة ، اي في الرابع من شهر آذار (مارس) سنة ١٨٠١ ، لم « يرث » الرئيس « جفرسون » من سلفـــه الرئيس « ادامس » اكثر من خمسين سفينة ومركباً على اختلاف انواعها ، كان البعض منها قد بُني خلال الفترة الّتي يطلق عليها المؤرخون البحريون والعسكريون لقب « شبه الحرب مـــع فرنسا » ، تلك الفترة الّتي كانت تماشي ، الى حد ما ، وسياسة « ادامس » . فقد عُرف « ادامس » احياناً بمؤسس الاسطول الاميركي ، في حين اتُّهم « جفرسون » بتحطيمه .

فالحقيقة ان الرئيس الاميركي السابق « جون ادامس » كان مقتصداً ومحباً للتوفير الى درجة ان سياسته البحرية كانت – غالباً – مقتصدة في

التوافه ، مسرفة في عظائم الأمور . فعلى منوال ما حدث فيما بعد في التاريخ الاميركي ، كان معظم دافعي ضرائب الدخل يطالبون بحصر وتخفيف النفقات المخصصة للقوة البحرية .. وكان « ادامس » يرحب بتلك الفكرة الشعبية العامة . وفي الحقيقة، فقد وقّع الرئيس «ادامس» ، في آخر يوم من ايام رئاسته ، على مشروع قانون يسمح للرئيس بنزع السلاح عن جميع القطع البحرية ، وبيع تلك القطع ما خلا ثلاث عشرة قطعة منها ، شرط ان تبقى ست سفن من اصل الثلاث عشرة سفينة الباقية قيد الخدمة . كذلك كان ينص القانون على تخفيض مُلحقات ومخصصات تلك السفن بمعدل الثلث . اما السفن المتبقية ، فكان مقرراً توزيعها على مرافىء ملائمة مع عدد قليل من الملاحين لحمايتها ورعايتها . وبحسب هذا القانون ، لم يكن بالامكـــان توظيف سوى ٩ قباطنة ، و ٣٦ ملازم اول ، و ١٥٠ ضابط صف بحري . اضف الى ذلك ، ان اولئك لن يتقاضوا معاشاتهم كاملة الا عند تأديتهم خدمات بحرية معينة . اما سائر الضباط ، فكان من المفروض صرفهم من الخدمة .

تلك هي التوصيات التي خلفهـــا « جون ادامس » و « الكونغرس » الاميركي للرئيس « توماس جفرسون » . واذ حاول ذاك الأخير ان يعمل بمشيئة « الكونغرس » ، فقد قيل عنه بأنه رعديد جبان الى ابعـــد الحدود ، بجمع الاموال عن طريق بيع القطع البحرية . فحتى خطته الرامية الى المحافظة على السفن ، وذلك بوضعها في احواض جافة ، قد شوهت حين أُشيع عنه أنه مجنون يريد ابقاء الاسطول على البر .

وعلى الرغم من انه لم يكن لدى « جفرسون » أيما اسطول ضخم حتى يستخدمه في حوض المتوسط ، كما انه لم يحظ بتأييد « الكونغرس » لشن حرب حقيقية على القراصنة ، فقد كان يأمل ان تستطيع السفن الاربع ، التي سمحت له الظروف باستعمالها ، دعم المكانة التي تحتلها الولايات المتحدة على تلك الشواطىء . لقد عُرضت قيادة الأُسَيطيل ،

بادىء ذي بدء ، على « توماس تركستون » ، البطل الذي أبلى بلاء حسناً في المعارك التي دارت بين الولايات المتحدة وفرنسا ، بيد ان ذاك الضابط الفظ والسريع الغضب رفض العرض ، لأنه لم يكن اهلاً لتلقين القراصنة درساً قاسياً . ومن ثم ، وقع الاختيار اخيراً على « ريتشارد ديل » الذي كـــان أحـــد أقدر ملازمي « جون بول جونز » ، كما كان ضابطاً بارزاً وذائع الصيت بفضل فطرته السليمة وحكمه على الاشياء بصورة صائبة وحصيفة .

●

صدرت الاوامر الى « ديل » لكي يتفاوض مع الانكليز ويحملهم على الاستعداد لتزويد سفنه وترميمها عند جبل طارق . أما اذا وجد ، عند وصوله الى مياه البحر الابيض المتوسط ، ان علاقات بلاده مع بلاد شمالي افريقيا هي على ما يرام ، فكان عليه ان يتابع رحلته الى الجزائر ليؤكد للداي ان البضائع في طريقها اليه . كما كان عليه ان يبذل جهد المستطاع في اقناع الداي بقبول دفعة نقدية بدلاً من شحنات البضائع السنوية ، وان يقوم بزيارة مجاملة الى تونس حيث سيتوجه بعدها الى طرابلس ليسلم الباشا رسالة شخصية من الرئيس « جفرسون » . ومـن هناك ، كان سينتقل الى مصر ، فـ « إزمير » ، فبحر الادرياتيك ، ليقفل راجعاً في اخريات فصلي الخريف والشتاء من عام ١٨٠١ عن طريق الساحل الافريقي الشمالي .

أما في حال اعلان طرابلس الحرب ، فكانت الاوامر التي تلقاهـــا قائد الاسطول الاميركـي « ريتشارد ديل » تفرض عليه ان يضرب ، ويحطم ، ويحرق اكبر عدد ممكن من سفن الاعداء ، ولكن شرط ان يعامل الاسرى معاملة انسانية .. وكان عليه ايضـــاً ان يواكب السفن التجارية الاميركية ، وان يقيم حصاراً على المرافىء الطرابلسية ... وبسبب

الحالة المشوشة التي كانت تتخبط فيها الازمة الاوروبية ، فقد كان من المتوقع ان تحاول القوى المتحاربة والمتصارعة ان تجري تفتيشاً على السفن الاميركية ... وهذا ما كان ينبغي تجنبه بشتى الوسائل .

وبصورة عامة ، فقد أفهم « ديل » انه يجب ان يستعمل حذره وعدله مهما كانت الظروف والاحوال . وبالرغم من تحذير « ديل » من القيام بأي تنازل يسيء الى سمعة الولايات المتحدة العالمية – كما فعل « باينبريدج » حين كان قائداً للسفينة « جورج واشنطن » – ، فقد لُفت نظره ايضاً الى ان يتذكر دائماً ان الولايات المتحدة تود ان تبقى على علاقات سلمية وطيدة مع جميع الامم والدول .

وفي ٢٠ ايار (مايو) ، كتب وزير الخارجية الاميركية لكل من « اوبراين » ، و « ايتون » عن الأسطيل الجاري تجهيزه ، وانذر « اوبراين » بألا يقدم على عمل من شأنه ان يعيد الى الاذهان حادثة السفينة « جورج واشنطن » ، وبخاصة اذا ما ثبت انه ثمة نية للمس بكرامة الولايات المتحدة .

وصل « ديل » الى جبل طارق في الثلاثين من شهر حزيران (يونيو) . وفوجيء عندما وجد ان طرابلس تخوض حرباً ضد الولايات المتحدة . كان طرادان طرابلسيان يمكثان في المحجر الصحي تنفيذاً لتعليمات واحتياطات انكليزية اتخذت خوفاً من عدوى وباء الطاعون المنتشر في شمالي افريقيا . كانت السفن الطرابلسية بقيادة الاميرال الطرابلسي ، واسمه « بيتر لايل » ، وهو احد المرتدين السكوتلانديين ؛ وكان قد اتخذ لنفسه اسم قرصان شهير من قراصنة القرن السادس عشر : « ريس مراد » . والجدير بالذكر ان « ديل » كان قد عقد النية ، كخطوة اولى ضد طرابلس ، ألا يدع « مراد » يفلت من بين يديه .

كان « كاثكارت » يعزو المصاعب التي تواجهها الولايات المتحدة في طرابلس الى ذلك السكوتلاندي الابليسي الذي كان قد تزوج ابنة

الباشا ، كما كان مدمناً على معاقرة الخمرة والتفاخر بالنفس . والطريف ان « مراد » ، والدكتور « بريان ماكدونوغ » ، مع رجل انكليزي آخر يدعى « لوكاس » كانوا يؤلفون اشبه ما يكون « بفرسان الخمرة الثلاثة » — ان جاز لنا التعبير — الذين كانوا يجدون لذّة وأيّ لذة ، في استنباط الطرائق المختلفة لاغاظة القنصل اليانكي * .

من بين جميع سكان حوض البحر الابيض المتوسط ، كان اهالي « نابولي » ** الاكثر جبناً ، والأخلع فؤاداً .. ولا غرو ان مراد كان يعرف ذلك حق المعرفة . ولذا ، فانه كان يطرب فرحاً كلما كان يرفع العلم الاميركي تحت علم « نابولي » خلال عرضه رايات الدول التي سلب منها بعض الغنائم . فكان « ايتون » و « كاثكارت » يستشيطان غضباً لهذه الاهانة المريعة . ولكي يضاعف مراد من تحقيره واذلاله للولايات المتحدة ، فقد اتخذ من السفينة التجارية الاميركية « بتسي » ، والتي كانت في عداد الغنائم ، بارجة خاصة به (اذ كان اميرالاً ، كما اسلفنا) .

إسمعْ « ايتون » يصيح :

« اقسم بربّ آبائي وأجدادي أني لن اسكت على تلك الاهانات او يهدأ لي بال حتى تُعلَّق جمجمة « لايل » في الوضع ذاته .

« ماذا ! ؟ اليس هناك بعض القطرات من الدماء تجري في عروق الاميركيين ! ألا نخجل ! لن يمضي تسعون يوماً الا وتكون تلك الاهانة قد نُشرت في كل بقعة ومرفأ في اوروبا .

« اذا ما سكتت حكومتنا عن تلك الاهانة فانها سوف تلطّخ اسمها في

---

* تعني لفظة يانكي واحداً من المعاني الثلاثة الآتية :
١ — احد ابناء « نيو انغلند » بالولايات المتحدة الاميركية .
٢ — احد ابناء ولاية من ولايات الشمال الاميركية .
٣ — الاميركي : احد ابناء الولايات المتحدة .
والارجح ان المقصود بالقنصل اليانكي المعنى الاول اي « وليام ايتون » .

** مرفأ في جنوب غربي ايطاليا (المعرب)

العالم وتلوثه ، بل وتُعيبه وتُبقّعه ، حتى يغدو حالك السواد » .

« اذا ما سكتوا عن الاهانة ، فما هم سوى مجموعـــة من الجبناء الضعفاء ! »

لم يكن في مقدور « ايتون » ان يتحمل رؤيـــة ذلك القرصان الذي كان ، في رأيه ، لا يستطيع ان يجهز سفينة حربية واحدة من الصنف الممتاز ذات ثلاثين مدفعاً ، حتى ولو استعمل جميع الأعتدة والمعدات الطرابلسية – يسود الرقيق الاميركيين بأي شكل من الاشكال ! وقد قال « لسميث » :

« لا استطيع ان اكبت انفعالي وأنا اعلم ذلك ! »

اعتقد « ايتون » انه اذا ما استطاعت بــلاده ان تقهر مراد نفسه وتلقي القبض عليه وحده ، فان الحرب سوف تنتهي بسرعة البرق . وبما ان جميع دول شمالي افريقيا المتبربرة كانت ترفـــع راية واحدة ، فقد اقترح « ايتون » ان ترفع سفن « ديل » الرايـة البريطانية الى ان تدنو دنواً معقولاً من السفن والمراكب العائدة لدول شمالي افريقيـــا وتتمكن من تمييز طرادات مراد . فاذا ألقي القبض على مراد فان الباشا نفسه سوف يُنقـــل حينئذ على فرغاطة اميركية . ومما قاله « ايتون » لصديقه « سميث » ما يلي :

« لقد ارتسمت الآن صورة الخطة ، التي اعددتها ، في ذهني بشكل واضح . كما اني اتمتع الآن تقريباً بتذوق طعم الثمرات التي سوف تعود علينا من وراء تلك الخطة ... يجب ان نقوم بالتجربة » .

ما كانت تلك الخطة الا واحدة من عشرات الخطط التي كان قد أعدها القنصل الاميركي « ويليام ايتون » .

ولعل « ديل » رغبة منه في ان يعمل بنصيحة « ايتون » التي نقلها له « سميث » من « لشبونة » ، راح يبذل قصارى جهده ، بكل ما في الكلمة من معنى ، من اجل ان يجتمع بمراد عند جبل طارق ، إما على

في احد تقاريره انه « الشخص المناسب لاحتلال منصب قنصل في مثــل ذاك المكان » . ولكن ، خاب امل « ايتون » ، اذ لم يعرض عليه القائد « ديل » اية رتبة كتيفيّة مُذهّبة على سفنه . ومع ذلك ، فان وصول الاسطول الصغير كان باعثاً للفرح في فؤاد « ايتون » الذي كتب عند اعلى الصفحة (في كتيّبه ، في موقع تلك الحادثة) :

« هنا نقطة تحول هامة نستهل بها عهداً جديداً من الحوليات (وهي تاريخ للأحداث تسرد عاماً عاماً) الخاصة بالولايات المتحدة ودول شمالي افريقيا » .

اما اكثر ما اضفى عليه شعوراً عارمــاً بالانشراح فهو ان السفن الحربية كانت تواكب معهــا الى تونس سفينتين تجاريتين ، اولاهما « هوب » ، وثانيتهما « غراند تورك » اللتين حملتا البضائــع التي طال انتظار الباي لها .

وعلى كل الأحوال ، فقد انفصلت بعض السفن عن الاسطول الاميركي لدى مغادرته تونس . وقد أُمر الربان « باينبريدج » ، قائد السفينــة «ايسيكس » ، ان يقود السفينة « هوب » الى « صقلية » ، ومن ثم ان يواكب سواها من السفن الى جبل طارق عن طريق « برشلونة » . وهناك، في جبل طارق ، كان عليه ان يحل محل الربان «صموئيل بارون » في قيادة السفينة « فيلادلفيا » .. كان « بارون» اشبــه بالقطة المتحفزة والمرابطة امام جحر فئران ، وذلك إبان انتظاره مراد ، بفارغ الصبر ، للخروج من المرفأ . ثم اخذ « باينبريدج » مكان « بارون » الذي ابحر ملتحقاً بالاسطول الصغير .

وفي الخامس والعشرين من شهر تموز (يوليو) ، وصل قائد الاسطول الاميركي « ريتشارد ديل » طرابلس ومعه سفينتان، اولاهما « بريزيدنت » ، وثانيتهما « انتربرايز » . ولما لم يكن لديه صلاحية ضرب المرفأ بالقنابل ، فقد اضطر الى ان يكبح جماح تلك الرغبة ، وأطلق سراح ضابــط

طرابلسي كان قد ألقى القبض عليه من على مركب محايد ، وأرسل رسالة الى يوسف قرامانلي يعبّر فيها عن أسف الولايات المتحدة لقرار الباشا باعلان الحرب . فاذا ما كان في نية « الباشا » أن يعود الى عهد السلام ، فان القائد الاميركي ليرغب في معرفة شروطه لتحقيق ذلك . هذا ، مع العلم بأنه لدى القائد « ديل » – في بارجتـه الاميركية – رسالة من رئيس الولايات المتحدة الى الباشا الطرابلسي ، وهدية قدرها عشرة آلاف دولار لا يستطيع تسليمها في هاتيك الظروف . كذلك اتصل « ديل » بالقنصلية الدانماركية ، ولكن القنصل « نيسان » مُنع من الاجتماع به على السفينة .

طلب « ديل » من الباشا ان يعرض له الاسباب التي حملتـه على اعلان الحرب، غير انه لم يتلقَ الا أجوبة مبهمة يُستشم منها ان يوسف قد تضايق جداً لتذكيره ان داي الجزائر قد ضمن تنفيذ شروط المعاهدة والعمل بنصوصها . وقد كانت تلك الاتصالات مشوشة ، وغير مرضية، الى درجة ان « ديل » رفع مراسيه ووضع سفنه في وضع أنسب لضرب حصار على الساحل الطرابلسي. ولما كانت الولايات المتحدة لم تعلن الحرب بعد ، فقد تقيد بتعليمات « جفرسون » ولم يُقـدم على فتح نيرانه على طرابلس .

وبالاضافة الى الحصار الفعلي الذي ضربه « ديـل » ، فقد أعلن « ايتون » ، في الوقت عينه ، انه يقيم حصاراً « صُوَرياً » على طرابلس. وفي ٢٣ تموز (يوليو) عمّم انذاراً على جميع الدول الصديقة ليعلمها ان السفن والمراكب التي تنوي دخول طرابلس سوف « تُعامل حسب القوانين الدولية المطبّقة في تلك الأحوال » ، ورفض ان يعطي جوازات مرور للسفن التجارية المتجهة الى المرافىء الطرابلسية . فبدأ القلق يعمّ على الفور . وأعلن « هنري كلارك » ، القائم بالأعمال الانكليزي في تونس ، ان الحامية البريطانية في « مالطـة » تتلقى شحنات من البقر

الحيّ آتية من طرابلس ، وان اي تعرض لسبيل تلك الشحنة قد يهدّد بتبخّر العلاقات الودية .

ثم احتجّ باي تونس ، مصرحاً ان الزوارق التونسية قد درجت على نقل السلع الى مرفأ صغير يقع على بعد عشرة فراسخ * غربي طرابلس، وانه لا يتوقع من الاميركيين الا ان يسمحوا لتلك الزوارق بالمرور كعادتها . عندها ، أكد « ايتون » لـ « هنري كلارك » بأن بامكانه ان يتابع نقل أبقار صاحب الجلالة ، في حين انه لم يسمح لزوارق الباي بنقل أية مواد غذائية الى أي مرفأ من المرافىء الطرابلسية .

والواقع ان اسطول « ديل » كان صغيراً جداً ، بل اصغر من ان يعترض سبيل جميع السفن الآتية الى طرابلس . وعلى الرغم من انه لم يكن بالامكان الاستمرار في حصار « ايتون » الذي خلق العديد من المشكلات، فقد كان من شأن ذلك الحصار ان يُكره الباشا يوسف قرامانلي على الموافقة .

●

ان صعوبة الحصول على الذخائر من مكان اقرب من جبل طارق قد أضعفت فاعلية اسطول « ديل » – والحملات اللاحقة على شمالي افريقيا – . لقد وافقت بريطانيا العظمى على السماح للسفن الاميركية بأن تجهز نفسها هناك ، وان تبتاع ما تحتاج اليه من البضائع المتوفرة . وكان من المتوقع وصول السفن الاميركية التي تحمل للاسطول ما يحتاج اليه من السلع المختلفة ، بيد ان الطعام الطازج والماء النقي كانا من الاشياء التي يصعب الحصول عليها . لم تكن قد تمت اية ترتيبات في سبيل استعمال

---

* الفرسخ : قياس للطول بين ٢٠٤ و ٤٠٦ من الميل .

المرافىء الايطالية ، مع ان مرفأ « سيراكوزة » * قد اثبت ، فيما بعد انه قاعدة تزويد وتموين وترميم أفضل من جبل طارق ... بُذلت جهود جبّارة من أجل الحصول على الماء من « مالطة » بيد ان السفن الانكليزية العديدة الّتي كانت تستعمل هاتيك المياه جعلت سائر السفن تملّ انتظار دورها .

وربما ساعد نظام التموين الفاسد على تفسير بعض علائم الضعف الّتي بدت على احدى الحملات الاميركية البحرية الاولى على شمالي افريقيا .

ومن مظاهر نجاح الحصار الذي فرضه القائد الاميركي « ديل » على طرابلس ، تمكّن السفينة « انتربرايز » في اول شهر آب (اغسطس) سنة ١٨٠١ ، بقيادة الملازم أول «ستيريت» ، من الاستيلاء على طراد طرابلسي بعد معركة دامت ثلاث ساعات ، وذلك عندما كانت « انتربرايز » في طريقها الى مالطة بحثاً عن الماء . لقد قتَل رجال «ستيريت» عشرين طرابلسياً وجرحوا ثلاثين آخرين . وبعد « تنظيف » السفينة من عدتها ، ونقل مدفعها واسلحتها الصغيرة الاخرى الى السفينة « انتربرايز » ، سُمِح لها بأن تعود الى مينائها عرجاء . ولا تَسَلْ عن غضب الباشا الذي أمر بأن يُشَهّر بالقائد التعيس السَيء الحظ في الشوارع ، وهو يمتطي حماراً ، ووجهه الى خلف ، وأمعاء معزاة تتدلّى حول عنقه . وقد عمّ الذهول طرابلس بعد ان تغلبّت سَكّونة اميركية صغيرة ذات اثني عشر مدفعاً على طراد يفوقها حجماً ورجالاً . فشاع احترام القوة البحرية الإميركية في النفوس في شمالي افريقيا ، بصورة عامة .

وعندما أخذ « ديــل » السفينة « بريزيدنت » الى جزيرة مالطة طلباً للمياه ، اضطر الى ترك السفينة « انتربرايز » لتأمين الحصار لوحدها . وفي رحلته تلك ، هزم مركباً يونانياً ، والقى القبض عــلى جماعة من

* في جزيرة « صقلية » .

البارجة الاميركية « بريزيدنت » ، أو في منزل القنصل الاميركي «جون غافينو» . وبالرغم من ان مراد انكر ان يكون مضمراً أية ضغينة او نوايا سيئة تجاه السفن الاميركية (مع ان طرابلس كانت قد اعلنت الحرب على الولايات المتحدة) ، فقد رفض التفاوض مع القائد الاميركي . واخيراً، وبعد ان اشتعلت نيران الغضب في قلب « ديل » نتيجة لرفض القرصان ، اصدر « ديل » اوامره الى السفينة « فيلادلفيا » لمراقبة السفينتين الطرابلسيتين الماكثتين في المحجر الصحي ، وانتقل بسفنه الاخرى خارج جبل طارق.

جعلت الحرب الفعلية الدائرة رحاها في المتوسط دم « ايتون » العسكري يغلي ويفور . كانت الواجبات القنصلية تفهة جداً ، وتعوزها المتعة الى اقصى الدرجات بالنسبة لجندي عتيق ، وبخاصة في الوقت الذي يستطيع فيه ان يستنشق رائحة البارود . وما ان مضى على اعلان طرابلس الحرب وقت قصير ، حتى كتب الى وزير الخارجية راجياً منه رجاء حاراً ان يسمح له بالعمل على بارجة القائد « ديل » حال وصولها . وفي ذلك الوقت ، كان يعتقد ان « كاثكارت » سيكون شخصاً مقبولاً او محبباً لدى باي تونس ، وان الباي يرغب فيه شخصياً في بلده ، ولذلك فانه سوف يضطلع بالاعمال القنصلية هنالك .

شرع « ايتون » يستعد للحرب ، يحفزه الى ذلك امل بالاشتراك فيها فعلياً . ففي الثالث عشر من شهر حزيران (يونيو) ، كتب الى القنصل الاميركي في جبل طارق طالباً منه : « ربع برميل خشبي من البورت * ، شرط ان يكون معتقاً وصافياً ، وزوجاً من الكتيفية ** مُذهباً » . كان مستعداً للحصول على شرف الالتحاق بأية رتبة أو وظيفة عسكرية قد يسندها اليه القائد « ديل » ... وفي تونس ، وقف ينتظر ، بفارغ الصبر ، رؤية السفن الحربية الاميركية .

---

* ضرب من الخمر برتغالي الاصل .

** نسيج متصب على كتف السترة العسكرية .

وفي رحلته من جبل طارق ، توقف الاسطول الصغير لمدة قصيرة في خليج الجزائر ، حيث اجتمع « ديل » بالقنصل العام « اوبراين » على ظهر احدى السفن وحمّله رسالة يعبّر فيها عن احترامه الودي لشخص الداي .. واذ ادرك « اوبراين » ان وقت اقناع الداي باستبدال جزية البضائع المتفق عليها بدفعة نقدية من الولايات المتحدة لم يَحِن بعد، فقد ترك « ديل » العملة الذهبية وقيمتها ٣٠,٠٠٠ دولار في صناديقها ، تلك العملة التي جلبها معه خصيصاً لتلك الغاية .. لم يكوّن « ديل » فكرة حسنة عن شعوب الدول المتبربرة وحكامها ، وذلك غبَّ اطلاعه على تقارير « اوبراين » ، فوصفهم في رسالة بعث بها الى وزير البحرية بأنهم : « مجموعة شيطانية ملعونة ، من اعلاهم الى احقرهم » ، وأنهم يعمدون الى استعمال من اربع الى ست فرغاطات بصورة مستديمة على هاتيك المياه ، من اجل « ان يبقوا مرتاحي البال » .

كانت السفن اشبه بالدواء المهدىء الذي سكّن آلام « اوبراين » ، فراح يحث القائد الاميركي على الابحار الى طرابلس بأقصى سرعته .

وهكذا ابحر « ديل » من الجزائر وهو يحمل في ذهنه فكرة سيئة عن المرفأ ، لا يعادلها سوءاً الا فكرته عن الشعب هنالك . وبعد ان جابهته رياح عاتية ، وراح يبحث عن مراسيه ، وتمزقت أشرعته الثواني (جمع شراعه الثاني وهو الشراع الذي يكون على دقَلٍ او صار) إرباً إرباً ، اقسم وأخذ على نفسه عهداً بألا ينزل مرساة في ذلك المُكلأ * مرة اخرى ..

وصل « ديل » الى تونس في ١٧ تموز (يوليو) ، فتوقف هناك فترة ليست اطول من فترة توقّفه في الجزائر ، بيد انها كانت — مع ذلك — كافية بالنسبة له كيما يكوّن فكرة واضحة عن « ايتون » ، فقال عنه

* موضع قرب الشاطىء تستطيع السفن الرسو فيه .

الطرابلسيين بما فيهم الجنود والتجار ، والعائلات ، وحاول ارغام الباشا – مستخدماً هؤلاء الأسرى كدافع قوي ، ومعتمداً على وقوعهم بين قبضتي يديه – على اعلان شروطه لتحقيق السلام . ولكن ، عندما اظهر « يوسف » عدم اكتراثه بأمر اولئك الأسرى ، وجد « ديـــل » نفسه مضطراً الى اطلاق سراحهم ، اذ انهم كانوا مصدر ازعاج كبير له على سفنه .

أما الوعد الوحيد الذي استطاع انتزاعه من الباشا ، فكان استعداده لاستبدال الواحد والعشرين أسيراً الواقعين في قبضة « ديـــل » بأي ثلاثة من الرجال الاميركيين الذين قد يقعون في الأسر .

وهكذا سارت تلك الحرب السلبية العجيبة من غير ان يقوم اي من الطرفين بتوجيه ضربة حاسمة الى الفريق الآخر . ولعل غياب الاميرال مراد كان السبب في كسل الطرادات الطرابلسية . أما الباشا ، فلم يكن ليبحث في موضوع عقد هدنة ، مع ان « ديل » كان يعتقد انه يماطل عن قصد أملاً في أسر عدد كبير من الاميركيين حتى يتمكن من فرض الشروط التي يريد . وأما الاميركيون ، فكانوا مقيدين بأوامر معينـــة مفادها تجنب اي عمل تأنيبي او تخريبي ، الى ان يفقدوا آخر نقطة من أمل في قيام سلام مبني على التفاوض والتشاور . وعلى العموم ، فانها كانت حرباً بطيئة لا حياة فيها .

تساقط رجال « ديل » خائري القوى ، زرافات ووحداناً ، بعـــد فقدان الطعام الطازج . وفي ٣ أيلول (سبتمبر) ، قرر قائد الاسطول الاميركي أن ينتقل ببارجته الى جبل طارق ... مئة واثنان وخمسون من رجاله وقعوا فريسة المرض ، أمـــا ما تبقى منهم فكانوا يتذمرون . كانت مؤونته لا تكاد تكفيه شهراً واحداً فقط . وقبل موعد رحيله ، أصدر أوامره الى « باينبريدج » و « بارون » كيما يطوفا فى البحر بحثاً عن سفن الأعداء بعضاً من وقت ، ومن ثم يلحقان به الى جبل طارق .

ولدى وصوله الى جبل طارق ، اكتشف « ديل » ان الاسبانيين قد حاصروا ذلك المرفأ ، وان الريس مراد قد جرّد الطرادَيْن الطرابلسيَّيْن اللذين كان يحرسها الاميركيون ، وهرب الى مالطة على مركب انكليزي .

لقد ضيّقت المصاعب والاهوال الخناق على القائد « ديل » . كان رجاله يكابدون شتى انواع الأمراض ، وهم على قاب قوسين من الموت جوعاً من جهة ، في حين كان الاسبانيون في منطقة « الجزيرة » قد أعاقوا سفينة التموين الاميركية « أميريكان باكيت » التي طال انتظارها مدة عشرة أيام بعد أن اعترضت سبيلها مراكبُ القرصنة الاسبانية من جهة ثانية . ثم انفجرت أعصاب القائد أيّ انفجار عندما أطلقت المدفعية الأسبانية ، من على الشاطىء ، النيران على سفينتين أميركيتين راسيتين على مرأى من السفينة « بريزيدنت » ، فاحتجّ بشدة وحنق امام الحاكم الاسباني ... وأخيراً ، تلقى « ديل » البضائع والسلع والذخيرة التي حملتها له سفينة التموين ، ولكنها كانت في حالة يرثى لها من الفساد . وكتب الى وزير البحرية متذمراً :

« لا أعلم لِمَ لَمْ ترسلوا أية زبـــدة ، او جبنة ، أو رَمّ ، أو دبس ، أو شموع .

« ان الخبز الذي وصلنا ينخره السوس ... وعلى العموم ، فقد حرّرت لكم خطابي هذا على وجه السرعة . »

ولم يعد « ديل » الى صوابه حتى بعد ان اكتشف ان سفينة التموين كانت تحمل الدقيق والأرزّ لتجّار خصوصيين . ولم يكن بوسعه ان يرسل اية أخبار مُفرحة ما خلا واحداً ، وهو ان البريطانيين في جبل طارق، على نقيض الاسبانيين ، قد أبدوا كل ترحيب ولطف ازاء الأميركيين .

قررّ « ديل » ان يحتفظ بفرغاطتين اثنتين فقط في المتوسط في فصل الشتاء . فأمر « فيلا دلفيا » بان تلازم قاعدة « سيراكوزة » وان تطوّف، من فترة الى أخرى ، باتجاه طرابلس « حتى يعلم ذاك الرجل بوجودكم،

ويرى أنكم تقفون له بالمرصاد » . أما « أيسيكس » ، فكان عليها ان تبقى خارج منطقتي جبل طارق و « الجزيرة » لتأمين الحماية للسفن التجارية الأميركية في ذلك الطرف من البحر الأبيض المتوسط . هذا ، وقد تمّ اتفاق الاسطول الاميركي مع السفن الحربية السويدية حول خطة مشتركة لحماية تجارة كل من البلدين – الولايات المتحدة الاميركية اولاً ، والسويد ثانياً – . وفي الثالث من شهر تشرين الاول (أوكتوبر) ، أمر « ديل» الملازم أول « ستيريت » بالابحار على السفينة « انتربرايز » الى الولايات المتحدة . وكان في نيته أن يلحق به بالسفينة « بريزيدنت » حالَ قيامه ببعض المهمات الأخرى .

وقبل ان يغادر القائد حوض المتوسط ، عزم على زيارة الجزائر مرة اخرى على أمل ان يقنع الباي باستعمال نفوذه وضغطه لاحلال السلام بين الولايات المتحدة وطرابلس ... وفي منتصف شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ، تقدّم « ديل » و « اوبراين » بمقترحات ومزاعم الى الداي ولكنهما لم يتلقيا الا الوعود البرّاقة . والحق ان الداي لم يُبدِ رغبةً في قبول دفعة نقدية عوضاً عن البضائع التي وُعِد بها ، فترك « ديل » الثلاثين الف دولار في عُهدة « اوبراين » .

عندما وصل « ريتشارد ديل » – قائد اسطول الولايات المتحدة الاميركية المرسل الى منطقة حوض البحر الابيض المتوسط – الى الجزائر ، وجد هنالك السفينة التجارية الاميركية « بيس اند بلانتي » محمَّلة بالبضائع المخصّصة لتونس ، ومعها السفينة الحربية المواكبة « جورج واشنطن » التي كانت بقيادة الملازم أول « جون شو » . فطلب « ديل » من « شو » ان يُبحر بأقصى سرعته الى تونس أولاً ، وأن يعرّج على عدد معين من مرافىء المتوسط ليصحب معه المراكب الاميركية والسويدية التي كانت بانتظار ان تواكبها سفن الحماية الى جبل طارق .

لم تصل البضائع الى تونس بسرعة ، بل انها تأخرت بعض الوقت. وكان الباي ما زال يشكو من التأخير الأميركي ، كما انه تأسّف على

عدم ارغامه « ايتون » على تزويده بعشرة آلاف قطعـة من السلاح ، بعد ان التهمت النيران احـد مستودعات الاسلحة التونسية . وفي شهر تشرين الاول (اوكتوبر) ، خرقت تونس معاهدتها مع البرتغال ، وأرسلت ستة طرادات مثقلة بالاسلحة لتعيث فساداً على الملاحة والسفن البرتغالية . وقد صُعِقَ « ايتون » لتلك الاحداث ، وسيطر عليه ايمانٌ داخلي بأن الولايات المتحدة سوف تكون الضحية المقصودة التالية .

فكتب الى وزير الخارجية « جيمس ماديسون » :

« الارجح الاغلب ان تلك الحملة كانت ستوجّه الى صدر الولايات المتحدة ، ما لم يظهر اسطولنا على تلك المياه ، الأمر الذي تفسره مطالب الباي غير المعقولة التي تسبق عادة فورة غضبه وتهديده بالحرب ، كما تفسّره أيضاً طريقة تصرفه في مطلع هـذا الفصل . سوف نتمكن من فرض سيطرتنا على الدول الثلاث جميعها اذا ما استطعنا تلقين طرابلس درساً قاسياً يعلمّها معنى اثارة حقدنا وتحريك غضبنا » .

وعلى الرغم من ان قسماً من البارود الذي حملته السفينة « بيس اند بلانتي » كان رطباً ، فقد جاد « ايتون » بـراشنٍ محترمٍ على الشخص الذي تولى نقل البضائع الى « بورتو فارينا » ؛ أما الباي ، فلم يميز الفرق ولم يعلم برطوبة البارود ... وفي طرابلس ، كانت الازمة قد انفرجت فترة من الوقت .

على ان الأمل بجعل طرابلس مضرباً للمثل بعـد تلقينها درساً قاسياً كان أقلّ من الضعيف الأعجف . كان « ديـل » يستعد الآن لمغادرة المتوسط ، اذ ان فترة خدمة رجاله قاربت نهايتها ، ولكنه سمع اشاعةً مفادها ان ثلاثة مراكب مينورقية كانت تنتظر أوامر باشا طرابلس ، وانها كانت على استعداد للابحار الى طرابلس وهي ترفع الاعلام البريطانية ... فما كان منه الا ان أبحر الى « بورت ماهون » ، في « مينورقة » ، بحثاً عن الجديد من التطورات . فأنكر المينورقيون والانكليز في « بورت ماهون»

ان يكون هناك اية سفن متوجهة الى طرابلس .

وفي طريق خروجها من المرفـأ في الثلاثين من شهر تشرين الثاني (نوفبر) ، ارتطمت السفينة « بريزيدنت » باحدى الصخور فتعطلت رافدة القَص * فيها . فتوجه « دبل » الى « طولون » التي كانت انسب مكان لترميم واصلاح السفن ، حيث قضى خمسة عشر يوماً متعِباً في المحجر الصحي – وهناك انطبعت في ذهنه صورة رديئة عن الضباط الفرنسيين – ، قبل ان يُسمح له بادخال سفينته الى حوض السفن .

اضطر « ديل » ان يبقى في « طولون » حتى العاشر من شباط (فبراير) من سنة ١٨٠٢ ، بسبب اصلاح رافـدة القص المحطمة . وفي أواخر شهر كانون الثاني (يناير) ، قام الامـيرال السويدي « رودولف سيدير ستروم » بزيارة « ديل » مقترحاً عليه عملاً حربياً مشتركاً ضد طرابلس. وتفصيل ذلك ، أنه لمّا كانت الحكومة السويدية قد رفضت المصادقة على اتفاقية كان قد عقدها ممثلوها مع طرابلس ، فانها كانت تتوقع تجـدد الحرب بينها وبين طرابلس وتبحث عن حليف . وفي الخريف المنصرم ، كان القائم بالاعمال السويدي في تونس – « ن. فروميري » – قد بحث الموضوع ذاته مع « ايتون » الذي نقل الاقتراح الى « ديل » . وعلى الرغم من ان التعليمات الصادرة الى « ديـل » لم تكن لتسمح له بالاشتراك مع السويد في قصف طرابلس ، الا انه توصل الى الاتفاق على خطة حصار مشتركة .

ثم تعزز الاسطول الاميركي – مؤقتاً – بوصول السفينة « بوسطن » الى « طولون » في العاشر من كانون الثاني (يناير) ، وكانت بقيـادة الربّان « دانيال ماكنيل » ، والسفير الأميركي الجديـد الى فرنسا ، « روبرت ر . ليفينغستون » . وكان لدى « ماكنيل » تعليمات للاتصـال

---

* عارضة رئيسية او قطعة فولاذية تمتد على طول قعر المركب .

بـ « ديل » اذا ما كان لا يزال في البحر المتوسط . ان تصرفات « ماكنيل » قد اثارت غيظ « ديل » ، اذ في سبيل التخلص من ملازمة المحجر الصحي في « طولون » ، لم يتمكن قائد السفينة « بوسطن » من القيام باتصالات في جبل طارق و « مالقة » . وعندما غادر مرفأ « مالقة » ، ترك وراءه فيه عن غير قصد بل عن اهمال واغفال ، ضابط المحاسبة * وعدداً لا بأس به من الضباط والرجال . ليس هذا فحسب ، بل انه عندما ابحر من « طولون » ، أخذ معه الكاهن الذي كان على بارجة « ديل » ومعه ثلاثة ضباط فرنسيين . ان تصرفاً من ذاك النوع كان باعثاً على الخزي والعار بالنسبة لرجل انضباطي صارم كـ « ديل » الذي أرسل الى وزير الحربية يقول انه « فقد الكثير الكثير الى درجة انه يأنف من تعليل سبب ذاك التصرف » .

وقد بذل القائد « ديل » قُصارى جهده لاختراع الاعذار للمسؤولين الفرنسيين الثائرين ، والشاكين ، والمتذمرين ، واصفاً لهم الرياح القوية التي أرغمت « ماكنيل » على الابحار فجأة ، كما انه أشار الى ان الضباط الفرنسيين الثلاثة « لا بد وان يكونوا قد بالغوا في شربهم الخمر » ... من يعلم ؟! قد يكون ربّان السفينة « بوسطن » هو نفسه الذي اسرف أيضاً في الشرب .

وعلى الرغم من ان « دانيال ماكنيل » ما كان ذلك الضابط الذي يحوز على اعجاب « ديل » ، فان القائد الأخير قد عزم على استبقاء سفينته « بوسطن » مع السفينة « ايسيكس » في المتوسط ، في حين أمر بأن تعود جميع السفن والمراكب الاخرى الى الولايات المتحدة .

وفي العاشر من شباط (فبراير) ، ابحر « ديل » الى جبل طارق ،

---

* يطلق اسم ضابط المحاسبة على موظف في سفينة مسؤول عن الاوراق والحسابات ودفع الرواتب (وعن راحة المسافرين أحياناً) . (المعرب)

حيث تبيّن له ان امبراطور مراكش كان قد اشترى أحـد الطرادين الطرابلسيين المضروب عليهما الحصار ، وانه يطالب الآن بجـواز مرور لطراده الجديد للابحار الى « طنجة » وطرابلس . رفض القائد « ديل » طلب الامبراطور المراكشي بكل أدب ، ودبلوماسية ، ولباقة ، وطلب الى « جيمس سيمبسون » ، القنصل الاميركي في « طنجـة » ، أن يحاول جميع ما لديه من جهود ليبقي الامبراطور هادئاً ومستقراً ومحافظاً على السلام .

في التاسع من آذار (مارس) ، غادر « ديـل » مياه المتوسط ، ووصل الى « هامبتون رودس » في الرابع عشر من نيسان (ابريل). كان في انتظاره العديد من المشاغل المختلفة والمتعددة ، بقدر ما كانت تسمح له بها التعليمات الصادرة اليه والارشادات التي كان ينبغي عليه ان يتقيد بها . لقد أضفى الحصار على طرابلس جواً من الرعب والذعر ؛ فلم يعد في مقدور القراصنة الاستيلاء على المراكب الضعيفة ؛ كذلك ، فقد كـان لوجود المراكب الحربية الاميركية في البحر الابيض المتوسط تأثـير رادعٌ بالنسبة لسائر دول شمالي افريقيا . ان ثبـات القناصل الأميركيين وتعاونهم المخلص مع « ديل » كان حائلاً آخر في وجـه قوى القرصنة .

لقد نجم عن الحصار المحدود الذي كان قد ضُرب – على نطـاق ضيّق – على طرابلس نقص في بعض الحبوب واختفاؤها من الأسواق، كما انه أثار شعوراً عاماً من السخط وعدم الرضى في صفوف الشعب . وقد كتب الباشا الى شقيقيه حاكمي الجزائر وتونس مقترحاً انشاء تحالف لابطال امثال تلك العمليات المعوجّة . وأضاف الباشا انهم اذا ما سلموا بالامر الواقع ، وقبلوا بالحصار ، فان ذلك النوع مـن السلاح الضاغط « سوف يصبح أشبه بالعادة التي ستكون ، في مناسبات مماثلة ، شديدة الوطأة والخطورة على كل من الجزائر وتونس . »

فالحق ان حكام الدول المتبربرة قد لاحظوا علامات مشككة وملامح غير مرضية ، استاؤوا لرؤياها ، في الآفاق الغربية . وعلى الرغم من ان تلك الدولة الفتية الواقعة فيما وراء البحار لم تكن قد وجهت ضربة قوية الى الحرية السائدة في المتوسط بعد ، فإن القراصنة كانوا يظنون ان اولئك الاميركيين الهرطقيين يشكلون تهديداً محتملاً في المستقبل .

ومع ان « ديل » قد استغل كل ما كانت تتيحه له الاوامر التي تلقاها في « واشنطن » ، فقد ظل « ايتون » مستاء من الحملة السلبية التي كُتب على الاميركيين القيام بها ، وذلك – طبعاً – بسبب من سلبية مجلس « الكونغرس » الاميركي وعدم اندفاعه الى العمل . فأرسل الى صديقه « صموئيل ليمان » ، في « بيتسفيلد » ، من أعمال « ماساتشوستس » ، (وكان « ليمان » هذا عضواً من اعضاء مجلس « الكونغرس ») رسالة طويلة يبحث فيها نتائج حملة « ديل » ، ويطالب « الكونغرس » بأن يدعم تلك الحملة العسكرية دعماً جيداً . ومما يذكر ، ان « الكونغرس » لم يكن قد أعلن الحرب على طرابلس حتى تلك اللحظة ، كما ان « واشنطن » كانت تدّعي وتزعم أيضاً انها في حالة سلام مع العالم بأسره .

ومن بين ما كتبه الى « ليمان » :

« سوف أظل منزعجاً طيلة أيام عمري بعد ان رأيت واحداً من العثمانيين الكسالى مُسترخياً على فراش موشّى ، وأمامه عبد مسيحي يحمل له غليونه ، وآخر يقدم له القهوة ، وثالث ليس عليه أكثر من ان يُبعد عنه الذباب . والأزعج من ذلك كله ، ان أعرف ان عرق جبين كل مواطن اميركي يساهم في سعادة ذاك التركي ومتعته .

« ليس هذا فقط ، بل كيف لا أثور وأتضايق ، وأنا أعلم ان هذا التركي يعتقد ان لديه ملء الحق في طلباته التي يطلبها من الولايات المتحدة وأننا نحن ، كالايطاليين ، لا نملك القوة لمقاومته وردّ طلباته . »

وعاد « ايتون » يشدد – تمشياً على الاسلوب الذي اعتمده الرئيس « جفرسون » في سنة ١٧٨٦ – على ان شنّ حرب تأنيبية وتأديبية على القراصنة لن يكلف أكثر من دفع الجزية المستمر ، لا بل انـه سوف يعود بنتائج أبعد واكثر ديمومة، اذ انه السلاح الأمضى من دون ريب... ففي رأيه ، ان فشل الولايات المتحدة السابق في اتخاذ موقف حاسم من شمالي افريقيا ناجم ، بطريقة مباشرة ، « عـن السياسة التي يتبعها ذلك الفرع من الجسم التشريعي الذي يمسك بزمام أمور الأمة الاميركية . »*

أما بخصوص تلكؤ « الكونغرس » الاميركي في اعلان الحرب، فقد صرح « ايتون » ان « الكونغرس » أهان المسيحيين عندما سمح للولايات المتحدة بأن « تحط من قدرها وتنزل الى أحقر مستوى في شمالي افريقيا، بل وتكبل نفسها بنفسها واضعة الاغلال بيديها بارادتها وعن رضىً . »

ثم أضاف بحنق وغيظ :

« اعرف ان السلام هو السياسة الفضلى التي تستطيع بلادي ان تنتهجها. ولكن أليس ثمة ثمن لحالة السلم ؟ »

كانت غاية « ايتون » من الكتاب الذي أرسله الى « ليمان » تزويد صديقه عضو « الكونغرس » هذا ، بمعلومات مفصلة ودقيقة عن حالة شمالي افريقيا الحقيقية . فشرح له كل ما رآه ولمسه هو والقائد « ديل » كلاهما ، وقال بمنطقه الاقتصادي التوفيري .

« يجب أن نقصف طرابلس بغية تجنّب مصاريف الحرب الطويلة... يعتقد القائد « ديل » ان اربع فرغاطات ، وثلاث سفن شراعية ، كل منها بصاريين ومزودة بالقنابل ، لتشكل قوة كافية للقيام بتلك المهمة . وهو يقترح القيام بغارة مفاجئة على الساحـل ، في الوقت عينه، لتنفيذ

---

* يعني « الكونغرس » .

الخطة . إني أؤيد جميع اقتراحاته ... وأنا واثق من فاعليتها وواقعيتها، حتى اني على استعداد للمساهمة في تنفيذ المهمة ، والقيـام بأي دور ذي علاقـة برتبتي العسكرية السابقة وبمنصبي الحالي ، مع ألفي جندي نشيط . »

أما الرتبة التي تخيلها « ايتون » لنفسه ، فكانت رتبة ضابط مساعد ومفتش عام على الجنود الذين كان يتأمل وصولهم سريعاً كيما يقوى على اخضاع الباشا الطرابلسي . وكانت الفقرة الأخيرة من رسالته الى «ليمان» مخصصة لتعداد كفاءاته التي تؤهله الى تلك الرتبة . ان وظيفة قنصل في تونس ستكون مملّة الى درجة لا تحتمل عندما ستطلق المدافع نيرانهـا على طرابلس .

وفي حين كان « ايتون » ينتظر – بصبر يكاد ينفد – قراراً يتخذه « الكونغرس » لاعلان الحرب وارسال حملة على طرابلس ، فقد وضع بنفسه خطة جريئة ومتهوّرة لاحتلال طرابلس. والحقيقة ان « كاثكارت» قد اقترح الفكرة الأولى ، بيـد ان « ايتون » طوّرها ورسم الخطة رسماً دقيقاً .

●

كيف كان الوضع السياسي الداخلي في طرابلس ؟.. وكيف حاول الاميركيون الاستفادة من ذلك الوضع الفذ ؟

كان الباشا يوسف قرامانلي أحد أصغر ثلاثة أشقاء. وكان قد اغتال أخاه الأكبر ، وأقصى أخاه الثاني – أحمد – عن العرش. فكر الاميركيون بأنهم اذا ما تمكنوا من اعادة العرش الى أحمد ، فانه سوف يصبح مركز الثقل في ثورة تشمل طرابلس ، وتطرد الاخ المغتصب – يوسف – ، لتتوّج « أحمد » على عرشه الشرعي الذي كان حقاً من حقوقه. وعندها، سوف يدرك الباشا الجديد « أحمد » ، ان الفضل في استرجاعـه عرشه

انما يعود الى المساعدة الاميركية ، فيضطر الى ان يعلن ان الولايات المتحدة هي حاميته الاولى والدولة الصديقة المفضلة لديه . ما كان تنفيذ تلك الخطة عسيراً بالنسبة الى حاكم دُمية (أو العوبة — والمقصود أحمد قرامانلي —) بل انها كانت تمتّ الى العدالة بصلة وثيقة . ومن هنا ، نذر « ايتون » المندفع نفسه الى تطوير مؤامرته .

وفي خريف وشتاء عام ١٨٠١ ، كان أحمد — ويُعرف أيضاً باسم « حامد » أو « محمد » في مراجع أخرى* — طفيلياً ناقماً في بلاط تونس . لا نعلم كيف اتصل به « ايتون » أول ما اتصل به ، ولكن حدث في الثالث عشر من كانون الاول (ديسمبر) ، أن أرسل القنصل الاميركي الى وزير الخارجية الأميركية يخبره ان أحمد كان يستفسر ويتساءل عما « اذا كان بامكانه الاعتماد على الخطة الاميركية الهادفة الى اعادته الى عرشه السليب » ... ومما لا شك فيه ، ان « ايتون » نفسه هو الذي أدخل تلك الفكرة الى عقل أحمد الضعيف . ويتابع قائلاً :

« لقد نصحته بالسكوت وأشرت عليه بالتماس الصبر . وأفسحتُ المجال أمام آماله (التي أود ألا تكون خيالية) ليتمتع بها وبالصيف القادم حين سيصل الى مناه » .

ان الخطة — التي كان مُقَدَّراً لها ان تكون المهمة الرئيسية التالية « لايتون » في شمالي افريقيا — كانت على وشك التحقيق ؛ بيد انه اضطر ، في ذلك الحين ، الى ان يتذرع بقليل من الصبر الذي كان قد نصح أحمد بالتذرع به من قبل كما مر معنا . فبعد ان ذاق طعم النصر على طرابلس ، راح يعارض فكرة الاشتراك أو التحالف مع اية دولة

---

* ان الاصل الانكليزي يعتمد لفظة « حامد » أحياناً ، ولكننا آثرنا استعمال لفظة « أحمد » بعد ان وجدناها الاكثر وثوقاً لدى معظم الذين أرخوا وتقصوا حوادث تلك الفترة في هذه المنطقة.
(المعرب)

أخرى ، حتى انه كتب الى « ماديسون » قائلاً انه يجب عدم التورط في اي تحالف مع السويديين ، إذ – بذلك – سوف تتقاسم الولايات المتحدة شرف النصر مع تلك الدولة الحليفة .

كان يغمر « ايتون » حماس عجيب لخطته ، وقد شعر بحاجة الى الاتصال بصديق مخلص يبثه شعوره . كان « كاثكارت » ، وهو أول من اقترح فكرة امكانية استخدام أحمد كدمية مُسيَّرة ، يستقر في « ليغورن » آنذاك . وهكذا ، ففي اليوم الذي أنهى فيه « ايتون » تقريره عن أحمد ، وأرسله الى الوزير « ماديسون » ، قرَّر ان «حالته الصحية » تضطرهُ القيام برحلة بحرية الى « ليغورن » . وعند غياب الشمس ، كان في طريقه الى هناك على متن السفينة الحربية « جورج واشنطن » . وليتأكد القارىء ان «ايتون» كان قد أصيب في الصيف المنصرم بالحمى الصفراء التي تركت عليه آثار سعال مزعج ؛ أما الآن، فقد كان يأمل أن يكون هواء « ليغورن » صحياً أكثر من هواء منطقة شمالي افريقيا .

كانت تونس غارقة في نعيم من الهدوء ، هذه المرة فقط ، فسُمِحَ له بمغادرتها، وبخاصة بعد ان كان الباي قد تلقّى شحنة جديدة من البضائع ومجموعة من الهدايا جعلته رائقاً بصورة مؤقتة . وقد عيّن « ايتون » الدكتور « ويليام تورنر » ليقوم – في غيابه – بمهام نائب قنصل ... وكان «تورنر» هذا طبيب السفينة « فيلادلفيا » ، ولكنه نزل في تونس بسبب مرضه .

والحق انه كان لدى « ايتون » سبب آخر للسفر الى « ليغورن » ، وهو سبب مادي هام . فعلى الرغم من تهجماته السابقة على القناصل المنصرفين الى تعاطي التجارة ، وعن انتقاداته الموجهة الى « ريتشارد اوبراين » ومغامراته التجارية ، فقد كان « ايتون » نفسه الآن منكبّاً

على التجارة . وهو يعترف بذلك قائلاً « ها انا ذا أصبح غنياً موسراً بالرغم عني » .

وكان يملك في ذلك الحين ثلاث سفن على اقل تقدير ، وهي : السفينتان السريعتان « مورنينغ ستار » و « غلوريا » ، والمركب الصغير « كارولاين » ... وكانت تدر عليه هذه القطع الثلاث أرباحاً لا بأس بها أيام كانت تؤمن جزءاً من التجــارة القائمة بين تونس والمرافىء الايطالية . كان انتقال « كاثكارت » الى « ليغورن » مؤاتياً ومفيداً ، اذ انه كان يزود « ايتون » بمعلومات مستفيضة ووافية عن حاجــة الأسواق للبضائع والمنتجات الشمالية الافريقية ، وبخاصة الحنطة والزيت ، وكأنه وكيله التجاري .

ومما لا يخفى ، ان « كاثكارت » كان بمثابة الشريك المتدرب ، وكان ينوي ، اذا ما غادر « ايتون » شمالي افريقيا ، أن يحاول تولّي القنصلية الاميركية في تونس ، حيث يستطيع من ذلك المركز السّتراتيجي الحساس ان يستمر في لعب دور وكيل « ايتون » التجاري في التجارة المربحة التي اسساها .

كان فؤاد « ايتون » يتراقص فرحاً في طريقه الى « ليغورن » على متن السفينة الحربية ، وبخاصة عندما توقفت السفينة في « نابولي » حيث اجتمع بملك « سردينية » اجتماعــاً مثمراً ، اسدى فيه خدمة رائعــة للولايات المتحدة،على حد قوله مفاخراً في تقريره الذي ارسله الى الوزير « ماديسون » :

« تمكنتُ في « نابولي » من مقابلة ملك سردينية مقابلة خاصة .. اننا لنستطيع ان ندخل الى جزيرته ومعنا بضائعنا .. ان مرفأ « كاغلياري » لمرفأ أمين يجد فيه المسافر لحوم البقر الممتازة ، ولحوم الخنازير ، ولحم الضأن ، والخبز ، والقطاني ، والنبيذ ، والبراندي ... وذلك بأسعار

متهاودة ، لا أظن ان هناك أرخص منها الا في جزيرة « صقلية » من بين جميع مرافىء المتوسط » .

وقد اجتمع « ايتون » ايضاً اجتماعاً ناجحاً مع السير « جون اكتون » ، وكان رئيس مجلس الوزراء في « نابولي » .

وفي خلال فترة اقامته في « ليغورن » وزع القنصل الاميركي أوقاته ما بين الشؤون العامة من نحو ، وما بين الاعمال الخاصة من نحو آخر ، فوُفِّق في كلا المجالين . غير ان سعالـــه لم يتحسن ، فكان يقول ان الخدمة الفعلية وحدها — وبخاصة في البحر — كفيلة بأن تعيد اليه صحته وعافيته من جديد . ان الايام القليلة التي قضاها على السفينة « جورج واشنطن » قد شجعته على الانخراط في سلك البحريـــة . فكتب من « ليغورن » الرسالة التالية الى « ماديسون » :

« لم تتحسن صحتي ولم اتماثل للشفاء منذ وصولي الى هنا ، مع العلم بأني شعرت بارتياح عظيم ونحن في عرض البحر . اني لمقتنع بأن الهواء النقي والتمرين الجسماني هما وحدهما سينجداني من عذابي وآلامي » .

أما « ماديسون » فلم يكترث لهذا الاقتراح .

كانت أعمال « ايتون » في « ليغورن » على جانب كبير مـــن الازدهار. فعلى الرغم من ان طرابلس كانت تخوض حرباً فعلية ضد الولايات المتحدة ، فان السفن الاميركية أبتْ أن تسمح بركود التجارة الاميركية أو فتورها . ويكفي ان تعلم ان مراكب « ايتون » الخاصة بالذات كانت تقوم بنشاط ملموس . ومن « ليغورن » وفي الخامس عشر مـن شباط (فبراير) ، اخبر زوجته « اليزا » في رسالة طويلة، يبدو فيها راضياً عن نفسه ، انه يسعى الى تحقيق نجاح اعظم ، فقال :

« عـاد الربّان « كوفين » الى تونس في سفينة من سفني اسمهـــا « مورنينغ ستار » . أما أنا فسوف اقفل راجعـــاً الى هناك في سفينتي الثانية « غلوريا » . ان هاتين السفينتين لمـــن أثمن واجمل السفن التي

تراها العين في البحار ، من ذلك الحجم ، وتحملان سويّة أكثر من خمسة آلاف طن ... سوف اتركهما تعملان في البحر الابيض المتوسط في الصيف المقبل – فهما مزودتان بالاسلحة،وتستطيعان الدفاع والصمود– وسوف أعود باحداهما الى « بوسطن » في الخريف القادم . واذا ما استمرت اعمالي ناجحة كما كانت في السابق ، فاني سوف اتمكن من جمع مبلغ ٣٠,٠٠٠ دولار ، وأظن أنه سيؤمن لنا حياة راغدة في احدى المدن في بلادنا » .

وبديهي ان ثلاثين ألفاً من الدولارات لا تمثل ثروة طائلة ، بيد انها كانت تُعتبر ، في ذلك العصر ، ثروة مناسبة لتجعل من عائلة «ايتون» عائلة موسرة مرفهة في « بريمفيلد » ، من أعمال « ماسانشوستس » .

وتدل الحقائق على ان « ايتون » لم يدع اعماله الخاصة تتعارض مع واجباته الرسمية . هذا ، مع الاشارة الى انه كان قد كتب الى زوجته « اليزا » ، قبل ان يقوم بزيارة « ليغورن » بحوالى السنة،رسالة مختصرة ليُعلمها ان الربان « جورج ج. كوفين » كان في طريقه الى نيويورك على السفينة « آنا ماريا » التي كانت بقيادته والتي كانت تشحن حمولةً ثمينة على نفقة « ايتون » . كما أرسل لها أيضاً خمسة آلاف دولار نقداً « حتى تُنفق في تعليم ابنكِ الأكبر » . وخشيةَ ان تظنه « اليزا » مهملاً واجباته الرسمية ، فقد ختم رسالته بقوله :

« ان الحرب الوشيكة مع طرابلس سوف تضطرني حتماً الى تمديد اقامتي ها هنا حتى الصيف القادم . لا أدري ما هو الدور الذي سوف أقوم به في تلك الحرب ، اذا ما قُدّر لي ذلك . اني تحت تصرف بلادي . وآمل ألا تخجلي يوماً لسلوك « ايتون » واعماله الرسمية مهما حدث لي شخصياً ، يا عزيزتي « اليزا » ... »

اذا كان الشك يخامر « ايتون » حول نصيبه ، أو بالحري دوره في الحرب الطرابلسية ، حينما كتب الى زوجته « اليزا » في ربيع سنة

١٨٠١ ، فلقد انقشعت غيوم ذاك الشك بعد مرور عـــام واحد تقريباً.
ففي « ليغورن » كان يقوم ، بالاشتراك مـــع « كاثكارت » ، برسم الخطط الاضافية لتنصيب الباشا أحمد قرامانلي على عرش طرابلس . وفي الثاني عشر من شهر آذار (مارس) ، عاد « ايتون » الى تونس لوضع خطته موضع التنفيذ الدقيق .

وهكذا ، سيكون أحمد قرامانلي شغله الشاغل هناك .

٦

خيبة وفشل
١٨٠٢ - ١٨٠٣

في الثامن من شهر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٨٠١ ، بعث الرئيس « جفرسون » برسالة الى مجلس « الكونغرس » استعرض فيها علاقات الولايات المتحدة بدول شمالي افريقيا ، ليلفت نظر أعضاء تلك الهيئة التشريعية الاميركية الى قضية اعلان الحرب التي شنتها طرابلس على الولايات المتحدة . وعلى الرغم من انه كان قد مضى حوالى ستة أشهر على التحرشات الصادرة من الجانب الطرابلسي ، فان رئيس الولايات المتحدة لم يسمح الا باتخاذ خطوات دفاعية ضد القراصنة.فرئيس الولايات المتحدة كان يشعر انه لا يملك القوة للقيام بأي عمل من غير موافقة « الكونغرس » وجسّ نبضه . ومن عجب ، ان يضطر الملازم أول « ستيريت » الى اطلاق سراح طراد طرابلسي كان قد استولى عليه مع ما فيه من الرجال ، وذلك تقيّداً منه بالتعليمات الاميركية العليا .

فأعلن رئيس الولايات المتحدة،ان الوقت قد حان لكي يفسح مجلس

« الكونغرس » المجال أمام البلاد لاستعمال وسائل هجومية .

لم تكن طرابلس بالنسبة لمعظم اعضاء مجلس « الكونغرس » في سنة ١٨٠١ ، الا مجرد اسم ؛ لذا ، فان احداً من اولئك الاعضاء لم يُبدِ حماسة للحرب الطرابلسية ، اللّهُم الا بعض ممثلي المناطق البحرية . وأخيراً ، وفي السادس من شهر شباط (فبراير) عام ١٨٠٢ ، أصدر « الكونغرس » قانوناً :

« لحماية التجارة الاميركية ، وبحارة الولايات المتحدة ، من خطر الطرادات الطرابلسية ... »

لقد خوّل هذا القانون رئيس الولايات المتحدة بعض الصلاحيات ، وأهمها صلاحية تزويد سفن الاسطول الاميركي بالاسلحة والذخائر ، وصلاحية تزويد بعض مراكب القرصنة بالرجال والعتاد واعدادها للخدمة الفعلية ، وصلاحية تمديد فترة خدمة البحارة من سنة حتى سنتين . ولكن ، لم تُتخذ اية احتياطات لشن الحرب ، ولم تُرسل اية سفن حربية أخرى .

وهكذا ، وباقتصاد بلغ درجة البخل ، سمح « الكونغرس » لرئيس الولايات المتحدة الاميركية بحماية التجارة ثلاث بواسطة عشرة سفينة ، هذا العدد الذي حدده القانون البحري الصادر في الثالث من آذار (مارس) سنة ١٨٠١ . ورغماً عن ان « الكونغرس » قد أدرك ان ثمة حرباً تدور رحاها في شمالي افريقيا ، فقد تجنّب اصدار اعلان صريح وقوي لشن هجوم مماثل على دولة طرابلس . ان قانون ٦ شباط (فبراير) سنة ١٨٠٢ ، ليُظهر بشيء من الغموض والالتباس ، ان الولايات المتحدة سمحت باستعمال القوة ضد السفن الطرابلسية في عرض البحر وحسب ، لا ضد مرافىء طرابلس ... والواضح الذي لا يرقى اليه شك ، ان « الكونغرس » كان يأمل أن يشن تلك الحرب – اذا ما جاز لنا تسميتها بذاك الاسم ، اي اطلاق كلمة « حرب » عليها – من غير

سفك دماء ، بل ، وهذا هو الاهم ، من غير دفع نفقات او تكبّد مصاريف .

أصدر الرئيس « جفرسون » أوامره في الثامن عشر من شباط (فبراير) ، لتجديد المعركة ضد طرابلس ، وذلك — طبعاً — في حدود ما كان يحق له ان يجهز من الرجال والمعدات . واختبر « توماس تروكستون » لقيادة الاسطول الجاري تحضيره — وكان الأسطول الاميركي الثاني المخصص لحوض البحر الأبيض المتوسط — ، غير أنه اعتذر عن القيام بتلك المهمة ، لأنه لم يستطع ان يجد رباناً اضافياً ليشغل وظيفة الضابط المنفِّذ على بارجته .

وقد شرح وزير البحرية الاميركية تلك المسألة ، فقال ان القانون — وكانت تبدو على القانون علامات التوفير ، وهو كان قد صدر حتماً كحلقة من حلقات سياسة حصر النفقات — الذي أصدره «الكونغرس» في سنة ١٨٠١ ، والذي شلّ أهمية الاسطول ومسخه مسخاً ، لم يترك ، لسوء الحظ ، عدداً كافياً من الضباط للقيام بتلك المهمة . عندها ، استقال « تروكستون » من البحرية ، فعُيِّن « ريتشارد فالنتاين موريس » قائداً للاسطول ، لأنه كان يليه في الرتبة والأقدمية ... وكان من العسير وجود ضابط اقل منه كفاءة وأهلية ، وغير واف مثله بالمراد .

حسب الخطة الأصلية ، كان الأسطول سيتألف من أربع سفن ، بيد انه قد أضيفت اثنتان أخريان في آخر الأمر . كانت بارجة «موريس» هي الفرغاطة « تشيزابيك » ذات الستة والثلاثين مدفعاً . أما باقي قطع الاسطول ، فكانت على النحو الآتي :

كانت السفينة « انتربرايز » بقيادة الملازم اول « ستيريت » الذي كان قد اعاد سفينته من المتوسط الى الولايات المتحدة منذ عهد قريب ... وكانت السفينة « كونستليشين » بقيادة القبطان « الكسندر موراي » الذي

كان عجوزاً أصم ، وأعند من ان يتقبل النصح . أما السفينة «ادامس» ، فكانت بقيادة القبطان « هاغ كامبل » . وكان الربان «جيمس بارون» يقود السفينة « نيويورك » . اما السفينة « جون ادامس » ، فكانت بأمرة الربان « جون رودجرز » .

ابحرت تلك السفن من المرافىء الاميركية في فترات مختلفة تتراوح ما بين السابع عشر من شهر شباط (فبراير) ، والثاني والعشرين من تشرين الاول (اوكتوبر) . وكان « ستيريت » ، الخبير بطرائق القراصنة ، اول من ابحر الى البحر الابيض المتوسط ،وقد تبعه «موراي» الذي كان اعلى منه رتبة – وبكلمة اخرى ، كان الضابط الاعلى مقاماً، وبخاصة بفضل اقدميته في الخدمة –، مما جعله يحكم ويتحكم ، ويحل ويربط ، الى حين وصول « موريس » ... و « موريس » نفسه لم يقلع الا في السابع والعشرين من شهر نيسان (ابريل) . وعلى الرغم من ان القائد « ديل » كان قد غادر المتوسط ووصل الى « هامبتون رودس » في الوقت الذي وصل فيه « موريس » الى ذاك المرفأ،فليس لدينا ايما دليل على ان القائد الجديد حاول الاستفادة من خبرة « ديل » (يوم اجتمعا) على الاطلاق .

والواقع ان « موريس » قد علم باتصالات « ديل » الاخيرة بوزارة البحرية لينذرها بامكانية حدوث مشاكل اخرى مع مراكش ، ولكنه لم يُبْدِ اهتماماً ولم يحفل للأمر .

كانت التعليمات الصادرة اليه تطلب منه ضرب حصار شديد على طرابلس ، وايجاد قاعدة مناسبة في احد موانىء البحر الأبيض المتوسط بحيث يكون مناخها ملائماً وصحياً حتى كموقع مستشفى ؛ ولكن الأوامر تركت له حرية التصرف والاستنساب « ايماناً بحكمته وتدابيره الصائبة ضد كل خطوة من خطوات العدو » . الا ان « موريس » لم يقم بأي عمل يؤيد تفاؤلات وزارة البحرية به ، ويدعم آمالها المعلقة عليه ، وثقتها التي اولته اياها .

لم يكن « موريس » انضباطياً منظماً ولا استراتيجياً كفؤاً . فكانت سفينته الخاصة ، حسب التعبير العصري ، سفينة يسودها الهزل والفوضى بدلاً من الانضباطية العسكرية . ومن الأهمية بمكان ، ان نذكر انه قد رافق معه زوجته وطفله الصغير « جيرارد » ، مع خادمة زنجية – اسمها « سال » – للترويح عن نفسه خلال الرحلة الطويلة . والأغرب من ذلك ايضاً ، ان بعض البحارة كانوا قد اخذوا معهم زوجاتهم !! كانت الأنظمة تمنع اية امرأة من ركوب البحر من غير اذن وزارة البحرية او قائد الاسطول ، بيد ان « موريس » قد شعر ، ولا شك ، انه يحق له ان يتصرف حسبما يشاء بصفته عميد تلك العمارة البحرية .. واذا كان وجود النساء والاطفال يوفر ، من ناحية ، جواً من الراحة البيتية ، فانه كان ، من ناحية اخرى ، يضطر القائد ان يبقى سفينته على مسافة امينة من مناطق العنف .

غير انه بينا كانت تتجه سفن اسطول « موريس » الى البحر المتوسط ، كان القبطان « دانيال ماكنيل » يقيم حصاراً على طرابلس بسفينته « بوسطن » ، مع اربع فرغاطات سويدية ، علماً بأن السويد كانت في حالة حرب مع طرابلس ايضا .

وكان في البحر المتوسط سفينتان اميركيتان تابعتان للاسطول الاميركي الاول ، وهما « ايسيكس » و « فيلادلفيا » ، ولكنهما كانتا تمضيان اوقاتهما اما في الرسو في مختلف الموانىء الاوروبية ، او في مواكبة سفن اميركية اخرى لحمايتها .

وكان « ايتون » قد وضع سفينته الحربية « غلوريا » تحت تصرف الحكومة الاميركية ، بغية دعم القوى الاميركية ، كما كان قد امر قائدها الربان « جوزف باوندس » بالابحار الى جبل طارق لمواكبة الاسطول الاميركي . وقد نصح « ايتون » القبطان « باوندس » بأن :

« يتصرف تصرفاً هجومياً ودفاعياً ضد جميع المراكب الحربية

والتجارية العائدة لطرابلس على حد سواء ، وذلك بطرائق ووسائط عدة منها : الاستيلاء ، والحرق ، والاغراق ، والتحطيم والتمزيق بشتى الوسائل التي تمتلكها يداك كلما صادفت احدها » .

عندما وصل الربان الاميركي « جوزف باوندس » الى جبل طارق في مطلع شهر ايار (مايو) ، كان القائد « موريس » قد ترك منطقة « هامبتون رودس » منذ ايام معدودات ، في حين كان الربان « موراي » في السفينة « كونستليشين » على وشك ان يرسو ويتسلم تقارير « باوندس » . وبدلاً من ان يكون شاكراً للدعم الذي كانت ستقدمه السفينة الحربية « غلوريا » ، فقد اقال « موراي » الربان « باوندس » من الخدمة الحكومية ، وكتب رسالة مقتضبة الى « ايتون » يستنكر فيها خطتـه الرامية الى مساعدة احمد على رقي عرش طرابلس .. ليس هذا فقط ، بل لقد ابطل في الوقت عينه جميع الترتيبات السابقة المتعلقة بقضية احمد قرامانلي . وقد رفض ايضاً القبول بتزويد « غلوريا » بالمعدات الحكومية الاميركية في جبل طارق ، وما لبث ان نقل اثنين من بحارتها الى سفينته « كونستليشين » . ثم كتب الى وزير البحرية انه يعتبر « ايتون » رجلاً :

« تنقصه صلاحية التدخل ، بل التورط في امثال تلك الاعمال والمخاطرات التي لن يكون لها تأثيرٌ حسنٌ » .

فقال « ايتون » ساخطاً ان ضابطاً بحرياً احمق من نوع « موراي » وحده قد يفكر باتخاذ مثل تلك الخطوات بعـد مرور بضعة ايام على وجوده في المتوسط وحسب .

رأى « موراي » ان من واجبه ، بوصفـه الضابط البحري ذات الرتبة الاعلى ، ان يأمر بعودة السفينة « فيلادلفيا » الى الولايات المتحدة فوراً ، وان يشير على الربان « باينبريدج » بالتوجه بالسفينة « ايسيكس » الى الولايات المتحدة ايضاً حالما يستطيع الربان « ماكنيل » ، قائـد السفينة « بوسطن » ، ان يحل محله . اما في جبل طارق ، فكان كل

من « موراي » والقائدين الامير كيين الآخرين مدعوّين للاشتراك – يوم ١٠ نوار (مايو) – بالاحتفال الذي سيقام ترحيباً بـ « دوق اوف كنت » ، حاكم الحصن . وبعد ان شرب الحاضرون النخب الاخير في صحة الدوق النبيل ، وبعد ان « انتفخ » « موراي » غروراً حال سماعه كلمة رائعة أُلقيت لشكره على تلطفه بحضور الاحتفال ، ترك اسمار جبل طارق وأفراحها ، على مضض ، متوجهاً نحو الساحل الافريقي .

وفي الجزائر ، اجتمع بالقنصل « اوبراين » على ظهر سفينته ، وسمع منه نبأ ازعجه وهو استيلاء الجزائريين على بارجة بُرتغالية . وكان « اوبراين » يعرف حق المعرفة ان طعم الدم هذا قد يحرك شهية الجزائريين للاستيلاء على غنائم اخرى .

تابع « موراي » رحلته الممتعة – حتّى لا نقول نزهته – ورسا في تونس في ٢٨ ايار (مايو) ، وهو هادىء البال وراضٍ عن نفسه واعماله كل الرضى . كان لوصوله بعض الاهمية بالنسبة « لايتون » ، اذ ان « موراي » كان قد تسلم في جبل طارق هدية المجوهرات التي طال انتظار الباي لها ، فسلمها الى القنصل . واذ كان « موراي » يجهل شؤون دول شمالي افريقيا وقضاياها ، وظواهرها وخفاياها ، فقد كتب الى وزير الحربية يخبره بأن الجزائر وتونس كانتا تبديان كل محبة وصداقة نحو الولايات المتحدة ، وان طرابلس كانت مستعدة لعقد السلم . وبدهي ان لا اساس من الصحة لهذه الاقوال ، ولكن « موراي » ، العنيد والمتشبث برتبته البحرية ، رفض الاستماع الى وجهات نظر من كان اكثر منه خبرة في شؤون البحر المتوسط .

كان تسليم الجواهر مناسبة اغتنمها الباي للتقدم بمطالب جديدة فاحشة. فمع انه سُرّ جداً للخناجر المرصعة باللالىء ، والبنادق الذهبية ، وسوى ذلك من الادوات اللامعة البراقة التي صنعها أمهر جوهريي « لندن » وصاغتها ، فقد كان جشعه لا يعرف حداً ، فأعرب وزيره الاول

عن انتظاره الآن هدية جديدة هي عبارة عن حرّاقة * مزودة بالاسلحة، والا – اذا لم يكن ذلك ممكناً – فسفينة حربية شراعيـــة . فاستشاط « ايتون » غضباً لذلك الاستغلال ، ولكنه تمكن من تأجيل الطلب مؤقتاً، متذرعاً بشروط المعاهدة ؛ ثم كتب بحزن عميق الى « روفوس كينغ » في لندن بأن على الولايات المتحدة ان تتوقع تجدد مثل تلك الطلبـــات كلما وجدت تونس الفرصة مناسبة لخلق المشاكل .

●

ان عدم فهم الضباط البحريين لشؤون شمالي افريقيا ، وتأكيدهم على صحة آرائهم الخاطئة ، جعلا « ايتون » وغيره من الاميركيين في المتوسط يتحرقون غيظاً . وبعد ان ضجر « ايتون » من تصرفـــات « موراي » الدكتاتورية ، بعث الى الوزير « ماديسون » رسالة تهجمية أورد فيها اتهامات قاسية موجهة الى صميم السياسة البحرية المنتهجة . وهكذا ، فقد جرح « ايتون » كبرياء البحارة بانتقـــاداته اللاذعة لخمول الاسطول ورجاله ، مما حمل الربانين « صموئيل بارون » و « ويليام باينبريدج » على شجب خطة اعادة احمد حاكماً على عرش طرابلس ... وهذا ما أكده « ايتون » نفسه .

ولم يلبث « موراي » ان اتخذ الموقف ذاته ، اذ حتى لو كره القادة البحريون بعضهم بعضاً كرهاً اعمى ، فانهم لا بد متراصين جبهة واحدة في وجه النقد ذي الصفة والمصدر المدنيـــين . واعترف « ايتون » بأن الربابنة اعترضوا – ولاشك في ذلك – على قوله بأن الاميركيين في افريقيا الشمالية قد ذاقوا كل اهمال وعدم اكتراث على يد رجال البحرية الاميركيين ، بيد انه تشبّث بقوله هذا واصرّ على ان الضباط البحريين

---

* سفينة حربية قديمة .

يفضلون التمتع بمسرات المرافىء الملائمة لمزاجهم على مواجهة صعوبات التطواف بمحاذاة الشاطىء الافريقـي الشمالي . فلاحظ « ايتون » ايضاً متهكماً :

« ان قساوة الشتاء دفعت قائد السفينة « فيلادلفيا » الى اتخاذ منزل له في « سيراكوزة » لازمه طوال وقتـه ، ما خلا ثلاثين او اربعين يوماً امضاها على شواطىء « ليغورن » ... كانت السفينة « ايسيكس » مرابطة قرب جبل طارق لمراقبة بدن سفينة مجردة مفككة ، ولكن اصحاب تلك المهمة تركوها فترات تتراوح بين العشرة ، والاثني عشر ، والخمسة عشر يوماً ، في اوقات مختلفة . وكان من السهل في تلك الاوقات ان تبحر السفينة الى « مالقة » و « قادس » ... صدقوني ان هذه بدعـة فريدة في التوفير في النفقات مع مواصلة الحرب ، وانه ليس من العجيب ان يحاول الذين يقولون بتلك البدعة ويؤيدونها ، ولو بعواطفهم فقط ، أن يقفوا في وجه كل محاولة يقظة لوضع حد لبدعتهم » .

لطالما كرر « ايتون » ان خطـة استخدام احمد في سبيل المصلحة الاميركية سوف توفر على الولايات المتحدة مئات الآلاف من الدولارات والعديد من الارواح ، في حين أبطل « موراي » الخطة كلها ، وألغاها بوحي من جهله وتحيزه . فانفجر « ايتون » متسائلاً :

« هل قدم الربان « موراي » الى هنا مزوداً بصلاحيات مطلقة لالغاء مفعول الاعمال والخطوات التي اتخذها بعض المسؤولين الذين طالت مدة وظيفتهم في هذه الجبهة ؟ ... فيحصرنا في ميناء اجنبي ، غير متجاوبين فيه مع الرأي العام الذي لم يعد يثق بنـا ، ولم يعد يحترمنا ، ولم يعد يرانا ، ولم يعد يسمعنا ؟ ! ... فاذا كان الامر كذلك ، فانها لقضية صعبة حقاً ! ! واذا كان الامر كذلك ، فاني اتوسل ، لا بل أطلب من رئيس الولايات المتحدة — كحق من حقوقي — ان يشملني بحنانـه وعطفه فيشطب اسمي من لائحة القناصل الدبلوماسيين ، ويعين مكاني

شخصاً يتمتع بمؤهلات افضل وأنسب ، بالنسبة لهذا المنصب ، ويقوى على أن يجالد ويصبر ويتحمل الاهانات اكثر مني . لا ارى سبباً يدعوني لأن اضحي نفسي في سبيل راحة اشخاص يقدمون راحتهم على واجبهم » .

كان جميع الاميركيين المطلعين على شؤون شمالي افريقيا يعانون حزناً واسفاً عميقين في الصميم بسبب من الطريقة السخيفة التي كانت تُسيَّر على اساسها الشؤون البحرية . فالحق ان « اوبراين » ما كان ليقل اندفاعه لمغادرة الجزائر عن اندفاع « ايتون » للخروج من تونس . اما « كاثكارت » ، والذي كان الآن في « ليغورن » ، فكان الوحيد من بين القناصل الثلاثة ، الذي يرغب في البقاء في منطقة حوض البحر الابيض المتوسط ...

ماذا عن الاحترام الاميركي ومنزلة الولايات المتحدة ؟!

كان اسم الولايات المتحدة يهبط سحيقاً يوماً بعد يوم . ان الاميركيين المقيمين في شمالي افريقيا منذ مدة بعيدة ، أدركوا ان وجود الاسطول الاميركي على مياه المتوسط لم يثبت للقراصنة سوى ان الاميركيين لا يشكلون أي خطر ، او هيبة ، الا مثل خطر الدانماركيين وهيبتهم — الذين كانوا قد برهنوا عن ضعف شديد في الآونة الاخيرة — ، وذلك بدلاً من ان يبعث الرعب في نفس كل قرصان منهم .

واليك بعض ما كتبه « ايتون » الى « ماديسون » في تلك المناسبة :

« طوال مدة وجود الاسطول على مياه المتوسط ، لم تعرف طرابلس حصاراً مدته اربعين يوماً ، الا الآن حين وصول السويديين والسفينة « بوسطن » .. إننا سنفشل في الوصول الى بغيتنا ما لم نبذل جهداً اعظم وقوة اشد فيما يتعلق بعملياتنا ومخططاتنا ضد طرابلس . ان بِدَع التلكؤ ، والتباطؤ ، والمماطلة في الحرب ، لسوف تشجع الدول الافريقية الشمالية الاخرى على الشموخ والتغطرس والوقاحة » .

مهما بدا لنا « ايتون » رجلاً تعوزه اللباقة ، فاننا لا نستطيع ان

ننكر صحة تحليله لاوضاع افريقيا الشمالية ، خاصة وان اتهاماته الموجهة الى جميع الضباط البحريين المتسلمين مقادير الامور في تلك الحقبة (لأن كلاً منهم غير كفؤ وغير وافٍ بالمراد) ، ما كانت الا صحيحة وواقعية .

واذا كان « ايتون » يعرف حق المعرفة طبيعة السواحل الافريقية الشمالية ، فقد شدد في تقريره الى « ماديسون » على ضرورة ارسال سفن مدفعية لمعاونة الفرغاطات في عملها الحربي .. جميع الفرغاطات الامير كية التي كانت تطوف في حوض المتوسط ، او تحاول فرض حصار شديد ، لم تستطع ان تمنع القراصنة من سلب المرافىء العديدة الصغيرة من جهة ، ومن الهجوم على السفن الامير كية من جهة ثانية .. وقد ورد في احد تقارير « ايتون » النص التالي :

عندما كانت السفينة «كونستليشين» راسية في خليج تونس ، مر طرادان من ذلك النوع بمحاذاة الساحل ، ودخلا الى « بنزرت » على بعد اربعين ميلاً من هنا ، وطوّفا في اليوم التالي بحثاً عن الامير كيين» .

وتوقع « إيتون » شراً عظيماً من هذين الطرادين الا اذا :

« وقعا في يديْ الربان « ستيريّت » المرابط على الساحل ، والذي لا اشك في أنه سوف يلقنها درساً مناسباً » ..

والجدير بالذكر ، في هذا المجال ، ان الربان « ستيريت » كان واحداً من القادة القلائل الذين حازوا على احترام « ايتون » .

صرّح « ايتون » ان الولايات المتحدة لا تستطيع ان تنتظر من الدول الأوروبية المحافظة على النظام او ضبط الأمن في افريقيا الشمالية . ان احقاد الدول الاوروبية ستمنعها من كف يد القراصنة .. اما الدول الاوروبية القوية ، فانها ، من غير ادنى ريب ، سوف تعقد معاهدات تعود عليها بالنفع الخاص دون ان تلتفت الى المصالح الأميركية في تلك

المنطقة . اما الربان « موراي » فقد ابدى وجهة نظر معاكسة ، معتقداً ان :

« الولايات المتحدة تستطيع ان تعتمد على شهامة دول اوروبا قصدَ فرض النظام والأمن على جميع دول شمالي افريقيا » .

هذا ، وقد قرر « ايتون » المتشبّع قلبه تشاؤماً غِبَّ خبرته الطويلة في شمالي افريقيا ، الا يدع تلك الامنية تتحقق .

كان « ايتون » لا يزال يتذمر من حماقة « موراي » وعناده ، عندما وصل القائد « موريس » الى البحر الابيض . لم يكن وصوله الى جبل طارق ، في الخامس والعشرين من شهر ايار (مايو) ، ميموناً او مبشراً بالنجاح ، اذ انه دخل الميناء ببارجة عرجاء . وتفصيل ذلك ، ان السفينة « تشيزابيك » كانت قد شقّت صاريها الرئيسي بعد مغادرتها « هامبتون رودس » بأربعة ايام ، وذلك بسبب الاهمال الكبير الذي لاقته في ساحة « نور فولك » البحرية ، فكانت بحاجة الى تصليحات وترميمات شتى في جبل طارق .

•

في اليوم السابع عشر من شهر حزيران (يونيو) ، اي عندما كانت السفينة « تشيزابيك » صالحة للعمل من جديد ، اعلن امبراطور مراكش الحرب على الولايات المتحدة الامير كية . وهذا ما اضطر « موريس » الى البقاء في جوار جبل طارق معظم فصل الصيف ، الامر الذي راق للسيدة « موريس » ، اذ انها وجدت لذة كبرى في التعرف الى الحياة الاجتماعية في المستعمرة الانكليزية .

ومما يذكر ، ان جميع الامير كيين الموجودين هناك قد شاركوا في الاحتفال بذكرى ولادة الملك في ٤ حزيران (يونيو) ، كما ان « القائدة » اي (السيدة « موريس ») كانت موضع تكريم خاص وحفاوة بالغة

اظهرتهما زوجات الضباط البريطانيين . وهكذا ، فقد كانت « الحرب » المراكشية فاصلاً جميلاً اعطى للقائد « موريس » عذراً شرعياً كيما يعرّج على جبل طارق والمرافيء المجاورة .. وقد عمّم « موريس » انذاراً يحذر فيه المراكب والسفن من التهديد الجديد ، ويعلن فيه ايضـاً ان على السفن التجارية ان تنتظر المواكبة لدى مرورها عبر المضيق .

كان كل ما فعله امبراطور مراكش ان تقدم بمطاليبـه وعرض تحدياته . فالواقع انه كان بحاجة الى جوازات مرور ليتمكن من ارسال الحبوب الى طرابلس ، فطلب اطلاق حرية الطراد الطرابلسي الذي كان خاضعـاً للحصار الاميركي في جبل طارق لشهور عديدة . وقد ادعى الامبراطور انه قد حصل على الطراد ، بطريقة شرعية ، من مالكيه الطرابلسين . وقد اطلق عليه اسماً جديداً هو « المشودة » ، وكان ينوي الآن ان يشحن عليه شحنة من الحبوب الى طرابلس — وربما سوى ذلك من البضائع والسلع المهربة ايام الحرب .

ومهما يكن الامر ، فقد امتدت المناقشات والمباحثات حتى شهر آب (اغسطس) حين أعلن القنصل الاميركي في « طنجـة » ، « جيمس سيمبسون » ، ان العلاقات مع مراكش قد عادت الى حالة سلم طبيعية . ومن الادلة على حسن نية الاميركيين ، ان « سيمبسون » زود الطراد « المشودة » بجواز سفر للخروج من جبل طارق في شهر ايلول (سبتمبر)— ولكن لا للدخول الى طرابلس ...... ان أهم دور قام به « موريس » في تلك « الحرب » ، هو زيارته « طنجة » على السفينة « تشيزابيك » ، حيث عقد سلسلة من المناقشات المتواصلة — على الاقل بانتظار وصول سفينة حربية اخرى ، هي السفينة « ادامس » . اما سائر اوقاته ، فقد بددها في اللهو والعبث في حبل طارق .

ومما لاشك فيه ، ان « الحرب » الطرابلسية كانت تزداد جيشانـاً وغلياناً مع الايام . فعلى الرغم من ان الطرابلسيين لم يبدوا نشاطاً فعالاً

مثل ذاك الذي ابدته الولايات المتحدة الاميركية ، فان تهديداتهم المتواصلة للسفن الاميركية كانت مصدر قلق لا يحتمل وخوف مستديم لا يستطيع ايما اميركي انكاره . واخيراً ، وفي العشرين من شهر ايار (مايو) ، نجح الطرابلسيون في القيام بما كان يخشى « ايتون » ان يحققوه كهدف من اهدافهم . لقد افلتت ثلاثة طرادات طرابلسية من الحصار ، مما أتاح امامها مجالاً بحرياً واسعاً لاصطياد الغنائم . وفي الحال ، أرسل قناصل الولايات المتحدة في افريقيا الشمالية تحذيرات تنذر بالخطر المتوقع ، ولكنها لم تحل دون استيلاء الطرابلسيين على السفينة الاميركية « فرانكلين » —في ليلة ١٧ حزيران (يونيو) — ، التي كانت في طريقها من مرسيلية الى جزر الهند الغربية . وفي ٢٦ حزيران (يونيو) قيد « اندرو مورس » ، قائد السفينة « فرانكلين » ، مع ثمانية بحارة من طاقم بحارته الى ميناء الجزائر كجزء من الغنائم . وقد حاول القنصل « اوبراين » ان يفتدي الاسرى الاميركيين التسعة اولئك ، ولكنه لم يفلح الا في نقلهم مكبلين بأغلال ثقيلة الى « بنزرت » ، حيث باتوا خمسة ايام . وهناك جرى بيع السفينة وحمولتها . كذلك ، فقد حاول « ايتون » — ايضاً — تخليص المعتقلين بكل ما اوتي من قوة ، بيد ان آسريهم نقلوهم عنوة الى طرابلس ، على مرأى من « موراي » وأميرال سويدي ، ثم شهّروا بهم في مسيرة بالشوارع ، يوم ١٩ حزيران (يونيو) ، كدليل على ازدرائهم واحتقارهم لتهديدات الولايات المتحدة .

هذا ، وقد أُطلق سراح المعتقلَين الفرنسيين ، كما أُطلق سراح رجلين انكليزيين بعد توسط القنصل البريطاني . أما قائد السفينة وباقي البحارة ، فقد ظلوا قيد الاعتقال . وبحسب احدى المعاهدات المعقودة بين الولايات المتحدة وطرابلس ، وكان القائد « ديل » ممثلاً فيها الطرف الاميركي بعد ان اطلق سراح عدد من المعتقلين ، أصبح للولايات المتحدة « ديْناً » على طرابلس يخوّلها اطلاق سراح خمسة معتقلين أميركيين عند وقوعهم أسرى في ايدي الطرابلسيين .

وعلى ضوء تلك المعاهدة ، راح القنصل الدانماركي ، « نيكولاس س . نيسان » – وكان قائماً بأعمـال القنصلية الاميركية في طرابلس – يفاوض « الباشا » في أمر المعتقلين ، ولكن من غير جدوى ... لقد ظل الربان « اندرو موريس » والبحارة الاميركيون الأربعة مكبلـين بأغلال العبودية .

غضب القناصل الاميركيون لفشل الاسطول الاميركي في حماية المواطنين الاميركيين من جهة ، وحماية السفن الاميركية من جهة اخرى . فاذا ما عجزت سفن الولايات المتحدة الحربية عن منع الطرادات الطرابلسية من الافلات والهرب من الميناء ، فقد كان في مقدورها القاء القبض عليها مع مَن فيها من معتقلين في طريق عودتها الى طرابلس ... عـلى ان القراصنة قد أبحروا ، بكل جرأة ، من أمام الربان « موراي » القابع على ظهر سفينته « كونستليشين » ، وهم يحملون العـلم الاميركي رأساً على عقب كعلامة على احتقارهم للولايات المتحدة ، فلم يلاحظ « موراي » شيئاً من ذلك . وقد بعث « ايتون» الى الوزير « ماديسون » بالرسالة التالي نصها ، في التاسع من آب (أغسطس) :

« لِمَ لا ترسل حكومتنا بعض الصاحبيين * ليعقـدوا اجتماعـاً صاحبياً ** في عرض البحر ، في حين يُصدر « موراي » أوامره الى الفرغاطات الاميركية ؟! ان التحيات الودية التي سوف يلقونها عليه ، وان عودته الى جبل طارق ، لن يكون لها ايما تأثير على طرابلس . بربّكم ! أليس لدينا سوى « تروكستون » واحد و « ستيريت » واحد في الولايات المتحدة ؟ »

---

* الصاحبي : واحد من طائفة الاصحاب او المهتزين (الكويكرز) ، وهم يؤكدون على البساطة في الملبس ، ويكرهون الطقوس الخارجية ويقاومون الحرب .

** الاجتماع الصاحبي : اجتماع ديني يعقده الصاحبيون (الكويكرز) ، ويتميز ، عادة ، بفترات من الصمت طويلة .

بالطبع ، لم يكن القائد « موريس » قد وصل الى طرابلس بعد . ومما يذكر أيضاً ، ان « نيسان » كان يشكو ، في تقريره عن حالة الأسرى الاميركيين ، من ضعف الحصار وصُوَرِيّته .

لم يقدر الاميركيون في شمالي افريقيا ان يفهموا معنى اللامبالاة التي تميّز بها موقف الولايات المتحدة من الاهانات التي كانت تلحق بها في حوض البحر المتوسط . لقد صاح « ايتون » ، وموجة من السخط تملأ عليه الدنيا ، أمام « كاثكارت » :

« قل لي ، يا صديقي العزيز ، أليس هناك ايما رجل اميركي يقظ ، لا بل حيّ ، تسري في عروقه دماء الحياة ، في أنحاء الولايات المتحدة من أقصاها الى أقصاها ؟ أم هل ان عبقرية بلادنا تائهة في مهامه الانشغالات الداخلية المحلية الحالكة ؟ أليس ثمة حياء أو خفر لدى الولايات المتحدة !... حتى ولا قطرة دم حارة تقرع ضميرها للاهانة التي تلحق بها من جراء مشاهدتها أحد الباشاوات الطرابلسيين يُخفي نجومها ويلطخ شمس ماضيها المتألق بدماء مواطنيها أنفسهم !.. إني لمريض !.. إني ليائس !.. ما الذي يجب فعله ؟ »

لقد ضاعف اعتقال الرهائن * من غطرسة الطرابلسيين وجرأتهم . فهدد الباشا بأن يحرق كل اميركي وسويدي واقع في قبضته حياً ، اذا ما أطلقت سفن الاعداء نيرانها على مدينة طرابلس . وقد كتب « ايتون » الى « كاثكارت » ان ذاك الحاكم المتعطش للدم قد أوصى لكل سجين بضرب خاص من القمصان المنقوعة بالزفت والكبريت لاستخدامها في هذه المناسبة ... غير ان الباشا لم يكن بحاجة الى الثأر والانتقام ، اذ ان القادة البحريين الاميركيين لم يظهروا نزعة الى قصف طرابلس او اي شيء آخر .

---

* جمع رهينة : شخص يحتجز كضمان لتنفيذ اتفاق .

وفي الثلاثين من شهر تمـوز (يوليو) ، أرسل الربان « موراي » تقريراً الى وزير البحرية يعبر فيه عن أسفه لاستيلاء الطرابلسيين على السفينة المذكورة آنفاً ، ويشير فيه أيضاً الى عدم جدوى اي نوع من الحصار . والواقع انه ما ان مضى على ارساله تقريره اسبوعان ، حتى بعث بنصيحة جديدة ، ألا وهي ضرورة الخضوع لأوامر الباشا ودفع الجزية ، كأهون سبيل لحـل المشاكل ، « الا اذا تضامنت معنا الدول الاوروبية » — (احتمال غير مرغوب فيه ومرتقب عدم وفائه بالغرض) ... والحقيقة ان الدانمارك كانت قـد ارسلت سفنها الى طرابلس ، لا للاشتراك في حرب ، بل للتوصل الى اتفاقية سلام مع تلك الإيالة (أو الولاية) . وكان من شروط تلك لاتفاقية منع القنصل «نيسان» من الاستمرار في توليه منصب القائم بالاعمال الاميركية . وقد شدد القبطان « موراي » على ان الولايات المتحدة لن تحقق شيئاً من وراء محاصرتها طرابلس ، أكانت وحيدة في ضرب ذاك الحصار أم متحالفة مع دولة اخرى كالسويد مثلاً . ومن ثم أشار الى صعوبة الحصول عـلى المعدات والسلع ، كما أوضح جلياً انه ما عاد يميل الى مهمته او يستسيغها .

ومن الطريف ، انه كتب الى « ايتون » ، في ذلك الحـين ، انه بالرغم من ان ليس لديه الصلاحية للبحث في موضوع كهذا ، فقد غيّر موقفه وعدل عن رأيه فيما يختص بفاعلية خطة استرجـاع عرش أحمد . وقد ذكر له أيضاً ان الاميرال السويدي كان قد كتب الى حكومته طالباً منها السماح له بتأييد قضية أحمد ودعمها .

وفي مالطة ، كان قلق أحمـد يتعاظم سريعاً في ذلك الوقت ... انه سمع وعوداً كبيرة حول المساعدة الاميركية رجاة تنصيبه عـلى عرش طرابلس ، فكان ينتظر ، بفارغ الصبر ، ساعة انتصـاره . والحق ، انه أخذ يفكر ملياً في مشاريع واهداف أخرى — أقل طموحاً من أمنيته باستعادة العرش — ، حين لم تأت اية قوة اميركية كبرى الى طرابلس .

وقد أرسل شقيقه المخادع يوسف يخبره أنه سيكون مسروراً جداً لعودته إلى طرابلس وتوليه منصب والي « درنة » – ذلك المنصب الذي كان من شأنه ان يخضعه لضغط شقيقه يوسف ونفوذه الهائلين .

عندما علم « ايتون » بخطة يوسف قرامانلي الهادفة الى اغراء الرجل المختار لأن يلعب دور الحاكم الطرابلسي الدمية في يد الاميركيين ، لجأ فوراً الى الضرب على وترين حساسين في فؤاد أحمد ، وهما الخوف وحب المال . فحرر خطاباً قصد منه افقاده صوابه من شدة الذعر ، وضمّنه حوالة قدرها ٢,٠٠٠ دولار ، كما وعده بارسال المزيد من المال . واليك بعض المقتطفات من خطابه هذا :

« آمل ، يا سعادة الأمير ، ألا تفقد ما لديك من صبر . تذكّر ان شقيقك يتعطش لسفك دمك ... لقد علمت من احد المصادر ان غايته من قدومك الى « درنة » هي اغتيالك . لقد عقد النية على تحقيق غايته تلك ، اكثر من أي وقت مضى ، وبخاصة بعد ان اطّلع على بعض الخطابات التي كنت ترسلها الى اصدقائك في طرابلس . اذاً ، لن تكون آمناً مطمئناً في أية ناحية من أنحاء دولتك إلا اذا دخلتها بصفتك الحاكم الحقيقي » .

ثم رجاه « ايتون » ان يتذرع بالصبر مزيداً من الوقت . فقد كان القائد الاميركي – « موريس » – منتظَراً وصولهُ الى تونس ، في كل ساعة ، وعندها لن يكون العمل الحاسم بالبعيد .

لقد كتب « ايتون » رسالته تلك في الخامس من آب (اغسطس) . أما القائد « موريس » ، فلم يصل الى « ليغورن » – ولا الى تونس – إلا في الثاني عشر من تشرين الاول (اوكتوبر) . كان قد قام بجولة مريحة من جبل طارق مواكباً فيها عدداً من السفن التجارية باتجاه « مالقة » و « كاغلياري » * ، ولكن متجنباً المرور بساحل افريقيا . ولقد وجد

* مرفأ في جنوبي سردينية . (المعرب)

بانتظاره في « ليغورن » الربان « موراي » في السفينـــة « كونستليشين » .
كان « موراي » يقضي معظم اوقاته في « مالطة » و « نابولي » ، و « ليغورن » ، اذ لم يقم الا برحلة قصيرة على الساحل الافريقي . ولم يبدِ اي قائد رغبةً في نقل أحمد قرامانلي الى طرابلس أو في القيام بتحركات حربية . والحق ان الدليل الوحيد على المشاكسة والقتال والشجار في الاسطول الاميركي انما كان يكمن في المخاصمات الشخصية . يبـــدو ان ضباط السفينة « كونستليشين » كانوا كثيري الخصام ، ويكفي ان تعلم ان الملازم اول « ريتشارد هـ . ل . لوسن » قتل الربّان « جيمس ماكنايت » في معركة شرف ، في « ليغورن » . ومن المشاجرات الدمـــوية الاخرى ، ما جرى في المرافىء الاوروبية فلطّخ سجل الاسطول الاميركي ، ودفع « ايتون » للقول ، بتهكم ، بأنه على الرغم من ان رجـال الاسطول « لم يخسروا قطرةً من دمائهم على سواحل شمالي افريقيا » ، فلعلّ ثمة بعض الاعداء العالمين الذين يستحقون اولئك الأبطال الصناديد الجبابرة .

ولدى وصول « موريس » الى « ليغورن » ، تلقى « كاثكارت » قراراً بتعيينه قنصلاً في الجزائر ، وتفويضاً من نظارة الخارجية الاميركية يلقي على عاتقه مسؤولية التفاوض الكاملة للتوصل الى حالة سلم مع طرابلس.

صدرت تلك التعليمات في ١٨ نيسان (ابريل) ، سنة ١٨٠٢ ، الا انها وصلته بعد ستة أشهر . وذلك ان « ريتشارد اوبراين » لطالما طالب وزير الخارجية بنقله من منصبه في الجزائر ، ولكنه استمر في اشغـــال ذاك المنصب الى حـــين وصول القنصل الجديد . واستثنت التعليمات أية « مبالغ ... كثمن للسلام » ، على أمل ان يتعاون « كاثكارت » والقائد « موريس » ويعملا بانسجام ، بالرغم من انه « لا يعتبر شرطاً اساسياً ملائماً الربط بين جهود السيد « كاثكارت » وجهود قائد الاسطول بغية احلال السلام » ، كما ورد نصه في التعليمات الرسمية . وقد اقتُرح ان تتجمع سائر قطع الاسطول امـــام طرابلس في الوقت الذي تدور فيه

المناقشات مع الباشا ... وقد اشارت نظارة الخارجية الى ان :

« حمل غصن الزيتون * في يــد ، واستعراض الوسائل والعمليات الهجومية في يدٍ اخرى ، قد يولد شعوراً بضرورة مسالمتنا في نفس الباشا مما سيساعد ، بصورة اساسية ، على عقد معاهدة مناسبة معه » .

هذا ، وقــد تلقى القائد « موريس » نفسه تعليمات جديدة ، خلال وجوده في « ليغورن » ، تحثه على ان « يستعمل كل انواع الضغط ، وعلى ان يبذل جهد المستطاع لانهاء القضية الطرابلسية » . وقد أعلم ان الفرغاطة « نيويورك » – بقيــادة الربان « جيمس بارون » – كانت في طريقها اليه ، ومعها ٣٠,٠٠٠ دولار كبديلٍ عن المؤن المتفق عليها مع الجزائر ، بالاضافة الى مبلغ آخر يتراوح بــين ٢٠,٠٠٠ و ٣٠,٠٠٠ دولار يستطيع ان يستخدمه وينفق منه ما يراه مناسباً لتهدئة الجو مع كل من مراكش ، وتونس ، وطرابلس . وقد مُنِــح « موريس » صلاحية ابقاء السفينة « بوسطن » في الخدمة في البحر الابيض المتوسط ، شريطة ان يعين لها قائداً آخر غير قائدها الحالي ، الربان « دانيال ماكنيل » .

ولسوء الحظ ، كان الربان « دانيال ماكنيل » قد أبحر الى الولايات المتحدة ، والحق انه كان قد عُزِل من منصبه حال وصوله اليها ، وذلك عملاً بالقانون البحري الصادر في الثالث من آذار (مارس) سنة ١٨٠١. فتأسف « ايتون » لخسارة مثل ذاك الرجل العسكري . وعلى الرغم من ان أصدقاء « ماكنيل » كانوا يعتبرونه شاذاً غريب الأطــوار ، فكان « ايتون » يؤمن بأنه يتمتع باندفاع قوي ويتميّز بفهم عميق أكثر من معظم القادة الآخرين .

أبحر القائد الاميركي « موريس » ببارجته ، ومعه « كاثكارت » ، الى مالطة . أما « موراي » ، فقد أبحر الى طولون كيما يصلح دفة السفينة

---

* وهو رمز السلام .

« كونستليشين » قبل توجهه الى جبل طارق ليتزود بالبضائع والحاجيات. وكانت السفن الاميركية الاخرى في البحر المتوسط تقوم برحلات مواكبة من حين الى آخر ، أو ترسو في بعض المرافىء الاوروبية الملائمة .

شمخ «كاثكارت» بأنفه للأهمية الجديدة التي أضفتها عليه التعليمات الرسمية الأخيرة الصادرة اليه شخصياً كقنصل في الجزائر ومفاوض له شأنه مع طرابلس ، الى درجة انه لم يعد يتمالك نفسه او يكبح جموحه . وأضاف شرف الابحار مع قائد الاسطول الاميركي الى سروره سروراً جديداً ، كما ضاعف من وهمه بالعظمة . فها هو أخيراً يحتل مركزاً يمكنه من اصدار الأوامر الى عدوه اللدود ، « ريتشارد اوبراين » — هذا ما راوده على الأقل . ان مجرد التفكير بكيفية الاخذ بثأره على ذلك النحو ، جعل الرحلة من « ليغورن » الى مالطة ممتعة جداً بالنسبة له .

والذي كان قد أزعج « كاثكارت » وضايقه اكثر فأكثر – في السابق – نجاح « اوبراين » في اطلاق سراح الربان « اندرو موريس » ، قبطان السفينة « فرانكلين » ، والبحارة الاميركيين الاربعة ، في الثاني والعشرين من شهر ايلول (سبتمبر) ، عن طريق توسُّط داي الجزائر من جهة ، ودفعه مبلغ خمسة آلاف دولار من جهة اخرى . ويبدو ان « اوبراين » لم يعلم باتفاقية « ديل » مع الباشا حول تبادل الأسرى . وبديهي ان يغضب « كاثكارت » لتدخُّل « اوبراين » في تلك المسألة ، وبخاصة بعد ان أعقب الداي توسطه بملاحظة لفت فيها النظر الى ان الجزائر مستعدة ، بكل سرور وعن طيب خاطر ، ان تلعب دور الوسيط بغية احلال السلام بين الولايات المتحدة وطرابلس .

ثار « كاثكارت » ولعن تضامن « اوبراين » مع يهود الجزائر وتسرّعه الاحمق في دفع فدية الأسرى لا سيما وان الباشا كان على وشك اطلاق حريتهم ، عملاً بشروط اتفاقية القائد « ديل » لتبادل الأسرى . بيد انه ، مع ذلك كله ، ليس لدينا اي دليل يثبت ان « اوبراين » كان

يعمل بطريقة معوجّة أو بدافع لا انساني ، اذ لا غبار على تصرفاته البتة .

ولمّا كانت فرصة تأنيب « اوبراين » تأنيباً رسمياً أغلى من ان يدعها تفلت من يديه ، فقد كتب « كاثكارت » بوصفه المفاوض الاوحد مع طرابلس ، إلى رئيسه السابق رسالةً مقتضبة من مالطة ، في الخامس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ، يلومه ويوبخه فيها على التدخل في مسألة الأسرى ، وينذره بأنه هو وحده صاحب الحق في التفاوض مع طرابلس.

أما « اوبراين » وداي الجزائر ، فكان في مقدورهما ان ينصرفا الى اعمال اخرى الى جانب عقد السلم . وعلى الرغم من ان تعيين « كاثكارت» قنصلاً في الجزائر كان لا يعني بالتالي توليه منصب القنصل العام الذي سبق « لأوبراين » ان شغله ، فقد أخبر « اوبراين » بمنصبه الجديد ، بكل دقة ، « كقنصل عام في الجزائر » ، كما أمر « اوبراين » على نحو متعجرف بأن يزوده بتقارير مُسهبة من حين الى آخر ، (كل ذلك في رسالته المؤرخة ١٠ شباط (فبراير) سنة ١٨٠٢) . أما « اوبراين » فقد نظر الى الرسالة نظرة احتقار ، اذ انه كان يعلم مسبَقاً ان الداي ـ الذي كان قد أُخبر بقرار تعيين « كاثكارت » الأخير ـ رفض قبوله كقنصل ، وانه أرسل برفضه هذا الى رئيس الولايات المتحدة في السابع عشر من تشرين الاول (اوكتوبر) ، اي قبـل ان يتلقى « كاثكارت » قرار تفويضه في « ليغورن » .

●

الشيء الاهم من عرض تلك الاوبرا الكوميديـة عن الصراع بين « اوبراين » و « كاثكارت » ، ما كان يجري في افريقيا الشمالية من احداث متتالية خلال خريف عام ١٨٠٢ .

لعبت فرنسا دور الوسيط الشريف في معاهدة السلام التي عقدتهـا

السويد مع طرابلس في الثاني من تشريـن الاول (اوكتوبر) ، والتي كانت تقتضي منها دفع ١٥٠,٠٠٠ دولار نقداً ، وجزية سنوية قدرها ٨,٠٠٠ دولار . ولاضفاء جو من المودة على المعاهدة ، أرسل «نابوليون» الى الباشا هدية كانت عبارة عن طراد ذي أربعة عشر مدفعاً .

ان السويد ، التي كانت تعـارض اصرار الانكليز على حقهم في تفتيش المراكب المحايدة في عرض البحر ، كانت قد انضمت الى الحلف البحري الشمالي ، متحالفة بذلك – بصورة مباشرة وعملية – مع «نابوليون» الذي كان يبذل شتى المساعي للقضاء على تفوق بريطانيا التجـاري . والملاحـظ انه لم يكن من شأن المعاهدة المعقودة مع طرابلس بفضل الفرنسيين ترك الولايات المتحدة وحيدة في ميدان الحرب مع تلك الدولة (او الايالة) فحسب ، بل لقد كانت ايضاً سابقة سيئة بالنسبة لثمن السلم المرتفع .

وعقب توطيـد السلام بين السويد وطرابلس بفترة وجيزة ، وصل الربان « جيمس بارون » في الفرغاطة « نيويورك » الى شمالي افريقيا ... وفي الحادي والعشرين من شهر تشرين الثانـي (نوفمبر) ، سلّم الربان المذكور مواطنه القنصل الاميركي « اوبراين » الثلاثين الف دولار المرسلة الى داي الجزائر كبديل عن المعدات البحرية . ولما كانت النقود رخيصة – اذا جاز لنا التعبير – في الجزائر ، في تلك اللحظة بالذات ، وذلك بسبب توزيـع الاموال الطائلة الذي قامت به فرنسا وغيرها من الدول الاوروبية ، فقد رفض الداي – من غير ابطاء – قبول دفعة نقدية ، وهدد باعلان الحرب على الولايات المتحدة من جديد ، ما لم تصل المعدات خـلال شهور ثلاثة . ليس هذا فقط ، بل انه أضاف الف برميل من البارود على لائحة طلباته الاصلية .

ولم يكن امام « اوبراين » سوى التأكيد على رغبة الولايات المتحدة باحلال السلام مع الجزائر ، من غير ان يضمن أية وعود بخصوص

شحن المعدات .

وفي تونس ، كان « ايتون » يعاني من الباي الذي ما انفكّ يستبد بالولايات المتحـــدة ويتغطرس في معاملته اياها . وها هو الان يطالب الولايات المتحدة بطراد ذي ستة وثلاثين مدفعاً بعد ان عدل عن طلب السفينة الشراعية الاسبق . والحق ان ضعف الاسطول وتساهله في معاملة طرابلس أدى الى تلك النتائج السيئة . فقد قال وزير الباي الاول للقنصل « ايتون » انه لربما كانت الولايات المتحدة دولة قوية ضمن حدودها ، بيد انها قصية جداً الى درجة ان تونس لا تهابها ولا تحسب لها حساباً اكثر مما تحسب « لنابولي » — وهي مضرب المثل في الضعف والازدراء. أما « ايتون » ، فقد قالها اكثر من مرة :

« ان الحرب مع تلك الايالة امر لا مفر منه ، الا اذا امسكـــنا بلحية طرابلس وضربناها ضرباً مبرحاً » .

كان الاسطول الاميركي ، في ذلك الوقت كله ، عقيماً عاجزاً الى درجة كبيرة .. ان وصول السفينة « نيويورك » لدعم الاسطول لم يُجدِ نفعاً ، لان « بارون » كان مضطراً لنقل سفينته فوراً الى « بورت ماهون » لاصلاحها بعـــد ان ابحر الى الجزائر . اما « موراي » ، الذي زوّد السفينة « كونستليشين » بدفّة جديدة في طولون ، كما نعلم ، فقـــد مزّقت صاريه الرئيسي ريح هوجاء هبّت عليه في طريقه الى جبل طارق، فاضطر الى الرسو في مالقه للقيام بتصليحات جديدة استغرقت قرابة شهر.. وبينا هو هناك ، وصلت السفينة « جون ادامس » بقيادة القبطـــان « جون رودجرز » من الولايات المتحـــدة ، تحمل اوامر جديدة الى « موراي » ليعود بالسفينة « كونستليشين » الى بلاده .

وكانت الاوامر الصادرة عن نظارة البحرية ايضـــاً تطلب عودة السفينة « تشيزابيك » الى مرفأ من مرافىء الولايات المتحدة ، ونقل القائد « موريس » الى السفينة « نيويورك » .

وفي الفترة المتراوحة بين اواخر فصل الخريف ومطلع فصل الشتاء ، اقام « موريس » في مالطة باعتبارها مرفأً مناسباً وملاذاً اميناً .

وأخيراً ، انتقل الى مرفأ مريح آخر هو « سيراكوزة » ، بدلاً من ان يبحر الى ساحل طرابلس ، وذلك اعتباراً من اليوم التالي لعيد ميلاد السيد المسيح . ولسنا بحاجة الى القول انه لو طُلب منه مرافقة مجموعة من السائحين في رحلة شتوية الى حوض المتوسط ، لما كان اختار انسب من تلك الامكنة وأروع من ذلك النوع من العيش وتمضية الوقت . وفي اواخر سنة ١٨٠٢ ، كان الاسطول الاميركي مشتتاً مبعثراً ، وكان القائد يقيم في مكان قصيٍّ عن ساحل العدو ، ذلك الساحل الذي لم يراه قائد الاسطول البتة ، حتى من على بعدٍ يسمح له باستعمال المنظار لرؤيته .

وفي اول شهر تشرين الاول (اوكتوبر) ، حرّر « ايتون » رسالة الى « ماديسون » يشجب فيها اعمال « موريس » ويتهمه بعض الاتهامات ، الا انه لم يرسلها الا في نهاية ذاك الشهر . وقد كتب في دفتر ملاحظاته حول تلك الرسالة الخُرافة التالية مرتين :

« الحقيقة لا تقال كل الأوقات »

وصلت الى شمالي افريقيا انباء رحلات المتعة والاستجمام التي كانت تقوم بها السفن الاميركية متنقلة بين افضل مرافىء إسبانيا ، وفرنسا ، وايطاليا . وتناهت الى اسماع « ايتون » انباء من سردينية عن وصول بعض وحدات الاسطول الاميركي الى « كاغلياري » ، وعن الساعات الحلوة التي كان يمضيها القائد « موريس » ، وزوجته ، وضباطه ، فحلّق « بإيتون » الخيال ليقارن بين تلك الانباء وبين مزيج الحرب واللذة الذي عرفه كل من « انطوني » و « كليوباترة » . فنقل شعوره الى حاشية دفتر يومياته ، ودوّن ما يلي :

« انصح حكومة الولايات المتحدة بأن ترسل فرقة من المهرجين

وعدداً من الحريم للوقوف صفاً واحداً في وجه مرافىء العدو .

« فلربما تمكنت دول افريقيا الشمالية عندئذ من ان تلقي نظرة خاطفة على « اسطولنا المنغمس في شهواته » .

ومضى « ايتون » متسائلاً :

« مَنْ – غير ضابط اميركي – يفكر ، مجرد التفكير ، في ان يُبحر مع زوجته ليحارب بلدان افريقيا الشمالية ؟! ان الظروف الراهنة المريبة لتنبىء العدو بأن اسطولنا لم يأتِ ليحارب . ليس هذا كل ما هنالك : بل ان السفن تُمنع من الوصول الى هذا الساحل خوفاً من المحجر الصحي في اوروبا .. لقد توقع الاوروبيون ان يبدي اسطولنا الاميركي نشاطاً ملحوظاً عند اللحظات الاولى من اندلاع هذه الحرب . وقد ذعرت تلك الايالات حال وصول اسطولنا . على ان تحركاتنا لم تأت مطابقة لما كانوا يتوقعونه منا من حزم وعزم ، فأزالت مخاوفهم ونزعت الذعر من قلوبهم . لقد تغيرت الحال الآن عما كانت عليه من سنة في تونس » .

يبدو ان « ايتون » غيّر نظرته الى « موريس » ، ولو الى حين ، بعد ان وصلته معلومات فيها وميض من الامل ضعيف ، اذ انه دوّن في ٣٠ تشرين الاول (اوكتوبر) ما يلي :

« ان الربان « موريس » يؤدي واجبه .. أرجىء ارسال الرسالة مؤقتاً .. » (من يوميات « ايتون ») .

ولكنه عاد ودوّن في كعب الصفحة ذاتها ، وفي اليوم عينه ، ما يتراءى لنا بأنه قراره – او قل رأيه – الأخير :

« سوف أرسل الرسالة بأكملها في الغد . ان المباحثات الجارية مع الجزائر رواية خيالية ومهزلة من المهازل . ان ضباطنا يتمتعون بأوقاتهم ويروّحون عن أنفسهم على نفقة الحكومة. الافضل عندي ان اقضي على مستقبلي السياسي من ان اهديهم وارشدهم » .

بدا ان خطة « ايتون » لتنصيب احمد حاكماً دمية على عرش طرابلس قد حُكم عليها بالاخفاق في نهاية عام ١٨٠٢ . فعلى الرغم من انذاره اياه بأن موته محقق اذا ما وطئت قدماه ارض طرابلس ، فقد حصل أحمد على جواز سفر من الربان « موراي » عندما كان ذلك الربان في مالطة، وابحر الى درنة على سفينة انكليزية . والجدير بالذكر ، ان « موراي » كان يثق بامكانيات أحمد ، ويعتقد انه سوف يشكل زمرة في طرابلس مناوئة لشقيقه الباشا الحاكم . اما « ايتون » ، فكان يعتبر ان النجــاح متوقف على ابقــاء احمد بعيداً عن مناطق الخطر ، الى حين يتمكن الاميركيون من التعاون ، بصورة مجدية ، مع الثوار الوطنيين .

واتفق ان اجتمع « موريس » بأحد اعوان احمد في مالطة — واسمه « سالفاتور بوستيل » ، ووصفه بأنه حداد مالطي — فلم ترُق له العملية بأي شكل من الأشكال . ومع العلم بأن التعليمات الصادرة عن وزير البحرية والموجهــة الى « موريس » كانت تُقر مقترحات « ايتون » و « كاثكارت » ، فان « موريس » لم يفسر تلك التعليمات بأنها تفرض عليه مساعدة احمد للوصول الى عرش طرابلس . كما انه ارسل يقول ان احمد يريد من الولايات المتحدة ان تدفع له مبلغ خمسة آلاف دولار مسبّقاً ، وان تزوده بعشرين الف وحدة من السلاح ، بالاضافة الى كمية معينة من البارود ، هذا عدا السماح له باستعمال جميع قطع الاسطول الاميركي في البحر المتوسط ضد طرابلس . وقد استخلص من جميع تلك الطلبات ان التدخل في الشؤون الداخلية لدولة من الدول انما هو « امر بغيض محرج بالنسبة للمسؤولين في الحكومة الاميركية » .

اما اذ رضي احمد واعوانه بتقديم ضمانات مماثلة ومناسبة وفي صالح الولايات المتحدة ، فان « موريس » سوف يقدم له عشرين برميلاً من البارود، ويعده باحضار الاسطول الاميركي الى طرابلس في شهر حزيران (يونيو) المقبل ، حين يكون الطقس مؤاتياً . اما « ايتون » ، فقــد

اعتبر تلك المساعدة قليلة اكثر مما ينبغي ، ومتأخرة الى ما بعد فوات الاوان حين يكون السيف قد سبق العــذل . وهكذا ، واذ ان السنة اشرفت على نهايتها ، فانه كان يصعب عليه الا يرى اي بصيص من أمل للمصالح الاميركية في افريقيا الشمالية .

وفي العشرين من شهر كانون الاول (ديسمبر) ، دوّن « ايتون » في دفتر ملاحظاتــه اليومية قراراً نهائياً يتعلق بعزمه على مغادرة تونس والابحار الى « واشنطن » ، وتأمل – بتلك الطريقة – ان يحمل أحد المسؤولين الحكوميين على الانصات الى تقريره عن تشوّش الحالة الافريقية ، وعلى اعارته بعض الاهتمام . والذي ساعد « ايتون » على الاسراع في اتخاذ مثل ذلك القرار ، هو الحديث الذي دار بينه وبين مهندس الباي الهولندي ، الربان « جين هامبرت » ، الذي اعلن له ان الدول الافريقية الشمالية جميعاً تهدف الى ان تجعل من الولايات المتحدة دولة تدفع لها الجزية ، لا سيما وانها « تعتمد على بعد دولتكم عنها كعامل مُطَمْئِن ، وعلى اندفاعكم وحماسكم التجاري كضمان لنجاحهم » .

وفي اليوم ذاته ، كتب « ايتون » الى « ماديسون » راجياً منــه اعفاءه من منصبه القنصلي في تونس – ذلك الرجاء الذي طالما تقدم به في مناسبات سابقة . وأضاف انه يفضل العيش في احقر منــاطق العالم وأقذرهــا على البقاء في شمال افريقيا اكثر من ذلك .. اضف الى ما تقدم ، انه شعر بأنه ما عاد في مقدوره اسداء اية خدمة لبلاده في تونس ، لا سيما وان ضعف الاسطول جعل تحدثه عن القوة والمقاومة امراً مستحيلاً ومثيراً للاحتقار والاستخفاف . اما الدول الاوروبية ، فكان من الجلي انها تستعد لتجديد الحرب . فمعاهدة « اميان » كانت مجرد هدنة مريبة سوف تخرقها بريطانيا العظمى حتماً ، وفي اسرع وقت . واذا انطلقت شرارة الحرب الاولى ، فان دول شمالي افريقيا سوف توحد قواها لمجابهة الولايات المتحدة .

ومن هنا ، فقـد حث « ايتون » الوزير « ماديسون » على اعادة النظر في الوظيفة القنصلية في شمالي افريقيا – بصورة عامة – على ضوء ما كان قد اقترحه قبل عامين ، وذلك قبل ان تبدأ الحرب المنتظرة . اما بالنسبة له شخصياً ، فقد عمل ما فيه الكفاية في افريقيـا ، وكله شوقٌ الآن للعودة الى بلاده .

كان « ايتون » محفوفاً بالمشكلات الدبلوماسية من نحو ، وبالضائقة المالية من نحو آخر ، وقد كانت أموره الشخصية والمالية تتعقد وتتشابك الى درجة أنه واجه الافلاس . ومع ان اعماله التجـارية كانت كثيرة وناجحة قبل وقوع الحرب الطرابلسية ، فان موقفه المتطرف ازاء الحصار جعل التجار التونسيين الذين كان يتعامل معهم في السابق ، ينفرون منه وينفضّون من حوله . أضف الى ذلك ، ان سفينتيه الخاصتين «مورنينغ ستار » ، و« غلوريا » ، ما عادتا تحملان شحنات مربحة ، وان الاسعار المتدهورة في « ليغورن » كانت تشكل اعظم خطر على تقديراته التجارية.

والاسوأ من ذلك كله ، انه كان قد اقترض مبالغ طائلة من الاموال بفوائد مرتفعة جـداً في تونس ... كان توظيف السفينة « غلوريا » وارسالها في مهمات حكومية يكلفه غالياً اكثر مما يطيق ؛ لقد دفع من ماله الخاص الكثير لارضاء احمـد ؛ ثم اخذ على عاتقه ان يفتدي فتاة سردينية حسناء ، اسمها الكونتيسة « ماريا آنا بورسيل » ، لتخليصها ، بل وانتشالهـا ، من حريم الوزير الاول التونسي « مصطفى خوجه » – وهو عمل دونكيخوتي ولا ريب .

ان دوافع تلك المغامرة الاخيرة ما زالت غير واضحة لدينا . لسنا نعلم اذا ما كان « ايتون » على علاقة غرامية بالخادمة السردينية المذكورة. فالواقع انه افتداها بمبلغ ١٧,٠٠٠ قرش ، وانها باتت مع والدتها تحت سقف بيته لمدة تسعة اشهر . وقد أرسل الى والدها فاتورة بمبلغ الفدية منتظراً ان يرسل له المبلغ ، ولكن عبثاً . وعندما غـادر « ايتون »

تونس في شهر اذار (مارس) سنة ١٨٠٣ ، أوكل الى خلفه المؤقت — الدكتور «جورج دايفيس» — مهمة تحصيل الدين . لم يكن لدى «دايفيس» من ملازم او صاحب سوى تلك الفتاة ، التي كان يحتجزها عنده الى حين أشار عليه وزير الخارجية بألا «يبقيها في حالة العبودية»... فأطلق سراحها ، واصبح ثمن فديتها جزءاً من التعويضات التي طالب بها «ايتون» حكومته .

بيد اننا لم نعثر على اي دليل يثبت لنا ان مجلس «الكونغرس» قد وافق على تحمل تلك الفدية عند فض يده — بصورة نهائية — من بحث قضية «ايتون» في سنة ١٨٠٧ .

وبعد ان توالت عليه البلايا تترى ، وجد «ايتون» نفسه في شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٠٣ ، مديناً للحاج «يونس بن يونس» ، الوكيل التجاري الاول لدى الحكومة التونسية ، بمبلغ ٣٤,٠٠٠ دولار اسباني . كان «ايتون» قد اقترض منه المال الكافي لاسكات دائنيه الآخرين ، ولكن الحاج «يونس بن يونس» برهن على انه اكبر شايلوك بينهم (شايلوك : مراب لا يرحم) . وفي ٢٢ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٠٣ ، كتب «ايتون» الى صديقه «كاثكارت» ، بعد ان سُدت جميع منافذ الامل في وجهه ، راجياً منه ان يمد له يد المساعدة ، وأعلمه انه سيكون — في مقابل ذلك — على استعداد لأن يشحن على متن سفينته الخاصة «غلوريا» ثلاثمائة كنتال من البن والمؤن الاخرى الى الولايات المتحدة ، اذا ما ضمن بأن دينه سوف يصفّى .

وصرح «ايتون» :

«ان أي تأخير في دفع المبلغ الى الحاج يونس ... اذا ما علم الباي بالامر ، سوف يتخذ ذريعة لمطاردة سفننا التجارية . لعل الدفع الفوري العاجل يجنبنا تلك الورطة» .

والجدير بالذكر ، أنه كان يوم ٨ شباط (فبراير) يوم استحقاق

لدفع ، وابن يونس لا يرضى بتأجيله بتاتاً .

وسرعان ما تضاعفت مشكلات «ايتون» الخاصة والرسمية ... ففي السابع عشر من شهر كانون الثاني (يناير) استولت السكّونة الاميركية المسلحة «انتربرايز» على السفينة «بولينا» المتوجهة الى طرابلس ... ولما كانت الشحنة مرسلة الى تاجر تونسي ، فقد ثار باي تونس على الفور ، وطلب تعويضاً حالياً ، مهدداً ، فوق ذلك ، بالحرب . ثم استدعى «ايتون» موبخاً معنفاً ، ورفض تأويله المسألة بأن طرابلس كانت مطوقة ومحاصرة وان الشحنات المرسلة اليها مهددة بالاستيلاء في كل لحظة عملاً بقوانين الحرب . ثم اعلن الباي ما يلي :

«نحن ، دول شمالي افريقيا ، لا نعترف بقوانين الحرب التي اتفقت الدول المسيحية عليها لتطبقها على حدودنا ...» .

ولما اكد «ايتون» ان اعادة البضائع امر لا يبت فيه انسان سوى الحكومة الاميركية في «واشنطن» ، أجـاب الباي بأنه يعرف كيف يعوّض خسارته :

«بطريقة اجدى واسرع ... انت تعلم أني دخلت حرباً ضد «نابولي» و «جنوى» .. سوف آمر رجالي بالانتقام من مراكبكم التجارية التي تدخل الى هذين الميناءين» .

واضاف الباي ان تجار بلاده سوف يستأنفون عملياتهم التجارية مع طرابلس ، وانه يأمل ان يُحتجز العديد منهم كيما يذكي ذلك نار الانتقام في نفوس رجاله . واخيراً قال :

«اكتب ما قلته الى قائد اسطولكم» .

وهذا ما فعله «ايتون» بالضبط ، مشيراً الى ضرورة مجيء «موريس» الى تونس ومعه «كاثكارت» على جناح السرعة . ثم أنذر بما يلي :

«ان قضايا ومصالح الولايات المتحدة المهمة التي لاتحصى هنا لتتطلب تدخلكم والتشاور معكم ، ولربما تطلبت ايضاً قوتكم !» .

قرأ « موريس » رسالة « ايتون » وهو في مالطة التي كان قد وصلها في الخامس من كانون الثاني (يناير) ، بعد اقامة قصيرة قضاها في « سيراكوزة » . اما الفرغاطتان « نيويورك » و « جون ادامس » فكانتا راسيتين .

وفي الثلاثــين من شهر كان الثاني (يناير) ، أرسل « موريس » السفينة « انتربرايز » الى تونس لتنبىء القنصل الشارد الذهن بأن عليه ان يتوقع زيارة من الاسطول في اسرع وقت ممكن . ومن ثم ، أبحرت الفرغاطات الثلاث الى طرابلس كيما تقوم باستعراض كانت تتوقعه افريقيا الشمالية بأسرها منذ حوالى سنة . بيد ان رياحاً عاتية وعواصف شديدة حالت دون دنوها من ذاك الساحل ، فعادت في ١٠ شباط (فبراير) الى جزيرة مالطة ، من غير ان تدخل في حقل النظر ولا في مجـــال التصويب العائدين للعدو . وبعد الفراغ من تلك المهمة المظفرة ، غادر « موريس » وقادة سفنه مالطة الصديقة ، للرسو في خليج تونس في ٢٢ شباط (فبراير) ... لقد ضحك قلب « ايتون » فرحاً لرؤية الفرغاطات الاميركية الثلاث والسكّونة « انتربرايز » .

وبخدعة موفقة ، تمكن « ايتون » في الاسابيع الماضية من درء خطر المحاربين التونسيين . ففي مطلع شهر شباط (فبراير) ، كان قد اطلق – ببراعة ودهاء – إشاعة مُفادها ان تسع فرغاطات اميركية ، بالاضافة الى اربع فرغاطات اخرى في البحر المتوسط ، هي في طريقها الى ساحل افريقيا ، وان من المتوقع وصولها بين لحظة واخرى . وعندما وصلت تلك الانباء الى الباي ، عدّل موقفه المتعجرف تجاه القنصل على نحو واضح . والواقع ان « ايتون » اكتشف ان الباي قرر ان يُطلق رجاله ليس ضد الاميركيين ، وانما بحثاً عن السويديين .

استقبل الباي القائد « موريس » بحفاوة ، بيد انه لم تَبدُ عليه علائم الروع والرهبة لقدوم الفرغاطات الاميركية . فمن المرجّح انه كـــان يعلم

حينذاك ان القائد البحري الاميركي يفضّل السلم على الحرب ، لا سيما وأن اشاعة الفرغاطات التسع باتت اقرب الى الخيال منها الى الواقع . ثم تناقش « موريس » والباي الى ما لا نهاية في موضوع اعادة البضائع التونسية التي كانت قد سلبتها « انتربرابز » من السفينة « بولينا » التي استولت عليها ؛ وهذا ، مع الاشارة الى ان « كاثكارت » كان يقوم بدور الترجمان بين المتناقشين المذكورين . وأخيراً ، استسلم « موريس » لتهديدات الباي بالحرب ، ووافق على تسوية الخلاف في تونس بدلاً من التورط في محاكمة تتولاها احدى محاكم الغنائم في جبل طارق ... ولقد تم الاتفاق على ان تعاد جميع البضائع التي يثبت انها تخص مواطنين تونسيين الى أصحابها . والجدير بالذكر ، ان الدعوى المتعلقة بقضية « بولينا » استغرقت سنوات عديدة الى درجة ان أحد المدّعين عمد يائساً الى الانتحار .

اذا كان « موريس » يعتقد ان بذلك انتهت مشكلاته المعقدة مع تونس ، فقد ادرك انه كان مخطئاً في اعتقاده عندما طرح كل من الباي والحاج يونس بن يونس موضوع الديون المتوجبة على « ايتون » . فقد ادّعى ابن يونس ان « ايتون » كان قد وعده بأن يدفع قائد الأسطول ديونه حال وصوله . فأنكر « ايتون » ان يكون قد وعد ابن يونس بمثل ذاك الوعد ، ولكنه اعترف بأنه كان قد أعرب عن امله بأن يتمكن من الدفع . واحتدم النقاش أكثر مما احتدم حين طرح موضوع السفينة المسلوبة ... ثم طالب الحاج بن يونس ، يدعمه الباي ، بدفعة قدرها ٣٤,٠٠٠ دولار اسباني . فتنصّل القائد « موريس » من تحمل مسؤولية الدفع ، وعزم على مغادرة تونس في ٤ آذار (مارس) . ولكنه ما إن حاول الاقلاع ، حتى طلب منه بن يونس ، باسم الباي ، ان يعتبر نفسه موقوفاً كضمان لديون « ايتون » .

اذاً ، لقد هبط الاعتبار الاميركي وهوت الهيبة الاميركية في سائر

أنحاء افريقيا الشمالية الى أحط الدّركات . وخضع قائد الاسطول الاميركي، مع فرغاطاتــه الثلاث – الراسية في خليج تونس – للحجز والتوقيف المذلين خضوعاً تاماً ... ثم توجّه « موريس » ، و « كاثكارت » ، والربان « جون رودجرز » قائد السفينة « جون ادامس » ، الى مبنى القنصلية الاميركية في انتظار مقابلة الباي . وفي اليوم التالي ، استُدعوا (كالمتهمين بجريمة) الى القصر . كان الباي غاضباً ثائراً ، يَبرم شاربيه وسبلته* بحنق . لقد انفجر قائلاً بأن « ايتون » مجنون ، لا محالة ، وانه لا يستطيع ان يتحمله اكثر من ذلك في بلاده ... يجب ان يرحل « ايتون » في الحال ؛ ويجب ان يدفع القائد الديون المتوجبة على القنصل اذ انه – اي القنصل – كان قد وعد بذلك فور وصول الاسطول... غِبَّ ذلك ، شعر « كاثكارت » بأنه من المنطقي ان ينكر امام القائد انــه كان على علم سابق بضائقة « ايتون » المالية . ومع ان « ايتون » أبرز نسخة عن الرسالة التي كان قد بعثها الى «كاثكارت» في ذاك الخصوص فقد أكد هذا الأخير انه لم يتسلم تلك الرسالة البتة .

في مساء الخامس من آذار (مارس) ، وبعد ان رهن « ايتون » سفينته « غلوريا » ، جمع مبلغ ١٢,٠٠٠ دولار ... فبقي على القائد ان يدفع مبلغ ٢٢,٠٠٠ دولار قبل ان يحصل على اذن بالرحيل. فحصل على المال المطلوب نقداً من المندوبية العامة لفرنسا ، بعد ان وقّع على كمبيالات مسحوبة على اسم وحساب الولايات المتحدة في « ليغورن ». وهكذا ، تنازل « ايتون » عن جميع ممتلكاته لحكومته كتعويض جزئي عما دفعته عنه من مبالغ . أما « كاثكارت » ، والربان « رودجرز» ، والدكــتور « جـورج دايفيس » – طبيب جراح من اطبــاء السفينة « انتربرايز » كان قد عيّنه « موريس » لتسيير شؤون القنصلية – ،

* ذلك الجزء من اللحية النامي على جانبي الوجه او على الذقن .

فقد اضطروا الى البقاء على اليابسة بينما كانت الأموال تُحصى وبينما كان قد سُمح للقائد « موريس » بالذهاب الى بارجته . وقد حضّر «ايتون» تقريراً عما جرى وأرسله الى « ماديسون » ، وطلب منه مرة اخرى ان يسمح له بالاتصال شخصياً بوزارة الخارجية الاميركية في « واشنطن ». وأضاف في تقريره يقول :

« اني في وسط خضمٍ هائل من الديون والفوائد هنا، ولست ادري من أين آتي بوسائل عيشي اليومي لتأمين لقمة العيش » ...

أما فيما يتعلق بتوقيف القائد « موريس » ، فقال « ايتون » انهـا « حادثة لم يسبق لها مثيل في تاريخ انتهاكات دول شمالي افريقيا للقانون والاحتشام » .

وأخيراً !!.. غادر الاسطول مرفأ تونس في العاشر من شهر آذار (مارس) ... أبحر « كاثكارت » مع القائد في السفينة «تشيزابيك» ، مع الاشارة الى ان « ايتون » لم يُدعَ للابحار على متن تلك البارجة ، وانما سافر بالسكونة « انتربرايز » . وكان يحمل معه من تونس شهادة موقعة من قناصل كل من هولندة ، وفرنسا ، وبريطانيا ، واسبانيا ، والدانمارك ، تثبت اجتهاده واستقامته في اداء واجباته الرسمية .

هكذا انتهت تلك المرحلة غير المشرّفة* من تاريخ علاقات الولايات المتحدة مع الدول المتبربرة ، فكانت معها نهاية مهمة « ايتون » المرهقة كقنصل الولايات المتحدة في تونس .

●

أبحر القائد « موريس » الى جبل طارق بعد ان عرج على الجزائر .

---

* يقصد المؤلفان انها غير مشرفة بالنسبة للولايات المتحدة .

وهناك ، في جبل طارق ، نقل علمه المثلث الشكل العريضهُ الى السفينة « نيويورك » ، تنفيذاً لتعليمات صادرة عن « واشنطن » ... أما السفينة « تشيزابيك » ، فقد رفعت مرساتها استعداداً للابحار الى اميركا .

وقد ترك « ويليام ايتون » الاسطول الاميركي عند جبل طارق ، وأبحر على متن السفينة التجارية « برسيفيرانس » المبُحرة الى «بوسطن». كـــان يعتقد ، في تلك الهنيهة ، انه يغادر افريقيا الى الأبد ومن غير ما رجعة ، ولكنه لم ينس مخططه القاضي بتنصيب سلالة حاكمة موالية للاميركيين في طرابلس . كانت تنتصب أمـــام ناظريه تفاصيل تقرير طويل عن شمالي افريقيا يأمل ان ينير السبيل أمام وزير الخارجية والرئيس « جفرسون » .

وافترق كل من « كاثكارت » والقـــائد « موريس » عن بعضهما الآخر في جبل طارق ... لقد كانا ، بادىء ذي بدء ، من الاصدقاء الخُلَّص (كاللصوص) ، ولكن سرعان ما أخذ « كاثكارت » يحسد القائد الذي تتيح له صلاحياته التفاوض مع اية دولة من دول افريقيـــا الشمالية بغية احراز السلم ، في حين كان يعتقد – اي « كاثكارت » – انه هو وحده المكلف بالتفاوض مع طرابلس . أما « موريس » ، فقد كتب فيما بعد ان « كاثكارت » :

« كان يُرثى لحالته ، لا سيما وأنه لا يبعث على الاحترام ولا يدل على هيبة ... » اضف الى ذلك انه : « كان يعتبر متعجرفاً ، محبـــاً للخصام ، وغير مخلص » .

قفل « كاثكارت » عائداً الى « ليغورن » على السفينة « أدامس » ، وأصدر « موريس » اوامره الى الاسطول ليتحرك باتجـــاه طرابلس في الحادي عشر من نيسان (ابريل) سنة ١٨٠٣ . ان الطريق الى طرابلس أدّى بالأسطول ، كالعادة الى مالطـــة ، حيث رست السفن في أول نوار (مايو) .

هذا ، وقد أصاب العطبُ البارجة « نيويورك » إثر انفجار أودى بحياة العديد من ضباطها ورجالها . وكانت السفينة « انتربرايز » بحاجة الى تصليحات ثانوية . بينما كانت السفينة « ادامس » تقوم بمواكبة بعض السفن ... لم يبق، اذاً ، سوى السفينة « جون ادامس » صالحة لفرض الحصار .

وبينما كانت السفينة « جـون أدامس » تطوّف بمحاذاة طرابلس بحثاً عن سفن الاعداء ، وذلك في ١٣ أيار (مايو) ، اتيحت لهـا فرصة السطو على سفينة امبراطور مراكش،واسمها « المشودة »... ويذكر القارىء قصة تلك السفينة التي كانت في الماضي طراداً طرابلسياً احتجزه الاميركيون لمدة سنتين في جبل طارق . وبيان ذلك ان القنصل الاميركي في طنجة – واسمه « سيمبسون » – كان قد زود السفينة « المشودة » بجواز مرور يخوّلها الدخول الى الموانىء المحايدة ، ولكن حدث فعلاً ما كان يتوقعه العديدون ، وهو انها اتجهت نحو طرابلس محملة بالبنادق ، والاسلحة ، وسواهـا من البضائع المهربة . نقل الربان « رودجرز » ، قائد السفينة « جون ادامس » ، الغنيمة (اعني السفينة « المشودة ») الى مالطة ؛ واعلم القائد « موريس » القنصل « سيمبسون » بالخبر .

والحق ان الاستيلاء على « المشودة » كان أول نصر مظفر للاسطول الاميركي اعتباراً من وصول « موريس » الى المتوسط .

وبعد طول انتظار ، أعدّ « موريس » السفن الثلاث الصالحة من اسطوله للقيام بغزوة جماعية على طرابلس . وصلت السفن الى المرفأ في ٢٢ ايار (مايو) . وسرعان ما تبادلت سفن الولايات المتحدة اطلاق النيران مـع السفن المدفعية (المزودة بالمدافع) ومع مدفعية السواحل ، بينما طاردت السفينة « انتربرايز » مركباً صغيراً وأجبرت الطرابلسيين على السماح لهـا بالدخول الى الشاطىء . وفي ٢٦ ايار (مايو) ، عادت

السفينة « ادامس » ، بعد ان أتمت مهمة المواكبـة ، وانضمت الى الاسطول .

ماذا كانت النتيجة ؟ لقد أظهرت التحركات العامة الأولى ، عنـد غياب شمس اليوم التالي، عدم أهلية «موريس» كما اظهرت عدم جدارته أو كفاءته للمرة الثانية . لقد لمح الاميركيون تسع سفن مدفعية ومركباً صغيراً تتجه جميعها نحو الميناء . فأصدر « موريس » اوامره الى السفينة « جون أدامس » لقيادة الهجوم ، بينما تُبحر الفرغاطتان والسكونة جنباً الى جنب داخل الميناء الخارجي الذي وصل اليه الاعداء.ولكن الاميركيين وجدوا أنفسهم في حيص بيص . كانت السفينة « جون أدامس » في موضع معين بحيث ان السفن والمراكب الاخرى ما كان في مقدورهـا اطلاق النيران من غير تعريض تلك السفينة القيادية الى خطر الاصابة .

وهذا مـا حدث بالفعل . فان وابل الرصاصات الاولى التي اطلقتهـا السفينة « ادامس » اخترقت حبال الاشرعة والصواري العائـدة للسفينة « جون ادامس » (الاميركية ايضاً ، ولكن الخسائر كانت طفيفة لحسن حـظ الاميركيين . كان الطرابلسيون يحتمون بظلال الساحل الآخـذة في الاسوداد ، ومعنى ذلك انه كان من المتعذر تمييزهم اللهم الا من خلال نيران بنادقهم ومدافعهم ، بينما كانت ظلال الاميركيين ظاهرة بوضوح امام الافق الغربي . اضف الى ذلك ، ان القمر المشع من فوق اشرعتهم البيضاء جعل منهم هدفاً ممتازاً ومثالياً . ان عبقرياً في الكوارث كان ليعجز عن تخليص نفسه في لباقة من هذا الموقف المميت الذي كان من العسير عليه ان يزج نفسه في اصعب منه .

ان تردد الطرابلسيين هو وحده الذي خلص الاسطول من التحطيم.. ذلك ان الطرابلسيين سرعان ما كفّوا عن اطلاق النيران ، ممـا اتاح الفرصة للسفن الاميركية ان تهرب من ورطتها وتتخلص من مأزقها .

ماذا نستطيع ان نستنتج من تلك المعركة ، وكيف نستطيع ان نعقّب

عليها ؟ : اذا مـا كان من شأن المعركة ان اظهرت سوء القيادة عند الاميركيين ، فانها قد اظهرت ايضاً دليلاً على تفشي الرعب في نفوس الطرابلسيين الذين قُتل منهم ثلاثة وجرح خمسة ... لقـد فرت جميع المراكب الطرابلسية .

عثر الاسطول الاميركي ، في اول حزيران (يونيو) ، على عشرة مراكب صغيرة تنزل شحنات من الحنطة في خليج يبعـد حوالى خمسة وثلاثين ميلاً شمالي غربي مدينة طرابلس ، فحاول اضرام النار فيها . وبعد محاولتين فاشلتين كان نصيبهما الاخفاق ، سئم رجال الاسطول ، وابحروا من جديد . وممـا يذكر ، ان الملازم اول « دايفيد بورتر » وأربعة من رجاله اصيبوا بجراح اثناء محاولتهم الانقضاض على المراكب المسحوبة الى الشاطىء .

وبصورة عامة ، لم تكن هجمات الاسطول حاسمة على الاطلاق، ولكن هذا لم يحل دون اغضاب الباشا . ففي الرابع من حزيران (يونيو) ، أرسل وزير حربيته ليسأل « موريس » التفاوض معه من جديد . وقد ضمن القنصل الفرنسي سلامـة الاميركيين ، فرُفعت راية بيضاء ، هي راية الهدنة ، في الاعالي ؛ وفي السابع من حزيران (يونيو) ، نزل القائد الى اليابسة ليتباحث مع الباشا . ومن بواعث الدهش، ان الاميركيين كانوا يعرفون ان اظهار قوتهم وعرض عضلاتهم نشرا الرعب في طرابلس، ولكنهم اكتشفوا ان ذلك لم يكن كافياً لمنع الباشا من التقدم بمطاليب فاحشة وخيالية . فلقاء ٢٠٠,٠٠٠ دولار ، ودفع جملة المصاريف والاموال التي انفقت في الحرب ، مع الوعد بدفع ٢٠,٠٠٠ دولار كجزية سنوية، يكون الباشا مستعداً لانهاء الحرب .

ولما رفض « موريس » هذا الابتزاز المقصود ، انزل الطرابلسيون راية الهدنة بغضب مشتعل ، وهددوا بالانتقام والأخـذ بالثأر ، الى ان ذكرهم القنصل الفرنسي بحنق « نابوليون » اذا ما انتهكوا حرمة الهدنة.

وبعد مساومات ومماحكات اضافية ، قطع « موريس » المباحثات من غير التوصل الى معاهدة .

•

كان « موريس » متشوقاً للعودة الى مالطة ، حيث كان قد ترك زوجته التي كانت تنتظر مولوداً بين يوم وآخر . وقد ابحرت البارجة من المياه الطرابلسية في العاشر من حزيران (يونيو) ، بينما تلقت سائر قطع الاسطول أوامر للحاق بالبارجة بعد حين . وعندما وصل « موريس » الى مالطة ، في ١٤ حزيران (يونيو) ، وجد بانتظاره ابناً جديداً عمره خمسة ايام .

ومع ان الحملة الاميركية على طرابلس مُنيت بالفشل، فقد كان هناك شيئاً يستطيع ضباط الاسطول الاحتفال به . ولسنا بحاجة الى القول انه سبق لهم ان اختبروا امثال تلك المناسبات والاحتفالات على ظهر بارجة القائد نفسها . وفي ٢٢ شباط (فبراير) ، أنجبت زوجة قبطان السلوقية• (في السفينة « تشيزابيك »)، طفلاً كانت تسميتُه باسم « ميلانكثون ولسي لو »، عند تعميده ، احتفالاً بل ومهرجاناً طريفاً . كانت إلهَة الاخصاب والانجاب بدلاً من الإله مارس•• هي الإلهة المسيطرة في اسطول « موريس » الاميركي .

رُفع الحصار عن طرابلس تنفيذاً لأوامر القائد في السادس والعشرين من حزيران (يونيو) . وفي الليلة الاخيرة لرحيل السفن الاميركية ، نجحت السفينة « جون ادامس » في قصف مركب طرابلسي ذي اثنين وعشرين مدفعاً ، وتفجيره ، واحداث خسائر كبيرة في ارواح من

• السلوقية : أعلى مقدم المركب ، او جزء من السفينة التجارية يبيت فيه النوتية .
•• إله الحرب .

كان فيه . ومهما يكن من أمر ، فقـد وصل الاسطول الى مالطة في ٣٠ حزيران (يونيو) ، فهنأ رجاله القائد « موريس » بمناسبة ولادة طفله الثاني .

وهكذا ، واثر قرار « موريس » بأن حصار طرابلس بـات أمراً عقيماً لا خير يُرتجى من مواصلته ، فقـد أمضى ما تبقّى من فصل الصيف مرتاحاً ، وعلى مهل ، بالرغم من ان الرحلات بين مالطة وجبل طارق ما كانت لتبعث على كثير من السرور . ان الدليل الحسي القاطع على جهود الاسطول الجبارة يكمن في استيلائه على الغنيمة الهامة، السفينة « المشودة » ، العائدة لمراكش أصلاً .. ومن نافلة القول، ان مراكش قد احتجت على هذا العمل . والحق ان « موريس » اراد ان يتحرى صحة ، بل وقانونية ، مثل ذاك الاحتجاج أمام محكمة الغنائم في جبل طارق . وعلى كل حال ، فقد عبر الاسطول مضيق « مسينا » ،وواجه صعوبات التيارات . وفي «نابولي» ، فقد حاول القائد شراء بعض السفن المدفعية ، ولكن عبثاً . وقد مرت السفن في طريقها الى « ليغورن » ، في اواسط آب (اغسطس) ، بمحاذاة جزيرة « إلبـا » ، وهناك اطلقت المدفعية الفرنسية نيرانها على السفينة « ادامس » .

وعندمـا أوفد الربان « هاغ ج. كامبل » ملازماً اول الى اليابسة ليقدم احتجاجاً على تحرش المدفعية الفرنسية، اعتقل الفرنسيون ذاك الضابط الى ان دفـع « كامبل » ثمـن البارود التي استهلكته المدفعية الفرنسية ، وذلك بمعدل جنيه (انكليزي) لكل طلقة – وهـو طلب يتناسب وطلبات قراصنة شمـالي افريقيا انفسهم . فثارت حميّة « موريس » أخيراً لتلك الاهانة ، وانفجر قائلاً ، إنه بسبب « حماقة الربان« كامبل» أهينت بلادنا ودفعنا الثمن » .

وفي « مالقة » ، وفي اليوم الاخير من شهر آب (اغسطس) ، تلقى « موريس » رسالة من وزير البحريـة تُقيله من مركز القيـادة ،

وتأمره بالعودة فوراً الى بلاده على متن السفينة « ادامس » . فانتقل مركز قيادة الاسطول الى الربـــان « رودجرز » . كانت « واشنطن » قد قررت في خطتها الجديدة ارسال اسطول ثالث بقيادة ضابط اقـــدر وأشد كفاءة .

ان حملة «موريس» في البحر الابيض المتوسط ــ اذا ما جاز لنا تسمية تطوافه المفكك الخالي من اي منهـــج او هدف بذاك الاسم ــ هبطت بالمنزلة الاميركية الى هوة سحيقة في تلك المنطقة بأسرها . فعلى الرغم من ان قصفه للسفن الطرابلسية الذي لم يكن حاسماً على الاطلاق قـــد اثبت ان استعمال القوة قد يردع اهالي افريقيا الشمالية ويروعهم ، فان « موريس » لم يبذل مساع حميدة او ثابتة للاستفادة من وضعه واغتنام الفرصة التي أتيحت له .

ابحر « موريس » من البحر المتوسط الى الولايات المتحدة ، وهناك عُيّنت محكمة للتحقيق في قيادته الحملة على طرابلس . التأمت المحكمة يوم اول نيسان (ابريل) سنة ١٨٠٤ ، في « واشنطن » ، وأصدرت قرارها التالي نصه بعد ثلاثة عشر يوماً :

« ان الربان « موريس » لم يقُد اسطوله في البحر الابيض المتوسط بوعي واجتهاد ونشاط كما كان يجب ان يفعـــل للقيام بالواجب الذي تمليه عليه مهمته على اكمل وجه » .

وقد ذكر قرار المحكمة سبع حوادث اعتبرت كل واحدة منها دليلاً على « تصرفه الخامل والمعوِّق » اعتباراً من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٠٣ ، حين كان يبدد وقته في مالطة ، وحتّى فك الحصار عن طرابلس في شهر حزيران (يونيو) اللاحق . وعند اطّـــلاع الرئيس « جفرسون » على رأي المحكمة ، أقال « موريس » من منصبه .

وفي ذلك العام ، عام اقالته ، اتّهم « موريس » الادارة الاميركية بالتحيّز السياسي ، وعزى فشله الى اسباب ثلاثة هي : بطء الادارة

وتأخر وصول التعليمات من « واشنطن » ، وصعوبة الحصول على مؤن وذخيرة للسفن ، والعواصف التي لا ترحم في طرابلس . ولكن احداً من هذه الاسباب لمّا يعتبر كافياً لتعليل الفوضى واللانظامية والقيادة الحمقاء غير البارعة . وغني عن البيان ، ان المؤرخين البحريين اظهروا نزعة نحو اعتبار تنحية « موريس » عن منصبه العسكري من غير محاكمة عسكرية رسمية تقليدية حكماً على نحو كبير من القساوة ، ولكن احد المعاصرين له ، واسمه « تشارلز غولدسبوروغ » ، اعترف في كتابه « تاريخ الاحداث البحرية » ، انه بالرغم من ان « موريس » ربما استطاع قيادة سفينة واحدة قيادة حسنة ، الا ان « كسله وعدم قدرته » اثبتا جلياً انه « ما كان اهلاً لقيادة اسطول » .

لم يلقَ « الكسندر موراي » ، الربان العنيد للسفينة « كونستليشين » تقريعاً رسمياً في بلاده ، بيد انه احيل ، بعض حين ، الى الراحة وعدم المسؤولية . فشغل نفسه بالكتابة الى اعضاء مجلس « الكونغرس » بغية رفع الرواتب النصفية للضباط المحالين الى الراحة ، كما حاول ، عن طريق استعمال الضغط السياسي ، ان يضمن لنفسه منصب قيادة اسطول ، ولكن عبثاً .

لعل التطرف الحزبي الذي تميز به ضباط الاسطول الاميركي الثاني المرسل الى البحر الابيض المتوسط كان احد اسباب فشل ذاك الاسطول وعدم اتباعه التعليمات . ففي ٨ تشرين الاول (اوكتوبر) سنة ١٨٠٢ ، بعث « كاثكارت » الى وزير البحرية يقول :

« ان الربان « موراي » يختلف عني في شعوره مثلما تختلف عملياتنا وعلاقاتنا مع دول شمالي افريقيا . فهو يقول انه من صالحنا في الوقت الحاضر ان نشتري السلم بالسعر الذي يفرضون ، ويصرّح بأن حكومتنا سوف تبدي نشاطاً اعظم بعد سنتين من الآن يفوق نشاطهم وقوتهم واندفاعهم في الوقت الحاضر ، الأمر الذي يفند له بعض الاسباب السياسية

التي لا مجال لتكرارها هنا » .

ومما لا شك فيه ، ان المعركة السياسية العنيفة التي شنّها « الفيدراليون » * على « جفرسون » وحزبه اثرت على تفكير بعض الضباط البحريين ، الذين اخذوا ينتظرون ، بل ويتمنون ، هزيمته في سنة ١٨٠٤ . والحق ان عدوى التحيز انتقلت الى المؤرخين البحريين ، فكانت السبب ، الى حد كبير ، في ما كُتب عن تصرف « جفرسون » ازاء الاسطول وهي آراءٌ خاطئة وتعوزها الدقة ، كتبها اولئك المؤرخون .

عندما عُزل « موريس » من قيادة اسطول الولايات المتحدة في البحر الابيض المتوسط ، وذلك في شهر آب (اغسطس) عام ١٨٠٣ ، كانت علاقات الولايات المتحدة مع دول افريقيا الشمالية سيئة بل اسوأ من ذي قبل ، ولعلها ما كانت وصلت الى تلك الدرجة من السوء لو بقي الاسطول الاميركي في بلاده .. لذلك ، فانه لن يُعيد للولايات المتحدة احترامها السابق وهيبتها السابقة الا قائد قوي وذكي . واذا ما عجزت « واشنطن » عن فهم الوضع على حقيقته ، فلا نستطيع ان ننحي باللائمة على « ويليام ايتون » الذي كان يعمل على تحضير تقرير عنيف .

---

* مفردها « فيدرالي » : وهو عضو في الحزب ، الذي دعا في السنوات الاولى من تاريخ الولايات المتحدة الاميركية ، الى انشاء حكومة مركزية قوية . (المعرب)

٧

المعارك البحرية

١٨٠٣ - ١٨٠٤

كان « الكونغرس » والرئيس « جون ادامس » مسؤولين مباشرة عن حالة الاسطول الاميركي اليائسة فيما يتعلق بالمعـدات من جهة ، وبالمعنويات من جهة ثانية . فبعد ان اقدم « جون ادامس » على تحطيم الاسطول عملياً بتوقيعه على قانون « احراز السلم » في الثالث من شهر آذار (مارس) سنة ١٨٠١ ، انزوى في « بوسطن » ، ووجد هو وبعض الفيدراليين لذة عظيمة في تسقّط اخبـار الصعوبات الجمة التي كانت تواجـه الرئيس « جفرسون » على الصعيد السياسي . وكانت احدى اعقد المشكلات التي اعترضت سبيل رئيس السلطة الاجرائيـة الجديد في الولايات المتحدة الاميركية ضرورة محاربة الطرابلسيين بأسطول لا يفي بالمهمة ، ولا يتمتع ضباطه الكبار بالخبرة الكافيـة اللازمة حتى لقيادة تلك المراكب والسفن التي تركها « الكونغرس » عائمة على سطح المياه .

لم يتحرك « الكونغرس » لانتشال الاسطول من وضعه السيء الذي لا يُحتمل الا في عام ١٨٠٣ . ففي اليوم الأخير من شهر شباط (فبراير) ، اصدر مجلس «الكونغرس» قانوناً يحق للرئيس بمقتضاه ان يبني ، او يشتري، اربع سفن حربية صغيرة لا يزيد عدد مدافع كل منها عن ستة عشر مدفعاً ، ولا يزيد ثمنها الكلي عن ٩٦,٠٠٠ دولار . وخوّل القانون الجديد رئيس الولايات المتحـــدة حق التصرف بمبلغ ٥٠,٠٠٠ دولار اضافي لبناء وتجهيز السفن المدفعية الصغيرة ، شريطة الا يربو عددها عن الخمس عشرة سفينة مدفعية ، بحيث تلائم مياه الشواطىء الافريقيـــة الشمالية بصورة خاصة . وهكذا فان النصيحة التي طالما كررها القناصل والمراقبون البحريون في البحر الابيض المتوسط – الا وهي ان السفن الصغيرة السريعة اشد فعالية وأمضى سلاحاً ضد دول شمالي افريقيا من الفرغاطات وحدها – اقول ان تلك النصيحة لاقت اخيراً صدى واستجابة لدى وزارة البحرية الاميركية والمشرّع الاميركي .

وقد اتخـذت السكّونة المسلحة « انتربرايز » ، التي قادها الملازم اول « ستيريت » ببراعة فائقة، أنموذجاً بُنيت على اساسه السكّونة «فيكسن» ذات الاربعة عشر مدفعاً ، في حوض « بالتيمور » لبناء السفن باشراف الربان « ويليام باينبريدج » الذي اشرف بنفســـه ايضاً على بناء السفينة الشراعية (بصاريين) ذات الستة عشر مدفعاً « سيرين » ، وذلك في مدينة « فيلادلفيا » . ولقد برهنت السفينة الشراعية الثانية ذات الصاريين – « ارغوس » – التي تم بناؤها في « بوسطن » باشراف الربان «ادوارد بريبل » انها اعظم سفن الاسطول فائدة واكثرها سرعة . واذ ان بناء سفينة شراعية اخرى في الحال كان متعذراً بسبب من ندرة المواد اللازمة، فقد اشترى الاسطول السكّونـــة « نوتيلوس » وزوّدها بالاسلحة في « بالتيمور » . هذا ، وقد أُرجىء بناء السفن المدفعية ، على ان الحكومة الاميركية اعربت عن املها بشراء بعض تلك السفن فيما وراء البحار .

وجدير بالذكر ، ان الربان « بريبل » كان قد عُين قائداً للاسطول الثالث المتوجه الى طرابلس قبل ان يُستدعى « موريس » للعودة الى بلاده من البحر المتوسط . وكان تاريخ التعيين ٢٣ ايار (مايو) سنة ١٨٠٣ .

كان ذلك الاسطول سيتألف من البـارجة « كونستيتيوشين » ، والفرغاطة « فيلادلفيا » التي كانت بقيادة الربان « باينبريدج » ، والمراكب الاربعة التي كـان من المتوقع اعدادها في وقت لاحق ، والسكّونة « انتربرايز » التي كانت لما تزل في المتوسط .

ولشد ما كان الاختلاف شاسعاً بين « بريبل » و « موريس » . كان « ادوارد بريبل » رجلاً من « نيو انغلند » صارماً ، كالح الوجه ، طويله ، اشتهر بانضباطيته النظامية وحسه للعدل ... والحق انه لم يتلطخ سجل ضباط « بريبل » بأية حادثة من حوادث الشجار والنزاع والاختصام بين بعضهم البعض . فاذا كانت تسري في عروقهم احاسيس الانتقام ، فانها كانت موجهة ضد العدو الخارجي لا ضد بعضهم الاخر .

لقد عين الرئيس « جفرسون » ضابطاً مدنياً ليرافق « بريبل » ، هو الكولونيل (او الزعيم) « توبيـاس لير » ، كقنصل عام جديد في الجزائر ليحل محل « ريتشارد اوبراين » . وكان قد سبق للكولونيـل « لير » ان عمل سنوات طويلة كسكرتير الجنرال « واشنطن » الخاص ، كما شغل منصب القنصـل الاميركي في « سانتو دومينغو » منذ فترة وجيزة . وقد أعطيت له صلاحيات المفاوضة مع دول شمالي افريقيا المختلفة بصورة عامة ، وكان يتعين عليه ان يحاول التوصل الى عقد للسلم مع طرابلس في الوقت المناسب بصورة خاصة . اما مهمة « كاثكارت » كمفاوض ، فلم يبق منها الا بضعة ايام ، ان لم تكن قد انتهت .

ومما اعاق سفر الاسطول الثالث بطء بناء السفن ، وصعوبة اختيار البحارة ، والطقس الرديء الذي رافق تجهيز السفينة « كونستيتيوشين » . فبينما كانت تلك السفينة متوقفة عن العمل ، عملاً بنصوص قانون عام

١٨٠١ ، تهرأت ألواحها الخشبية وتنخرت فأصبحت راشحة سربة (تنفذ المياه منها وإليها) ، الى درجة انه بات من الضروري تنحيسها (طليهـا بالنحاس) من جديد . وعلى الرغم من ان الرئيس « جفرسون » نفسه كان قد صمم احواض سفن جافة لحفظ السفن المنقطعة عن الخدمة حسب القانون المذكور ، فقد استهجن اعداؤه الفكرة واستخفوا بها ، كما شرع رسامو الكاريكاتور يسخرون من « اسطول الرئيس البري ». وفي غضون ذلك ، كانت « كونستيتيوشين » وسواها آخذة في التلف والفساد .

عندما وصل قائد الاسطول الاميركي « ادوارد بريبل » بسفينتـه « كونستيتيوشين » الى جبل طارق ، اخيراً ، في ١٢ ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٠٣ ، لم يكن هناك الا قسم ضئيل من الاسطول. كانت احدى السفن قابعة في مينائها بالولايات المتحدة – لا تزال – في حين كانت السفن الاخرى تشق عباب اليم في طريقها الى وجهتهـا . اما الربان « باينبريدج » فكان قد وصل بسفينته « فيلادلفيا » الى البحر المتوسط منذ فترة طويلة استطاع خلالهـا ان يستولي على طراد مراكشي ، « الميربوكة » * ، كان يشن هجمات مختلفة على السفن الاميركية .

وعندما طارد « باينبريدج » الطراد « الميربوكة » وجده يجر وراءه سفينة شراعية اميركية كان قد استولى عليها .. كان امبراطور مراكش يقوم ببعض التنقلات والزيارات الداخلية في بلاده حين وقع ذاك الحادث ، مع العلم بأن بلاده كانت في حالة من السلم مع الولايات المتحدة الاميركية؛ بيد ان حكومة طنجه استغلت الموقف ، فأمرت الطرادات بأن تأسر كل مركب اميركي تجده ، واعتقلت القنصل الاميركي « سيمبسون » .

مهما يكن ، فقد غيرت المشكلات التي نشأت مؤخراً بين الولايات المتحدة ومراكش خطط « بريبل » ، ولكنه بذل مساعيه القوية للتخلص من الخطر الذي كان يهدد التجارة الاميركية . وعند نهاية شهر ايلول

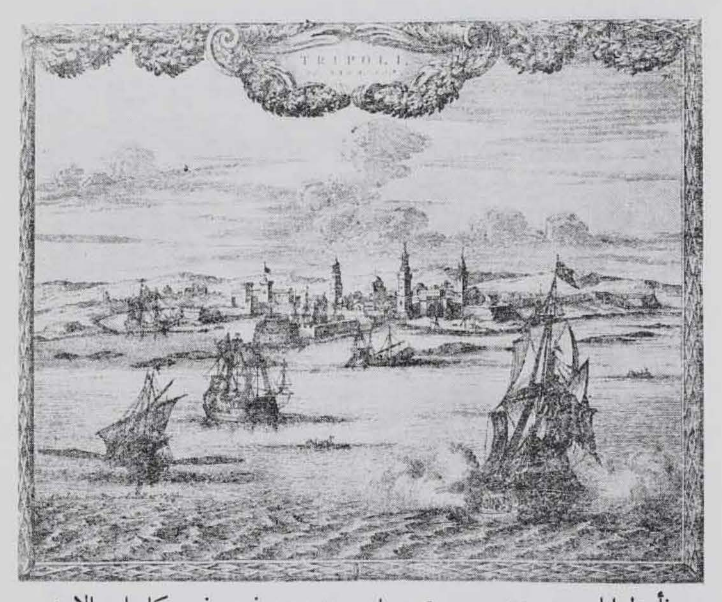
* هكذا ورد الاسم في الاصل ، ونعتقد ان الاسم الصحيح هو « المبروكة » .

(سبتمبر) ، التأم شمل اسطول اميركي ضخم في جبل طارق . والطريف انه في احدى اللحظات الخاطفة ، رست ثلاث سفن تحمل كل منها علم القائد المثلث في المرفأ .. فالقائد « موريس » كان في طريقه الى بلاده، والربان « جون رودجرز » الذي خلفه في قيـادة الاسطول الاميركي الثاني رَسا هناك بعد يومين من وصول « بريبل » .

ومع انه كان يتعين على « رودجرز » ان يعود الى الولايات المتحدة، فقد قرر ان يبقى في البحر المتوسط مع السفينتين « جون ادامس » و « نيويورك » الى ان تنتهي الأزمة المراكشية .

عندما عاد امبراطور مراكش الى طنجه في ٦ تشرين الأول (اوكتوبر) ، ادت له هاتان الفرغاطتان التحية ، واشتركت معهما باداء التحية ايضاً السفينة « كونستيتيوشين » التي كانت قـد استقرت ، برفق وهدوء ، داخل الميناء . وكانت السفينة الصغيرة « نوتيلوس » قد انضمت الى الفرغاطتين .. لقد فرح الامبراطور لسماع طلقات التحية ، ولكنه ذُعر في الوقت عينه لقوة الاسطول .. ثم انه انكر ان يكون يضمر اية نية لاعلان الحرب ، ووعد بمعاقبة المسؤولين عن العمليات المعادية للسفن الاميركية ، كما ارسل هدية الى ربابنة السفن الاميركية تتألف من عشرة عجول ، وعشرين خروفاً ، وأربع دزينات من الطيور والدجاج . ليس هذا فحسب ، بل لقد اعرب عن عزمه على ان يُقر الاتفاقية التي كان قد عقدها والده سنة ١٧٨٦ ، واقسم ان يحافظ على السلام الى الابد .

وتبادل القائد « بريبل » والامبراطور المراكشي عبارات المجاملة خلال الاسبوع التالي . وتبودلت ايضاً المراكب التي كان قد استولى عليها كل من الفريقين ، كما ضاعف الامبراطور هديته السابقة المؤلفة من العجول ، والخراف ، والطيور .. ولما شدد « بريبل » على فضائل التجارة السلمية ، اومأ امبراطور مراكش « مولاي سليمان » ، برأسه



مرفأ طرابلس : من رسم تومــاس دوسبروغ وحفر كاريل الارد . وقد نقلناها عن كتاب تاريـخ اسطول الولايات المتحدة ، كما عثرنا عليها ايضاً في مكتبة هانتنغتون .

علامة على موافقته الكلية . فغني عن البيان انه كان يفضل اي شيء على ان يرى مدافع اربع سفن حربيـــة مصوبة الى صدر بلاده . ولم يمض كثير من وقت ، حتى ارسل الكولونيل « لير » تقريراً الى وزير الخارجية يمدح فيه شجاعة « بريبل » وثباته واندفاعه .

وهذا دليل دامغ يعزز صحة تصريحات « ايتون » ، و« اوبراين » ، و« كاثكارت » ، بأن القوة اذا ما أحسن استعمالها أنجع وابعد تأثيراً على افريقيا الشمالية من الهدايا والمؤن .

وبديهي ان يطالب كل من « لير » و« بريبل » بالمزيد من القوى والتعزيزات ، لا سيما وأن القائد كان قـــد أعرب عن رغبته في ابقاء سفينة حربية واحدة عند جبل طارق كيما تكون بمثابة قوة دائمة تذكر مولاي سليمان بأهمية تنفيذ الوعود .

وبالرغم من ان « بريبل » حال دون اندلاع الحرب المراكشية التي كانت على وشك الاشتعـــال ، الامر الذي يعتبر خدمة هامة بالنسبة للولايات المتحدة ، فانه كان يتعين عليه ، اكثر من ذلك ، ان يصل الى مرماه الحقيقي ، أعني اكراه طرابلس على عقد السلم بطريقة تلائم المصالح الاميركية . كانت التعليمات التي يحملهـــا « بريبل » تشدد على ضرورة اعادة احترام الراية الاميركية في البحر المتوسط من جهة ، وعلى ضرب حصـــار شديد حول طرابلس دون التعرض لحقوق المحايدين من جهة اخرى .

واذا علمنا ان فرنسا وبريطانيا لا تزالان في خضم الحرب ، ادركنا الصعوبة التي واجهتها السفن الاميركية من ناحية تأمين المؤن والذخائر ، اكثر من أي وقت مضى .

ومن هنا ، حثّ وزير البحرية القائد « بريبل » على بذل جهوده بغية تأسيس قاعدة في شرقي البحر الابيض المتوسط ، بحيث تكون انسب من تلك الكائنة في جبل طارق ، وسمح الوزير ايضـــاً باستئجار السفن

المدفعية من أي مصدر يبدي استعداداً لذلك ، شرط ان تستخدم تلك السفن من غير ان تحمّل الولايات المتحدة مصاريف اضافية .

واخيراً ، قرر « بريبل » ان يجعل من « سيراكوزة » قاعدة عملياته ، وفي منتصف شهر تشرين الاول (اوكتوبر) ، أمر بعض مراكب وسفن الاسطول بالتوجه الى هنالك .

*

وبينما كان القائد الاميركي « بريبل » منهمكاً في غربي البحر المتوسط ، أبحر الربان « باينبريدج » على الفرغاطة « فيلادلفيا » ترافقه السفينة الشراعية بصاريين « فيكسن » لفرض الحصار على طرابلس . ولكن الفرغاطة ارتطمت بحَيْد بحري * مجهول ، وغير مدوّن على الخريطة ، على بعد يتراوح بين اثني عشر وخمسة عشر ميلاً شرقي المدينة ، وذلك في ٣١ تشرين الاول (اوكتوبر) ،عندما كانت تطارد مركباً طرابلسياً... وبالرغم من كل مجهود وطريقة لتخليص الفرغاطة ، فانها قد بقيت مسمّرة في الارض ، وهي مائلة الى جانبيها على زاوية معينة بحيث باتت مدافعها عديمة الفائدة وغير صالحة للاطلاق على السفن المدفعية الطرابلسية التي احتشدت استعداداً للانقضاض .

كانت السفينة « فيكسن » تقوم بدورية على مبعدة من رأس بون ، والسفينة المرتطمة « فيلادلفيا » واقعة تحت رحمة اعدائها . فدعا الربان « باينبريدج » ضباطه الى اجتماع للنظر في امر الورطة . بدا ان لا فائدة من المقاومة . كان امامهم احد امرين : إما الاستسلام ، او تفجير السفينة بأنفسهم . وبنتيجة المشاورة ، أجمع « باينبريدج » وضباطه على ان الاستسلام هو الاختيار المناسب .

---

* سلسلة صخور قرب سطح الماء .

وعند غروب الشمس ، ألقى الطرابلسيون القبض على السفينة وعلى ٣٠٨ من الاميركيين ... ولم يُصب أي فرد من البحارة بجروح .

وعلى الرغم من ان الاوامر صدرت للنجّار كي ينشر الثقوب على بدن السفينة، فان السفينة كانت لا تزال صالحة للابحار ، وما الدليل على ذلك الا ان غانميها الطرابلسيين ابحروا بها بعيداً عن الصخور في أقل من يومين . وبذلك ، تلقت الولايات المتحدة اكبر اهانة واعظم خسارة معاً اعتباراً من بداية الحرب مع طرابلس .

كان الاستيلاء على « فيلادلفيا » وبحّارتها كارثة مفجعة (بالنسبة للولايات المتحدة) ، اذ ان الطرابلسيين حصلوا على مركب بحري من الصنف الاول وأسروا اكثر من ثلاثمائة معتقل يستطيعون المطالبة بفدية معينة لكل منهم والمساومة على اسعارهم . وهكذا مُني « بريبل » بهزيمة منكرة لم يكن هو سببها ، اذ لم يرتكب ايما اخطاء ، بل ولم يكن قد شاهد سواحل طرابلس حتى ذلك الوقت .

والجدير بالذكر ، انه في الوقت الذي تم الاستيلاء فيه على السفينة « فيلادلفيا » ، كان « بريبل » نفسه على الساحل الاسباني ، اذ كان عليه قبل ان يغـادره مبحراً الى طرابلس ، ان يعود الى جبل طارق ليحمل معه القنصل العام « لير » .

وفي ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ، ألقى « بريبل » — الذي كان لم يعرف بالنبأ الخطير بعد — مرساة سفينته « كونستيتيوشين » في الجزائر ، وترجّـل « لير » الى اليابسة ليشغل المنصب الذي تخلى عنه « ريتشارد اوبراين » بكل طيبة خاطر . على ان القنصل العام السابق قرر تمديد بقائه في الجزائر ، لبعض حين ، بسبب صحة السيدة « اوبراين » المرهقة والمتدهورة ، ورحّب ، بكل سرور ، بمساعدة « لير » وباسداء النصائح اليه وتوجيهه .

كان الداي ينال قسطاً من الراحة، فاستقبل وزيره الاول الاميركيين

استقبالاً حافلاً ، وأرسل لهم هدايا ثمينة من العجول ، والخراف ، والطيور ، والخضروات .

ومن البديهي ، ان يكتب « اوبراين » في تقريره ان الامور تسري كلها على ما يرام ، ولكنه انذر « بريبل » بضرورة ابقاء فرغاطة قوية ، ولربما بالاضافة الى سفينة شراعية سريعة أو سكونة ، على اهبة الاستعداد ، بصورة مستمرة ، في محطة جبل طارق .

في ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) . التقى « بريبل » بسفينة بريطانية قرب مالطة ، وسمع الانباء المفجعة (بالنسبة له) عن الاستيلاء على « فيلادلفيا » فأبحر مسرعاً الى قاعدة « سيراكوزة » ، وأعد أفضل ما استطاع اعداده لينتقم للشرف الاميركي وللاهمية الاميركية ... لم يوبّخ القائد « بريبل » الربان « باينبريدج » مباشرة ، ولكنه كتب الى وزير البحرية ان الحالة المؤلمة :

« أدخلت اليأس الى قلبي ، وغيّرت الى درجة كبيرة خططي وعملياتي في الوقت الحاضر ... اخشى ان تتلوث سمعتنا العالمية بدماء الجروح التي يصيبنا بها الافريقيون الشماليون . لنكن ، يا الهي ، جميعاً من ضباط وملاحين ، مصممين على تفضيل الموت على العبودية .... »

واراني به يعتقد ان مثل هذا التصميم قد يُنقذ الاميركيين من كلتا المصيبتين : الموت ، والعبودية ...

لقد حطمت حادثة خسارة « فيلادلفيا » آمال « بريبل » المعقودة على إحلال السلام مع طرابلس عند الربيع . ولم يجرؤ على المخاطرة بفقدان سفينته الحربية الثقيلة الوحيدة والاخيرة - الفرغاطة « كونستيتيوشين » — فنعها من التطواف حول طرابلس في الشهور العاصفة ، كما كان ينوي ان يفعل من قبل ... على انه أخذ يلح على وزير البحرية لتزويده بفرغاطتين او ثلاث . وبينما كان ينتظر وصول التعزيزات الحربية من الولايات المتحدة ، جدّد القائد مراكبه وسفنه في « سيراكوزة » وتزود

بما سمحت له الظروف بالتزود به من مؤن . الطعام والماء كانا متوفرين بكثرة ، ولكن الذخائر والاعتدة الحربية كان من الصعب الحصول عليها بسبب المنافسة بين بريطانيا العظمى وفرنسا ، وتكالبها على جمع الذخائر والاعتدة الحربية المتوفرة .

ومهما يكن من امر ، فقد عزم « بريبل » على استئجار بعض السفن المدفعية من حكومة « نابولي » لاستخدامها في العمليات الحربية ضد القراصنة ، ولم يحد عن قراره بجعل طرابلس على علم بأن السفن الحربية الاميركية لمّا تزل في المتوسط .

وعلى الرغم من ان القائد الاميركي « بريبل » كانت تنقصه السفن اللازمة لتأمين حصار مستديم ومتواصل على طرابلس ، وبخاصة في أيام الشتاء ، فانه ، مع ذلك ، أرسل مراكبه لتطوف على مقربة من الساحل كلما سنحت له الفرص . وفي ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ، عادت السفينتان الاميركيتان « انتربرايز » و « كونستيتيوشين » بغنيمة طرابلسية هي الكتش* « ماستيكو » التي أُطلق عليها تـواً اسم « إنتربيد » ، وضمت الى الاسطول الاميركي كما جُعلت بقيادة الملازم أول « ستيفان ديكاتور » . ووقع بيد الاميركيين ، بالاضافة الى الكتش، ستون اسيراً يصلحون للمساومة في عمليات تبادل الأسرى في المستقبل .

في تلك الاثناء ، أثارت سلامة ضباط السفينة « فيلادلفيا » وملاحيها اهتمام الرأي العام العالمي، فتدفقت عروض التوسط لايجاد تسوية للأمر... وكانت تلك العروض تُحرج الاميركيين بسبب مصدرها ووفرتها . أما المندوبون الاميركيون في الخارج ،الذين هزتهم الشفقة على الاميركيين الذين كانوا على وشك ان يصبحوا رقيقاً للمسلمين ،فلم يُبدوا تحفظاً في تقدمهم من الدول الاوروبية بطلب المساعدة.لقد حاول السفراء الاميركيون في كل

---

* ضرب من السفن الشراعية ذو صاريين .

من اسبانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، أن يدفعوا تلك الدول الى التوسط . ثم دُعيت السويد الى مد يد المعونة، وكانت الدانمارك قد بدت تسعى لنجدة الأسرى .

لقد سيطر الغم والكَدر على قلب الرئيس « جفرسون » للطريقة غير المشرّفة التي كان ممثلو الولايات المتحدة يتوسلون ويستجدون بها . وقد كتب الى « روبرت سميث » وزير الحربية ، يقول :

« لم يسبق لي ان شعرت بالخزي مثلما شعرت الآن لتصرف مندوبينا في الخارج بعد خسارة « فيلادلفيا » .... يبدو انهم يظنون أننا هُزمنا جميعاً ، وانه ليس في حوزتنا أية معدات ، اذ انهم اخذوا ينادون علينا (وكأننا عالة نحيا على المعونة التي نتلقاها) ويستجدون الصدقات من سائر انحاء أوروبا » .

كانت ازمة أسرى «فيلادلفيا» والمأزق الذين وقعوا فيه فرصة جديدة بالنسبة لـ « جيمس لايندر كاثكارت » لكي تُسلط عليه الأضواء ثانية . فبعد ان حنق للرفض الذي صدر عن الجزائر وتونس كلتيهما أعني رفضهما لقبوله قنصلاً في السنة المنصرمة ، راح «جيمس كاثكارت» يتنقل بين جبل طارق و « ليغورن » متذمراً بقسوة من عدم كفاءة الدكتور « دايفيس » الذي ظل مسؤولاً عن قنصلية تونس . كذلك ، فانه كان يتذمر من التغيّر الذي طرأ على تصرفات وزارة الخارجية الاميركية نحو طرابلس . بل ، وحتى قبل ان يستولي القراصنة على « فيلادلفيا » ، كانت قد فترت عزيمة « ماديسون » المنعقدة على عدم دفع فلس واحد من أجل السلام ، فأخذ «كاثكارت» يقول ان المشكلة الطرابلسية — من أولها الى آخرها — كانت مُخجلة ، ومُذلّة ،و«جارحة للكبرياء والشعور بالشرف العالمي . »

ولما كان « كاثكارت » شخصاً غير مرغوب فيه عند جميع حكام دول افريقيا الشمالية ، فمن البديهي ألا يستطيع الاستمرار في حلبة السياسة

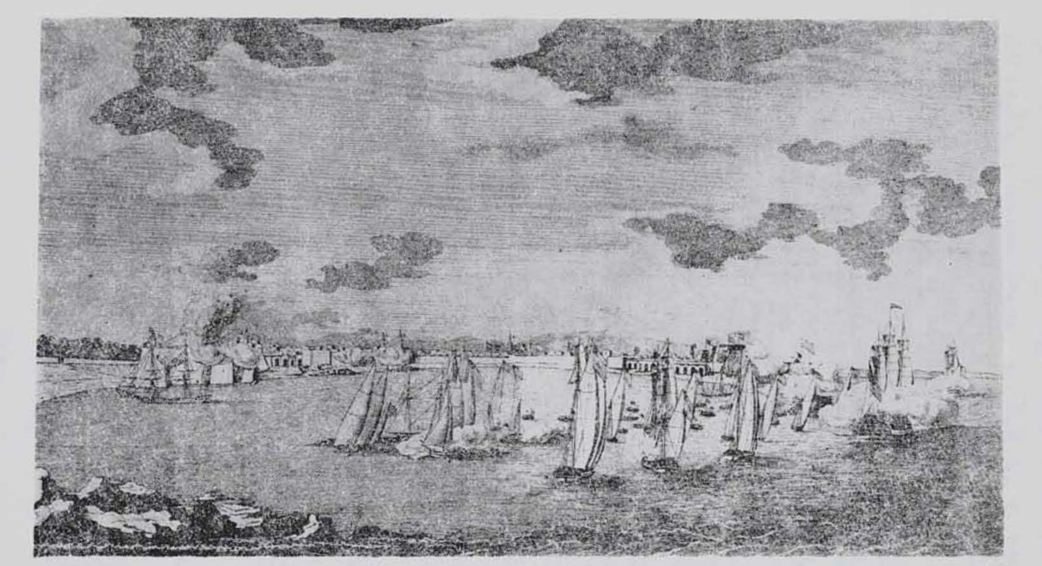
الرئيسية في البحر الابيض المتوسط ، ولكن كان بمُكنته العمل من أجل المعتقلين الاميركيين . ان جهوده – التي كانت تعوزها الصلاحية – في سبيل نجدة المعتقلين ما أدت الا الى زيادة التوتر العام .

ان الكارثة الكبرى بالنسبة للولايات المتحدة كانت ، بالاضافة الى اعتقال الاميركيين الباعث على الاسى ، وقوع الفرغاطة الاميركية المجهزة خصيصاً للحرب بيد الطرابلسيين ، لا سيّما وان ذلك من شأنه ان يرجح كفة قوة الطرابلسيين البحرية فيضيع التوازن بين القوتين .

ولكن « بريبل » صمم ان يزيل ذاك الخطر مهما كلفه الثمن . ففي الحادي والثلاثين من شهر كانون الثاني (يناير) ، سنة ١٨٠٤، أصدر أوامر دقيقة الى الملازم اول « ديكاتور » ليبحر بالسفينة « انتربيد » ، والى الملازم اول « تشارلز ستيوارت » ليرافقه بسفينته « سيرين » الى طرابلس لتنفيذ مهمة خطيرة ، هي : تحطيم السفينة « فيلادلفيا » .

ان الحادثة التالية لمن أشهر الحوادث البارزة في تاريخ اسطول الولايات المتحدة الاميركية ... وها نحن نسوقها اليك كما يأتي :

خُدع الطرابلسيون بشكل وعدد ترتيب الأشرعة والصواري في السفينة « انتربيد » ، الأمر الذي أتاح للملازم اول « ديكاتور » أن يدنو بجانب السفينة « فيلادلفيا » دون ان يثير الشكوك. وبلمح البصر ، وثب الملازم اول مع ستين أميركياً آخرين على الفرغاطة ... ثم انهم صرعوا عشرين طرابلسياً ، وأضرموا النيران في السفينة ، وفروا هاربين من غير ان يخسروا رجلاً واحداً . لقد أنارت السفينة الملتهبة الميناء برمته، وكان بامكان الناظر من على بعد أربعين ميلا في وسط البحر ان يراها بوضوح. وهكذا ازالت تلك النيران خطراً شديداً كان يهدد الاسطول الاميركي في البحر الابيض المتوسط ، وخلقت اسطورة قوامها البطولة الاميركية ، بيد ان تحطيم الاميركيين سفينتهم الخاصة ما كان – في احسن الاحوال– الا عملاً سلبياً .



هجوم القائد الاميركي « بريبل » على طرابلس : وقد حفر الصورة تشارلز دينون ، أحد البحارة ، وعضو في طاقم بحارة السفينة فيلادلفيا ، وأحد الاسرى الاميركين في طرابلس في ذلك الحين . وهذه الصورة منقولة عن الاصل الموجود في مكتبة هانتنغتون .

ان الناحية التراجيدية من الموضوع ، تكمن في ان الجهود الرائعة التي بذلها « ديكاتور » خُصصت للتعويض عن كارثة هي من صنع الاميركيين أنفسهم – ألا وهي ، بكلمة أخرى ، القضاء على احدى السفن الحربية الاميركية بغية منع اعدائهم من استعمالها ضدهم ، ليس الا .

تنفس « ادوارد بريبل » ، قائد اسطول الولايات المتحدة، الصعداء عندما أصبح تهديد « فيلادلفيا » له نسياً منسياً ، وشرع يخطط لمعاقبة الطرابلسيين وتأنيبهم . ولكن،قبل ان يقدم على اية اعمال زجرية فعالة، كان يتعيّن عليه ان يعثر على بعض السفن المدفعية ... كان قد كتب سابقاً الى « كاثكارت » في « ليغورن » حول أسعار مركبين صغيرين أو ثلاثة ، وأسعار السفن المزوّدة بمدافع الهاون ذات العشرة انشات ، اذا ما كان بوسعه تأمين ذلك . وفرح « كاثكارت » لانشغاله من جديد فكتب على التو الى السير « جون اكتون » ، الوزير الأول لدى ملك « نابولي » (أو ملك الصقليتين ، كما كانت تعرف في تلك الآونة) طالباً السفن المدفعية . والطريف ، أنه وقّع اسمه بتباه عجيب كما يلي :

... « القنصل العام ، مندوب الولايات المتحدة الاميركية قرب إيالة تونس تجاه ليغورن » ...

أما « بريبل » ، فقد انتقل بنفسه الى « نابولي » ، في شهر أيار (مايو) ، واقترض في الواقع ست سفن مدفعية كانت راسية في « مسينا » ، بالاضافة الى المعدات الضرورية ، بما في ذلك البحارة ورجال المدافع (أو المدفعيون) .

وفكر « بريبل » بالهجوم على طرابلس من الجهة البرية ، وباستعمال أحمد قرامانلي والاستفادة منه بصورة ناجحة في تلك العملة . أما أحمد ، فكان قد هرب من وظيفته كوالي « درنة » – بسبب الخوف الذي تملكه من التفكير بأنه من غير المستبعد ان يلاقي حتفه على أيدي اتباع

شقيقه – وانتقل الى الاسكندرية حيث قيل انه كان يؤلف زمرة من العرب المتمردين .

•

كان باشا طرابلس تاجراً اكثر منه محارباً ، ولذا فانه كان يحاول ، في اثناء ذلك ، ان يقوم بمساومة مفيدة ومربحة مع الاميركيين . فبعد الاستيلاء على السفينة « فيلادلفيا » بزمن قصير جداً ، راح يطالب بفدية قدرها ٣,٠٠٠,٠٠٠ دولار ، وجزية سنوية ، كثمن السلام . ولكن ما ان مضت بضعة شهور حتى خفّض الفدية التي طالب بها من قبل ، قانعاً بخمسمائة دولار عن كل معتقل . ثم كتب « بريبل » في تقريره أنه يتوقع ان يتم تبادل المعتقلين الطرابلسيين بالمعتقلين الاميركيين ، وان تدفع الولايات المتحدة اربعمائة دولار لكل معتقل آخر (اذ ان الأسرى الاميركيين كانوا يفوقون الاسرى الطرابلسيين عدداً) .

ثم انه كتب الى « توبياس لير » ، قبل ان يدخل في المناقشات ، طالباً منه اسداء النصيحة اليه ، كما اقترح عليه ان يستأنس برأي « ريتشارد اوبراين » . وأخبر « كاثكارت » أيضاً انه يحق له ، هو أيضاً ، ان يساعد على سير المباحثات مع طرابلس، بيد انه عاد وأرسل اليه ، في ١٨ آذار (مارس) خطاباً يقول له فيه انه من الأفضل ألا يزعج نفسه ، لا سيما وان «اوبراين» كان في طريقه نحو مكان الاسطول بعد ان فوضه « لير » بصلاحية المشاركة في المباحثات . والحق ان هذا التراجع من جانب قائد الاسطول كان شيئاً كريهاً يتعين على «المفاوض الأوحد » مع طرابلس سابقاً ان يتحمله . وبعد ان استكن غضبه، حرر رسالة قاسية الى « بريبل » ينذره فيها ان « اوبراين » سوف «يستجدي السلم ويتوسل للحصول عليه » ، الأمر الذي سيعتبر اهانة للامة الاميركية. فأجاب القائد على ذلك (بغيظ) قائلاً ان « اوبراين » لم يُعيّن ،

في الأصل ، مفاوضاً من أجل السلام ، وأن أحداً منهما لن يوافق على سلام « تخجل من أن تعقده أقوى دول اوروبا على الاطلاق » .

وممـا يذكر ، في هذا المجال ، ان « بريبل » قد تأكد من ان « اوبراين » مستقيم ومحب للمساعدة ، في حين انه كـان ينظر الى « كاثكارت » نظرته الى رجل متكبر ومغرور .

وصل « ادوارد بريبل » بسفينته « كونستيتيوشين » الى طرابلس، ترافقها بعض السفن الصغيرة الاخرى ، في الاسبوع الاخير من شهر آذار (مارس) . وكان مراده ان يتحقق من آراء الباشا الخاصة بفديـة الأسرى ، وان يضيّق الحصار على طرابلس دون قصفها . ان محاولـة قصف المدينة قد تعرض حياة « باينبريدج » وملاحيهالى الخطر . أضف الى ذلك ؛ ان الاسطول لم يكن قوياً الى درجـة كافية يستطيع معها ان يشن هجوماً عنيفاً . وقد نزل ضابط صف بحري مـن السفينة « كونستيتيوشين » الى اليابسة وهو يرفع عـلم هدنة ، ليحاول ان يقوم بترتيبات في سبيل تزويد الأسرى الاميركيين بالأدوية والثياب. ولكن السلطات رفضت ان تسمح للاميركيين بارسال الالبسة والعقاقير بأنفسهم ، بل وافقت على السماح بارسال شحنة على مركب حيادي .

ثم توجه المندوب العام الفرنسي في طرابلس الى السفينة «كونستيتيوشين» ليستعرض الجهود الودية التي يبذلها الفرنسيون المخلصون لاحلال السلم ، ولكن « بريبل » استنتج ان « المساعدة » الفرنسية كـانت ديناً – اذا ما جاز لنا التعبير – ، اذ كان من الواضح ان المندوب العام الفرنسي يقبض راتباً معيناً من الباشا .

هذا ، ولقـد أدى توسط – أو بالاحرى تطفـّل – الدول الأخرى الى تأزم الأمر ، بـدل ان يؤدي الى تحسن الوضع ، باستثناء توسط القنصل الدانماركي « نيسان » المفيد والناجع . فالحقيقة ان معظم الدول الاوروبية كانت مغتبطة لاستمرار الحرب بين طرابلس والولايات المتحدة،

اذ ان ذاك الاستمرار يخفف من امكانية شن طرابلس حرباً اخرى على أي بلد آخر ... ومهما كان الامر ، فلقد أبحر « بريبل » بعد يومين من المفاوضات والتحريات التي قام بها في طرابلس .

بينما كان القائد منشغلاً بالمباحثات والمفاوضات، كان مركبان صغيران من مراكبه يطوفان بحثاً عن الغنائم . فقد استولت السفينة الصغيرة « سيرين » على سفينتين كانتا تحاولان خرق الحصار والافلات منه ، كما استولت « نوتيلوس » على سفينة شراعية ذات ستة عشر مدفعاً كان يملكها القنصل الطرابلسي في مالطة . واذ كانت تلك السفينة مجهزة تجهيزاً حسناً ، فقد اطلق عليها القائد اسم « سكورج » ، وضمها الى الاسطول . اما السفينتان الاخريان ، فقد اطلق سراحها لأنهما لم تكونا تخصّان الطرابلسيين .

وانتقل « بريبل » من طرابلس الى تونس – بعد انقضاء مباحثاته – حيث وجد الباي يفور غضباً لأمور شتى ... لم ينزل القائد الى اليابسة، ولكنه ارسل يُخبر الباي بأن الشؤون الدبلوماسية باتت من صلاحيات القنصل العام في الجزائر ، السيد « لير » . لقد هدّد الباي غاضباً بالحرب اذا لم يستجب الاميركيون لطلباته ، ولكنه وافق – آخر الامر – على ان ينتظر ستة اسابيع اخرى تدور خلالها مفاوضات مُجدية بينه وبين الاميركيين . وكان من اهم اسباب النزاع ، الأضرار التي لحقت بالبضائع التونسية التي كانت قد استولت عليها السفينة الشراعية الاميركية « بولينا » . هذا ، وقد زوّد « لير » الدكتور « دايفيس » المقيم في تونس ، بصلاحيات تخوله عرض مبلغ اربعة آلاف دولار على الباي كتعويض عن تلك الخسارة المشار إليها ، اذا ما تبيّن له انه مستعد لاحلال السلم . ومن ثم ، عُيّن « اوبراين » مشاركاً في المفاوضات .

وبعد الزيارة التي قام بها قائد الاسطول الاميركي الى تونس ، توجّه الى مالطة ، ثم عاد بسرعة الى « سيراكوزة » .

وصل « ريتشارد اوبراين » الى تونس في أواخر شهر نيسان (ابريل)، وقضى اسبوعاً من المفاوضات والمساومات مع الباي الذي أصر على طلب الفرغاطة فضلاً عن سائر الهدايا . وفي النهاية ، وعده كلٌ من « اوبراين » والدكتور « دايفيس » بأن تدفع الولايات المتحدة لتونس ثمانية آلاف دولار كل عام قصد ان يخيم السلام والامان على المنطقة . أما الباي، فقد صرّح بأنه سوف يبعث برسالة خاصة الى رئيس الولايات المتحدة . وبدا عليه أنه لن يقوم بأي عمل عدائي في الوقت الحاضر . وفي ٢ أيار (مايو) ، وصلت السفينة « كونستيتيوشين » الى تونس ونقلت معها « اوبراين » . وبعد مضي اسبوعين على اتصال « بريبل » بـ « اوبراين » ، كتب القائد الى وزير البحرية معلناً ان الباي ليعتبر حتى مبلغ عشرة آلاف دولار سنوياً مبلغاً زهيداً جداً لشراء صداقته ، كما نصح القائدُ بعدم دفع اي دولار في سبيل السلام ، وذلك انطلاقاً من ايمانه بأن الباي لن يُقدم على اعلان الحرب ، وانه سوف يندم ويتحسر اذا ما فعل ذلك .

وتأزم الوضع اكثر ، فهدد الباي بالحرب من جديد . لقد كان من الواضح بالنسبة للاميركيين أنهم اذا لم يزيدوا من قوتهم ونشاطهم في الحرب الطرابلسية ، فان تونس قد تستجمع شتات شجاعتها وتبدأ بأعمال معادية .

كان « بريبل » ، في الاسبوع الثاني من حزيران (يونيو) ، يتابع مفاوضاته في طرابلس بدلاً من ان يأمر مدافعه باطلاق النيران . ومن البديهي ، ان الاصلاء* كان يفي بغرض القائد الاميركي اكثر من كلمات الاطراء المعسولة ، ولكن يجب ألا ننسى انه كان ينبغي عليه ان يأخذ قضية الأسرى بعين الاعتبار . ثم نزل « اوبراين » الى اليابسة

* اطلاق النار من عدة مدافع دفعة واحدة .

ليبحث في موضوع افتداء الاسرى من جهة ، وفي موضوع شروط السلم من جهة اخرى . وقد كانت صلاحياته تسمح له بعرض مبلــغ اربعين ألف دولار اميركي كفدية للضباط والملاحين ، فضلاً عن اهداء الوزير الاول وسواه ممن قد يساعدون في « الترتيبات » مبلغ عشرة آلاف دولار كمكافأة . ولم تكن الولايات المتحدة مستعدة لدفع اي سنت في سبيل السلام ، مع انها كانت على استعداد لأن توافق على تقديم هدية هي عبارة عن عشرة آلاف دولار ، وذلك عنــد وصول اول قنصل اميركي الى المنطقة ، وان تتقدم بهدية مماثلة اخرى (عشرة آلاف دولار ايضاً) بعد عشر سنوات ، اذا ما استمر السلام مخيماً . بيد ان الباشا رفض جميع تلك العروض بازدراء .

عندها ، عقد « بريبل » النية على العودة لقصف طرابلس ، فأبحر من تونس في الرابع عشر من حزيران (يونيو) . كان الباي – كعادته – يُلمح مهدداً بالحرب ، ولكن القائد الاميركي قرر ، بعد ان مر اسبوع على وجوده هناك ، انه لن يحدث اي انفجار مفاجىء ما دامت السفن الحربية الاميركية باقية في ذلك القسم من البحر الابيض المتوسط .

وفي ٢٧ حزيران (يونيو) ، ابحر « بريبل » الى « سيراكوزة » ليجد ست سفن مدفعية ، كان قد اوصى عليها سابقــاً ، جاهزة للاستعمال . وأضاف في « مسينا » مدفعين الى اسطوله ، علاوة عــلى بعض البنادق والمدافع الاضافية ، والمؤن والذخــائر . والطريف ، ان القائد النيوانغلندي المشهور بصرامتــه قد غمرته الغبطة ، اكثر من اي وقت سابق ، وذلك لحصوله على تلك التجهيزات الحربية الهجوميــة ، فأمر باطلاق ثلاث عشرة طلقة في ٤ تموز (يوليو) تحية بمناسبة استقلال بلاده ، وسامح ملازماً اول كان قــد نسي ان يؤدي دوره بالمراقبة . اضف الى ما تقدم ، ان التأمل بفتح النيران على طرابلس قد رفع من معنويات الاسطول بأكمله .

في ٢٥ تموز (يوليو) ، رابطت السفينة « كونستيتيوشين » ومعها ست سفن حربية صغيرة بالاضافة الى السفن المدفعية الجديـدة امام طرابلس . لقد قرُب اليوم الذي طالما انتظره الاميركيون ، يوم يستطيعون فتح نيرانهم على هذه المدينة .

بدأت المدافع العادية ومدافع الهاون تطلق قنابلها على الحصون الساحلية، بينما كانت السفن المدفعية السريعة تقوم بواجبها ضد اسطول عدوهـا الصغير ؛ ثم ارتاح الاسطول الاميركي بعد ساعتين من اطلاق النيران . وتكشفت المعركة عن استيلاء الاميركيين على غنائم ثلاث ، فضلاً عن الخسائر التي انزلوها بالشاطىء الطرابلسي نتيجة لطلقاتهم عليه . وقد شعر « بريبل » انه كان في وسعه ان يُسكت مدفعية الشاطىء كلها اذا ما كان لديه فرغاطة واحدة اخرى . اما وانه كان يملك فرغاطة واحدة – اذ كانت سائر قطع الاسطول عبارة عن سفن ، او بالاحرى مراكب صغيرة وخفيفة – فلم يكن يأمل ان يحرز شيئاً اكثر من ان يزعج الباشا ويرعبه . وكانت خسائر الاميركيين موت الملازم اول « جيمس ديكاتور » (شقيق « ستيفان » التي سبقت الاشارة اليه) ، ووقوع بعض الجرحى. وقد كانت الاعمال التي قام بها البحارة والملاحون ورجال المدافع النابوليون (نسبة الى « نابولي ») في السفن المدفعية المستأجرة تستحق كل مكافأة وتقدير ؛ هذا ما كتبه القائد في تقريره ، بالرغم من ان « ستيفان ديكاتور » قال انه بينما كان الجميع يحاربون ، كان الايطاليون يصلّون مدّعين ان النصر تم على ايديهم اخيراً .

وبعد اربعة ايام، صوّب الاسطول الاميركي نيرانه على المدينة وعلى المراكب الموجودة في الميناء . عندها ، ضرب الطرابلسيون مخزن الذخيرة في احدى السفن المدفعية ، ففجروه على التو ؛ وقد قتل ضابطان اميركيان وثمانية رجال ، وجُرح ستة آخرون .

في وسط تلك اللجّة من الاحداث ، وصلت الفرغاطة ، « جون ادامس »

تحمل المؤن والذخائر والاعتدة ، بيد ان قسماً من مدافعها كان مُستّقاً في عنبرها مما جعلها غير ذات فائدة في المعركة .

وقد حملت الفرغاطة « جون ادامس » معها ايضاً انباء خطيرة تقتضي من « بريبل » ان يعود الى بلاده . ان الولايات المتحدة التي كانت قد اصدرت هذا الامر الذي اراحه من مسؤولية القيادة لم تنسَ ان تطري كفاءته وبراعته ، كما اشارت الى ان الاستعداد لتحضير اسطول رابع يجري على قدم وساق ، وانه لمّـا كان قائد ذاك الاسطول الرابع ، « صموئيل بارون » ، اعلى رتبة من « بريبل » بسبب اقدميته ، فتكون القيادة له بالافضلية . ولا نعدو الحقيقة في شيء اذا قلنا ان ذاك الامر كان بمثابة حبة دواء مُغلّفة بالسكر ، لكنها مع ذلك كان لها طعم مر في فم « بريبل » . لقد كان يأمل ان يثبت بأن السفن الحربيـة الاميركية قادرة على اخضاع الطرابلسيين . ومما يستحق الذكر ههنا ، انه مقت التنحي عن منصبه حين كان يشن – في آخر الامر ، وبعـد طول انتظار – حرباً على عدوه . لكن الضابط المثالي خضع للاوامر واستعد للرحيل فور وصول القائد الجديد « بارون » .

•

بينما كان « بريبل » يناضل لتأمين القوة الكافية لقهر طرابلس ، كانت حكومة الولايات المتحدة الاميركية تراقب تطورات الحرب وتتابعها باهتمام بالغ .

لقد هزت خسارة « فيلادلفيـا » مجلس « الكونغرس » الاميركي نفسه وايقظته من سباته ، وبلادته ، ولامبالاته التي كان يبديها تجـاه العمليات البحرية السابقة الجارية في البحر الابيض المتوسط . وعندما نقل الرئيس « جفرسون » انباء الفاجعة الى مجلس « الكونغوس » ، في ٢٠ آذار (مارس) ١٨٠٤ ، وألح على اتخاذ ترتيبات جديدة واضافية

لتطوير القوة البحرية ، استجاب المشرّعون لطلبه في خلال اسبوع واحد باصدارهم قانوناً واحداً انشأ ما عُرف باسم « صندوق البحر الابيض المتوسط » ، وذلك عن طريق زيادة الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع المستوردة ، كل بضاعة بحسب قيمتها المنصوص عليها . وكان من المقرر ان يبدأ العمل بتلك الزيادة اعتباراً من ٣٠ حزيران (يونيو) ، وحتّى ثلاثة اشهر عقب التوصل الى السلام مع طرابلس . وقد فوّض لرئيس الولايات المتحدة صلاحيات واسعة تتيح له ان يبني مراكب جديدة ويزودها بالاسلحة ، لكن شريطة ان لا تزيد عن ١٦ مدفعاً ، وان يستأجر ما يراه ضرورياً من السفن المدفعية لاشراكها في معارك البحر المتوسط .

لقد خصص « الكونغرس » مبلغ ١,٠٠٠,٠٠٠ دولار لموازنة الحرب . وعلى الرغم من ان اعضاء ذاك المجلس قد تناقشوا كثيراً وتجادلوا طويلاً حول موضوع زيادة الضرائب ، فانهم اجمعوا على الاحتياطات المتخذة لكسب الحرب . والحقيقة ، التي لا يسعنا إلا ان ننوه بها ها هنا ، هي ان تلك الترتيبات والمخصصات الجديدة بغية تطوير القوة البحرية ودعم الاسطول لم تكن لتستحق ان توصف بالسخاء ، لا سيما وأن الادارة الاميركية قد ظلت مجبرة على الاستمرار في الحرب — الدائرة رحاها في اصقاع قصية — بسياستها المعهودة : « أقل مما ينبغي ، وبعد فوات الاوان (اكثر الاحيان) » .

وحسبنا ان نذكر ان الرئيس « جفرسون » صمم على ان يدعم اسطول الولايات المتحدة الكائن في المتوسط بفرغاطات أربع هي :

« بريزيدنت » ؛ « كونغرس » ؛ « ايسكس » ؛ و « كونستليشين » .

والجدير بالذكر ، ان قائد الفرغاطة « ايسيكس » ، وهو الربان « جون رودجرز » ، كان القائد العام الثاني للاسطول بعد القائد « بارون » . واتفق ان كان القائد « صموئيل بارون » ضابطاً ضعيفاً

ومريضاً ، مما اضطره ان ينفق معظم اوقاته يطبب نفسه ويعتني بصحته على اليابسة ، في حين كان « رودجرز » يتسلم زمام قيادة الاسطول . ان طلب استدعاء « بريبل » الى وطنه لمجرد أقدمية هذين الضابطين كان نكبة للهدف الاميركي المرسوم .

من غير عبوس أو تقطيب ، ظل « بريبــل » محافظاً على مراكزه أمام طرابلس بانتظار وصول الفرغاطات الاربع بقيادة « بارون » كما استعد لقصف المدينة مرة اخرى . ففي ٢٥ آب (اغسطس) ، وبعد ان كان قد تزود بالمؤن والذخائر اللازمة من « مالطة » و« سيراكوزة » ، أصدر أوامره لسفنه المدفعية (ذات مدافع الهاون) بقصف المدينة ، علماً بأنه لم يتلق اية انباء عن الفرغاطات المتوقع وصولها . وفي اثناء ذلك الهجوم ، صدّعت احدى القنابل التي اطلقتها المدفعية الاميركية جداراً في سجن الربان « باينبريدج » الذي انقذه القضاء والقدر من الموت بأعجوبة. وبعد ايام ثلاثة ، أعدّ « بريبل » كامل قوته لشن هجوم شامل على المدينة وعلى السفن الكائنة في الميناء . تحركت الفرغاطة « كونستيتيوشين » تحت قصف قنابل مدفعية الحصون الخارجية وصبت نيرانها داخل المدينة .

واذا لم تكن خسائر الطرابلسيين فادحة ، فانها كانت ، على الاقل ، كافية لاثارة اهتمام عظيم وذعر هائل في صفوف الطرابلسيين . أما خسائر الاميركيين فما كانت جديرة بالذكر ، فقد اقتصرت على موت ثلاثــة منهم واصابة اخر بجراح بليغة .

وفي ٣ ايلول (سبتمبر) ، قــام الاسطول الاميركي بشن هجوم مماثل ، ثم رسم « بريبــل » في اليوم التالي خطة للقضاء على السفن الطرابلسية الباقية في الميناء . فجهزت السفينة « انتريبيد » بحيث اصبحت اشبه بلغم هائل عائم ، وكأنها جهنم : كانت مزودة بمئة برميل من البارود ومئة وخمسين قذيفة أو طلقة مدفعية . وقد تبرع الربان « ريتشارد سومرز » بقيادتها ، فرافقه في المهمة الملازمان اولان « هنري وادسورث »

و « جوزف اسرائيل » مع عشرة رجال ... كان عليهم ان ينطلقوا بمركبهم الى اقصى مسافة تتجرأ قلوبهم على الوصول اليها ، وان يشعلوا فتيل المفرقعات ، ومن ثم ان يفروا هاربين في قاربين سريعين .

ولكن حدث ان انفجرت « انتربيد » قبل ان تصل الى وجهتها . ولم يبق من آثار ملاحيها أو حتى القوارب المرافقة لها الا رماد كثيف . ولم يُصب الطرابلسيون الا بخسائر طفيفة، ان لم نقل إنهم لم يصابوا بأية خسائر على الاطلاق،ما خلا سفينة مدفعية واحدة قيل انها غرقت (وهذا موضع شك) . والواقع ان ضباط « انتربيد » كانوا قد اتفقوا فيما بينهم – او قل انهم فضلوا – ان يفجّروا سفينتهم بدل ان يدعوا حمولة البارود تسقط في ايـدي الطرابلسيين . هل تفجرت السفينة « انتربيد » قضاء وقدراً ؟ ... أم ان رجالها اشعلوا النار فيها ؟! ... هذا ما بات مجهولاً لدينا حتى اليوم .

•

مضت اسابيع ستة على وجود « بريبل » امام طرابلس ، تخللتها اربع هجمات رئيسية شنها القائد الاميركي عليها . كانت مؤونته على وشك النفاد في ذلك الحين ، وكانت العواصف تهدد اسطوله دوماً ، فاضطر ان يبدّل المراكز الستراتيجية التي كانت تحتلها سفنه المدفعية . وهكذا فقد اصدر اوامره ، في ٧ ايلول (سبتمبر) ، الى السفينة « جون ادامس » والى اربع سفن شراعية بصـاريين والى السكونات جميعها ان تقطر السفن والزوارق المدفعية الى « سيراكوزة » ، في حين بقيت « كونستيتيوشين » ، و « ارغوس » ، و « فيكسن » في مراكزها الرئيسية بانتظار وصول الفرغاطات الاربع . والواقع ان « بريبل » كان يأمل ان يقضي على آمال طرابلس في الحرب وان يدمرها ، ولكنه لم يفلح ، اذ ان امكانياته لم تكن لتسمح له بأن يشن هجوماً عنيفاً . وهذا

ما قاد الطرابلسيين الى الاستخفاف بالاسطول الاميركي واستضعافه ، فأظهروا عدم رغبتهم في عقد السلم .

والحقّ انه اذا ما انضم الاسطول الجديد الى سفن « بريبل » ، وشن هجوماً صاعقاً ، لربما تمكن من انهاء الحرب . بيد ان « بارون » كان رجلاً متعباً وموسوساً ؛ وبدلاً من ان تصل الفرغاطات الاربع دفعة واحدة الى طرابلس ، وصلت فرغاطتان اثنتان فقط ، هما « بريزيدنت » ، و « كونستليشين » ، وذلك في شهر ايلول (سبتمبر) حين كان « بريبل » لا يزال يتابع القيام بمهمته . اما الفرغاطتان الاخريان ، فقد تُركتا في جبل طارق لمراقبة امبراطور مراكش الذي عاد الى بعض هجماته السابقة .

ترك « بريبل » مهام القيادة حال وصول قائد اسطول الولايات المتحدة الجديد « صموئيل بارون » . وكان « بريبل » فرحاً لان الربان « ستيفان ديكاتور » ، الذي كان قد رُقي بسبب بسالته في اضرام النار في السفينة « فيلادلفيا » ، كان سيعمل الآن على البارجة السابقة « كونستيتيوشين » .. واخذ « بريبل » مركز القيادة في السفينة « جون ادامس » ، التي كانت مخصصة للنقليات وشحن المؤن ، والتي كانت ستُبحر بعد فترة وجيزة عائدة الى الولايات المتحدة .

وجد القائد الجديد ان الطقس متقلب الى درجة كبيرة ، فغضّ النظر عن امكانية القيام بأي عمل عدواني على طرابلس في ذاك الفصل العاصف . ولكنه ترك عدداً كافياً من المراكب قرب الساحل لتأمين حصار صُوَري ، وابحر الى مالطة . وهكذا تأزم الوضع من جديد ، واوقعت الحرب ضد طرابلس الولايات المتحدة الاميركية في مأزق آخر .

ولقد بدا الاسطول الجديد اهلاً للمهمة التي اتى من اجلها ؛ وهذا ما كان باعثاً على الامل والنجاح ، شكلاً ومظهراً . فقد كانت تحت تصرّف القائد « بارون » ست فرغاطات ، وسفينتان شراعيتان كل

منهما بصاريين ، وثلاث سكونات ، بالاضافة الى « جون ادامس » ــ السفينة السريعة المستخدمة لاغراض الاتصالات وشحن الذخائر . وكان في وسعه ان يجمع في البحر المتوسط ما يراه ضرورياً من السفن المدفعية. وقد كتب اليه وزير البحرية الاميركي قائلاً :

« بقوتك البحرية هذه ، لا شك في انك سوف تُخضع طرابلس لمعاهدة نضع نحن شروطها ، وتضع حداً للاعمال المعادية لنا والصادرة من اية ناحية من انحاء دول شمالي افريقيا » .

وألحّت التعليمات الموجهة الى « بارون » على ضرورة تأمين حصار شديد على طرابلس ، كما اشارت الى ان المراكب يجب ان تقوم بمهمتها قرب رأس بون .. وتجدر الاشارة الى ان وزير البحرية الاميركية كان قد كتب لقائد الاسطول الرسالة التالية :

« يجب ان تُبقي عيناً مفتوحة على تحركات جميع دول افريقيا الشمالية ، وان تبقى على اتصال بقناصلنا في الجزائر ، وتونس ، وطنجة » .

ثم تمضي الرسالة كما يلي :

« واما اذا بدا ان احدى تلك الدول تستعد لاعلان حرب او لشن حرب ، سواء بسواء ، فان رئيس الولايات المتحدة يأمرك ان تحمي تجارتنا بكل ما أوتيت من وسائل دون ان توفر اية وسيلة في مُكنتك استعمالها ضدهم » .

وكان يتعين على « بارون » ايضاً ان يعاون « ويليام ايتون » في تنفيذ خطته ، المشار اليها سابقاً ،والقاضية باستخدام احمد قرامانلي حسبما شرحنا من قبل ، وذلك اذا ما بدا ان النجاح سيكون حليف الخطة . واليك بعض المقتطفات من هذه التعليمات :

« اما بالنسبة لباشا طرابلس السابق، احمد ، فليس لدينا أي اعتراض في تعاونك واياه ضد طرابلس ــ اذا ما اتضح لك ، بعد ان تدرس



ايتون وأحمد قرامانلي على ظهر جواديهما .. هذه الصورة منقولة عن كتاب ا. س. ماكلي : تاريخ اسطول الولايات المتحدة (نيويورك ١٨٩٩). وقد اعاد رسمها تشارلز ت. هاربك . ويعثر عليها الباحث في مكتبة هانتنغتون .

الموضوع دراسة ملية وتنظر اليه من جميع الزوايا والجهات والاعتبارات، ان التعاون مجد ... والذي نعتقـد ، انك ستجد السيد « ايتون » خير عون لك في تلك المهمة ... ان السيد « ايتون » مندوبنا في الايالات المتبربرة ... سوف نسمح له بالعودة الى الولايات المتحدة عندما يطلب منا ذلك » .

وعلى تلك الصورة، فان التعليمات الصادرة الى « ايتون » جعلته خاضعاً لاوامر « بارون » على نحو مبـاشر . أما الكولونيل « توبياس لير » ، القنصل العام ، فكانت لديه صلاحيات كاملة للمفاوضة في أمر معاهدة السلم ، ولعقد جميع ضروب الاتفاقات المناسبة والضرورية مع سائر دول شمالي افريقيا. وقد أعلم ناظرُ الخارجية الاميركية القنصلَ « لير » انه يحق للقائد « بارون » ان يعرض على احمد مبلغاً لا يزيد على العشرين ألف دولار ، مع الاشارة الى ان الحكومة الاميركية تأمل بألا يكون دفع ذاك المبلغ امراً ضرورياً ، وذلك « لأن القوة الموضوعة بتصرف القائد من شأنها ان تكون كافية للتفاهم مع الباشا وطلباته » .

كان منصب « ويليام ايتون » كـ « مندوب بحري لدى ايالات شمالي افريقيا » يتيح له ، بصورة مبهمـة ، ان يلعب دور المرشد والناصح لقائد الاسطول – وذلك براتب قدره ١,٢٠٠ دولار في السنة ، مع مؤونة يومية من نوع مؤن الملازمين الأولين . بيد ان مهمته الرئيسية كانت التآمر مع أحمد لاقصاء شقيق هذا الاخير (يوسف) عن عرش طرابلس.

والطريف انه عندما كان « ايتون » في « واشنطن » ، أبدى اهتماماً بالغاً في ذاك الموضوع وأثار مجادلة مقنعة اوضح فيها سهولة القيام بثورة داخلية تكون لصالح الولايات المتحـدة ، حتى ان الرئيس « جفرسون » فوض اليه تلك المهمـة الشاذة ، وطلب منه العودة الى البحر الابيض المتوسط لوضع مؤامرته موضع التنفيذ . وبالرغم من ان حكومة الولايات المتحدة كانت تبدي فتوراً واضحاً نحو الخطة (او المؤامرة) – كما يتبين

من ملاحظات ناظرَيْ الخارجية والبحرية – ، فان « جفرسون » لم يكن واثقاً من نجاح « ايتون » . ولكن ما الذي يمنعه من المحاولة ؟! .. فليجرب .

ولقد حال « ايتون » ، في رحلته مع القائد الامبركي « بارون » على السفينة « بريزيدنت » ، ان يقنع القائد الامبركي بأهمية التعاون سوية لتنفيذ خطة استرجاع عرش أحمد ، ولكن « بارون » امتنع عن تقديم الرجال ، او الأسلحة ، او الذخيرة الحربية ، على اساس ان تعليماته لا تتيح له ذلك . فأدرك « ايتون » انه يتعين عليه أن يدفع من حسابه الخاص لتنفيذ خطته .

ان هذا التصرف الذي صدر عن القائد « بارون » حمل القنصل « ايتون » على ان يكتب باستياء لوزير البحرية ، « روبرت سميث » ، وذلك في ١٨ ايلول (سبتمبر) عام ١٨٠٤ ، حين كان في مالطة . لقد تذمر « ايتون » من عدم الثقة بخططه بعد ان شوهها الربان « الكسندر موراي » ، وغيّر ملامحها ، ونقلها بصورة خاطئة . وأعرب عن أمله بأن تُفيد الحكومة الامبركية من نصائح القائد « بريبل » والقنصل السابق « اوبراين » اللذين كانا في طريقهما الى الولايات المتحدة . ان هذين المسؤولين ليستطيعان عرض صورة واضحة عن شؤون شمالي افريقيا ، وتقديم فكرة حسنة جداً عن خدمات « ايتون » الجليلة .

وأضاف « ايتون » قائلاً :

« ولا يسعني في هذه المناسبة ، مع ذلك ، الا ان اعبّر عن شعوري بالخزي والعار الشديدين ، وذلك في الحالة الحاضرة التي تركتني عاطلاً عن العمل، والرتبة، والقيادة، بل حتى التقدير والمكافأة، فضلاً عن اني لم أعُد اتلقى اية تعليمات لتوجيه اعمالي ، في حين اني موكل ومكلّف بمهمة لربما اعتمد عليها امر نجاحنا وانتصارنا في هذه الحرب » .

وقد اصرّ « ايتون » – في تقريره هذا – على ناظر البحرية

الاميركية كيما يرسل له المؤن والذخائر والسلع اللازمة لينقلها بدوره الى اتباع احمد قرامانلي . اما الذخائر الحربية ، فبالامكان تأمين بعضها من عند ملك الصقليتين اذا ما سمح الاسطول بشرائها .

كان احمد قرامانلي في تلك الاثناء في مصر . فبعد ان قبل وظيفة والي درنة ، التي عرضها عليه اخوه ، اصبح يرى ان حياته محفوفة بالمخاطر ، ففر الى الاسكندرية ، ومن ثم توغل في الاراضي الواقعة شمالي نهر النيل . فما كان من « ايتون » الا ان انتقل الى الاسكندرية بحثاً عن ضالته المنشودة . وهناك ، عمل على تشكيل نواة جيش وتزويده بالسلاح ليهاجم به طرابلس في الربيع القادم . وكان يعتقد ان الطرابلسيين المتمردين وغير الموالين سوف ينضمون الى انصار احمد مما يسهل مهمته في طرابلس . اما اذا وجد ان لدى احمد الكثير من الانصار بحيث يستطيع ان يتقدم الى « بنغازي » قبل حلول فصل الربيع ، فانه لن يتأخر عن الاستيلاء على تلك المدينة مطلقاً .

اكتملت خطط « ايتون » عند منتصف شهر تشرين الثاني (نوفمبر). وقد اصدر « بارون » اوامر سرية « لاسحاق هل » ، ربان السفينة « ارغوس » ، لنقل « ايتون » الى الاسكندرية بحثاً عن احمد ، اولاً ، ولنقل احمد وجماعته الى بنغازي اذا ما تبين ان الاستيلاء عليها سهل ، ثانياً . ولقد توعكت صحة « بارون » فلازم الفراش في مالطة ، الا ان « ايتون » ارسل يخبره في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) انه قد حصل على رسائل توصية من حاكم مالطة موجهة لمندوبي الحكومة البريطانية في الاسكندرية ، وانه يستعد للابحار في اليوم التالي . وفي الثامن والعشرين من الشهر ذاته ، ارسل « ايتون » تقريراً — اعده في الاسكندرية — الى ناظر البحرية يقول فيه :

« اني اعمل ، هذا المساء بالذات ، مع الملازم اول « اوبانون » ، والضابطين « دانيلسون » ، و « ريتشارد فاركوهار » ، وأربع خادمات

ودليل تركي ، اقول اننا نعمل للوصول الى غايتنا التي اتينا الى هذه البلاد من اجل تحقيقها . ان البلاد في حالة ثورة داخلية عامة ، الامر الذي يجعل التجول خطراً نوعاً ما . فاذا لم يقع اىما حادث يعوقني ، فلسوف ارسل بتقاريري في اوقات مناسبة . وإلا ، فاني سأغادر وأحيلكم الى الربان « هل » ... »

ومن ثم ، غادر «ايتون» وصحبه الاسكندرية في ٤ كانون الاول (ديسمبر) ، بعد ان كان قد تأخر بعض الوقت إثر كتابة التقرير المذكور اعلاه .

اربع سنوات مضت و « ويليام ايتون » يحلم بتلك المغامرة العسكرية . وها هو الآن على اهبة الاستعداد ، ومعنوياته عالية وأمله بكسب الجولة كبير ، اكانت وُجهته المباشرة القاهرة ، ام بنغـــازي ، ام درنة ، ام طرابلس . وأخيراً التحم مع اعدائه ، واستطـــاع ان ينسى سنين العذاب الطوال .

٨

الاميركيون يزحفون من الصحراء الى درنة

انطلق « ويليام ايتون » من الاسكندريــة في الرابع من شهر كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٠٤ ، لملاقاة احمد قرامانلي – الذي كان يحرص اشد الحرص على ان يصفــه دوماً « بالباشا الشرعي لطرابلس » – فابتدأ احدى اغرب المغامرات في تاريخ علاقات الولايات المتحدة بشمالي افريقيا .. كان احمد في قلب مصر حيث تألبت حوله جماعة من بكوات المماليك الثائرين الذين كانوا يخوضون حرباً ضد العثمانيين الممثّلين بوالي السلطان . ان خوف احمد من شقيقه يوسف، باشا طرابلس ، لا حبه للحرب ، هو الذي دفعه الى التغلغل في مناطق بعيدة شمالي النيل . ولقد كانت مشكلة « ايتون » – بل وشغله الشاغل – ان ينتقد احمد (الذي اراده ان يكون حاكماً دمية بين يديه) ويجمع جيشاً قوياً من العرب والطرابلسيين المنشقين . وكان نجاح المغامر الاميركي في مهمته وتذليله لأصعب الصعوبات دليلاً على عزيمته وصموده وارادته .

كانت مصر تتخبّط في الفوضى عند وصول « ايتون » . كــان الانكليز ، الذين احتلوا مصر بعد خروج « نابوليون » ، قد غادروا

البلاد في ربيع عام ١٨٠٣ ، فعاد العثمانيون الى الحكم حكماً اسمياً . وكان نائب الملك آنذاك رجلاً عثمانياً اسمه احمد باشا خورشيد ، ولكن صلاحياته لم تكن تشمل الا مساحة ضئيلة حول الاسكندرية والقاهرة . وكانت زمر متنقلة من الانكشارية الالبانية المتحجرة القلوب تنهب وتسلب وتعيث فساداً في البلاد . وعند اعلى النيل ، كان كثير من البايات المماليك يحاربون جنود خورشيد ويهددون باجتياح عاصمته القاهرة . وهكذا ، فقد كان على « ايتون » ان يجد لأحمد مكاناً ما بين هذه التكتلات الداغرة* .

واذا علمنا ان هدف « ايتون » الاول كان انشاء صداقات مع اشخاص مصريين لهم نفوذهم ، ادركنا لماذا اتصل على الفور بالمسؤولين البريطانيين هناك ليقدم لهم رسائل توصية من حاكم « مالطة » . لقد عامل البريطانيون الاميركيين برفق ولين ، وأظهروا لهم لطفاً ملحوظاً ، كما كانوا اصحاب الفضل في تحقيق الاجتماع الذي تم بين « ايتون » ونائب الملك المصري في القاهرة . وتجدر الاشارة الى ان شركة « بريغز اخوان » في الاسكندرية قد مدت الحملة الاميركية بالمال والعتاد . وكان « صموئيل بريغز » ، وهو عضو في تلك الشركة ، قنصلاً بريطانياً في مصر . وعلى نقيض الانكليز ، فقد حارب الفرنسيون « ايتون » في كل يوم فنقشوا في فؤاده كرهاً ابدياً لفرنسا .

ومما يذكر ، ان قنصل فرنسا – وكان رجلاً ايطالياً اسمه « دروفيتي » – اشاع ان الاميركيين هم جواسيس . وبعد ذلك ، اصدر « دروفيتي » هذا اوامر حرّمت قيام اية علاقة او اتصال بين اي فرنسي وبين الاميركيين ، الامر الذي حمل « ايتون » على تحرير خطاب قاسٍ وعاصف وشديد اللهجة الى القنصل من جهة ، وعلى

---

* اي المشاركة في حرب العصابات .

الاحتجاج رسمياً لدى الحكومة الفرنسية من جهة اخرى .

في اول الامر ، انتقل « ايتون » الى القاهرة . وكان الانكليز قد زودوه في الاسكندرية بزورقين للقيام بالرحلة ، كما ارسل المندوب الانكليزي المقيم هناك سكرتيره ليرافق « ايتون » ، وكان يدعى الربان « فينسنتو » وكان يعرف المنطقة حق المعرفة . وفي الزورق الاول ، الذي كان يرفرف عليه العلم الاميركي ، ابحر « ايتون » نفسه ، ومعه الملازم اول الاميركي « برسلي ن. اوبانون » ، وضابط الصف البحري « جورج مان » ، وضابط الصف « ايلي دانيلسون » (وكان ربيب* « ايتون ») ، والمغامر المدني الانكليزي « ريتشارد فاركوهار » ، والانكشاري سليم ، والترجمان علي ، وستة من الخدم ، جميعهم بكامل اسلحتهم وعدّتهم . اما الزورق الثاني ، فكان يرفع العلم البريطاني ، وعليه الربان « فينسنتو » ، والدكتور « فرانسيسكو مندريسي » وكان احد اصدقاء « ايتون » منذ ايام اقامته في تونس ، وعدد من الملاحين يكفي للعمل وراء مدفعين دوّارين . وقد صممت المجموعة على الصمود في وجه الداغرين ، المشاركين في حرب العصابات ، وعدم الوقوع في ايديهم . اما الدكتور « مندريسي » فكان ضربة حظ موفقة بالنسبة للمُبحرين ، اذ سرعان ما اصبح طبيب نائب الملك ، وهو الآن رجل له نفوذه وتأثيره .

لقد كان النجاح حليف البعثة في القاهرة . فاستقبل نائب الملك زائريه بحفاوة مهيبة . وتكلف « ايتون » ان يظهر بمظهر مُرضٍ ، فتملّق وداهن مضيفه .. وانطلاقاً من ان الاعتراف بالحقيقة افضل سياسة ، شرح « ايتون » رغبته بعودة احمد قرامانلي الى الاسكندرية كما يقود الاثنان معاً حملة على يوسف قرامانلي ، الذي نعته « ايتون » بأنه حاكم

---

* اي ابن زوجته .

مغتصب وطاغية . ومن جملة ما بعث به الى وزير البحرية ما يلي :

« ولقد بيّنت له ، بطريقة تروقه ، اذ فيها من الاطراء ما ضرب على وتره الحساس ، الفرق بين حكام الدول المتبربرة وعادات المناطق الاخرى التابعة للدولة العثمانية » .

فابتهج نائب الملك لهذه المجاملة ، ولهذا التقدير لشهامته ، ولهذا الاجلال تعبيراً عن الاعجاب بشخصه – تلك الخصال التي لم يلاحظها الا القليل من الرجال من قبل – وهز رأسه علامةً على الرضى .

وأضاف « ايتون » :

« ولكي أغيّر مجرى الحديث قليلاً ، تطرقت الى موضوع الصلة والتقارب في المبدأ ما بين الاسلام والدين الاميركي » (يقصد المسيحية).

وبتلك الطريقة ، وبعد ان أقنع « ايتون » خورشيد أنه هو والشعب الاميركي ليسوا في الواقع سوى أشقاء وأخوة ، نال « ايتون » وعداً بالمساعدة والمعونة . بيد ان خورشيد صرح بأنه اذا ما انضم احمد الى الثوار ، فان حماسته للطرابلسيين سوف تخمد ومحبته لهم سوف تتضاءل .

« فأجبته ان موضع الألم والأسى قد لا يكون بالضرورة موضع الاستياء والامتعاض بالنسبة لعقل نيّر ، وان الله وحده يصفح عن عدو تائب بدلاً من معاقبته » .

إلا ان خورشيد أدرك ، بحكمة ، ان خروج احمد من مصر سوف يريحه من عدو واحد ، واعتزم على ان يبعث اليه رسولاً يحمل معه كتاب امان وعفو .

هذا ، وقد ارسل « ايتون » رسولاً يحمل معه كتاب تشجيع . وفي هذا الكتاب المرسَل قال « ايتون » لأحمد مرائياً :

«كتب الله لك ان تواجه المشاكل ... ونحن نعتقد أنه كتب لك ايضاً ان مشكلاتك ستنتهي الآن » .

وخشية ان يخاف احمد من ان ينتقم خورشيد من عدو سابق ، فقد

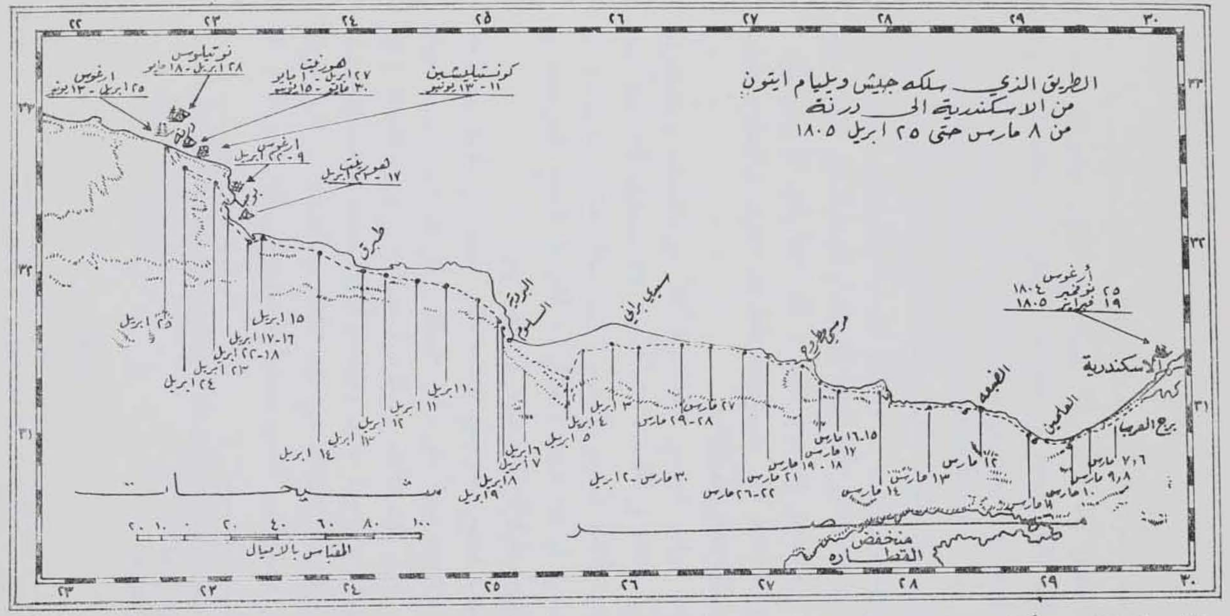
أكد له « ايتون » بأن خورشيد :

« الذي يتميز بعقل واسع جـــدير بأمير ، وبقلب طيب رقيق شبيه بالسماء ، قد نسي الاوضاع والاحداث التي وقعت ولم يتذكرك إلا كما كنت ، ولذا فهو يتيـــح لجلالتك ان تعرّج على اي ناحية من انحاء بلاده ، من غير ان يتعرض لك احد ، وان تنزل معي في أي مرفأ تشاء » .

وفي ذلك الوقت ، كان « ايتون » يأمل بأن تتخذ الحملة طريق البحر لتصل الى ضواحي درنة او بنغازي .

بيد انه ، في هاتيك اللحظات ، كان عليه ان يستقر في القاهرة وينتظر كلمة من الباشا الشارد . واخيراً ، وفي الثامن من شهر كانون الثاني (يناير) ، تلقى رسالة من احمد قرامانلي يطلب منه فيها ان يقابله في مكان ما من الصحراء ولكن خططهم ما لبثت ان تغيرت حين طلب احمد الرحيل الى الاسكندرية ومعه حوالى ثلاثين رجلاً من انصاره . ومن ثم ، تم الاجتماع بين الرجلين – في آخر الامر – في دمنهور ، وذلك في ٥ شباط (فبراير)... وفي اليوم التالي استعدا للانطلاق الى الاسكندرية.

واتفق ان اوقفهما ، مسؤول تركي في مكان يقع بالقرب من تلك المدينـــة ، وذلك بتحريض من « دروفيتي » – القنصل الفرنسي – ، ومنعهما من متابعة الرحلة . ان ذلك الموقف لم يكن صفعة موجهة الى كبريائهما وحسب ، وانما كان محرجاً ومضايقاً ، اذ ان « ايتون » كان قد سبق له ان رسم مخططاته لأن يجند جماعة من الجنود المسيحيين في الاسكندرية . ووصلت الى « ايتون » معلومات ، ارسل بها الملازم اول « اوبانون » ، تفيد بأن الأميرال التركي والمحافظ مصممان على ابقاء احمد خارج حدود الاسكندرية . ونصح « اوبانون » صديقه « ايتون » بأن يحصل على كتاب من نائب الملك « كاف لارضاء جماعة من القادة الجهلة الذين لا يتميزون بصالحة الا قوتهم ، والذين يصرون بعناد على عدم



الطريق الذي سلكه ايتون من الاسكندرية الى درنة . منقولة عن المجلد الخامس من كتاب الوثائق البحرية المتعلقة بحروب الولايات المتحدة ضد شمالي افريقيا ، باذن من المكتب الاميركي للسجلات البحرية ، دائرة الأسطول.



السماح لأحمد بدخول الاسكندرية بدون اوامر اضافية جديدة » .

ولقد فضّل أحمد قرامانلي ألا يتورّط مع العثمانيين بصعوبات عدة ، فغيّر خططه ثانيةً وابتعد عن المدينـــة ، ليخيّم في مكان يعرف باسم « برج العرب » ، يقع على مسافة ثلاثين ميلاً غربي ميناء الاسكندرية القديم ، وضرب موعداً لأنصاره الذين كانوا سيلتحقون بجيشه وينضمون الى زمرته . وفي غضون ذلك ، ذهب « ايتون » الى المدينـــة ليجتمع بالملازم اول « اوبانون » ، والملازم اول « اسحاق هَل » رُبّان السفينة « ارغوس » . ولقد قرر أحمد نهائياً ألا يتقدّم الى درنة عن طريق البحر ، وإنما ان يزحف عبر الصحراء الليبية ، لأنه كان يأمل ان ينضم إليه ، في الطريق ، عدد كبيرٌ من العرب المتشوقين للحرب والمتعطشين للسلب والنهب وقت احتدام المعركة .

لم يؤخر غياب أحمد عن الاسكندرية كلاً من « ايتون » و « اوبانون» عن تعزيز جندهما في الخفاء ، علماً بأنهما كانا متيقظَين لئلا يُشتمّ منهما أنهما يقومان بأعمال التسليح والتجنيد . وفي رسالة بعث بها « ايتون » الى وزير البحرية في ١٣ شباط (فبراير)، أشار الى النجاح الذي حققه في تطويع الجنود المرتزقة المغامرين * ، فكتب يقول :

« سوف اجتمع به (يعني احمد) ومعي كتيبة من المدينة يوم الأحد المقبل ، ونتوجه سويةً على رأس خمسمائة رجل إلى « بومبا » ** حيث سنعسكر . وفي تلك الأثناء ، يكون الربان « هـــل » في القاعدة (اي « سيراكوزة ») ليزودنا بالمؤن والمعدات لتوطيد اقامتنا وترسيخها في درنة وبنغازي . واذا ما استولينا على تلك الأقاليم والمقاطعات ، فانها سوف تفلت من قبضة العدو لتنقلب مصدراً لذخائرنا ومركزاً لتموينننا ، كما

---

* ان الجندي المرتزق او المغامر هو ذلك الجندي الذي يلتحق بالجيش حينما لاح له بارق كسب او مغامرة او متعة. (المعرب)

** انظر الخريطة .

أنها ستتيح لنا مجال الاتصال بداخل البلاد . ولقد طلبت من قائد الاسطول
- قصد تحقيق غايتنا هذه - مئة قطعة سلاح ، مع خرطوشاتها ، ومدفعي
ميدان (محمولين على عربة) ، مع قاطرتيهما وذخائرهما ، وكتيبة من
الاسطول لا يقل عدد رماتها البحريين عن المئة ، اذا ما كان الأمر ضرورياً
حتى نقوم بهجوم مفاجىء مباغت . »

وقدر « ايتون » ان مصاريف الحملة سوف تكون معقولة جداً ، كما
أنه ضمن ان يعوّض على الولايات المتحدة ما تكون قد دفعته ، عندما
يتربع الباشا أحمد قرامانلي على كرسي العرش ، شأنه في ذلك شأن كل
رجل نيو إنغلندي مقتصد . ووعده أحمد بأن يتحمل النفقات التي تدفعها
الولايات المتحدة في الحرب . وكان أحمد سيدفع تلك النفقات من اموال
الجزية المفروضة على السويديين ، والدانماركيين ، والهولنديين . وبالمناسبة
فقد كتب « ايتون » الى نظارة البحرية يقول ما يلي :

« اني اقدّر جميع المصاريف والنفقات النقدية التي سنتحملها في تلك
الحملة ، بما في ذلك الاموال التي انفقت في مصر ، بحوالى عشرين
الف دولار . وهذا ، مع الاشارة الى انه سوف تضطرنا الحاجة إلى
تكبّد نفقات ومدفوعات وبضائع أخرى في سبيل تنفيذ خطتنا حتى الهدف
الأخير . ولكن ، لتطمئن الولايات المتحدة !! فاني سوف أُعوّض لها
عن خسارتها ، لا سيما بعد ان توصلت الى عقد اتفاقية مع أحمد باشا
تنص على ان أتعهد بنفسي جمع جزية كل من السويد ، والدانمارك ،
وجمهورية باتافيا ؛ وسوف أحوّل هذه الاتفاقية الى صك اقدمه الى
الربان « هل » اذا ما سمح لي الوقت بذلك ؛ وإلا فسوف أتدبّر الأمر
في أول مناسبة وأقرب فرصة » .

ان الاتفاقية التي أتى « ايتون » على ذكرها ما كانت سوى وثيقة
جليلة مهيبة تضمن استمرار السلام الدائم مع الولايات المتحدة ، وتفرض
على أحمد ان يتقيد بالمعاهدات المعقودة مع الدانمارك ، والسويد ، والجمهورية

الهولندية . وعلاوة على ذلك ، فبعد النظر بعين الاعتبار الى الخدمات التي قوبل بها الاسطول الاميركي المتمركز في « سيراكوزة » ، واعترافاً وتقديراً منه لذلك ، أضاف « ايتون » فقرةً الى الاتفاقية تضمن لمملكة الصقليتين معاملة ممتازة وكأنها ولاية من الولايات المتحدة الأميركية نفسها .

ولقد وافق أحمد باشا قرامانلي ، في حال قيام حروب بين الفريقين في المستقبل ، (وهذا ما يبعث على السخر ، بالنظر الى ضمان « السلام الدائم » الذي نوّهنا به) على ان يعامل أسرى كلا الطرفين معاملة أسرى حرب لا معاملة رقيق، وان « تبقى القنصلية الاميركية دوماً ملتجأ آمناً مقدساً لجميع من يرغب في الاحتماء تحت ظلها ، ما خلا الذين يفعلون ذلك تستراً على جريمتي الخيانة والقتل » .

وأخيراً ، و « بمقتضى هذه الاتفاقية ، فان « ويليام ايتون » – مواطن اميركي من الولايات المتحدة الاميركية يقيم الآن في مصر – سوف ينصَّب جنرالاً وقائداً عاماً مسؤولاً عن الجيوش والقوى البرية التي تدعى لمحاربة العدو المشترك » .

وعلى اساس هذا « التنصيب » أو « التفويض » او « التعيين » – سمِّه ما شئت – حمل « ايتون » لقب جنرال ، واحتفظ بتلك الرتبة طيلة الأيام المتبقية من حياته . ومن الأهمية بمكان عظيم ، ان نذكر ان ثمة مادة سرية من الاتفاقية يأخذ فيها أحمد عهداً على نفسه بتسليم شقيقه يوسف (الباشا المغتصب) الى الاميركيين ، وبتسليمهم « بيتر لا يل » المعروف باسم « الريس مراد » (الاميرال الطرابلسي) معه أيضاً .

وُقعت الاتفاقية في الثالث والعشرين من شهر شباط (فبراير) ، أي في الوقت الذي كانت فيه استعدادات الرحيل على طريق الحملة منتهية تقريباً . ولكن ترتب بعض التأخير والاحراج عن نذالة « ريتشارد فاركوهار » الذي اختلس مبلغ ١,٣٥٠ دولاراً من « ايتون » . ثم ، في ٢ آذار (مارس) ، عندما انتهت جميع الاستعدادات وكان كل شيء

جاهزاً ، ألقى الجنود العثمانيون القبض على جماعة من أنصار أحمد حين كانوا في طريقهم لمغادرة الاسكندرية « ومعهم العديد من أمتعة الجيش ». فذعر الباشا أحمد قرامانلي لسماعه هذا النبأ ، الى درجة انه كان على وشك الهرب في الصحراء . وعندها تدخّـــل الملازم اول « اوبانون » — كما سيحدث فيما بعد اكثر من مرة — ، وأقنعه بأن حياته ليست في خطر . إن المراقب المالي العثماني المسؤول عن الضرائب قد أمر الجند بالقاء القبض على أنصار أحمد لأننا — على حد قول « ايتون » — : «لم نشتره بعد». وبعد مساومة استغرقت يوماً كاملا ، أطلق العثمانيون سراح الأسرى ومعهم أمتعتهم .

وفي الثالث من شهر آذار (مارس) ، قـــاد « ايتون » جماعة من السفاحين الذين كان قد سلحهم ، سراً لا علانية ، في شوارع المدينة الخلفية — أقول انه قادهم مغادرين الاسكندرية . وقد خيموا باطمئنان خارج المدينة ووضعوا جردة بعددهم وببضائعهم واعتدتهم . وبعد ايام ثلاثة انضموا الى جماعة أحمد قرامانلي المتنافرة والمؤلفة من عناصر مختلفة في برج العرب ، حيث أخذوا يشكلون من انفسهم وحـــدة عسكرية محاربة — اذا ما جاز لنا استعمال ذلك التعبير بدلاً من كلمة « جيش » كذاك الذي اقترح « ايتون » ان يهاجم به طرابلس .

ولقد ابتاع « ايتون » من بدوي عربـي ، اسمه « الشيخ الطيب » ، قافلة من الجمال قوامها ١٩٠ جملا ، بأحد عشر دولاراً الجمل الواحد . وكان يحق له ، وفق تلك الصفقة وبعد ان دفـــع الثمن ، ان يستعمل القافلة طوال الرحلة الى درنة ، ولكن الشيخ الطيب اعتقد اشياء أخرى ، وراح يطالب بالمزيد من المال . ونقع في يوميات « ايتون » على العبارة المقتضبة التالية :

« هدأته وأشبعت رغبته بالوعود ».

هكذا ابتدأت المشكلات بينه وبين الشيخ الطيب .

كان على « ايتون » ان يختار ضابطاً مساعداً له ورئيساً للمهندسين ، فوقع اختياره في القاهرة على وغـد ساذج – بكل ما تحمل الكلمة من معنى – كان يتنكر في تلك الهنيهة بشخصية خبـير عسكري تحت اسم « يوجين لايتنسدورفر » . وكان ذاك الجندي المرتزق المولود في « التيرول الايطالي » قد خدَم على التوالي عند النمساويين ، فالفرنسيين ، فالانكليز فالعثمانيين ، مزدرياً الاخلاص ومترفعاً عنه . والطريف انـه انقلب مرة الى راهب كبّوشيّ . ومن ثم ، قام برحلة الى مكة كدرويش وَرِع ، غير مهتم بالعقيدة الارثوذكسية . ولما عثر عليه « ايتون » ، كان يعيش حياة مُعدمة مُفلسة مع العثمانيين في مصر ، وكان ينتظر مغامرة مُربحة أخرى .

كان الجنود الذين تطوعوا في الاسكندرية ، كما دوّن « ايتون » في يومياته ، قد تشكلوا على النحو الآتي :

« كان هناك جماعة من المدفعيين يعدّون خمسة وعشرين ، يرئسهم « سليم كومب » والملازمان الأولان « كونان » و « روكو » ... وكان هناك سرية تتألف من ٣٨ يونانياً وعلى رأسهم الربان « لوكو يولوفيكس » والملازم اول « كونستونتين » . أمـا حاشية الباشا ، فكانت تتألف من حوالى تسعين رجلا ، بما فيهم اولئك الذين قدموا من الفيـوم والذين انضموا اليه مُذ وصوله الى الاسكندرية . ان هؤلاء جميعاً ، بالاضافة الى مجموعة من الفرسان الخاضعين لأمر الشيخ الطيب والشيخ محمد سوية ، (وتضم تلك المجموعة المشاة والجمالين) انهم كانوا يؤلفون قرابة الاربعمائة شخص . هذا ، وكانت « قافلتنا تتألف من مئـة وسبعة جمال وبعض الحمير » .

وأخذت المئة وتسعون جملاً من جمال الشيخ الطيب تتضاءل على نحو مرعب مُنذرٍ بالخطر . وبالاضافة الى اليونانيين ، كان بين « المسيحيين » بعض المواطنين البريطانيين ، واثنين او ثلاثة من الألمان ، والايطاليين ،

والاسبانيين ، واجناس مختلفة من المشرقيين .

كان الاميركيون الوحيدون في ذاك الجيش – وقد ساروا رافعين راية الولايات المتحدة – ، هم الرجال التالية اسماؤهم :

« ويليام ايتون » نفسه ، والملازم « اوبانون » من الاسطول الاميركي ، وضابط الصف « باسكال باولي بيك » من بحارة الولايات المتحدة ، وأحد رقباء الاسطول ، وستة من الملاحين ... – مما يجعل عددهم الاجمالي عشرة رجال ، لكنهم رجال همة وجَلَد .

ولم يسبق في تاريخ الولايات المتحدة العسكري ان حقق عشرة رجال – وحتى من رجال البحرية – ما حققه اولئك العشرة من مُنجزات ببراعتهم وشجاعتهم ... أما فيما لو حصل « ايتون » على الرماة البحريين* المائة الذين طلبهم من القائد « بارون » ، فلكان تمكن فعلاً من ان يزحف من البوابة الخلفية لمدينة طرابلس .

وبالمناسبة ، فان الطريق الذي اختاره « ايتون » كان الطريق ذاته (تقريباً) الذي سار عليه ، في تاريخ لاحق ، الجنرال « مونتغمري » للتلاحم مع « رومل » الألماني . ومع ان الشروحات واسماء المواقع التي ذكرها « ايتون » في يومياته تدع لنا مجالاً واسعاً للتساؤل والشك في خط السير الصحيح والحقيقي ، فيبدو ان « ايتون » قد ظلّ محاذياً للخط الساحلي في النصف الاول من رحلته ، في حين انه كان يسلك بعض القادوميات والطرق المختصرة عبر الرؤوس** الهامة . فمن « بير النفطة» ، شرقي « سيدي براني » ، اختار طريقاً برية مختصرة تؤدي الى « السلوم » ، ومن هناك عاد وتوغّل في البرّ ماراً بجنوبي طبرق ،

---

* ان الرامي البحري هو جندي من البحرية الاميركية مدرب على الخدمة في البحر والبر .. (المعرب)

** جمع رأس وهو لسان من الارض داخل في البحر ..

من غير ان يدنو من الساحل ثانيةً ، الى ان وصل الى الطرف الشرقي من خليج بومبا...ومن « بورت مينيلوس » الواقع على الخليج المذكور سلَك طريقاً مختصرة برّية اخرى قادته الى درنة من مدخلها الجنوبي الشرقي.

إن المصاعب العديدة في تلك الطريق لا تضاهيها إلا وعورتها ، الأمر الذي يلاحظه المسافر عليها حتى اليوم حيث تتيح له التقنية الحديثة استعمال آليات وتجهيزات ومحرّكات ... لقد كانت الرحلة بالنسبة لجيش « ايتون» – وكان بعض افراده ، بالمناسبة ، من المشـــاة ، والبعض الآخر من الفرسان ، وما تبقى منهم كانوا يمتطون الجمال والحمير – ، كانت كفاحاً مستمراً ضد عوامل الطبيعة . وقد زاد من صعوبة الرحلة خوف أنصار أحمد الجبناء وتشاؤمهم ... ان احمد قرامانلي نفسه كان يبدو جباناً كالأرنب ؛ زِدْ عـــلى ذلك كله ، أن عرب الصحراء ، الذين قاموا بدور الخدمة والتموين ، كانوا يخلقون المشكلات عند كل محطة توقف.

•

وأخيراً ، تحرّكت القافلة في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الثامن من شهر آذار (مارس) ، وسارت مسافة خمسة عشر ميـــلاً من برج العرب الى جُرُف عـــالٍ فوق البحر ، حيث خيّم الجميع مؤقتاً في العراء .

وفي صباح اليوم التالي ، جلس الجمّالون وأصحاب الخيول أمام معسكراتهم كئيبين ، ومُتجهّمي الوجوه ، ومتحركين ببطء ، بدلاً من ربط أمتعتهم والانطلاق باكراً من جديد ... وقبـــل ان يحرّكوا قدماً واحدةً ، فانهم راحوا يطالبون بدفعة مالية مُقَدَّماً . ولمّا رفض «ايتون» الاذعان لطلباتهم ، ثاروا وهدّدوا باستعمال السلاح وسفك الدم .

وكتب « ايتون » :

« لقد أوهمهم الشيخ الطيّب بأنهم اذا ما قاموا بواجباتهم قبـــل ان

يقبضوا أجورهم ، فان الاميركيين سيصبحون حرّيين بسلبهم اموالهم بالاحتيال . وبدا الباشا قانطاً جزعاً ، ومتردّداً متحيراً ... المال ... المزيد من المال ، كان الباعث الوحيد الذي يستطيع ان يحرّك المخيّم وينفخ فيه الحياة » .

وكان العرب يرفضون ان يتزحزحوا طوال صدر النهار (من الصباح إلى الظهيرة) . عندها ، حشّد «ايتون» الرجال المسيحيين ، وأخذ يتراجع نحو الاسكندرية ، مهدداً بالتخلي عن أحمد قرامانلي وعصبته... حينئذ – وحينئذ فقط – أذعن الجمّالون وتابعوا الرحلة . فقطعوا مسافة اثني عشر ميلاً فقط قبل ان يهبط الظلام .

وكانت الايام الخمسة التالية مفيدة ومثمرة ، اذ ان القافلة اخذت تقطع معدّل خمسة وعشرين ميلاً تقريباً في اليوم ، ولكن هذا لم يمنع وقوع الحوادث وبروز العوائق . ففي الثالث عشر من آذار (مارس) ، على سبيل المثال ، وصل مبعوثٌ من درنة يحمل أنباء سارة – ثبت انها ملفقة (فيما بعد) – تفيد ان الايالة تتسلح استعداداً للثورة على الوالي من جهة ، واستعداداً لاستقبال أحمد استقبال الفاتحين من جهة اخرى ... فما لبث بعض أنصار أحمد ان امتطوا خيولهم واندفعوا يطلقون رصاصات تلعلع في الفضاء ، احتفالاً بالنبأ السار . فذعر العرب المنتشرين في غير اتساّق في مؤخرة الجيش لذلك الاهتياج الفوضوي ، وظنوا ان رجال القبائل الصحراوية الغرباء يهاجمون القافلة ، فقرروا هم أنفسهم أن يذبحوا المسيحيين ويفرّوا بأمتعة الجيش . ولكن نصيحة أحد الشيوخ العقلاء حالت دون انهاء الحملة على تلك الصورة وقبل الأوان . وبعد ذلك ، تيقظ الرماة البحريون وزملاؤهم النصارى وباتوا أشد حذراً ، لكنهم لم يقووا على منع اللصوص ، بعد يومين ، من سرقة الاسلحة ، والاعتدة ، وجميع مؤونتهم من الجبنة – الأمر الذي كان خسارة فادحة بالنسبة للرماة البحريين الذين لم يستسيغوا أكل التمر أو شرب حليب الجمال.

بدأ المطر الشديد يهطل الآن مصحوباً ببرد قارس فغدت الطريق أمام القافلة وحلاً كثيفاً ... وانزلقت الجمال وزلّت أقدامها في الممرات الوعرة غير الآهلة ... وخوّض المشاة في الوحل على نحوٍ بائس لا يُحسدون عليه . وفي ١٦ آذار (مارس) ، كان الطقس قد بلغ حالة من القساوة اضطر معها القائد لاصدار أمره بالوقوف . كانت الرياح ، وكان الرعـد ، وكانت الامطار المتقطعة ، كلّها ضدهم . وما ان نصبوا خيامهم حتى طاف المعسكر بالمياه التي غمرته غمراً ، فاضطر كل امرىء الى ان يتسلق الى بعض التلال والهضاب المرتفعة حتى لا يجرفه وابـلُ المطر الغزير المفاجىء .

وبالرغم من ان اليوم الثاني كان ماطراً أيضاً ، فقد اعطى «ايتون» اشارة استئناف المسير. كان وحل الصحراء أرحم من لزوم معسكر مُشبع بالماء من غير الاتيان بحركة ما ، حيث يسود نتن الجمال الكريهة الرائحة من جهة ، وحيث تدوي اصوات العرب المتخاصمين وتنتشر جلبتهم من جهة ثانية ... ومرة أخرى ، رفض الجمّالون ان يتزحزحوا من مكانهم ما لم يُدفع لهم المـال ، ولكن « ايتون » — على حـد قوله — : « استرضاهم بالوعود » ، فقطعوا مسافة اثني عشر ميلاً قبل ان يخيموا في وهـد او مسيل (واد صغير ضيق شديد الانحدار) كثٍّ وكثير الاغصان المقطوعة ، ليلاً .

وفي مساء اليوم الثامن عشر من آذار (مارس)، وصلت القافلة الى القرية الساحلية مرسى مطروح (التي نعثر عليها باسم « ماسروسكاه » في اليوميات) . وهناك قُدمت لهم الابقـار ، والخراف ، والامعاز ، والطيور ، والدجاج ، والزبـدة ، والتمور ، والحليب ، ولكن بثمن عال جداً . والآن ، أجبر الجمالون والشيوخ المسؤولون عن القافلة القائد « ايتون » على التسليم بالأمر الواقع والخضوع لشروطهم . فقـد أدرك القائد ، بمزيد من الدهش ، ان أحمد كان قد وعـد القادة العرب بألا

يتابعوا سيرهم أبعد من مرسى مطروح .

ان التفصيلات الدقيقة لاتفاق احمد باشا قراماللي مع القادة ما زالت ضبابية ، على انه من الواضح الجلي ان أحمد قد شوّش المشروع وعكره و « لخبطه » .

وتعيّن على « ايتون » عندئذ أن يجد النقود الكافية لارضاء كل جمّال على حدة ، رجاة الحؤول دون تراجع القافلة وعودتها الى حيث كانت . وهكذا فقد استدان (بالتملق) مبلغ مئة وأربعين دولاراً من المسيحيين المرافقين له ، وأخرج كل ما في جيبه من نقود ـ حتى آخر فلس يستطيع انفاقه . وبكلمة أوضح ، تمكن من جمع ٦٧٣ دولاراً أعطاها لأحمد كيما يوزعها على العرب المضربين ،شريطة ان يتابعوا سيرهم يومين آخرين حتى يصلوا الى نقطة ما يستطيع فيها القائد استئجار قافلة جديدة من بعض القبائل العربية .

لقد تحوّل كنز « ايتون » الى ثلاثة سكاوين* فينيسية** .

وفي اليوم التالي ، انتقم أحمد من القافلة ، وبدلاً من ان تتابع القافلة سيرها توجه الجميع عائدين الى مصر ، ما خلا أربعين منهم ... ليس هذا فقط ، بل لقد اكتشف « ايتون » ان احمد كان قد اتفق مع الشيوخ على تبديد الوقت وقتل الساعات في مرسى مطروح ، حتى يعلموا ان السفن الحربية الاميركية أصبحت في انتظارهم في بومبا . وكان أحمد خائفاً وجلاً مرتعد الفرائص اكثر من أي وقت مضى ، ولا سيما بعد ان سمع نبأً نقله حاج مراكشي ، كان في طريقه الى مكة ، مفاده ان يوسف يعمل على ارسال ثمانمائة من الخيالة والعديد من جنود المشاة الى درنة .

---

* نقد ذهبي ايطالي قديم كان متداولا وقتئذ . (المعرب)

** نسبة الى البندقية .

واذا ما كان ذلك صحيحاً – على حد قول « ايتون » – ، فانه لمن باب أولى الأسراع في الحملة قبل ان تصل التعزيزات العسكرية الى درنـة . ولكن أحمد ، شخصياً ، لم يستطع ان يتحمل مجرد التفكير بمحاربة عدو على ذلك الجانب من القوة . وبالنتيجة ، فانه قبع مع الشيوخ في خيامهم يتناقشون الى ما لا نهاية ، في حين تبعثرت القافلة وتفسّخت .

كان الوضع صعباً ودقيقاً، وكان « ايتون » يائساً وقانطاً ... ولكن، خطرت له فكرة بينما كان يبحث عن حل يُجبر الجميع على متابعة الحملة بأي ثمن كان ... فقد أمر رجاله المسيحيين باخفاء المؤن وحمايتها، وخيّر أحمد والعرب بين استئناف الرحلة وبين الموت جوعاً ... لن يعطيهم ذرة طعام حتى يُغيروا نواياهم . ونجحت الفكرة ! ففي اليوم الثاني –٢١ آذار (مارس) – عاد خمسون من الجمال ، وقطع الجيش مسافة ثلاثة عشر ميلاً باتجاه درنة .

وما ان بزغ فجر اليوم التالي حتى وصلوا الى سهل منبسط عريض قرب البحر . وهناك ، وجدوا معسكراً عربياً كبيراً يضم قرابة الثلاثة آلاف او الأربعة آلاف نسمة ، علاوة على قطعان عظيمة من الجمال ، والخيول ، والخراف والامعاز . وعلى الرغم من ان رجال القبائل كانوا ودودين ، مُحبين ، نزّاعين الى التأييد والمساعدة ، وبالرغم من انهم عرضوا على القافلة ان يبيعوها اللحم الطازج وسواه من المواد الغذائية ، فاننا نرى « ايتون » يكتب بحزن :

« ان الشحّ الذي كنا نعانيه على الصعيد المالي النقدي لم يسمح لنا إلا بمبادلة أرُزنا بما كان لديهم من غلال ومحاصيل . »

كانوا قد سئموا – والحق يُقال – من وقعة الخبز القاسي والارز، تلك الوقعة الجافّة الروتينية . فلو كان لديهم كمية اكبر من الأرز ، لكانوا ربحوا الكثير في عمليات المقايضة ، اذ ان العرب اظهروا شهية

كبيرة للأرز الذي استساغوه كثيراً ، حتى ان احدى النساء ، كما كتب « ايتون » :

«عرضت ابنتها على ترجماني مقابل كيس من ذاك النوع من الحبوب، وقد وافقت الابنة على ذلك . كانت فتاة متناسبة التقاطيع والثنيات، سمراء رقيقة لفعتها أشعة الشمس بسياطها ، في الثالثة او الرابعة عشرة تقريباً من عمرها ، لها عينان واسعتان معبرتان ، مائلتان الى السواد ، وحاجبان مقوسان ، وأسنان مثالية رائعة ، لا نظير لها ، وشفتان لهما قدرة على ابهاج الحواس ، لا بل خُلقتا لاثارة الشهوانية الحسية ... كانت عملية المقايضة على وشك ان تتم شرط موافقتي . ولكن تعقلي وتدبري منعاني من ذلك . »

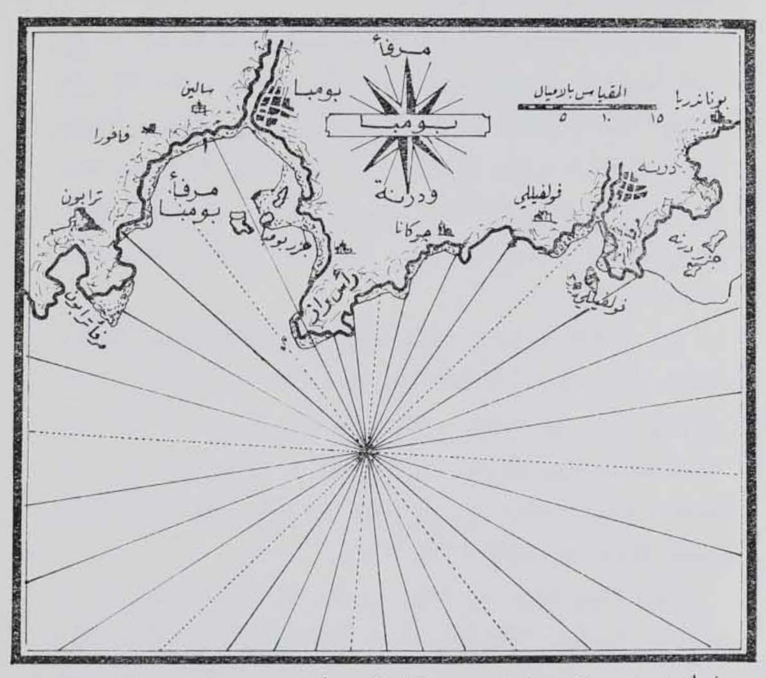
وهكذا، ففي الصراع الذي دار ما بين ضمير ذاك الرجل النيو إنغلندي وبين رغبته في المقايضة ، انتصر الضمير !

ثمة شيء مُغر آخر كان على القائد ان يتجنبه مرغماً لعدم وجود المال الكافي . وتفصيل ذلك ان ثمانين محارباً (مع خيولهم) عرضوا خدماتهم على احمد قرامانلي مقابل مبلغ ما . ولكن لما لم يكن في حوزة أحمد او « ايتون » أي مال على الاطلاق ، فقد اضطرا الى اضاعة فرصة الاستفادة من تلك القوة الجديدة . ونجد في اليوميات ، في هذا الصدد ، العبارة التالية :

« وجدنا ان النقود هي نَهَمُ العرب والاتراك الوحيد » .

غير ان « ايتون » افلح في استئجار تسعين جملاً لنقل بضائعه الى بومبا . ذلك انه وعد اصحاب الجمال بالدفع عند الوصول، عندما يستكمل حوائجه ويسد نقص أمواله من المراكب البحرية هناك .

وفي خلال الاسبوع التالي ، أعاقت المنازعات مع الشيوخ وزعماء القبائل ، وبخاصة الشيخ الطيب ، التقدم ، كما أنذرت أحياناً بالقضاء



خريطة بومبا ودرنة . من منشورات وليام هيتزر في لندن ، سنة ١٨٠٢ . هذه النسخة موجودة في مكتبة هانتنغتون .



على المشروع من أساسه ... فهناك ، وحيداً في الصحراء ، ليس معه الا مجرد عدد من المسيحيين يُعدون على الأصابع ، وقف « ايتون » مُصراً على رأيه ، متحدياً الشيوخ ان يفعلوا أسوأ ما يقدرون على فعله وموحداً الحملة على نحو متماسك .

كان احمد مشكلة بحد ذاته أكثر منه مساعداً ، اذ ان جبنه قد بلغ درجة أصبح يقع هو نفسه معها ضحية اليأس والعذاب ويفقد كل عزم له لمتابعة السير ، وذلك كلما كان يسمع ما يشير الى المقاومة الشديدة التي تؤمنها قوات يوسف في درنة . فقد ذُعر ذُعراً لا يوصف عندما سمع رسولاً يقول في ٢٦ آذار (مارس) ، ان ثمة خمسمائة خيال هم في طريقهم للدفاع عن درنة . استمع الى اليوميات تقص عليك ما حدث :

«بدا ان الباشا متردد في التقدم خطوة أخرى... لقد هرب الجمالون بالقافلة،وأراني اظن ان ثمة تفاهماً بين أنصار الباشا من جهة وبين عرب « بهارى » من جهة أخرى ، حول العودة الى الفيوم . فما كان مني الا ان منعت عنهم مؤونتهم (او جرايتهم ، كما يقول) حتى تعود القافلة ، وحتى نستأنف السير من جديد الى غايتنا ... ثم عقدت اجتماعاً. وسيطر القنوط على انفعالات كل مُحيا » .

وتمرّد الشيخ الطيب من جديد ، ورفض ان يأتي بحركة قبل ان يتأكد من ان السفن الاميركية صارت بانتظارهم في بومبا . فثارت ثائرة « ايتون » ، واجتاحه غضب لا يعرف الحدود ولا الضبط ، فوصف الشيخ الطيب بالوغد الخائن ، واعلن ما يلي :

« إني لنادم على اني قد تعرفت اليك . ولسوف أغتبط كثيراً اذا ما نفّذت تهديدك وحققت وعيدك ، شرط الا تتدخل في نوايا القادة والشيوخ الآخرين . »

وكتب « ايتون » يصف تلك الحادثة :

« فترك الشيخ المكان وغادر المعسكر غاضباً ، وهو يقسم بكل قوة دينه بألا يعود إلينا قط . وكان بمكنة الباشا ان يوفد ضابطاً من قبلـه لتهدئة الجو واعادة الشيخ الينا . ولكني رفضت وعارضت . فرحل الشيخ ومعه نفر قليل من قبيلته » .

وفي اليوم التالي لتلك الحـادثة ، حرّض الشيخ الطيب العرب ، الذين كانت قد استأجرتهم القافلة في المعسكر الجديد ، حرّضهم عـلى العصيان المسلح ، واقنع نصفهم تقريباً بالعودة معه الى مصر ... ومـرة ثانية ، رفض القائد الاميركي الاقتراح الذي تقدم بـه احمد لارسال ضابط يرجو الزعيم العربي ان يعود . ولكنه أرسل ، بدلاً من ذلك ، كلمة يقول فيها انه يرحب باتاحة الفرصة له كي يعاقب الوغد بالرصاص وبالسيف الضالع (وهو سيف وحيد الحد أعقف قليلاً يستعمله الفرسان). فما كان من الشيخ الطيب الا ان اقسم بالانتقام من احمد ومن « أسياده المسيحيين ، كما لقبنا » (هذا ما كتبه « ايتون » نفسه) .

لقد أضاف هذا التهديد الى هموم احمد هماً جديداً ، ولكن مخاوفه تبددت الى حد ما عند الظهيرة ، حين ارسل الشيخ يقول أنـه سوف يعود لينضم الى القافلة اذا مـا انتظروه . فعاد هو واعضاء قبيلته في منتصف فترة بعد الظهر .

ولما كان أحمد قرامانلي ضحية مخاوف لا تفارقه لحظة واحدة ، لا سيما حين كان يفكر في ساعة تلاحم جيشه مع جيوش أخيه ، فانه كان كلما قرُب من درنة زادت مخاوفـه وتضاعف ذعره . وفي ٢٨ آذار (مارس) ، تغلبت عليه مخاوفه تماماً . فقد أمسك بالخيول التي كـان يمتطيها ضباط « ايتون » ، وقدمها الى مشاته الذين فروا مـن المعسكر كلمح البصر ... وبدا « ايتون » غير هيّاب ازاء تلك السلسلة الجديدة من الاحداث ، فاكتفى بقطع المؤن عن العصاة ، وأمر رجاله المسيحيين بالسير الى الامام . وما ان مضت ساعتان اثنتان ، حتى عـاد احمد

المتردد المتذبذب ، يقدم الاعتذارت ، ويدّعي انــه كان في نيته أن يهدىء انصاره . فاستمع « ايتون » ، كالح الوجــه ، الى أعذار الأمير الالعوبة وأمر باستئناف المسير ...

وما عتموا ان وصلوا الى قرية عربية محصنة ، وذلك بعد ان ساروا أكثر من اثني عشر ميلاً ، في ذلك اليوم .

ومما زاد في تعقيد الأمور ان بعض قوافل التموين لم تصل ، فأوفد احمد احد كبار ضباطه للبحث عنها . ولكن ذاك الضابط لم يرجع هو بدوره أيضاً ، فتوقفت القافلة كلها تنتظر . وفي مساء اليوم التــالي ، ٢٩ آذار (مارس) ، عاد المبعوث ومعه معظم العرب التائهين .

وفي الفترة التي كان يبحث فيها المبعوث عن قافلة التموين ، قــام « ايتون » بزيارة القلعة العربية حيث استُقبل بالترحاب . وقد دُهش العرب لكتفياته التي ظنوها مصنوعة من الذهب الخالص . ويقول «ايتون» في يومياته :

« ... واستغرب العرب كيف ان الله يدع أُناساً يدينون بديانة الشيطان يملكون أمثال تلك الاشياء الثمينة » .

وفي اليوم نفسه ، حاول « ايتون » الاستفادة من عطلته الاجبارية ، فأخذ يصرح أمام شعب طرابلس بآرائه المنمقة ، باللغة الفرنسية . لقد حثهم على ان يُولوا أحمد حاكمهم الشرعي الحقيقي ، ثقتهم ، وان يؤمنوا بالله الواحد الأحد الذي يعبده الامير كيون والمسلمون على حــد سواء ... فباتباعهم تلك النصيحة ، سوف يضمنون « سلاماً سرمديــاً وتجارة حرة ومنتشرة » — الامر الذي كان بالنسبة لرجل نيو إنغلندي ، إن لم يكن بالنسبة لرجل طرابلسي ، نعيماً في منتهى السعادة .

كان « ايتون » مُتلهفاً باستمرار لاقنــاع المسلمين بأن الامير كيين يختلفون عن المُلحدين الاوروبيين ، فعلّم ترجمانه ان يوضح لهم « ان ديانة الامير كيين تختلف عن جميع ديانات الدول الاخرى التي يرتدي

ابناؤها القبعات » – علماً بأن القبعات والعمامات هي العلامات المميّزة لكل من المسيحيين والعثمانيين على التوالي – ؛ كما علّمه بأن الاميركيين يفتحون صدورهم لجميع الديانات ويتقبلونها بنزاهة وتجرد كاملين. والحق يقال ، ان « ايتون » مضى يقول انه بالرغم من ان الله قد وعد الاميركيين بجنة منفردة فان باستطاعتهم – في العالم الآخر – ان يعقدوا اجتماعات ، وان يزوروا :

« جنة محمد (صلى الله عليه وسلم) وجنة البابويين (اتباع المذهب الكاثوليكي)... ولكنهم ارتابوا وشكوا في قصتي . فقلت لهم ان لدي اثباتات وتأكيدات بأني استقبلت استقبالاً حسناً وعوملت معاملة طيبة من ذينك النبيين ، اذ ان العدد العديد من اصدقائي هم من المؤمنين بواحد أو آخر من هذين النبيين. فابتسموا ، ولعلهم سخروا ، لتلك الفكرة، ولكنهم اعترفوا بأنهم سيكونون في غاية السرور اذا ما شاهدوني في جنتهم ، على الرغم من انهم شكّوا فيما اذا كان النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) سيسمح لي بالدخول الى هناك، حتى على سبيل الزيارة، ما لم أدلي بالشهادة وأصبح مؤمناً صادقاً » .

•

ان عودة الحيوانات ناقلة المؤن وأصحابها رفعت من معنويات الاميركيين ولكن تفاؤلهم لم يدم طويلاً ، اذ حدث في اليوم التالي ، وذلك قبل ان يتقدم المسيحيون بضعة أميال من المعسكر ، ان تشاجر العرب ، بعضهم مع البعض الآخر ، وذلك بينما كانوا يجمعون امتعتهم . فقد تشاجر الشيخ الطيب مع الشيخ محمد بسبب الالف والخمسمائة دولار التي كان احمد قد قرر على ان تجري قسمتها بينهما بالتساوي ، مكافأة لهما على حسن خدماتهما . واذ ان الشيخ الطيب كان

قد أخفى جزءاً من النقود لديه ، أخذ الشيخ محمد يتهمه بالغش وعدم الوفاء وقلة الاستقامة ، كما اعتزم هو بدوره — ومعه اتباعه — عدم متابعة الرحلة . ولم يطل الامر حتى انضم اليه بعض الزعماء والقادة الصغار ، حتى بدا وكان معظم المحاربين الذين كان يعتمد عليهم كل من «ايتون» وأحمد قد تبخروا في الصحراء .

وعبثاً حاول احمد ان يقوم بدور المصلح ... وأخيراً ، يئس وكفّ عن المحاولة ليسرع باللحاق « بايتون » راجياً مساعدته . وهكذا سار المسيحيون ثلاثة أميال الى الوراء ونصبوا خيامهم عند بئر ماء . ثم انهم أوفدوا ترجمانهم مع أحمد واثني عشر خيالاً كيما يجربوا مصالحة العرب المتخاصمين فيما بينهم .

والواقع انه اذا ما انسحب اولئك القبائليون ، الذين كانوا يمتّون الى القبائل المقيمة حول درنة بصلة ، من القافلة ، فان امكانية تأمين قوى وتعزيزات إضافية للحملة على المدينة المذكورة سوف تكون أمراً أشبه بالمستحيل .

حتى اذا اصبحت الامور على تلك الحال ، بلغ اشمئزاز « ايتون » من العرب درجة لا حدود لها ... اسمعه يكتب في يومياته مشمئزاً :

« ابتداء من الاسكندرية وحتى هذا المكان ظللنا نعاني بصورة مستمرة من مشاحنات رجالنا العرب ومشاجراتهم ، ومن خلافاتهم وجدالاتهم ، ومن تأخيرهم الدائم ... ليس لدى اولئك الرجال الذين رافقونا أي حس بالوطنية ، او الصدق ، أو الشرف ؛ وهم لا يتقيّدون بأية ارتباطات ما لم يكن وراءها كسب مالي ، ما خلا الأمور والواجبات الدينية التي يُبدون نحوها حماساً كبيراً . ان الفقر قد جعل منهم لصوصاً ، والممارسة جعلت منهم بارعين في فن السرقة . فاذا ما غابت عين المراقبة عن شيء ما يرغبون فيه لحظة واحدة ، فانك لن تجد ذاك الشيء بعد تلك اللحظة بتاتاً . وأكثر ما يجتذب اهتمامهم : الاسلحة ،

والذخائر ، والمؤن ... ولكن عدداً كبيراً من رجالنا سُرقت لهم ثيابهم وحاجاتهم الأخرى ... »

وبينما كان احمد والترجمان يحاولان جاهدين مصالحة العرب المتشاجرين، بقي « ايتون » والمسيحيون في المعسكر ... لقد عادت الامطار الى الهطول ، وهبت ريح باردة من جهة البحر الابيض المتوسط . وكان التشاؤم ، في ذلك اليوم الاخير من آذار (مارس) ، أسود كالطقس تماماً . غير ان اول يوم من نيسان (ابريل) لم يأتِ بأي ضرب من التشجيع اطلاقاً ... واستمر المطر ينزل مدراراً ... ودخل الشيخ الطيب، « أبو المشاكل » ، الى خيمة « ايتون » ليطلب المزيد من الجراية ، فلم ينل سوى توبيخاً وتأنيباً . فقد قال له القائد :

« لقد كنت دوماً على رأس كل حركة عصيان قامت منذ ان غادرنا الاسكندرية . وأنت المحرض الآن: تحرض القادة والزعماء . اترك خيمتي ! اخرج منها ! ولكن انتبه وخذ حذرك !! اذا ما قامت اية فتنة أو حركة عصيان جديدة في المعسكر ، في اثناء غياب الباشا ، فلسوف أقتلنّك شرّ قتلة وكأنك انت نفسك – لا احد سواك – المسؤول عنها » .

خرج الشيخ من الخيمة ، وهو يهدد بأن يبدأ بتحريض عصبته ، بيد انه ما لبث ان انسل مطأطأ الرأس مكسور الجناح ، بعد الظهر ، الى خيمة « ايتون » ، ملتمساً منه المغفرة ونسيان ما ظهر منه وصدر عنه ، وواعداً اياه بالاخلاص والاستقامة الدائمين ... لقد فعلت الكلمات القاسية العنيفة فعلها أكثر من التروي والتفاهم .

عاد احمد قرامانلي الى المعسكر في اليوم الثاني من شهر نيسان (ابريل)، وهو مبتلّ وملوث بالوحل ، ومعه الشيخ محمد وسواه من القادة الذين كانوا قد هربوا . لقد ابدى نشاطاً قليلاً ونجح في تحقيق مهمته ، هذه المرة فقط ، بطريقة ما من الطرق لم يدركها

« ايتون » . ومهما يكن من امر ، فقد اقنع احمد انصاره وحلفاءه بالعودة . وفي الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم ، دعا « ايتون » احمد وجميع الشيوخ الى خيمته وألقى فيهم كلمة حول السلم والاتحاد . وها نحن نتركه يقص علينا ما حدث :

« رحت احذرهم من المشاجرات السابقة ، واحضهم على الاتحاد والمثابرة على اعتبار انهما يؤلفان معاً الطريق الوحيد المؤدي الى النجاح الاكيد في المهمة الخطيرة التي نذروا أنفسهم لأجلها ، والتي قطعوا عهوداً على انفسهم بالاخلاص لها والتفاني في سبيل تحقيقها . ومن ثم ، أصدرت الاوامر باستئناف الزحف في صباح اليوم التالي ... كان لدينا الآن ما يتراوح بين الستمائة والسبعمائة رجل محارب ، باستثناء اتباع المعسكر والعائلات البدوية ، الذين كانوا يبلغون حوالى الالف ومئتي نسمة » .

كانت خيبة الأمل بانتظار « ويليام ايتون » الذي كان يتمنى – أو قل يتوقع – الاسراع . فعلى الرغم من ان القوافل باشرت سيرها في الساعة السادسة من صباح اليوم الثالث من شهر نيسان (ابريل) ، فانها لم تقطع الا مسافة عشرة اميال ذلك اليوم ، اذ لم يمض طويلُ وقت حتى شرع العرب ينصبون الخيام بجانب حوض ماء استعداداً للاستقرار هناك مدة من زمن ، كما اتفقوا على القيام برحلة برية طولها خمسة ايام الى واحة داخلية بحثاً عن مؤونة طازجة من البلح . فاعترض «ايتون»... لكن العرب اجابوا انهم يعانون نقصاً في الطعام – والحق ان الجميع كانوا يشكون من ذاك النقص المتزايد – ، وان مؤونتهم تكاد تنفد ، مصرين جميعاً على ألا يتقدموا خطوة واحدة قبل ان يتموِنوا من جديد. وقد أكد لهم القائد الاميركي ان السفن ستؤمن لهم الطعام حتماً في بومبا اذا ما حثوا الخطى ، ولكنهم اجابوه ببرودة ان احداً لا يستطيع ان يضمن ذلك . كان الشك يكتنف قصة السفن من جميع جوانبها ، في حين ان تمور الواحة (في سيوه) كانت مضمونة اذا انتظروا قليلاً ...

وفي آخر الأمر ، اقنعهم « ايتون » بقبول حل وسط : وهو ان يرسلوا فريقاً منهم الى سيوه شريطة ان يلتحق بالجماعة في بومبا ومعه التمور . ووافق الباقون على السير في الغد .

وما ان حُلت تلك المشكلة – او كانت على الاقل في طريقها الى الحل – ، حتى خصص العرب اليوم الثالث من نيسان (ابريل) بأكمله للاحتفالات . فبعد الظهر ، خرج الجمع كله ليحتفل احتفالاً صخّاباً بزفاف زعيم كهل متقدم في السن على فتاة في الثالثة عشرة من العمر ... فانطلق الفرسان على خيولهم يدورون حول المعسكر طربين فرحين، وهم يطلقون رصاص مسكيتاتهم * – كل ذلك اضاعة واستهلاكاً فارغاً للبارود ، الامر الذي ازعج القائد النافد الصبر .

تابع « الجيش الخليط » سيره في الايام الثلاثة التالية ، من غير تأخر يُذكر ... وفي السادس من نيسان (ابريل) ، خيم عند أسفل خندق ** في السلوم يبعد حوالى اربعة اميال عن شاطىء البحر (راجع الخارطة) . وكان الموقع مهجوراً، خرباً ، مقفراً ، ليس فيه إلا بئر ماء نتن واحد .

والواقع ان الخيول كانت قد امضت الاثنين والاربعين ساعة الماضية من غير ان تشرب نقطة ماء واحدة ؛ زد على ذلك، ان مَطرات الماء العائدة لعابري السبيل كانت على وشك ان تجف . وكان الطعام – ايضاً وايضاً – آخذاً في النقصان بسرعة... ان أي تغيير في وقعة الخبز والارز كان سيلقى ترحاباً اجماعياً . وقبل يومين ، كان احد الضباط قد اصطاد سنّوراً (أو هراً برياً) ، وعمد الى طهوه ... وتخبرنا اليوميات « ان مذاقه كان لذيذاً جداً » .

كانت الحاجة المتزايدة للغذاء تحتم بالضرورة الاسراع وحث الخطى .

---

* مفردها مسكيت ، وهي بندقية قديمة الطراز خاصة بجند المشاة .

** يبنى عادة حول موقع دفاعي .

وفي ذلك الحين ، قدّر « ايتون » ان بومبا ما زالت تبعد حوالى تسعين ميلاً ، بينما كانت مؤونته لا تكفي اكثر من اسبوع واحد آخر .

وخرج الجيش من الخندق في ٧ نيسان (ابريل) ، وعبر النجد الواسع . وفي اليوم التالي ، هبط الجيش احد الوديان حيث عثر اخيراً وبعد طول انتظار على مياه صالحة للشرب . ولقد وصل الجيش الى النبع عند حوالى الساعة التاسعة قبل الظهر... وفي حين كان القائد الاميركي « ايتون » يستطلع الطريق امامه ويستكشفها ، اصدر احمد قرامانلي امراً باقامة مخيم . فحنق « ايتون » للتأخر ولاضاعة القسم الافضل من ذاك النهار سدى ... فاحتج احمد، وتذرع بأن رجاله بحاجة ماسة الى الراحة. والحق انه كان ينوي ان يظل مخيماً هناك بانتظار رجوع مبعوث من بومبا يحمل اليه خبر وصول السفن . ومرة اخرى ، استعمل « ايتون » سياسة الحزم .

واليك ما كتبه في هذا الصدد :

« ولقد اخبرته انهم بعملهم هذا قد اختاروا الجوع على التعب، وأمرت بقطع الجراية عنهم ، حتى يتضوروا جوعاً » ...

فكان رد فعل احمد باشا قرامانلي ان امر انصاره بجمع امتعتهم استعداداً للعودة الى مصر . وعلاوة على ذلك ، فقد هددوا بالاستيلاء على جميع ما تبقى في حوزة القائد ومساعديه من مؤن واطعمة .

لقد اصبح الوضع موئِساً .. لفظ « ايتون » امراً بـ « الى السلاح » ، وشكّل المسيحيون خط دفاعٍ حربي امام خيمة المؤن ، في حين احتشد العرب في مواجهتهم . ومضت ساعة من الزمن ، وكل فريق ينتظر الآخر ان يقوم بالحركة العدائية الاولى . وأخيراً ، اقنع احمد العرب بالانصراف، فارتاح كل امرىء واسترخى .. وهكذا بدا ان الكارثة قد ماتت .

ولكن – لسوء حظ « ايتون » – فانه عندما امر جنوده بالاسراع الى اسلحتهم ، حسبَ العرب المتيقظون ان جنود القائد هم على وشك

اطلاق النار . فذعروا بل لقد جُنّوا من الذعر ، وامتطوا خيولهم ، واستعدوا اما للهرب او للدفاع . اما احمد الذي شاركهم خوفهم ، فقد انضم اليهم . ثم اندفع الخيالون بسرعة فائقة ، وقَدِم مئتان منهم تقريباً يحملون على المسيحيين الذين تسمروا في امكنتهم ببسالة . وقبل ان يصل العرب الى خط الدفاع ، صوّبوا على الضباط ، ولكن واحداً من رجال احمد منعهم ، وردعهم عن ذلك ، قبل ان يطلقوا رصاصة واحدة — دالاً بعمله هذا عن وعيٍ وتفهم وادراك اكثر من قائده .

وورد في اليوميات الابتونية ما يلي :

« لقد وقف بجانبي السيد « اوبانون » ، والسيد « بيك » ، والشاب الصغير « جورج فاركوهار » صامدين ثابتين . وحافظ سليم آغا (قائد المدفعيين) ، وملازموه الاولون ، والضابطان اليونانيان على مراكزهم دون ان يتزحزحوا . اما الباقون ، فقد ارتعشوا ، وتخلوا عنا في الحقيقة! فدنوت من الباشا وحذرته من تشجيع اي عمل يائس او تأييده . وعلى التو صُوّبت الى صدري مجموعة من المسكيتات .. فذهل الباشا .. وحجب صوتي صخبٌ وجلبة احدثا ضجة عالية كان مصدرها رجال كثيرون .. فلوّحت بيدي ، طلباً للهدوء والانصات . وفي تلك اللحظة المصيريـة الحاسمة ، دخل بيننا بعض ضباط الباشا وزعماء العرب ممتطين خيولهم ، وسيوفهم مشهورة ، ففرقوا الثوار العصاة . ثم اني وبخت الباشا ولمته على تسرعه وطيشه ، او بالحري على ضعفه . ولقد سأله امين امواله اذا ما كان بكامل قواه العقلية .. فضربه الباشا بسيفه المجرد . وما لبث الشجار ان استعاد انفاسه من جديد عندما امسكت الباشا من ذراعه ، وقدته بعيداً عن الحشد ، وسألته اذا ما كان يعرف مصالحه الخاصـة واصدقائه الخلّص . فراق ولان ؛ ودعاني صديقه وحاميه ؛ وأضاف ان الناس يبغضونه بسرعة .. وتبعني الى خيمتي إثر اصدار امره للعرب بالتفرّق » .

وعندما تعهد احمد باستئناف السير عند الصباح الباكر ، اصدر « ايتون » اوامره بتوزيع الأرزّ . وقبل ان يبلغ النهار آخره ، كان الباشا الطرابلسي يتودد الى القائد الاميركي متزلفاً متملقاً ، منادياً اياه باسم « الأميركي المقدام الشجاع » ، كما كان يدعوه بصديقه المفضّل. واذا ما يئس « ايتون » ، فان عزمه على الوصول سريعاً الى درنة لم يتضاءل .

وقد كتب في يومياته يقول :

« كنا نجد انه من المستحيل ان ننفخ في اولئك المتعصبين المتوحشين روح الثقة فينا ، فنحن لم نكسب ثقتهم هذه . كما انه كان مستحيلاً ايضاً ان نقنعهم بأن كوننا مسيحيين لا يعني اننا اعداء المسلمين . لقد كانت مهمتنا صعبة حقاً !! »

وعلى الرغم من ادعاءات احمد بالصداقة والمودة ، فقد ظل ساخطاً ناقماً مستاءاً . ففي اليوميات نسمع ما يلي :

« لقد ادخل بعضهم في روعه اننا لا نستعمله الا في سبيل احلال السلام بيننا وبين شقيقه وحسب ، وان النمط او الاسلوب الذي سننهجه للتوصل الى مبتغانا امرٌ لا نكترث به » .

ومن هنا ، نستدل على ان الباشا احمد قرامانلي كان يتمتع بميزة المتنبىء الراجم بالغيب .

وصل الرجال بعد مسيرة اليوم التالي الى مرعى خصيب فيه حوض ماء . وتتحدث اليوميات ، في هذا الصدد ، بصورة مقتضبة اذ تقول :

« وجدنا في ذاك الحوض جثتين هامدتين ، ويمكن ان يكون العرب قد قتلا هذين الرجلين ... ومهما يكن من امر ، فقد كنا مضطرين لاستعمال هذه المياه » .

ومع ان الخيل قد توفر لديها علف جيد ، فان اطعمة الرجال قد تناقصت بسرعة. ففي ١٠ نيسان (ابريل) خفضت الجراية الى النصف،

اعني نصف جراية من الأرز والماء .

وجابه الجيش في تلك الليلة اسوأ خطر من اخطار الرحلة . فلقد جاء احد الضباط يحمل خبراً للقائد الاميركي للحملة خلاصته ان المدفعين المسيحين لن يرضوا بالجراية المخفضة الى نصف الكمية من الأرز ، وهم يهددون بالثورة . والحق ان « ايتون » لم يثق بأحد ، اللهم سوى « اوبانون » ، وقد ارسل يقول ان الموت الآني ينتظر الثائر الاول . بيد انه لم يفصح لنا عن كيفية مواجهته ثواراً متساوين معه في الرتبة . ولعله كان يعتقد اعتقاداً راسخاً ان « اوبانون » ورماته البحريين السبعة قادرون على مواجهة الطوارىء بكفاءة ورصانة .

ولكن الحظ ابتسم له – هـذه المرة فقط ... فبعد مضي نصف ساعة من سماعه نبأ الثورة المتوقعة ، وفد مبعوث الى خيمته يخبره ان السفن الاميركية تنتظرهم في بومبا . « فانقلب الجو رأساً على عقب » ، مثلما يعبّر عن تلك اللحظات في يومياته التي يقول فيها :

« وفي لحظة ، تغير وجه كل شيء ووجه كل امرىء : من تجهم قانط الى سرور متحفز ... ولم نعد نسمع اي حرف عن الثورة . لقد عاد العرب الى ولائهم لنا وثقتهم بنا . ووعدني الباشا بأن يغذّ الخطى في الجزء المتبقي من الرحلة حتّى نصل الى بومبا » .

ولقد اصيب احمد بنوبة تشنج عضلي لا ارادي وغير سوي صحبتها نوبة اخرى من التقيوء ، إما لدهشه العظيم للأنباء المفرحة ، او لضعفه المفرط بسبب الجوع . واستمرت النوبتان حتّى اليوم التالي ، واجبرتا الموكب على اقامة المخيم بعد عبور مسافة خمسة اميال فقط .

ثم ان جنود « ايتون » الجائعين قطعوا ازرار ثيابهم وبادلوها ببعض التمور من نساء العرب البدويات . وفي ١٢ نيسان (ابريل) ، استعاد احمد صحته ونشاطه ، فتابع الجيش زحفه مسافة خمسة وعشرين ميلاً الى الامام ، ولكن مخيم تلك الليلة لم يوفر لهم أي ماء او وقود . وتناول

الرجال آخر حبات الأرز نيئة لعدم تمكنهم من اشعال النار . وقد بلغ التعب والجوع والانهاك من بعض رجال العرب القبائليين مبلغاً عظيماً الى درجـــة انهم شردوا في غير اتساق او نظام على بعد خمسة اميال وراء الموكب الرئيسي .

وفي ١٣ نيسان (ابريل) استبد الجوع بالرجال حتى ان احمد امر بذبح احد الجمال وتوزيع لحمه على الجميع . ثم قايض الباشا الطرابلسي بعض العرب المجاورين جملاً آخر من جماله مقابـــل بعض الخراف . واثر النشاط الذي دبّ في اجسام الرجال لأكلهم اللحم الطازج ، عبروا مسافة خمسة عشر ميلاً في الرابع عشر من ذلك الشهر ، وخيموا في واد كثير الاعشاب الضارة. فراح كل واحد منهم ينتقل من مكان الى آخر، في ذاك الحقل ، بحثاً عن النباتات والجذور التي التهموها بنهم . وثمة ضرب من الشُّمرة البرية والحماض كانا افضل قوت مغذ لهم .

وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم الخامس عشر من شهر نيسان (ابريل) ، كان الجيش قد عبر الصحراء نحو شواطىء خليج بومبا . والذي كان يبدو للعين المجردة هو انه لم يكن في استقبالهم الا مياه البحر الابيض المتوسط الزرقاء . لم تلمح عيونهم ايما شراع . زد على ذلك ، انهم لم يعثروا على أي نبع او بئر مملوء بمياه المطر ليطفئوا لهيب العطش الذي كان يلسع حلوقهم . ولما لم يكن لديهم افضل من الشُّمرة البرية والحمّاض يحشون بهما امعائهم ، فقد قطّب الجيش الجائع جبينه مظهراً غضبه ازاء « ايتون » .

ان خيبة الأمل هذه كانت اشبـــه بالصاعقة التي نزلت عليهم لتحطمهم ، لا سيما بعد ان تأكد لهم ان الخرافات التي حيكت حول السفن الاميركية ، التي لن تأتي على الاطلاق ، ما كانت الا ضرباً من الخيال .

ولم يجرؤ العرب على تبديد طاقاتهم في اعمـــال المشاجرة ، فلزموا

خيامهم فاقدي الامل في تلك الليلة الرهيبة . وكان من المقرر ، في صباح اليوم التالي، انهم سوف يرجعون الى الوراء حتى السهل... واذا ما اراد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ان يساعدهم ، فسوف يحصلون على قوتهم من بدو الصحراء . لقد ركزوا انظارهم على « سيوه » وهم ينتظرون عودة الجماعة ومعها التمور ، على احر من الجمر... لن يصدقوا مسيحياً بعد اليوم .

ان « ويليام ايتون » نفسه انما كان محتاراً مرتبكاً في امره ، ولكنه لم يكن ، مع ذلك ، يائساً . فهو كان يعتقد ان « هل » لا بد وان يكون في مكان ما قرب الشاطىء ، وانه عاد وابحر في عرض البحر بعد ان فقد الأمل في العثور عليهم ، لا سيما وانه من المحتمل ان يكون قد ابحر الى مكان يأمن فيه شر الرياح المخادعة . بل ولعله يكون في مكان قريب بحيث يرى منه اشارات النيران اذا ما اطلقت من مخيم « ايتون » في الليل .

واليك ما دوّنه القائد بهذا الصدد :

« توجهت ومعي رجالي المسيحيين ، واضرمنا النار من على جبل مرتفع طوال الليل . وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي ، صاح امين اموال الباشا احمد قرامانلي بأعلى صوته بأن شراعاً ما يلوح في الافق ... وأخذ الشراع يدنو منا... وسرعان ما ادرك المراقبون ان السفينة «ارغوس» تتجه نحونا . ان اللغة لتعجز عن وصف — بل ورسم الغبطة الطاغية التي عرفناها والنشوة الكبرى التي ارقصت قلوبنا ، بعد ان دبّت في صدر كل منا الحياة من جديد » .

ويتابع القائد وصفه فيقول :

« صعدت الى السفينة في تمام الساعة الثانية عشرة . اما الموكب ، فقد تحرك ، في غضون ذلك ، قرابة الخمسة او الستة اميال حول الخليج بحثاً عن حوض ماء .. وفي الساعة السادسة من بعد الظهر ،

ارسلنا لهم المؤن . ولزمت السفينة طوال الليل » .

ووصل السَّلُوب * « هورنيت » في ١٧ نيسان (ابريل) ، وهو محمَّل بالبضائع المختلفة . وقاد « ايتون » الموكب حول الخليج، مرة ثانية ، اكثر من عشرين ميلاً بحثاً عن مركز افضل في الميناء ، وشرع ينقل المؤن الضرورية التي تسد حاجة جيشه في الجزء المتبقي من الرحلة الى درنة . وارتاح الجيش الجائع مدة ستة ايام ، وكان على استعداد لاستئناف رحلته في ٢٣ نيسان (ابريل) . ثم ابحرت « ارغوس » ومعها « هورنيت » لملاقاة الجيش عند درنة . وبعد مسيرة يوم كامل تحت الامطار وعبر مناطق صخرية وتضاريس جبلية ، وصـل الجيش الى طرف حقول محروثة وجبال محرّجة .. والحق ان تلك الاحراج كانت في الواقع اول الاخشاب التي وقعت عليها انظارهم طوال رحلة السمّائة ميل من مصر .

وفي ليلة الرابع والعشرين من نيسان (ابريل) خيّم الجيش في وادٍ اخضر بجانب نُهْير رقراق موقّع النغمات .. بقي امامهم خمس ساعات ويصلون الى درنة .

•

لقد ارتفعت معنويات القائد . ان الهدف الرئيسي الاول لسنين عديدة من التخطيط ووضع المشاريع كان ينتصب امامه مباشرة .. وعلى العموم، فانه كان واثقاً من قدرته على الاستيلاء على المدينة ، ومن قدرته على الزحف على بنغازي ايضاً ، ومن ثم على طرابس نفسها ايضاً وأيضاً .

اما وجهة نظر احمد ، فكانت تختلف اختلافاً شاسعاً . فهو لم يكن ليود ان يشن حرباً في الدرجة الاولى . انه لم يورّط نفسه مـع المغامر

---

* السلوب مركب شراعي وحيد الصاري .

الاميركي الا وهو يمنّي النفس بالانتصار السهل ، على اهون سبيل .. ولقد اعتزم عدة مرات على ان يعود من حيث اتى . وها ان رسولاً يأتي الآن ليخبرهم ان والي درنة سوف يدافع عن المدينة حتى آخر رجل .. ان حرباً من ذلك النوع لم تكن لتنال اعجـاب احمد باشا قرامانلي، فطوال ليلة ٢٤ نيسان (ابريل) ، تباحث احمد مع معاونيـه الكبار من غير ان يجربوا الاستفادة من نصيحة « ايتون » .

وعندما اصدر القائد امر استئناف السير في صباح اليوم التالي ، ثار العرب وهاجوا . وما كان من الشيخ الطيب والشيخ محمد — ونعرف كيف ان كليهما ضايق « ايتون » في رحلة الصحراء — الا ان اتجها شرقاً . اما العرب الباقون ، فقد رفضوا مغادرة خيامهم ، فجلسوا بكل بساطة ، ينتظرون ما قد يفعله القائد .

وبعد ان بدّد الزعماء ساعات ما قبل الظهيرة في المجادلة والمساومة ، قرروا اخيراً متابعة الرحلة ، لكن ثمن اخلاصهم كان الوعد بدفع مبلغ الفي دولار توزع عليهم حصصاً .

وفي الساعة الثانية من بعد ظهر ٢٥ نيسان (ابريل) ، وصـل « ايتون » وجماعته غير المنظمة — اخيراً — الى مكان مطل على درنة ، وخيموا على مرتفع يشرف على المدينة .

كان ثلث المدينة تقريباً محصناً ، مع فتحات للرمي عديدة ، وكل منها عبارة عن فرجة في جدار بعض البيوت تطلق منها نيران الاسلحة الصغيرة ، مع بعض المتاريس المرتجلة التي يبلغ ارتفاع واحدها ارتفاع الصدر ، ومدفعية بحرية تتألف من ثمانية مدافع يطلق كل منها قذائف زنة واحدتها تسعة ارطال . وكان ثمة قذّاف (مدفـع قذّاف طراز عشرة انشات) على سَطيحة قصر الوالي . ولقد علم « ايتون » ان في مقدور الوالي ان يعتمد على نحو ثمانمائة رجل لحمايته . وبالاضافة الى ذلك، فقد علم ايضاً ان جيشاً ارسلـه يوسف قرامانلي من طرابلس هو في

طريقه الى درنة الآن .

ثم ان الشيوخ الذين امتطوا خيولهم للحاق بأحمد وزمرته اخبروا « ايتون » ان هناك العديد من المنشقين عن سياسة العهد (وهم يتمركزون في الثلثين غير المحصّنين من المدينة) والذين سوف لن يترددوا لحظة واحدة في شن هجوم مفاجىء على الوالي ، بكل سرور ، اذا ما اشتموا رائحة النصر ، ولاح لهم ان املهم بالنجاح كبير .

ولقد تعهد بعض الشيوخ العرب بالولاء لأحمد والاخلاص له ، وعادوا الى المدينة لتحريك انصار المعارضة المناوئة للحكم السائد هناك .

•

بدأ « ايتون » يستعد للمعركة . فكان اول ما فعله في يوم ٢٦ نيسان (ابريل) ان بعث يطلب من الوالي « مصطفى بك » ان يستسلم ويتخلى عن المدينة بصورة رسمية .

واستهل القائد الاميركي خطابه بقوله :

« لست ارمي الى احتلال اراضيكم . ان الباشا الشرعي لبلادكم يرافقني ها هنا . دعونا نمر عبر مدينتكم ، وافسحوا لنا مجال التزود بالمؤن التي سنحتاج اليها ، وسوف تتلقون تعويضاً عادلاً . لا تدعوا الاختلاف الديني يحرضنا على سفك دماء رجال ابرياء يفكرون قليلاً ولا يعلمون شيئاً .. » .

وكان مصطفى بك رجلاً شجاعاً مقداماً فاحتقر ادعاءات « ايتون » وتهديداته . وقد اجاب على رسالة ذاك الاخير بصرامة ، اذ بعث يقول :

« رأسي او رأسك ! »

وكان بالامكان ، بعد الظهر ، رؤية السفينة « نوتيلوس » ، وفي ٢٧ نيسان (ابريل) ، وقفت السفينتان « ارغوس » و « هورنيت » امام الميناء . لقد حان « اوان الشدّ » .. فأمر « ايتون » جيشه بالهجوم

على المدينـــة ، بينما تمركزت « نوتيلوس » و « هورنيت » في مواجهة المدفعية . وقد ارسل الملازم اول « هل » — قائد السفينة « ارغوس » — زورقاً يحمل مدفعي ميدان الى اسفل جُرف كان يتمركز عنده مدفعيو « ايتون » . فأطلق المدفعيون طلقة واحدة ، ولكن وقتاً طويلاً أفلت من ايديهم حتّى ان « ايتون » امرهم بترك مدفع الميدان الثاني في الزورق، والمباشرة بالهجوم على الفور .

وهكذا، احتشدت السفن الامير كية والتحمت مع المدفعية الطرابلسية . وقاد « هل » سفينته « ارغوس » حتّى دخل مجال الجزء المحصّن من المدينة ، وصب نيرانه على البيوت المزودة بفتحات للرمي. وقسّم « ايتون » قواته الى ثلاثة اقسام ، وشن هجوماً مثلثاً من جهات مختلفة ثلاث . فقاد بنفسه فريقاً على الجناح الايمن الاقرب الى البحر . اما الملازم اول « اوبانون » فقد شن هجومه من الجهة الجنوبية الشرقية مع رماتـــه البحريين ، ومدفعييه الاربعة والعشرين ، ومع الستة والعشرين يونانياً ، وبعض المشاة العرب ، وانقضّوا على المتاريس المرتجلة. واحتشدت قوات احمد باشا قرامانلي حول رأس واد صغير وضيق وسهـــل الانحدار ، وكان ذاك الوهد يخترق المدينة ، وشنت هجومها من الجهة الجنوبيـــة الغربية حيث توقع الشيوخ ان يتلقوا اكبر معونة من القوى الوطنية . وقد تسلل بعض خيالة احمد قرامانلي على هاتيك التلال الخلفية ، كيما يمنعوا اي انسحاب او تقهقر من المدينة .

واسكتت السفن الامير كية مدفعية الساحل الطرابلسيـــة عند حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، بيد ان الطرابلسيين لم يتخلوا عن ذاك الموقع ، علماً بأن معظم الجنود المتمركزين هناك قد انضموا الى القوى المعادية لجيش « ايتون » ... وتوقف « اوبانون » في قلب الوسط . وكان جنود احمد قد احتلوا قلعة قديمة في طرف المدينة ، ولكن ذاك القائد الحذِر الحكيم ظل في منأى عن المخاطر ، ولم يفلح جنده في دورهم كجند الصدام

(او المصادمة) ... وشعر « ايتون » ان الضغط على جناحه الايمن آخذ في الازدياد . وفي غمرة الدهشة والمفاجأة ، اطلق مدفعيوه ضاربة المنجنيق بعيداً فانفصلت عن مدفع الميدان ، وتركت الجيش الاميركي خلْواً من قوة النار المدفعية التي كان في أمسّ الحاجة اليها . وكانت المعركة متأرجحة ، عندما عزم « ايتون » على شن هجوم مفاجىء يائس ، كمحاولة أخيرة لآخر سهم في جعبته .

ثم كتب بعد يومين الى القائد « بارون » يقول :

« اندفعنا نتقدم الى الأمام ضد جماعة من الوحوش البدائيين * كانوا يفوقوننا عدداً بعشرة أضعاف أو يزيد . لقد فروا من مخابئهم وغادروا مكامنهم ، على نحوٍ غير منظم ، وهم يطلقون النيران من على كل شجرة نخيل وجدار داخلي مُرتدّين إلى الوراء . وفي تلك اللحظة بالذات أُصِبْتُ في مِعْصمي الأيسر ، الأمر الذي حرمني من استعمال يدي ، وبخاصة من استعمال بندقيتي » .

واستلّ « ايتون » سيفه ، إثر انجراحه على النحو الذي وصفه لنا ، وتابع تقدّمه . أما « اوبانون » ورماته البحريون ، وضابط الصف « جورج مان » ، الذين كانوا قد حلّوا جميعهم محل ضابط الصف « بيك » في بومبا ، فانهم قادوا حملة على رأس من تبقّى من المشاة المسيحيين والعرب .

واخترق الاميركيون وابـلاً من رصاصات المسكيتات المُنطلقة من خلف جدران البيوت ، حتى وصلوا الى مدفعية الساحل ، وتغلّبوا على من بقي من حُماتها ، ورفعوا العلم الاميركي عـلى الجدران . ثم انهم استفادوا من المدافع الطرابلسية العائدة لمدفعية الساحل ، ووجّهوها صوبَ الطرابلسيين الهاربين ، بينما صبّت السفن الاميركية نيراناً مُدمّرة عـلى المنازل التي كانت لمّا تزل تؤوي « مُتَصَيِّدي الاعداء » ، أعني المناضلين

---

* كما ورد في النص الأصلي Savages .

الطرابلسيين . وعند الساعة الرابعة تماماً ، احتلّ الاميركيون المدينة .

هذا ، ولقد تمكن أحمد من احتلال قصر الوالي إثر فرار مصطفى بك والتجائه الى مسجدٍ ما . ثم ان الوالي الهارب غادر المسجد فيما بعد ، فكتب « ايتون » انه قدْ فزع :

« إلى حرمٍ هو أقدس مقدسٍ عند الاتراك العثمانيين ، وهو لا يزال ملتجئاً هنالك ، على أننا سنجد الطريقة المناسبة لاخراجه وسحبه . وبما ان هذا الوالي هو الرجل الثالث ، من حيث الرتبة ، في هذه المملكة ، فربما استطعنا ان نستعمله في عمليات مبادلة الأسرى كبديلٍ عن « باينبريدج» الربّان ... »

لقد ابتسم الحظّ للاميركيين عندما استولوا على المدينة بسرعة ، لا سيما وان قوات الباشا الطرابلسي يوسف قرامانلي كانت لا تبعد عن المدينة إلا مسيرة يومين . وفي اعتقاد « ايتون » ، ان النصر الأميركي سوف يقضي على آمال جند يوسف قرامانلي ويردّهم الى طرابلس .

كانت الخسائر الأميركية فادحة نسبياً ، وخاصة اذا ما أخذنا قلة عدد الرجال المساهمين بعين الاعتبار . ويقول « ايتون » في تقريره الرسمي :

« من بين المسيحيين القلائل الذين اشتركوا في حرب الساحل ، خسرت أربعة عشر رجلاً بين قتيلٍ وجريح ، بينهم ثلاثة من الرماة البحريين ، مات احدهم والآخر ينازع النزاع الأخير . أما الباقون فمعظمهم من اليونانيين الذين عزّزوا مجدهم القديم وحافظوا على ماضيهم البطوليّ الحافل ، في تلك الحملة الصغيرة » .

أما فيما يتعلق بشجاعة رجاله الذين كانوا تحت امرته ، فكان قائد الحملة سخياً في تقديرها وتسجيلها . فقد أطرى واثنى في تقريره إلى القائد « بارون » (من غير حدّ ومن دون قيد) ، على كل من « اوبانون » ، و « مان » ، والشاب الانكليزي الصغير « جورج فاركوهار» . وكانت أعلى مكافأة يمكن ان يمنحها للشاب « فاركوهار » هي وظيفة في

اسطول الولايات المتحدة الاميركية ، فأوصى به في التقرير الذي بعث به الى « بارون » كمرشّح له أهليته لرتبة ملازم أول .

عندما أرسل « ايتون » تقريره الى « بارون » في ٢٩ نيسان (ابريل) ، كانت درنة قد سقطت في أيدي الاميركيين ... وكان احتـــلال سائر طرابلس يبدو مؤكداً اذا ما توفّر الدعم الكافي من الاسطول . كان « ايتون » منشرح الصدر ، عالي المعنويات ... فالنجاح يلوح امام ناظريه وكأنه أمر مرتقب . ولم يفتأ يفكّر في نشوة انتصاره ذاك اليوم الذي برهن فيه عن جدارة مخططاته ومشروعاته التي كان يعترض سبيل تنفيذها الاغبياء المغفّلون ، فكانت لذته عظيمة ، في اثناء لحظات التفكير هذه ، وكأنها طَبق طعامٍ شهيّ ، حلو المذاق ، يتلذّذ في التهامه . لقد ثأر وانتقم لجميع سنوات العار الملأى بالمساومات التافهة مع رجـــال المصارف والوسطاء في الجزائر ، وفي تونس ، وفي طرابلس . ليس هذا فحسب ، بل انه هو ، « ويليام ايتون » ، الجنرال القائد للحملة ، صاحب الفضل في تطهير الشخصية الاميركية في شمالي افريقيا . لقد استشعر « ايتون » ، وللحظةٍ خاطفة ، نشوة البطل الفاتح وجذله وابتهاجه في قضية عادلة .

٩

الحثالة المرة لخيبة الامل

أخذ « ايتون » يتطلع الى احتلال باقي أراضي طرابلس عقب استيلائه على درنة . ولكن ، كان يتعيّن عليه ، بادىء ذي بدء ، ان يقنع القائد الاميركي « بارون » بتزويده بمعونة أكبر من الاسطول . غير ان « بارون » نفسه كان مريضاً ، وكان مرضه أشد من ان يسمح له بالقيام بواجبه على نحو عملي ؛ هذا ، مع الاشارة الى ان رتبته كقائد للاسطول الاميركي تتيح له وحده ، دون سواه ، ان يدعم حملة « ايتون » البرية بعدد كبير مذهل من السفن الحربية . وكان في وسعه أيضاً ان يزوّده بعدة طوابير من الرماة البحريين يعاونون الفرقة الصغيرة التي يقودها الملازم اول « اوبانون » ، وان يمـــده بالمؤن والأموال التي يحتاج اليها لشراء خدمات العرب البدو .

وقُبَيْل انتهاء « ايتون » من كتابة تقريره عن معركة درنة ، حرّر رسالةً مقنعة وذات نظرة تفاؤلية إلى القائد « بارون » يشدّد فيها على ضرورة الضرب فوراً ، في وقتٍ كانت فيه قوات يوسف قرامانلي ترتعد

فرائصها خوفاً ومبعثرة في غير ما اتساق ، إثر سماعها أنباء انتصار جيش الولايات المتحدة ... ان الجيش الطرابلسي المتقدم سوف ينحل حتماً الآن ، بعدما سقطت درنة في ايدي الاميركيين ، وسينضمّ أتباع جدد إلى جانب أحمد ، اذ ما من شيء يستهوي العرب ويتفشى بينهم تفشي النار في الهشيم مثل النجاح .

ولقد وجد « ايتون » نفسه مضطراً لأن يعترف :

« ان قوات احمد العربية ... كانت قد اتخذت مراكز أمينة بحيث كانت تستطيع ان تلقي القبض على الهاربين الى ان فُتحت أبواب العدو للسلب والنهب ، حين أصبحوا شجعاناً وعنيفين على التوّ » .

وعلى الرغم من ان اولئك الصحراويين قد لا يكونون أشجع المحاربين اطلاقاً ، فان قواتهم المسلحة القوية ستجعل الذعر يتملّك قلب الباشا الطرابلسي يوسف قرامانلي ... ان احتلال طرابلس لم يعد حلماً بعيد المنال صعب التحقيق ، فان هيبة الولايات المتحدة ستفرض نفسها بنفسها في سائر انحاء افريقيا الشمالية كما لم يسبق لدولة ان فعلت من قبل .

ان ما حملته الرسائل المرسلة الى بومبا ، من ان القائد « بارون » والقنصل العام « لير » قد يجريان مباحثات سلمية مع يوسف ، ان ذلك لما أقلق « ايتون » أيّ قلق . فكتب الى « بارون » ينذره بما يلي :

« اذا ما كنتم تستخدمون أحمد كمجرّد وسيلة لتحقيق غاية تعود بالنفع كلياً الى الولايات المتحدة الاميركية ، من غير الالتفات بتاتاً إلى مستقبله ورفاهيته فإني لا استطيع ان اقنع نفسي بأن واجباتي الوطنية تفرض عليّ وظيفة الممثل الرئيسي لبلادي ، ولا الاستمرار في مثل تلك التضحية الغريبة الشاذة » .

ثم يضيف قائلاً من جديد :

« ومما لا شك فيه ان العدو * سوف يقبـــل بأي نوع من شروط السلم ، في ذات اللحظة التي ينتابه فيها شعور بالخوف والخشية من أخيه ** . إن هذا لمن المتوقع ان يحدث في ابة مرحلة من مراحل الحرب ، وذلك لكي يتخلص من منافسه الخطير عـــلى الأرجح ، وذاك المنافس الخطير ليس أحمد باشا فحسب ، وانما كل من يتعامل معه ، وهؤلاء سوف يقعون – ولا محالة – ضحية توفيرنا » .

ويمضي القائد الاميركي قائلاً :

« ان قليلاً من المال يوزع توزيعاً حسناً على المواطنين المقيمين ما بين درنة وطرابلس قمين بأن يُكسبنا اخلاصهم وولاءهم للقضية الاميركية »... هذا ما أوضحه « ايتون » لقائـــد الاسطول الاميركي في البحر الابيض المتوسط .

ان نفقات الحملة تُقدّر الآن بنحو ثلاثـــين الف دولار اميركي . وقد دفع « ايتون » من أصـــل ذاك المبلغ ما يقرب من ألفي دولار من ماله الخاص . وكان قد استدان حوالى ثلاثة عشر الف دولار من شركة « بريغز اخوان » في الاسكندرية ، وتلقّى أحد عشر الفاً من الاسطول بواسطة الملازم اول « إسحاق هل » ، كما كان قد اقترض الباقي من أفراد مختلفين . فلو استطاع « بارون » استحضار بضعة آلاف أخرى من الدولارات ، فان « ايتون » سيعتبر ان طريق نصره في طرابلس أصبح مُعبّداً .

وقد أشار « ايتون » الى ان النقـــد الموزّع بحكمة ، مضافاً اليه قوة بعض الحراب الاميركية ، سوف يشكل قوة لا تقهر ولا تقاوم . وبعد ان كتب تلك الرسالة الالحاحية المستعجلة إلى الضابط الاعلى منه رتبة ،

---

* يقصد يوسف .

** يقصد أحمد .

لم يعد أمامه سوى انتظار الردّ في درنة .

أما الاميركيون ، فكان لديهم ، في اثناء ذلك ، شيئاً آخر يقومون به عدا إضاعة الوقت سُدى . فخلافاً لما توقّعه «ايتون» ، لم يتبعثر جيش يوسف الطرابلسي لدى سماعه انباء سقوط درنة ، بل تقدّم واحتلّ مراكز حساسة على التلال الواقعة في مؤخرة المدينة . ولقد هرب مصطفى بك ، والي درنة السابق ، من الحرم المقدس الذي كان قد فزع اليه وصدّ جميع محاولات «ايتون» لاخراجه منه . وهكذا ، عاد الوالي مصطفى بك إلى الطرابلسيين في ليلة ١٢ أيار (مايو) ، وكان يحمل معه معلومات دقيقة جداً عن ضعف الحامية المسيحية ، وتقييماً ، فيه نوع من الازدراء ، لجند أحمد .

والواقع ان تلك الاخبار والتقديرات التي عاد بها مصطفى بك قد شجعت الطرابلسيين ونفخت في افئدتهم الحماسة ، فما لبثوا ان شنوا هجوماً على أعدائهم في الصباح الباكر من يوم ١٣ أيار (مايو) . وحاولوا جهد المستطاع ان يركزوا على المناطق التي كان يتمركز عندها خيالة أحمد قرامانلي ، الذين كانوا قد تراجعوا حتى أبواب القصر نفسها . ولمّا عجز «ايتون» عن ايجاد مخرج له يشن منه هجماته ، اضطر لأن يخاطر ويصوّب مدافعه على ذاك الجزء من المدينة الذي كان يحتله أحمد . وكانت طلقة مدفع واحدة زنتها تسعة أرطال قمينة بأن تميت رجلين من الخيالة من جهة ، وان ترعب الآخرين وتحملهم على التقهقر فوراً ، بينما أسرع خيالة أحمد بالسعي وراءهم واللحاق بهم من جهة ثانية .

وخشي «ايتون» ان يكوّن «بارون» فكرة سيئة او استخفافية عن قوة أحمد العسكرية وشجاعة رجاله ، فصرف اهتمامه إلى التأكيد في التقرير الذي ارسله الى قائد الاسطول الاميركي ، يوم ١٥ أيار (مايو) على انه :

« قد غمرتني الغبطة لأن هذه الحادثة أتاحت لي تصحيح فكرة كنت

قد كوّنتها عن عملية السابع والعشرين من الشهر المنصرم (معركة درنة) ، ألا وهي ان رجال الباشا اتكلوا واعتمدوا اكثر مما ينبغي على نجدة انفسهم. واني لا أشك لحظة واحدة في انهم قد ألقوا العبء الثقيل كله على كواهلنا في ذاك اليوم ، الأمر الذي لمّا استطع ان أمسك نفسي عن مناقشته مع قائدهم . وفي هذه المهمة ، اظهروا جسارة وبسالة ، وتصرفوا تصرفاً حسناً » .

واذا ما أصبح أحمد ورجاله العرب أبطالاً على نحو فجائي ، فان ذاك التغيير ليُعزى ، الى حد كبير ، إلى تلهف « ايتون » الخاص لاقناع القائد « بارون » بأن « حاكمه الالعوبة » يستحق الدعم والمساعدة.

غير ان « ايتون » نفسه لم يقْوَ طويلاً على ان يحافظ على ادعائه بأن جنود أحمد قرامانلي قد أبلوا بلاءً حسناً وأظهروا كل شجاعة وبسالة. فما ان مضى يومان على اطرائه شجاعتهم ، حتى اعترف في احدى رسائله التي حرّرها الى « بارون » بأنه لم يستطع ان يحملهم على شنّ هجوم معاكس على الطرابلسيين ، اولئك الطرابلسيين الذين كانوا قد أقاموا المتاريس حول معسكرهم ، وهم يتوقّعون – بوجل عظيم – وقوع هجمة مفاجئة من المدينة . أما رجال « ايتون » المسيحيون الذين يعدّون على أصابع اليد ، فانهم كانوا أقل (عدداً) من ان يتجرأوا على المغامرة من وراء الجدران التي كانوا يحْتمون خانها ؛ بيد ان بعض الجنود الأشدّاء الصامدين القلائل كانوا يشكلون ، اذا ما أُضيفوا الى قوات « ايتون » ، قوة كافية لهزم الطرابلسيين هزيمة منكرة ... هذا ما ادركه القائد الأميركي في الحال ، ولكم تأسف ألا يعثر على تلك القوة في معسكر أحمد قرامانلي .

ثم انه أعلم « بارون » بما يلي :

« اني لا استطيع ان أقنع جنود الباشا – بعد كل الحاح – بأن يحاولوا ذلك . فهم لا يحاربون في الليل البتة . والحقيقة أنهم غير راغبين في

الخروج من المدينة لملاقاة العدو قبل ان يُلاقوا تشجيعاً مالياً يدفعهم الى العمل ! ... ومما لا شك فيه ، اننا أضعف من ان نستطيع اختراق صفوفهم ، كما ان حالة مراكبنا غير مؤاتية على الاطلاق » .

•

ولقد وجد القائد الاميركي نفسه الآن على جناح الدفاع . فالواقع ان الطرابلسيين* ، بالرغم من قلة تنظيمهم من جهة، وخوفهم من الهجوم من جهة أخرى ، كانوا قد ضربوا الحصار فعلاً على درنة .

وقد حرّر ايتون خطاباً ثانياً للقائد « بارون » حمّلته لهذا الاخير السفينة « نوتيلوس » في ١٧ أيار (مايو) . ونجد في نص الخطاب المذكور عهداً يقطعه « ايتون » على نفسه ، وهو الاحتفاظ بالمدينة الطرابلسية اطول وقت ممكن . على انه لم ينس ان يلح على قائد الاسطول الاميركي ، من جديد ، للاسراع في ارسال المؤن والذخائر الضرورية .

ومهما يكن من أمر ، فلقد قام الطرابلسيون مثلما قامت قوات «ايتون» ببعض التحركات الهجومية من حين الى آخر ، لكن أحداً من الطرفين لم يكن قوياً الى درجة يستطيع معها شن هجوم حاسم على الطرف الآخر. وفي الثامن والعشرين من شهر أيار (مايو) ، قاد « ويليام ايتون » وزميله «اوبانون» جندهم النصارى في معركة دارت بينهم وبين مجموعة من الطرابلسيين كانوا يطوفون ويغزون طمعاً في الاسلاب ، وذلك بالقرب من الجدران حيث سددوا حرابهم الى صدور الطرابلسيين، وقتلوا زعيمهم وخمسة آخرين . وفي اليوم التالي ، احتل الطرابلسيون الهضاب

---

* لاشك ان المقصود ها هنا بكلمة الطرابلسيين ، انما هم جماعة الطرابلسيين المناهضين لحكم يوسف قرامانلي ، والذين عاونوا « ايتون » في الحملة العسكرية على مدينة درنة . (المعرب)

والمرتفعات القائمة خلف المكان الذي كانت تعسكر فيه قوات القائد الاميركي ، وكانوا موشكين على شن غاراتهم لولا ان اضطرتهم فتنة نشبت بين صفوفهم على تأجيل موعد الغارة ، بل وصرف النظر عنها .

ثم ان الطرابلسيين حاولوا شنّ هجمة أخرى في الثاني من شهر حزيران (يونيو) ، وذلك بعد ان شجعهم وحرضهم على هذا العمل الوالي السابق مصطفى بك ، غير ان أنصارهم العرب رفضوا ان يحاربوا . وتجدر الاشارة ها هنا ، الى انه كان قد اتضح فيما بعد ان العرب كانوا قد ذُعروا من الاميركيين ورهبوهم وحسبوا لهم حساباً كبيراً . وهذا ما دفع « ايتون » الى ان يكتب بمزيد من الحماس :

« ان العرب كانوا مستعدين لخوض حرب ضد عدو يستعمل نفس طرقهم العسكرية وتخطيطاتهم الحربية ، في حين انهم كانوا عاجزين عن محاربة الاميركيين الذين كانوا يطلقون قنابل ضخمة تجرف رجلاً وجمله الى مسافة شاسعة ، والذين كانوا يهجمون عليهم بحرابهم فجأة من غير ان يتركوا لهم اي دقيقة لحشو بندقياتهم » .

ان المنسحبين من المعسكر الطرابلسي ، وقد كان في عدادهم بعض الشيوخ الذين كان لهم قيمتهم وكلمتهم ، جعل الاميركيين يأملون ان يثبط ذلك من عزيمة الطرابلسيين ويحملهم بالتالي على التقهقر . غير ان الطرابلسيين ما لبثوا ان استجمعوا شتات عزيمتهم وشجاعتهم في العاشر من شهر حزيران (يونيو) ، ليعاودوا الكرة من جديد في تحدياتهم وهجماتهم . فالواقع انهم انتشروا على هاتيك المرتفعات وهاجموا خيالة أحمد قرامانلي الذين صمدوا في وجههم واعادوا لهم الصاع صاعين عندما فروا ملتجئين الى الشعاب والممرات الجبلية . والجدير بالذكر ، ان الطرابلسيين خسروا بعض خيولهم ساعة تراجعهم ، تلك الخيول التي استولى عليها جنود أحمد قرامانلي وهم يرقصون فرحاً ونشوة لنجاحهم الباهر . ان الذي اضطر الطرابلسيين المهاجمين على التراجع كان اطلاق

النيران من السفينة « أرغوس » ، مع العلم بأن « ايتون » حاول ـ مرة أخرى ـ في التقرير الذي كتبه الى « بارون » ان يوضح له ان النصر تحقق على أيدي الخيالة الوطنيين الأقوياء .

وبصورة عامة ، فاننا نستنشق رائحة اليأس وخيبة الأمـل في تقرير « ايتون » في هذا الصدد، وذلك ليس بحجة المشكلات العسكرية الصعبة التي كان يمر بها جيشه ، وانما بسبب عقم الحرب وعدم جدواهـا ، لا سيما اذا مـا كان كل من « لير » و « بارون » يستعدان للتفاوض في قضية اقرار السلم مع يوسف قرامانلي ، كما كان قد ورد الى اسماع القائد الأميركي « ايتون » . وفيما يلي نورد بعض المقتطفات مما ارسله الى « بارون » ، لعلك تستشم ذاك اليأس المصحوب بخيبة الأمـل بعامـة :

« لقد كان السيد « اوبانون » شديد التوق الى ان يقود رماتـه البحريين وجنوده اليونانيين (البالغين حوالى الثمانية والثلاثين عدداً) الى ساحة الوغى . ولم يكن بالمستطاع تحقيق تلك الغاية إلا بمغادرتنا مراكزنا وتركنا إياها من غير ما حماية تُذكر في حالة التراجع والهزيمة . أضف الى مـا تقدم ، وانا اعترف بذلك شخصياً ، اني كنت أشك في ان الخطوات التي اتخذهـا « مبعوث الولايات المتحدة الاميركية للمفاوضة السلمية » سوف تسوغ او تبرر لي ان اظل اعمل على الصعيد الهجومي مدة أطول في هذه المنطقة . فلو ان المساعدات والمعونات والتعزيزات كانت قد وصلت الينا في الوقت الملائم ، مثلما كنا نتأمـل ، لكنا نعسكر الآن في مصراته ، ولكنّا تقدمنا نحو طرابلس في غضون خمسة عشر يوماً » .

لقد بدأ « ايتون » يشعر الآن ان رحلته سائرة نحو الفشل ، مع انه كان يحاول ان يبعد شبح تلك الفكرة عن مخيلته . وقد قرأ في الرسائل التي بعث اليه بها القائد «بارون» ازاء عن عروض اقرار السلم التي كان قد

تقدم بها الباشا يوسف قرامانلي ... فصدق حدس « ايتون » ، وصحّ كل ما توقعه من ذي قبل ... واذا كان « لير » قد استسلم بسرعة لرغبته في انهاء الحرب الطرابلسية فقبل تسوية الأمور على نحو سلمي مع الباشا يوسف ، فمعنى هذا كله ان الشهور المُرة المرهقة التي كان قد عاشها « ايتون » في جوّ ملؤه المشاكل قد ذهبت جميعها سدى، ومعنى هذا أيضاً ان المصير الذي سيواجهه احمد قرامانلي لن يحسده عليه مخلوق.

ثم ان « ايتون » كتب يائساً الى « بارون » ممتدحاً احمد للمرة الاخيرة. فبالرغم من ان « الباشا الالعوبة » لم يكن قائداً فذاً من الدرجة الاولى – على حد اعتراف قائد الحملة الاميركية – ، فانه يفي بالغرض على الأقل ؛ وانه لمن نافلة القول ان الاميركيين سوف يفيدون كثيراً بتنصيبه على عرش طرابلس .

ومضى « ايتون » يقول :

« يُعتبر عدم تحليه بالخصال التي يجب ان يتحلى بها القائد وبالميزات الجديرة بالأمير ، يعتبر ذلك عقبة كؤوداً في السبيل الذي سيوصله الى مبتغاه . ونحن لم نجد حتى الآن ان العدو (يقصد يوسف) يتوفر على هذه الخصال والميزات الى درجة تبرر لنا مقارنته مع الضرر الناجم عن منافسه (يقصد أحمد) . وينبغي ان نقر ان امكانات هذا الأخير (أي احمد) تتيح له ان يفرض هيبته في نفوس اتباعه ويؤثر عليهم بطريقته العاطفية الخاصة .

« والحق انه كانت قد تجمعت لدي في الآونة الأخيرة مجموعة من الأسباب التي تحملني اليوم على تصحيح الفكرة الخاطئة التي كنت قد كونتها ورسمتها لك في احدى تقاريري السابقة – عن مقدرته العسكرية . غير انه ليس جنرالاً !!.. وبالمناسبة ، فاني لم أعثر الا على تركيٍّ واحد اعتقد انه يستحق هذه الرتبة ، او قل انه اهل لهذا المنصب .

« لستُ أنا القائل الوحيد بأن احمد قرامانلي هو الرجل المناسب الذي

سوف يعود علينا بما نتوخاه من فوائد ونتائج . ان الشعور العام الذي يشاركني فيه زملائي الذين تعاونوا معي في المهمة هو ان لأحمد قرامانلي الصفات الكافية لجعله الرجل الموافق لغرضنا » .

وفي ذلك اليوم نفسه – ١١ حزيران (يونيو) – الذي كتب فيه « ايتون » تقريره الى « بارون » ، وصلت الفرغاطة «كونستيتيوشين» لترسو على مقربة من درنة ، وكانت تحمل رسائل من « بارون » و « لير » الى قائد الحملة الاميركية لاعلامه بالتوصل نهائياً الى اقرار السلام مع الباشا الطرابلسي يوسف قرامانلي . وفي الوقت نفسه ، تلقى « ايتون » أوامر أخرى تطلب منه اخلاء درنة سريعاً ، ومغادرته اياها مع جنوده المسيحيين .

•

كان على القائد النيو انغلندي ان يخطط اسلوباً بارعاً يغادر درنة وفقاً له من غير ان يدع مجالاً لحصول كارثة . فاذا ما ارتاب العرب ومعهم أنصار احمد قرامانلي في ان الاميركيين عازمون على التخلّي عنهم وتركهم يقعون ضحية عدوهم المتربص، لربما حاولوا ان يمحقوا عندئذ اصدقاءهم السابقين في فورة الغضب . ومع هذا كله، كان من الضروري ان يُعلم أحمد بالمسألة . وكان على «ايتون» نفسه – لا احد سواه – ان يعلمه بهذا النبأ المؤلم . ففي الصباح الباكر من يوم ١٢ حزيران (يونيو) ، استدعى القائد الاميركي احمد قرامانلي واخبره بما يلي :

« لقد تمّ التوصل الى اتفاقية سلم بيننا وبين شقيقك الباشا الحالي . واني لأعتقد ان الشرط الاساسي والوحيد للمحافظة على سلالتك وعائلتك هو ان تغادر طرابلس وتنسحب منها . فأجاب أحمد انه لا يرى حلاً سوى ان يغادر البلاد معنا » .

ان التقارير والملاحظات التي حرّرها « ايتون » في الثاني عشر من

شهر حزيران (يونيو) ، لا تذكر ما اذا خالج احمد اي شعور غير الشعور بالارتياح وتنفس الصعداء في اعقاب عزمه على مغادرة درنة المتخبطة بالفوضى . ان المرارة التي كان يغص بها اسلوب « ايتون » لتصوّر لنا ان احمد – في نظر القائد الاميركي – ضحية أليمة للخيانة والغدر .

وبناء على اقتراح تقدم به احمد ، أمضى الاميركيون يوم ١٢ حزيران (يونيو) في القيام بالاستعدادات لشن حملة على العدو، حتى لا يرتاب أنصار احمد الوطنيون في الأمر . وقد نشر « ايتون » بين العرب ان التعزيزات الأخيرة وصلت على الفرغاطة .

« ثم اني وزّعت عليهم بعض المؤن ، ومنحتهم جرايات اضافية كيما يجري توزيعها على الجنود المسلمين والعرب الذين عاونونا ، كما بعثت العيون والجواسيس لتستكشف مراكز العدو » .

وفي الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم المشهود ، أرسل « اوبانون » رماته البحريين لحماية الطرقات التي تصل ما بين مركز القيادة الاميركية من جهة ، وما بين المدينة الوطنية من جهة اخرى ؛ ومن البديهي، ان هذا الأمر كان عملاً روتينياً ، بيد ان « اوبانون » أوكَلَ هذه المهمة لرماته البحريين بدلاً من الحراس العاديين في تلك الليلة . وقد سُحبت زوارق السفينة « كونستليشين » الى الرصيف (رصيف المرفأ) ، وأمر « ايتون » رئيس المدفعيين بأن يركب هو والعاملون بأمرته في الزوارق، ومعهم بنادقهم ومدفعهم القذاف عيار عشر انشات الذي كانوا قد سلبوه من قصر الوالي .

وكتب « ايتون » في تقريره الذي وجهه الى الربان « رودجرز » – الذي كان قد خلف مؤخراً القائد « بارون » المريض في قيادة الاسطول الاميركي – ، يقول :

« ... هذا ، مع الاشارة الى ان جميع تلك التدبيرات والعمليات

قد تمت في منتهى الهدوء والحذر ، ولكن ، وفي الوقت نفسه ، في منتهى الدهش » .

واليك بعض المقاطع الاخرى من هذا التقرير :

« بقي الرماة البحريون في مراكزهم . وعندما كانت الزوارق في طريق عودتها ، أرسلتُ مبعوثاً الى الباشا يطلب منه أن يحضر لمقابلتي . والحق ان احمد قرامانلي ادرك بسرعة مقصدي من ارسال المبعوث اليه، فذهب الى الجبهة على التو — ومعه حاشيته — ، وركبوا جميعهم في زوارقنا . ثم تبعهم الرماة البحريون والضباط الامير كيون .

« وعندما كان الجميع قد اصبحوا الآن في الزوارق ، ركبتُ زورقاً صغيراً كنت اعددته خصيصاً لهذه الغاية ، وبالكاد نجوت بنفسي حين بدأ يتجمع رجال الشاطىء، ورجال معسكرنا ، ورجال المدفعية، ومعهم بعض الجنود المتحيّرين ، وجماهير الشعب الذاهلين، بعضهم ينادي الباشا، والبعض الآخر يناديني باسمي ، والباقون يلعنون ويشتمون !

« حتى اذا ما وجدوا اننا أصبحنا بعيدين عنهم مسافة معقولة بحيث لا تطالنا يد من ايديهم ، هرعوا الى خيامنا وخيولنا التي كنا قد تركناها في امكنتها ، فحملوها معهم ، واستعدوا للفرار ... وكان رجال حاميتي ، بالاضافة الى الباشا نفسه وافراد حاشيته ، قد أصبحوا جميعهم على ظهر السفينة « كونستليشين » في حوالى الساعة الثانية صباحاً . وقبل انقضاء اليوم ، كان رجالنا العرب (الذين كانوا قد تعاونوا معنا) قد انتشروا على الجبال ، ومعهم بعض أبناء المدينة الذين تمكنوا من ايجاد وسيلة تساعدهم على اطلاق سيقانهم للريح ، والذين كانوا يأخذون معهم كل حيوان حي يمكن ان يستخدم كمورد رزق أو لحمل الاثقال من مجموع الحيوانات والاشياء التي تركناها وراءنا في مركز القيادة » .

وقبل ان تُبحر « كونستليشين » في الصباح ، غادر المسافرين ضابط

طرابلسي كان قد رافقهم على تلك السفينة متوجهاً الى الشاطىء بغية تقديم اعتذارات عامة ... لكنه أخبر الاميركيين فيما بعد ان المستوطنين القلائل التعيسي الحظ الذين ظلوا في ذلك المكـــان لم يقنعوا بأن يوسف سوف يرحمهم . ومهما يكن من امر اولئك المساكين،فقد وقف « ايتون » على ظهر الفرغاطة الاميركية المبحرة يتأمل المدينة ، ويناجي نفسه ، ويتفكر في تقلبات الحظ المفاجئة . فقبل مجرد ست ساعـــات ، كانت القوات المهيأة لشن هجوم صاعق تستعد للهرب . أما الآن ، فها ان شعب درنة البائس يصبح فريسةً اعدائه .

« أما السبب في ان هذا الشعب البائس سيغدو ضحية سهلة المنال في يد أعدائه ، فلا يعدو كونه وثق فينا اكثر مما ينبغي » .

هـــذا هو رأي القائد الاميركي في شعب درنة وفي مصير هـــذا الشعب . فما رأيه في الحالة التي أصبح عليها الباشا الطرابلسي السابق أحمد قرامانلي ؟

انه يقول : « ... لقد هبط الباشا أحمد قرامانلي مـن اعلى مركز لقيادة المملكة ، الى دركات الفقر والاستجداء ... »

وكان حريّاً بالقائد الاميركي ان يضيف انه هو ايضاً قد تحوّل في لحظة خاطفة من جنرال فاتح يسيطر على جيش كان قـــد أقسم جميع ضباطه على خدمته باخلاص وافدائه بحيواتهم – الى موظف بحرية مشكوك في امره ومصيره ، وغير مرغوب فيه . وهذا ما نجم – عـــلى حدّ اعتقاده – عن قِصَر نظر السياسة التي كان يتبعها « توبياس لير » ، و « صموئيل بارون » . وفيما كان « ايتون » يجيل ذهنه حـــول نتائج معاهدة السلام التي أقرّهـــا « لير » ، شعر ان مرارة طاغية تنتشر في جسمه وتتغلغل في داخله .

●

ان المعاهدة التي وضعت حداً أخيراً ونهاية مصيرية للمعارك التي كانت دائرة ما بين الولايات المتحدة الاميركية وطرابلس، كانت ثمرة استعدادات طويلة ومفاوضات عديدة بدأها «لير» في طرابلس في السادس والعشرين من شهر أيار (مايو) على الضبط . فبعد مضي اسبوع من المساومة والمماحكة ، وافق المندوب الاميركي على استبدال الاسرى ، وعلى دفع مبلغ ستين ألف دولار أميركي كفدية للأسرى الاميركيين «الفائضين» في عمليات المبادلة والواقعين في قبضة الطرابلسيين .

أما يوسف قرامانلي ، باشا طرابلس، فانه وعد الولايات المتحدة بأن يخصها بامتيازات خاصة ، وان يجعلها الدولة المفضلة بالنسبة لطرابلس ، وان يتخلّى عن فكرة المطالبة بفديات أخرى في المستقبل .

وفي الثالث من شهر حزيران (يونيو)،توجه «لير» الى اليابسة، وأطلق يوسف سراح الأسرى الاميركيين ، ورفرف العلم الاميركي مرة أخرى من على مبنى قنصلية في طرابلس .

ثم ان الباشا و «ديوانه» أقرّا المعاهدة رسمياً في العاشر من تموز (يونيو) . وبذلك يكون يوسف قرامانلي قد وافق على طلبات الاميركيين ، وحقق الرغبات الاميركية . اما في حال وقوع اشتباكات اخرى في المستقبل ، فيجب ان يعامل الاسرى معاملة اسرى حرب لا معاملة رقيق .. واكثر من ذلك كله ، ان نعلم ان الملاحين الاميركيين لم يعودوا بحاجة الى ان يخافوا من الوقوع في الاسر ونير العبودية في طرابلس .

ان معاهدة «لير» هي — باعتراف «ايتون» نفسه — المعاهدة الاكثر ملاءمة من اية معاهدة اخرى سبق ان عقدتها دولة غربية مع طرابلس . والطريف ، ان القناصل الاوروبيين في شمالي افريقيا قد صعقوا لنجاح الاميركيين المذهل . ومما لا شك فيه ، ان احتلال درنة من جهة ، والتهديد المستمر الذي كان يشكله وجود الاسطول الاميركي على

مياه البحر الابيض المتوسط من جهـــة اخرى ، قد اثرا على يوسف قرامانلي تأثيراً بعيداً للغاية . وقد اقر « لير » في الرسالة التي حررها الى « ايتون » بقيمة الاجراءات التي كان قد اتخذها ازاء الباشا الطرابلسي قصد احلال السلم . فحينما بدأ يوسف بشنّ حرب على السفن الاميركية، فانه كان يحارب طمعاً بالمال ؛ اما عندما وضع حداً لسياسته التهجمية، فانه كان عندئذ يحارب محافظة منه على عرشه .

والحق ان مسألة التعهدات التي كانت قد قطعتها الولايات المتحدة على نفسها في مصلحة احمد قرامانلي ، قد اربكت ، ولكنها لم تشلّ ، « لير » في محادثاته التي اجراها مع يوسف توصلاً للسلام بين البلدين . فكان قد سبق للمفاوض « لير » والقائد « بارون » ان اجمعا على ان احمد انما تنقصه المقدرة العسكرية والمؤهلات القيادية الى درجة ان قيمته كباشا - دمية في يد الولايات المتحدة كانت مريبة ومشكوكاً في نتيجتها .

وفي الواقع ، ان التقارير التي كتبها « ايتون » نفسه عن الصعوبات التي كان قد لاقاها مع احمد ، كان من شأنها ان تؤيد فكرتهما - اي « لير » و « بارون » - عن هذا الاخير ، اذ حتى المجهود الكبير الذي بذله قائد الحملة البرية الاميركية طوال احد عشر ساعة بكاملها لاقناع « لير » و « بارون » بكفاءة احمد واقدامه لم يفلح في تعديل شيء من تحاملهما عليه .

وصرح « لير » الذي كانت قد عهدت اليه حكومة الولايات المتحدة مسؤولية انهاء الحرب الطرابلسية بأنسب الطرق ، صرّح بأن المعاهـــدة المعقودة مع الحكومة الطرابلسية الحاكمة والتي تضمن مستقبل العلاقات بين الدولتين ، هي لصالح الولايات المتحدة ، وأفضل من خطة التفاهم الذي كان متوقعاً ان يُثمر بين « ايتون » وأحمد قرامانلي ، حتى ولو اضطر « لير » الى افتداء اسرى الفرغاطة « فيلادلفيا » ، كما حدث في الواقع . ومما لا شك فيه ، ان احداً ، وبخاصة « ايتون » نفسه ،

لم يكن في ميسوره ان يعطي ضمانات على ان احمد سوف يتمكن من المحافظة على عرشه بعد ان يكون الاميركيون قد نصّبوه عليه من جديد .

ان تجاوب الحكومة الاميركية مع مقترحات « ايتون » لاستخدام احمد قرامانلي كباشا – العوبة – على النحو الذي فصلناه في مكان سابق من هذا الكتاب – لم يكن، منذ بادىء الأمر ، الا تجاوباً فاتراً على الاكثر. وحتى معظم المسؤولين البحريين ورجال الاسطول لم يُبدوا ايما حماسة ازاء تلك المقترحات الايتونية * . هذا ، مع الاشارة الى ان « ايتون » نفسه كان يتخيل ان القائد « بريبـــل » يقف بصلابة وراء مقترحاته ليدعمها ، في حين كان « بريبل » عاجزاً عن ان يدفع بخطة احمد قرامانلي أية خطوة الى الامام . والواقع ان القائد الاميركي « بارون » ، الذي كان قد خلف « بريبل » في قيادة اسطول الولايات المتحدة في البحر الابيض المتوسط ، كان قـــد سمح بالبحث عن احمد في الديار المصرية وسمح ايضاً بتجهيز الحملة على درنة ... ولكن الخطأ الذي وقع فيه « ايتون » كان تأويله تعليمات « بارون » على نحو مغلوط ، معتقداً ان تلك التعليمات انما تتيح له ان يُعيد احمد قرامانلي باشا جديداً على طرابلس .

كانت الحكومة الاميركية في «واشنطن» راغبة في ان تجعل احمد قرامانلي يفيد من حسن قيادة « ايتون » العسكرية ومن بعض مساعداتها له ، املاً منها في ان يتمكن احمد من تحريك ثورة اهلية في طرابلس ذاتها . والظاهر ان احداً سوى « ايتون » – اعتباراً من الرئيس « جفرسون » الى القائد « بارون » – لم يحلم بشن حملة كبيرة تستهدف اعادة العرش الى احمد . فلو انه استطاع ان يستعيد عرشه ، ففي هذا الخير ، كل

---

* اذا جاز لنا التعبير .

الخير ... اما اذا لم يستطع ، فان الولايات المتحدة ستستفيد عندئذ من اي ضرب من المصاعب التي يستطيع ان يخلقها للباشا المولع بالقتال * .

وعلى العموم ، فان من نتائج دعم الولايات المتحدة حملة درنة دعماً رسمياً ، كَسْبها احمد كحليف جديد لها ، ذلك الحليف الذي كان يقتضي منها ان ترعى حقوقه وتسهر على شؤونه . ذلك انه في نص المادة رقم (٣) من المعاهدة الاخيرة ، نجد ان الولايات المتحدة تتكفل بأن تعمل على اقناع احمد بضرورة سحب قواته من درنة ، ونجد ان يوسف يوافق على ان يحرر زوجته واولاده الذين كانوا محتجزين في طرابلس حينذاك بوصفهم رهائن .

على ان « لير » قد توصل الى اتفاقية سرية مع يوسف ، يحق للباشا بمقتضاها ان ينفّذ الشرط المذكور – ألا وهو تحرير زوجة احمد واولاده – في خلال اربع سنوات . وهذا يعني ان ليس من شيء يحتم على يوسف ان ينفذ الشرط قبل مرور هذه السنوات الاربع . والاسوأ من ذلك ، ان المفاوض الدبلوماسي الاميركي ابقى نص هذه الاتفاقية سراً من الاسرار لم يكشفه لحكومته في «واشنطن» ، حتى في الوقت الذي كان يجري فيه البحث للمصادقة على المعاهدة في مجلس الشيوخ . وعندما اصرّ الدكتور « جورج دايفيس » – القنصل الاميركي في تونس – على ضرورة تنفيذ المادة رقم (٣) من المعاهدة ، والتي تنص على موافقة يوسف على تحرير زوجة احمد واولاده ، وذلك في شهر ايار (مايو) سنة ١٨٠٧ ، واجهه يوسف باشا باتفاقية « لير » السرية . فرفض الدكتور « دايفيس » ان يعترف بمفعول هذه الاتفاقية السرية ، وطالب بالحاح ان يتقيد يوسف باشا بنص المادة رقم (٣) بحذافيرها . فاستجاب يوسف قرامانلي لطلبه على مضض ... ثم ان الرئيس « جفرسون » صرّح

* يعني يوسف .

معتذراً امام مجلس الشيوخ، في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٠٧، ان الاسباب التي حتّمت ابقاء الاتفاقية السرية مكتومة عن الحكومة «لايمكن تبيانها بوضوح وتأكيد» .

وعلى الرغم من ان نتيجة الحرب الطرابلسية كانت تلائم الولايات المتحدة والمصالح الاميركية كل الملاءمة ، فان هذه النتيجة – او النهاية – لم تكن لتحظى برضى « ايتون » او لتفوز باستحسانه . انه كان نزّاعاً ، بادىء ذي بدء ، الى ان يتقبل الحل بروح رواقية * رزينة ، متحررة من الانفعال ، وغير متأثرة بالفرح او الترح ، بيد انه كلما كان يتفكر في مصيره ومصير احمد المؤلمْين ، عظم ايمانه بأن « لير » انما هو نذل وضيع ، اضاعت الولايات المتحدة بسبب من مخادعاته ومهاتراته فرصة لا تسنح للدول العالمية الا مرة كل قرن – فرصة جعْل باشا طرابلس مثلاً يُحتذى .

وعندما لم يعد بامكان « ايتون » ان يكبت غيظه المتأجج اطول من ذلك ، ارسل تقريراً الى ناظر البحرية الاميركية يتهجم فيه على « لير » وتصرفاته ، واصفاً اياه باحتقار بالكولونيل « لير » الشرطي ** . ولم ينسَ « ايتون » ان يحمل ايضاً على فشل الاسطول الاميركي في الظهور بمظهر قوي امام طرابلس . وادّعى « ايتون » انه كان بوسع الولايات المتحدة بفضل اسطولها المكوّن من ست فرغاطات ، وأربع سفن شراعية بصاريَيْن ، وسكونتين وسَلُّوب (مركب شراعي وحيد الصاري) ، بالاضافة الى ما كان لديها من سفن مدفعية ، كانت جميعها مستقرة في قاعدة « سيراكوزة » السّتراتيجية ، ان تتوصل الى اطلاق سراح اسرى

---

* نسبة الى الرواقيين Stoics .

** والكلمة في الاصل الانكليزي هي Provisional . وتأتي اولاً بمعنى مؤقت، وثانياً بمعنى شرطي ، اي نسبة الى شرط اوفقرة شرطية في عقد او اتفاقية ما .. وهنا وجه الهزء والسخرية والاحتقار في هذا النعت الذي اختاره « ايتون » للمفاوض « لير » . (المعرب)

الفرغاطة « فيلادلفيا » من غير ان تدفع سنتاً واحداً كفدية .

اما الحجة التي تذرع بها المسؤولون عن الاسطول ، فهي ان الباشا هدّد الاميركيين بذبح كل مُعتقل اميركي في قبضته ، اذا ما قصف الاسطول الاميركي المدينة . وعلى الرغم من ذلك الخطر الراهن – الذي انكره البعض فعلاً – راح « ايتون » يصر على ان الاسطول قد ابدى نزعة مخزية نحو تفادي الحرب والتهرب منها . واذ انه لم يكن هنالك اما شخص ليلطف من كلماته او يعدّلها ، بعد اخفاقه التام في درنة ، فقد كان قائد الحملة الاميركية اقل تلطفاً في الحكم على الذين سبق لهم ان خذلوه وعارضوه . وعلى العموم ، فقد اضحى « توبياس لير » وكل من سانده هدفاً خاصاً لثأر « ايتون » وثورته الغضوب .

لازم « ايتون » القاعدة البحرية الاميركية في « سيراكوزة » منذ اواسط شهر حزيران (يونيو) وحتى بدء شهر آب (اغسطس) . وحالاً بعد وصوله الى هناك ، عمل كقاض في محكمـــة الاستجواب والتحقيق التي برّأت الربان الاميركي « ويليام باينبريدج » من عواقب مسؤولية خسارة الفرغاطة « فيلادلفيا » .. ولم يكن لديه من شيء يقوم بعمله في ايام الصيف المحرقة سوى التأمل بأخطاء زملائه ، وتحمل رفقة احمد قرامانلي .

وبيـــنما كان « ايتون » يتلظى بنيران الشمس ويتصبب عرقاً في « سيراكوزة » ايام الصيف ، كان الاسطول الاميركي يقوم في تونس بمهمة لطالما تضرّع « ايتون » لتحقيقها ايام قيامه بوظيفة قنصل الولايات المتحدة في تونس .. غير انه لم يكن في مقـــدوره ان يشهد – بل ان يتلذذ في ان يشهد – انتقام الاميركيين من الباي الذي خلق له عدداً لا يحصى من المشكلات والمآزق .

●

ونعود الان لمتابعة قصتنا مع باي تونس .

غضب باي تونس لاستيلاء الاميركين على المراكب التونسية التي كانت متجهة في طريقها الى طرابلس المحاَصرة ، وراح يطالب بالتعويض عن الاضرار التي لحقت بمراكبه ، مهدداً ، في الوقت نفسه ، باعلان الحرب على الولايات المتحدة . وبعد ان امضت السلطـات الاميركية المسؤولة في البحر الابيض المتوسط مدة ستة اسابيع في مفاوضات عقيمة لم تُجدِ نفعاً ، سئمت تلك السلطات وفقدت صبرها ... وما كان من القائد العَام « رودجرز » ، وذلك في شهر آب (اغسطس) ، إلا ان ابحر الى خليج تونس ومعه خمس فرغاطات ، وخمس مراكب صغيرة ، بالاضافة الى عدد محترم من السفن المدفعية . لقد اصبحت لديه الجرأة الكافية الآن ، لا سيما وانه بات يملك ملء الحرية للتصرف بحزم والضرب بشدة . وعلى الرغم من ان الباي كان قد تباهى وتفاخر بأن التهديدات الاميركية لن تخيفه اطلاقاً ، فقد كان هذا الاسيطيل بمثابة مصدر خطر وتهديد دائمين بالنسبة له . وعلاوة على ذلك كله ، فان القائد الاميركي « رودجرز » لم يكن راغباً في هدر الوقت بالمساومة اكثر من ذلك .

وهكذا ، ومن غير ما ابطـاء ، طلب « رودجرز » من الباي ان يتقدم بعرض مظالمه ، وشكاواه ، وشروطه في سبيل احلال السلام ، كل ذلك في غضون ست وثلاثين ساعة فقط . وبعدها ، سوف يكتفي الاميركيون بأن يجيبوه سواء أكان سيعم السلام ، أم ستقع الحرب .

لقد اقلقت تلك السرعة في العمل الباي وازعجته . فمن نافلة القول، انه كان يفضل ان يساوم طويلاً ، وعلى مهل ، حول كل نقطة جزئية من اية معاهدة دبلوماسية ؛ غير ان الاميركين كانوا في عجلة عجيبة – وغير طبيعية – من امرهم . ومهما يكن من امر ، فقد راوغ الباي، ووارب ، وماحك ، ورفض ان يوقع اتفاقية تفرض عليه ان يتقيـد بنصوص المعاهدة المعمول بها بينه وبين الولايات المتحدة ، وان يحترم

تلك المعاهدة .. ليس هذا فحسب ، بل لقد حــاول ان يفسح المجال امام طراد تونسي كيما يتسلل مفلتاً من الحصار الامير كي .. ولما اثبتت ضربتان صائبتان ومصوبتان بدقة ان السفن الحربية الامير كية جادة في عملها ، ولا شك ، عاد المركب الى رصيفه ، واعلن الباي التونسي انه ينوي ارسال سفير تونسي الى الولايات المتحدة الامير كية كيما يتفاوض مع حكومة « واشنطن » في موضوع انهــاء المشكلات ووضع حــد للاشتباكات بين كل من الدولتين .

وأدرك « رودجرز » ان هذا الطلب الذي تقدم به باي تونس لم يكن الا مجرد خدعة هدفها التخلص من الاسطول الامير كي .. ومن هنا ، فانه رد على هذا الطلب بطلب آخر ، وهو ان يوقع الباي صكاً يتعهد فيه بأن يحترم المعاهدة قبل ايفاده سفيره .

واخيراً ، اذعن الباي ، ووافق على ان يعطي الولايات المتحــدة امتيازات الدولة المفضلة ، وان ينظر في امر المعاهدة ، من زاوية دينية، اثناء المفاوضات .

واذ ان الاسطول الامير كي ابقى تونس تحت رحمة مدافعه بصورة مستمرة ، طوال اثنين وثلاثين يوماً ، فقد كان لدى الباي المتسع من من الوقت ليتأمل في نتائج ومعاني قوة الاسطول الامير كي البحرية .

غادر السفير « سيدي سليمان ميلليميللي » تونس في اليوم الاول من شهر ايلول (سبتمبر) ، برفقة المفاوض الامير كي « توبياس لير » ، وأبحر الاثنان الى اميركا على متن الفرغاطة « كونغرس » . والحق ان المهمة التي كان يتعيّن على السفير التونسي ان يقوم بها في الولايات المتحدة قد اعطت فرصة للامير كيين كيما يتعجب كل منهــم للطرق الغريبة التي كان يسلكها الحكام المسلمون ، فلم يهتم بها اسياد البروتوكول.. اضف الى ذلك ، ان اعضاء مجلس « الكونغرس » المتزمتين قد استغربوا تصرف الولايات المتحدة الذي ينم عن كرم زائد تجاه السفير التونسي ،

لا سيما وان الحكومة الاميركية كانت قد : « وضعت تحت تصرفـه امرأة او اكثر كان يقضي معها قسماً من الليل » .

ولم يكن بالمستطاع قبول الاربعة خيول العربية الاصيلة التي قدمهـا السفير التونسي « سيدي سليمان ميلليميللي » لرئيس الولايـات المتحدة وسواه من كبار المسؤولين كهدايا خاصة ؛ بيد ان نظارة المالية اعربت عن املها في ان تقوم تلك الخيول مقام نفقات رحلة السفير المزعج . ولسوء حظ الاميركيين ، ان نفقة صيانة الخيول المذكورة ورعايتهـا كانت تفوق ثمن مبيعها الحقيقي عدة اضعاف. واخيراً ، غادر « ميلليميللي » اميركا ، فتنفست الحكومة الاميركية بأسرها الصعداء .. والجدير بالذكر ها هنا ، ان زيارة السفير التونسي لم تأت بثمارها المرغوبة ، اعني تسوية الاختلافات بين الولايات المتحدة وتونس ، اذ ان النيران ظلت مستعرة حتى عام ١٨٠٧ حين اتفق المفاوض الاميركي « لير » – اخيراً – مع باي تونس على تسوية الامور لقاء مبلغ عشرة آلاف دولار .. غير ان انطباعه عن القوة الاميركية كان له اكبر تأثير على تهذيب مواطنيه.

ولكم خاب امل « ويليام ايتون » حين ادرك انه لن يشارك في المحادثات الجارية بغية مصالحة الباي التونسي . لكنه تمكن من ان يعود الى بلاده في الوقت المناسب ليهنىء السفير التونسي ، وليقوم في بعض الأحايين بدور ترجمانه .

اما « جيمس لايندر كاثكارت » ، فقد كان له شرف – وهو شرف مشكوك فيه ويحتمل الاخذ والرد – المشاركة في خدمة السفير التونسي ، اذ انه عمل كدليله السياحي الذي رافقه الى معالم البلد وآثارها في احدى فترات رحلته في اميركا .

وبينما كان « ايتون » لا يزال مقيماً في « سيراكوزة » ، كانت اعمـال الشغب في الجزائر قد حطّمت المؤسسة المصرفيـة العائدة لـ « بكري وبوسنة » – تلك المؤسسة التي اطلق عليه كل من « ايتون »

و « كاثكارت » اسم « حكومة المديرين اليهوديـــة » ، والتي كانت – حسب اعتقادهما – السبب الرئيسي في معظـــم مشكلات دول شمالي افريقيا المتبربرة . كان الشعور العدائي نحو يهود الجزائر وبغضهم القوي قد تمكنا من نفوس الشعب الجزائري وبلغا اوجهما في صيف عام ١٨٠٥. وقد اغتيل « نافثالي بوسنة » في التاسع والعشرين من شهر تموز (يونيو) وكان مأتمه في اليوم التالي دليلاً على مذبحة عامة ونهب جماعي شهده اليهود .

وتعتبر النقمة العامة على اليهود وجهاً واحداً من وجوه المشاغبـــات الفوضوية والفورانية التي اجتاحت الجزائر . ففي الثلاثين من شهر آب « اغسطس » ، اغتال الجنود العثمانيون الداي الجزائري ووزيره الاول ، وتمكنوا بصعوبة بالغة من اقناع شيخ مسلم بقبول شرف الخلافة . فاغتبط « ايتون » لسماعه انباء الثورة ، وتأمل ان ينجم عنها ادارة متسامحة متساهلة ، لا سيما وان الحكم في الجزائر قد انتقل من حكم عسكري الى حكم ديني .

•

ابحر « ويليام ايتون » من قاعـــدة « سيراكوزة » في ٦ آب (اغسطس) ، حزيناً ، وخائب الأمل . وبعد ان عرّج سريعاً عـــلى مالطة ، وتونس ، وجبل طارق ، وماديرا ، كحّل عينيه اخيراً برؤية شطآن الولايات المتحدة الاميركية في مطلع شهر تشرين الثاني (نوفمبر). اما السفينة التي ابحر عليها القنصل الاميركي السابق ، فكانت سفينـــة شراعية بصاريين تدعى « فرانكلين » ، وكان لها ماضٍ متفاوت ، مختلف الحالات ، تعاقبت عليه احوال من النجاح حيناً ومن الاخفـــاق حيناً ، كماضي « ايتون » نفسه . فبعد ان كان قد استولى عليهـــا الطرابلسيون ، جرى بيع تلك السفينة الشراعية في تونس .. وكانت

الولايات المتحدة قد اشترتها مؤخراً ، وضمتها الى اسطولها كسفينة مخصصة لنقل المؤن والذخائر في عرض البحار .

وفي الثاني عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ، أعلنت صحف اميركا نبأ وصول « ايتون » الى مدينة « ريتشموند » ، من أعمال ولاية « فيرجينيا » .

تعاقبت الاسابيع القليلة الاولى ، و « ايتون » يتمتع بشعور البطل ويلقى الاحترام الذي يفرضه في النفوس . وعندما وصلت التقارير المبهمة الأولى عن المعاهدة التي عقدتها الولايات المتحدة مع طرابلس ، عزت الصحف الاميركية الفضل في انهاء الحرب الطرابلسية لـ« ويليام ايتون » نفسه . والواقع انه اعتباراً من ٢٩ آب (اغسطس) ، وصلت سفينة شراعية بصاريين آتية من البحر الابيض المتوسط الى مرفأ « سالم » ، وهي تحمل خبراً مفاده ان طرابلس نفسها قد وقعت في أيدي الاميركيين. وقد أوردت صحيفة كولومبية النبأ في عددها الصادر في ٣١ آب (اغسطس) على النحو التالي :

« تم الاستيلاء على طرابلس بفضل قوات الباشا الطرابلسي السابق* التي كان يقودها مواطننا القدير وقنصلنا الأسبق « ويليام ايتون »... »

الا ان الانباء الدقيقة اللاحقة أوضحت قصة سقوط طرابلس وصححتها، لكنها أكدت — في الوقت عينه — ان الفضل في اقرار السلام يعود حقاً لاستيلاء « ايتون » على درنة .

ولاقت المقالات التي كُتبت عن «النصر الاميركي العظيم في درنة» استحساناً هائلاً وشعبياً لدى القراء لأسابيع عديدة فأسرعت الصحف في نشر تأريخ مقتضب مفعم بالاطراء لقائد الحملة الاميركية . فنشرت صحيفة اميركية تصدر في « سالم » في عددها الصادر يوم ٢٧ أيلول (سبتمبر)،

---

* اي احمد .

نبأ عن حفلة عشاء أقيمت في « ريتشموند » من اعمال ولاية «فرجينيا» تكريماً للربان « ويليام باينبريدج » وسواه من كبار ضباط الفرغاطة « فيلادلفيا » ، حيث شرب الحاضرون: « نخب الجنرال «ويليام ايتون» وبعض الضباط الذين قطعوا الصحاري ليستعبدوا الأمم ؛ وشربوا ثانية نخب « ايتون » ، القائد الاميركي الذي قُدّر له ان يحرّر مواطنيه الشجعان » .

ثم اوردت الجريدة ذاتها في تاريخ ٤ تشرين الاول (اوكتوبر) ، نقلاً عن صحيفة اميركية اخرى تصدر في « ألباني » ، مديحاً مبالغاً فيه ، يصف « ايتون » بالافريقي المتحضر . واستطرد المحرر يقول :

« بعد ان مرت افريقيا في فترة راحة وهدوء دامت اثني عشر قرناً من الزمن ، اعتباراً من عهد « بيليساريوس » ، ها هي تشهد الآن فاتحاً أتى يحصد أمجادها ويقهر قوتها على تلك الحقول التي شهدت تصارع « سيبيوس » وجيشه الروماني ضد «هنيبعل» وجنوده القرطاجيين في تنافس وتلاحم على امبراطورية العالم ... فلتحترس افريقيا ! فان لأميركا جيشها الخاص و « سيبيوسها » المقدام – لكنها هي* ليست « بهنيبعل » ولا بجنوده » .

وكان الاستقبال الذي جرى « لايتون » في « ريتشموند » متوافقاً ومتناغماً مع الحفاوة الشعبية البالغة التي كانت في لقائه . فأقيم على شرفه حفل عشاء تقديري في السادس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ، بمكان يُدعى « إيغل تافرن » ، حضره لفيف من الشخصيات الاميركية وعلى رأسها القاضي الاول ** « جون مارشال » ، رئيس المحكمة العليا في الولايات المتحدة . ودوّت القاعة بتلاوات الشعر المدحي ،

---

* يقصد افريقيا .

** ويعرف احياناً باسم قاضي القضاة ايضاً .

واستهلك الحاضرون التاريخ الكلاسيكي لاقامة مقارنات اطرائية بين « ايتون » وأبطال التاريخ . ومن بين مـا قيل في تلك المناسبة ، ان جيش « ايتون » انما « كان جيشاً عظيم الشجاعة والجلد ، نشر المجد الاميركي في بقاع قصية حيث لم يكن اسم اميركا مسموعاً من ذي قبل » .

وعلى الرغم من انه كان قد سبق « لايتون » بين الفينة والفينة أن ادلى بتصريحات غير مشرفة بحق « فيرجينيا » ، فانه تحمّس في تلك المناسبة ليدعو الحاضرين ليشربوا نخب « مواطني تلك الولاية التي ولد النصر الاميركي على يديها ، ولتكن أيامهم مزدهرة دائماً مثل وطنيتهم المخلصة » .

واستقبلت العاصمة الاميركية « واشنطن » القنصل الاميركي السابق بحفاوة مهيبة على الصعيدين الرسمي والشعبي . فقد أقام الرئيس «جفرسون» مأدبة غداء على شرفه بعد وصوله بأيام قلائل ، كما انه دُعي الى مأدبة غداء شعبية في الثامن والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ، كانت قد أقامتها وجوه العاصمة البارزة . ولقد كان من الواضح الذي لا يقبل الشك ، ان الرئيس « جفرسون » سُرّ كثيراً لتقرير البطل الشخصي ، اذ انه لم ينسَ ان يتحدث في رسالته التي وجهها الى « الكونغرس » الاميركي في ٣ كانون الاول (ديسمبر) ، عن « الحملة التي قادها ببراعة قنصلنا السابق « ايتون » ... الخ ... » .

ولفت رئيس الولايات المتحدة نظر « الكونغرس » في تلك الرسالة الى « ان خطة « ايتون » التي كان النجاح حليفها في مدينة درنة قد كان لها أكبر تأثير على الافكار السائدة التي حققت السلام فيما بعد » .

والجدير بالذكر ، ان الرئيس الاميركي قد وجد الفرصة مؤاتية كيما يسهب في الكلام على القوة الاميركية فيما وراء البحار ، مقترحاً على « الكونغرس » ان يعمل على تطوير الأسطول الاميركي ، « وذلك

عن طريق الاكثار من معاهدات السلم والصداقة وزيادة عـدد الربابنة والملازمين الأولين » –... هذا مع الاشارة الى ان هذا الاقتراح قـد جاء متأخراً اكثر مما ينبغي .

أضف الى ما تقدم ، ان الرئيس « جفرسون » ألحّ على «الكونغرس» بضرورة الغاء قانون عام ١٨٠١ البحري ، الذي كان من شأنه ان يحد عدد السفن والملاحين على حد سواء . وهكذا ، فقد توصّل « ويليام ايتون » الى ما كان قد اقسم على تحقيقه وانجازه ، أعني انه أوصـل آراءه المتعلقة بحتمية استعمال القـوة الاميركية في حوض البحر الابيض المتوسط الى اعلى المسؤولين الاميركيين في « واشنطن » ، كما انه تمكن من ان يعرض تلك الآراء بوضوح كلي ممـا جعلها تتغلغل في نفوس السامعين المهتمين .

لكن معاهـدة طرابلس – شأنها في ذلك شأن العديد من المعـاهدات التي ستعقد في وقت لاحق – ما لبثت ان أصبحت ألعوبة سياسية أشبه بكرة القدم التي تتقاذفها الأرجل ، وذلك حينما عُرضت تلك المعاهـدة على مجلس الشيوخ بغية المصادقة عليها ... فوجد « ايتون » نفسه وجهاً لوجه مع معارضي العهد الاميركي من الفيدراليين الذين اشتهروا بعداوتهم للرئيس « جفرسون » ، وبغضهم له ، ونقمتهم عليه . وبالرغم مـن ان المعاهدة الأخيرة كانت أنسب المعاهدات التي سبق للولايات المتحدة ان عقدتها مع احدى دول افريقيا الشمالية اطلاقاً ، فقد راح ينتقدهـا رجـال السياسة الفيدراليون ، ويُلصقون التهم بالرئيس « جفرسون » وحزبه السياسي ، بأي ثمن من الأثمان ، وبأي شكل مـن الأشكال . ومـن هنا ، بدأوا يذيعون انه كان من العار أن يدفع « لير » بحسب نصوص المعاهدة التي أقرها بالنيابة عن بلاده ، ان يدفع فدية لانقـاذ الاسرى الاميركيين ... كما ان السياسيين الفيدراليين ، الذين لم يكتفوا بكل ذلك ، شرعوا ينوحون ، ويعولون ، ويذرفون الدموع على أحمد

قراماني الذي عومل معاملة غير عادلة بتاتاً .

وعلاوةً على ذلك ، فان السياسيين الفيدراليين عندما تناسوا – عن قصد – ان سياسة عدم الاكتراث التي نهجها «الكونغرس» مؤخراً ازاء قضايا الاسطول الاميركي انما هي التي كانت مسؤولة عن عجز ذاك الاسطول في المتوسط ، عندها أخذوا بالبحث والتنقيب في قواميسهم لالتقاط بعض العيوب للرئيس « جفرسون » ، الذي وصفوه بالجبان وبالأحمق ، نتيجة سياسته التي عالج بها أمور شمالي افريقيا . فلو استطاع أقطاب الحزب الفيدرالي ان يدعموا حججهم ببراهين يعرضها شاهد عيان – وبطل اميركي في الوقت نفسه* – ، فانهم سوف يكسبون عدداً محترماً من الأصوات ، ويتغلبون على حزب خصمهم « جفرسون » في الانتخابات القريبة . وهكذا ، كانت عودة « ايتون » الى بلاده فرصة ذهبية لا تعوّض بالنسبة للسياسيين الذين يمثلون مقاطعة « نيو انغلند » ، وهذا ما يفسر العطف الكبير الذي أظهره نحوه بعض الشيوخ** الفيدراليين ، بعض الأحيان .

كان من ألدّ اعداء « جفرسون » ممثل « ماساتشوستس » في مجلس الشيوخ ، « تيموثي بيكرينغ » ، الذي كان قد عيّن « ايتون » في منصب قنصل أميركا لدى تونس أيام كان ناظراً للخارجية الاميركية – كما مر معنا في الصفحات الأولى من الكتاب . وكانت العلاقة التي تربط الرجلين علاقة ودّية . وكان من الطبيعي ان يخضع « ايتون » لنفوذ « بيكرينغ » من جديد .

وأشاع بعض السياسيين الفيدراليين ، بصورة سريعة ، ان « ايتون » كان رجلاً على اطلاع واسع من شأنه ان يجعله حربة طاعنة في صدر

---

* اي « ايتون » .

** نعني بها اعضاء مجلس الشيوخ .

الادارة الاميركية ، اذ ان معلوماته قمينة بأن تُلحق أضراراً معنوية هائلة في تلك الادارة . فاستضافه السيناتور (عضو مجلس الشيوخ) « ويليام بلامر » – ممثل « نيو هامبشاير » – في مثواه* ، ووجد انه « رجل ثقافة ومعرفة واقدام » ، وان « صحبته مشرفة جداً » ... أما نحن ، فنقول ان هذه الصحبة كانت مشرّفة الى درجة انه بعد بضعة ايام من اجتماعهما الأول ، أسرع السيناتور الى مكان اقامة « ايتون » قبل ان يكون البطل الاميركي قد انتهى من تناول فطوره الصباحي . كان « بلامر » متشوقاً لسماع المزبد عن شرور « توبياس لير » ونقائصه ، وعن شرور أعوان « جفرسون » الآخرين ونقائصهم . لكن « ايتون » كان مفرطاً في نقده الساخر العنيف الى درجة ان «بلامر» نفسه تضايق، وانزعج ، ومن ثم اعترف انه « بالرغم عن كونه شجاعاً ، مقداماً ، ومغامراً » ، فقد كان ايضاً «متعجرفاً وغير صالح لتولّي مركز قيادي» .

ومهما كان الأمر ، فان الفيدراليين تلاعبوا بعواطف « ايتون » وعرفوا اوتاره الرقيقة ، واكتشفوا مكامنه الحساسة، فزودهم بالمعلومات التي أضافوها الى حقدهم وعزمهم على الثأر والانتقام . وفي الوقت الذي غادر فيه العاصمة « واشنطن » عند نهاية العام، كانت المعاهدة الطرابلسية، والمساعدة المتوجبة لأحمد قرامانلي البائس ، وطلبات « ايتون » المالية الخاصة في وجه الحكومة الاميركية كانت قد اصبحت جميعها من مواضيع الساعة ،التي تردد ذكرها في الحملات السياسية والخطابات الانتخابية .

تجادل مجلس الشيوخ أكثر من أربعة شهور حول القضية الطرابلسية . هذا ، وقد قام « ايتون » بزيارة عائلته في « بريمفيلد » ، ومن ثم قفل راجعاً الى « واشنطن » حيث لقي وابلاً من الاسئلة المتعلقة بقضايا شمالي افريقيا في انتظاره . وقد حاول جناح المعارضة ان يشدد على ان

* بيت يقدم الطعام (والمنامة عادة) للنزلاء بثمن اسبوعي او شهري محدد : Boardinghouse

« لير » أهان الأمة الاميركية بافتدائه الاسرى الاميركيين ، في حين كان في مقدور الأسطول القوي ، والى جانبه قوات « ايتون » البرية، ان ينقذهم وينتزعهم من طرابلس ، وان يفرض شروط السلام على الباشا المهزوم .

وتجدر الاشارة الى تصريح أدلى به ملازم اول بحري اميركي كان في عداد المعتقلين في طرابلس ، جاء فيه ان سقوط درنة أذهل طرابلس وصعقها ، وان في اعتقاده ان الباشا لم يكن عازماً على تنفيذ حكم الاعدام بالأسرى البتة ، وان تحريرهم الفعلي يمكن ان يُعزى الى نجاح « ايتون » في مهمته . ثم صرّح ملازم بحري آخر ان مرض القائد « بارون » كان قد انتقل الى عقله فمرض مرضاً عقلياً أيضاً ، وان « توبياس لير » الذي عارض بشدة حملة « ايتون » على درنة أثّر أيضاً – على نحو غير ملائم – على قائد الاسطول السقيم .

أما « ايتون » ، فانه اتّهم « لير » بعقد اتفاقية سرية مع يوسف باشا ، في المادة رقم (٣) من المعاهدة التي تفرض على الباشا ان يحرّر عائلة احمد . وبالرغم من ان الحقائق لم تتجلّ في « واشنطن » الا في السنة التالية ، فقد تبيّن ان ذاك الادعاء انما هو حقيقي وصادق.

استؤنفت المناقشة في مجلس « الكونغرس »... وانفعل المتناقشون حين تناسى المشتركون الموضوعات الاساسية في خضمّ الشؤون الشخصية . فتميزت المناقشة ، بصورة عامة ، برد الاتهامات باتهامات مضادة . واقترح أحد الأعضاء تأجيل البحث بمعاهدة السلم ، وبمزاعم « ايتون » وبمطالب احمد ، الى الدورة الثانية التي سيعقدها « الكونغرس » ، بيد ان هذا الاقتراح فشل عند طرحه على التصويت .

ثم ان احد الاعضاء الفيدراليين المناوئين للرئيس « جفرسون » تقدم باقتراح آخر يطلب فيه تأجيل المعاهدة نفسها،الى ان يصادق«الكونغرس» على قضية السلام عملياً ، اذ في الفترة التي ستسبق يوم المصادقة سيكون

العمل في مشروع « صندوق البحر الأبيض المتوسط » لا يزال جارياً ، وسيكون ذلك الربع عائداً لمصلحة عهد « جفرسون » .

كان السيناتور « ستيفان ر. بريدلي »— ممثل « فيرمونت » — صديقاً قديماً « لايتون » وبالرغم من كونه عضواً في حزب « جفرسون » ، فقد طرح مشروعاً جديداً على بساط البحث في ١٨ آذار (مارس) ، يعبّر فيه عن تقدير « الكونغرس » والولايات المتحدة لخدمات «ايتون» ، و « اوبانون » ، وسائر الاميركيين الذين ساهموا في الحملة . كما انه اقترح على ذلك الجسم التشريعي الاميركي ان يختار ناحية من الأراضي المأهولة تبلغ مساحتها ستة أميال مربعة ويطلق عليها اسم درنـة ، وان يوزّع المساحة حصصاً على الابطال . والظاهر انه لم ينجم عن أمر هذا الاقتراح المُقترح أية نتيجة على الاطلاق . هذا،وقد أجرى «الكونغرس» أيضاً تصويتاً على اقتراح آخر يتعلق بمنح «ايتون» سيفاً ، ومدالية ذهبية وكتاب امتنان وتقدير ... لكننا لم نعثر على أي مستند يثبت ان هـذه الاقتراحات حظيت بالمصادقة ، مع انهـا كانت موضع تعليق وانتقاد موجهين « لايتون » . وكان « الكونغرس » قد صوّت عـلى ثلاث مداليات ذهبية فقط مُنحت لأبطال الثورة الاميركية . وقد أشار أحـد الممثلين الى ان سقوط درنة بالكاد ان يعادل في اهميته الاستيلاء عـلى « كورنواليس » .

ولاحظ « جون راندوالف » ، ممثل « رونوك » ، بطريقة تهكمية ساخرة ، ان الميدان السياسي مثله كمثل الميدان الشعري ، فيه المصقول الجليل ، وفيه السخيف الرديء . وهو يعتقد ان « ايتون » لم يكن من النوع المصقول الجليل . أما مناقشة الطلب الذي كان تقدم به « ايتون » للتعويض عليه بالاموال التي سبق له ان انفقها ، فقد أُرجئت الى الدورة المقبلة .

وفي ٣١ آذار (مارس) ، طُرح مشروع قانون يتعلق بالتعويض

على أحمد قرامانلي ، وتبع تقديم المشروع نقاش حاد . وكـــان جميع الفيدراليين في مجلس الشيوخ ، ما خلا « بلامر » و « جون كوينسي أدامس » ، يؤيدون أحمد قرامانلي، الضحية البريئة لسوء تخطيط الحكومة الاميركية . ولم يصوّت المجلس على المشروع الا بعد ان مضى اسبوع ونيف . وبكلمة وجيزة ، فقد وافق كـــل من مجلس الممثلين ومجلس الشيوخ على دفع مبلغ ٢٫٤٠٠ دولار كتعويض آني لأحمد باشا قرامانلي.

كان « جون كوينسي أدامس » السياسي الفيدرالي الوحيد الذي يتميز ببعد النظر ، والاهتمام بالمصلحة الوطنية ، وتقديمها على سائر المشاحنات الحزبية . وبفضل الجهود الجبارة التي بذلها هذا الرجل ، صادق مجلس الشيوخ الاميركي ، في الثاني عشر من شهر نيسان (ابريل) ، عـلى معاهدة الصلح المعقودة مع طرابلس، وذلك بأغلبية واحد وعشرين صوتاً ضد ثمانية . وهكذا فشل الفيدراليون العنيدون ، والمقاومون بعناد متطرف، في نقض المعاهـــدة ، لكنهم شوّشوا سير المناقشة ، وهاجموا الادارة الاميركية حيثما استطاعوا ، فرسموا بذلك سابقة منهجية للتصرف المشيخي (او السيناتوري) الذي اثبت فيما – بعد – انه بالغ الخطورة ومحرك للكوارث في مجال السياسة الخارجية الاميركية .

والحقيقة ان الاقطاب السياسيين الفيدراليين قد احسنوا استغلال حقد « ايتون » الصارخ على كل من « توبياس لير » والرئيس « جفرسون » . ولكن ، عندما اخفقت خططهم الخبيثة ، لم يعودوا بحاجة للاستفادة من « ايتون » الذي تُرك وحيداً يتدبر امره بنفسه ، ويسعى جاهداً للعمل من غير مساعدة . فصبّ جـــام غضبه في تلك الاتهامات العنيفة ، والقاسية ، والملتهبة ، الى درجة انه سرعان ما نفر من حوله اكثر معجبيه حماسةً .

وقـــد اعترف السيناتور « بلامر » ، في يومياته الخاصة ، انه كان يعتبر « ايتون » افضل قليلاً من اي دجال مخادع .

وفيما يلي بعض ما كتبه « بلامر » :

« لم يعد بامكاني ان انظر الى السيد « ايتون » نظرة الاكبار كما كنت افعل سابقاً . ثمة اشياء عديدة جداً تجمع على انه افّاك محتال . فهو لا ينفك يتبجح بصورة مستمرة بنجاح مهمته الساحق ، كما انه يتذمر من « لير » الذي عقد معاهدة السلام على نحو مستعجل مانعاً اياه – بالتالي– من احتلال طرابلس . على اننا اذا انعمنا النظر في تلك المهمة الصغيرة، فسرعان ما نتبين انها سهلة في عملياتها وسخيفة في مخططاتها ، لا سيما وانها لا تفتح ايما مجال للنجاح .

« ... ان تصرف « بارون » وتصرف « لير » ليستحقان كل تقدير واطراء . امـــا تصرف « ايتون » ، فانه يستحق كل تقريع وتعنيف رسميين .

« انه لمن سوء حظ الديار الاميركية ان سذاجة « جفرسون » وسرعة تصديقه قادتاه الى ان يساعد « ايتون » صاحب المشاريع الخيالية . انه ليبدو الآن مدركاً خطأه – ولكنه يخشى ان يصلح ما كان قد افسد بطريقة شريفة لائقة بالرجل . والغريب ، ان تهور « ايتون » قد سُمي « شجاعة » . لقد استقبله الشعب هاتفاً بابتهاج واستحسان . وأسرف الفيدراليون في مديحهم له . فالمناسبة كانت مؤاتية لهم من ناحيتين :

« اولاً : تقوية حزبهم .

« وثانياً: استغلال فرصة جديدة يتهجمون فيها على الادارة والحكومة الاميركيتين ، ويلصقون بهما شتى الاتهامات والعيوب » .

لطالما كان مجلس الشيوخ ضنيناً بجلال كرامته، وحريصاً على الاحتفاظ بسمو منزلته . والواقع ان ادانة « ايتون » – المسرفـــة وغير المقيدة – الموجهة لهذا المجلس التشريعي الجليل ، تلك الادانة التي اتت في اعقاب ارجاء النظر في مشروع القانون المتعلق بالتعويض على احمد ، افقدت القنصل الاميركي السابق عدداً كبيراً من مؤيديه .

وحين قال « ايتون » في مثوى السيناتور « بلامر » ان « معظم اعضاء مجلس الشيوخ قد باعوا شرف وطنهم » ، اقسم « بلامر » يومذاك ألا يجلس مرة ثانية حول طاولة يكون امامها « ويليام ايتون » الذي وصفه « بالجنرال العربي سابقاً » .

وقد اغتبط الفيدراليون والجفرسونيون معاً حين نفض المحارب السليط اللسان تراب « واشنطن » الاصفر من على قدميه عائداً الى منزله في « بريمفيلد » ، من اعمال « ماسانشوستس » ، حيث كان في مقدوره ان يطيل التفكير في مشكلاته ، وحيث كان يواسيه ابناء بلدته المبغضين « لجفرسون » .

ثم صوّت مجلس « الكونغرس » في دورته الثانية على طلبات « ايتون » ، ووافق على بعض منها . والواقع انه كان هنالك بعض الادعاءات والمطالب الايتونية في انتظار ان ينظر في شأنها « الكونغرس » منذ كان « ايتون » يشغل منصب قنصل الولايات المتحدة في تونس .

والمهم ، ان « الكونغرس » الاميركي قرر التعويض على « ويليام ايتون » بمبلغ ١٢,٦٣٦ دولاراً وستين سنتاً ليتخلص من ازعاجه والحاحه.

وكانت ولاية « ماسانشوستس » اكثر اعترافاً بالجميل ، اولاً من حيث تكريمها البطل الاميركي ، وثانياً من حيث تقديرها لعدو لدود للرئيس « توماس جفرسون » . وقد اصدرت الهيئة التشريعية في « ماساتشوستس » في اليوم الرابع من شهر آذار (مارس) ، في سنة ١٨٠٧ ، قراراً يحتوي على مقدمة منمّقة الالفاظ مدبّجة العبارات ، تمنح فيه « ايتون » ارضاً تقع ضمن حدود الولاية المذكورة ، وتقدّر مساحتها بعشرة آلاف أكْر * في مقاطعة « ماين » . ومن بين حيثيات

---

* الأكر : مقياس من مقاييس المساحة ، وهو يساوي ٤٨٤٠ ياردة مربعة ، او نحو اربعة آلاف متر مربع .

القرار الذي اتخذته هذه الهيئة التشريعية ما نصه كالآتي :

« ان شجاعة « ايتون » التي تفل الجبال وخدماته الرائعة ... جميع ذلك قد ساعد ، أي مساعدة ، على اطلاق سراح عدد كبير من مواطنيه وزملائه ، ممن كانوا قيد الاعتقال في طرابلس ، فأنقذهم بذلك من ذل العبودية ، واعادهم الى نور الحرية ، والى وطنهم ، والى اصدقائهم » .

وفي اواخر فصل الصيف من ذلك العام ، أقسم « ايتون » اليمين القانونية قبيل احتلاله منصب قاضي صلح في مقاطعة « هامبشاير » ، وما لبث ان استقر هنالك . ثم ان سكان « بريمفيلد » انتخبوه ممثلاً عنهم في هيئة « ماسانشوستس » التشريعية ، في فصل الربيع التالي ، وذلك لتأكدهم الجازم من انه سيكون فيدرالياً مخلصاً وقوياً . فلو انه تصرف عن وعي وحكمة ، او انه برهن عن تفهم ودراية ، فلا شك انه كان سريعاً ما اصبح معبود سكان « بريمفيلد » ، ومحبوباً من جميع اهالي بلدته . غير ان تلك الصفات لم تكن من صفاته . ولا يختلف اثنان على انه كانت تنقصه تلك الصفات الاساسية . فهو كان قد تورط ، آنذاك ، في قضية « آيرون بور » .

•

كان « ايرون بور » يبحث في شتاء سنتي ١٨٠٥ – ١٨٠٦ ، عن رجل عسكري محنك ذو خبرة واسعة ، وماضٍ مشرّف ، وشجاعة اكيدة . وبصورة خاصة ، فانه كان يبحث عن عسكري ناقم على حكومة « توماس جفرسون » اشد النقمة .

وكلما كانت تتشعب مداخلات « ايتون » في عالم السياسة من نحو ، وكلما كان يتورط في مماطلات « الكونغرس » الاميركي من نحو آخر ، كان « بور » يحاول التقرب من القنصل الاميركي الاسبق اكثر فاكثر . اما فيما يتعلق « بايتون » ، فان صداقة نائب رئيس سابق للولايات المتحدة

الاميركية كانت كالبلسم الشافي المسكّن لفؤاد جريح .

ولم يُضع « بورّ » المراوغ والزلق اللسان أيـة فرصة كيما يجامل « ايتون » ويتملقه ، قائلاً ان الحكومة الاميركية لم تكن عادلة بتاتاً في معاملتها احد رجالها العسكريين الاكفاء * الذي كانت شجاعته تستحق كل تقـدير ، مهما كانت التنازلات التي قامت بها طرابلس لصالح الولايات المتحدة . وعندما كان اعضاء « الكونغرس » ينتقدون الحملة على درنة ، وينتقدون قائدها في الوقت نفسه، كان « بور » يسرع لنشر تصريحاته والاعراب عن آرائه .

وهكذا ، وعلى هذا النسق المنافق الازدواجي ، فانه اذاع تدريجياً ان الحكومة كانت مصممة على ان تفقد « ايتون » سمعته الطيبة وتقضي على مستقبله – الامر الذي كان من السهل جداً ان يصدقه بطل درنة .

وما عتم « بور » ان اشار الى انه كان في ميسور « ايتون » – اذا ما رغب – ان يتولى قيادة قسم من الحملة المزمع شنها على المقاطعات الاسبانية نحو الجنوب الغربي . وبما ان الاشاعات التي كانت تلوكها الالسن ، حينذاك ، كانت تتحدث عن قيام حرب بين الولايات المتحدة واسبانيا رغبة في احتلال اقليم « فلوريدا » ، فقد اعتقد « ايتون » ، بادىء الامر ، ان « ايرون بورّ » ينوي شن حملة رسميـة تكون برعاية الحكومة .

غير ان « ايتون » سرعان ما اخذ يشك في رغبات « بورّ » ودوافعه، بصورة تدريجية ، فحمله على ان يكشف له عن مخططاته المبيّتة . حتى اذا ما توضحت لديه افكار « بور » المزعجة ، توجه البطل الاميركي في الحال لمقابلة رئيس الولايات المتحدة مقترحاً عليه ابعـاد « بور » الطموح من البلاد ، وذلك عن طريق تفويضه في مهمة دبلوماسية او

---

* يقصد « ايتون » .

تمثيلية في لندن او في قادس .

وفي ربيع سنة ١٨٠٦ ، عندما عاد « ايتون » الى « بريمفيلد » ، نزع مشاريع « بورّ » وخططه من تفكيره ، معتبراً اياها مجرد احلام خيالية صادرة عن سياسي لا يعرف للمسؤولية معنى . غير انه ، مع ذلك ، انزعج انزعاجاً شديداً في بدء الخريف ، حين علم بالنشاط الذي كان يمارسه « بور » في « الميسيسيبي » .

وفي شهر تشرين الاول (اوكتوبر) ، تحدث « ايتون » في هذا الموضوع مع ممثل « ماساتشوستس » في مجلس « الكونغرس » . وما لبث هذا الممثل السياسي ان نقل تلك المعلومات الى « غيديون غرانجر » ، المدير العام للبريد ، واعلمه باطلاع « ايتون » على مؤامرة « بور » .

ثم كتب « غرانجر » تلك المعلومات بدقة تفصيلية ، وأرسل بها الى رئيس الولايات المتحدة بعد ان وقّع عليها « ايتون » امضاءه . وكان من دواعي فخر « ايتون » ان :

« هذا التقرير كان يُشكل اول مصدر يزوّد السلطة الاجرائية بمعلومات مستفيضة عن المؤامرة التي كانت تحبك خيوطها في هذا الوقت » .

وكانت الشهادة التي ادلى بها « ايتون » في محاكمة « بور » سنة ١٨٠٧ تدين هذا الاخير وتثبت عليه التهمة الموجهة اليه ، فضلاً عن انها اتت مثالاً رائعاً للشهادة الصادقة الصريحة . الا ان « بور » لم يوكّل اشهر المحامين في اميركا قاطبة عبثاً . وذلك بمعنى ان جانب الدفاع كان يملك حليفاً قوياً ، الا وهو القاضي الاول في البلاد ، « جون مارشال » ، رئيس المحكمة العليا ، الذي كان يبغض « جفرسون » وأعماله .

واستهل الدفاع مرافعته بمحاولته توجيه اللوم الى « ايتون » بعد ان حاول اظهار القضية بأنها كانت نتيجة للعبة قامت بها الحكومة ، وهي شراء شهادة « ايتون » .

ولا بد من إن ننوه في هذا الصدد ، ان « الكونغرس » كان قد صوّت نهائياً في الربيع المنصرم على مطالب «ايتون» القديمة المتعلقة بالاموال التي سبق له ان دفعها بالنيابة عن الولايات المتحدة ، وانفقها في شمالي افريقيا . بيد انه لم يكن باستطاعة ألد اعداء « ايتون » ان ينكر ان الحكومة كانت شديدة البخل في تعويضها على « ايتون » .

ومهما يكن الحال ، فقد نجم عن ادعاء الدفاع ان « ايتون » كان شاهداً مأجوراً ، أمران : اولهما ، ان هذا الادعاء قد ساعد « بورّ » وعزز موقفه . وثانيهما ، انه عمل على تحطيم حزب « جفرسون » .

والحق ان « ايتون » واجه استجواباً قاسياً ودقيقاً للغاية إبان ادلائه بشهادته في المحكمة . اما الانتقادات اللاذعة التي وجهها المدافعون عن قضية « بورّ » الى شهادة « ايتون » في المحكمة ، فانها كانت مبنية ، الى حد كبير ، على الصورة الزائفة التي اظهر تلك الشهادة بها شريك من شركاء « بورّ » في الجريمة ، وهو « هارمان بلينير هاسيت » الذي كان يكره « ايتون » ويضمر له الحقد في اعماق اعماقه .

وبعد ، فان الدور الذي لعبه « ايتون » في محاكمة « بورّ » كان له وقع سيء ، بل وتأثير سيء على مهنته وسيرته . لقد عاد الى بيته في « برمفيلد » وهو يتأجج غضباً وغيظاً من الطريقة التي سيّر فيها قاضي اميركا الاول ، « جون مارشال » ، المحاكمة ، واخذ يلعن هذا الركن المسكين من الحزب الفيدرالي . فلم ينسَ في الاجتماع الذي عقدته الهيئة التشريعية ، ان يلقي خطاباً ملتهباً صبّ فيه جام غضبه على رئيس المحكمة العليا وقاضي اميركا الاول ، وعلى تصرّفه ، وعلى تحيزه وعدم استقامته .

فانشدّه ناخبو « ايتون » في « برمفيلد » لما ظهر منه من « اقوال تشوه طهارة الفيدرالية » ... وقد وصفوا خطابه بأنه سلوك ينمّ عن عدم احترام للمقدسات ، الامر الذي لم يتوقعوا ان يصدر عن رجل كانوا

واثقين من انه « من رجال المدرسة الواشنطنية » . وهكـذا ، ارتاب الناخبون في « استقامته السياسية وثباته او التزامه السياسي » ، فخذلوه في الانتخابات الثانيـة التي صادف موعدها في ربيـع عام ١٨٠٨ ، ولم يصوّت لصالحه اي رجل من بلدته !!!

وعلى هذا النحو ، دفع « ايتون » ثمن ابداء رأيه بحرية ، والقاء خطابه بصراحة - شأنه في ذلك شأن كل هاوٍ من هواة السياسة غير المتمرسين .

•

لم يكن « ايتون » مرتاحاً لنتيجة محاكمة « بورّ » ... وبعد ان خذله ناخبوه ، وبعد ان رفض عملاً في الجيش الاميركي ، انزوى « ايتون » حزين النفس ، كليم الفؤاد ، في بلدته « بريمفيلد » يتفكر ملياً في بلاياه ومحنه . ولم يعثر على ما يعزي بـه النفس الا زجاجة الخمر ، وطاولة القمار التي خسر عليها اكثر مما كان يتحمّل ان ينفق او يدفع .

وقد كتب الى شقيقه « ايبنزر » رسالة مؤرخة في ٢ كانون الثانـي (يناير) ، سنة ١٨٠٩ ، يقول فيها انه قد شُلّت صحته، وقضي على مستقبله ، بسبب من « بورّ » و « جفرسون » ، من غير شك .

ومضت سنتان ... وفي الحادي عشر من شهر حزيران (يونيو) ، عام ١٨١١ ، توفي « ويليام ايتون » عن عمر يناهز الرابعة والسبعين ، منهوك القوى ، متدهور الصحة ، عديم العافية ، بعد ان هزمه الموت في صراع غير عادل بين فريق ضعيف وآخر قوي .

والطريف الذي يستحق الذكر ، هو ان الصحف التي كانت قـد أسرفت في اطرائه ومدح شجاعته منذ بضع سنوات مُفردةً لذلك مساحة كبيرة من صفحاتها ، تكاد لا تأتي اليوم على مجرد ذكر نبأ وفاته . فها ان صحيفة « كولومبيـا » الشهيرة - في عددها الصادر يوم ١٢

حزيران (يونيو) – ترى ان المأتم لا يستحق اكثر من جملة واحدة :

« جرى دفن الجنرال « ايتون » ، بطل درنة ، وضحية رقة الشعور ، في « بريمفيلد » ، يوم الاربعاء الماضي » .

ولكن حتى هذا النبأ لم يكن صحيحاً !! فالواقع انه كان قد دُفن يوم الثلاثاء ، لا الاربعاء ، كما اوردت الصحيفة خطأ .

كان « ايتون » رجلاً عسكرياً ، يسري حب الجندية في عروقه . لقد جعل النصر العسكري هدفه الاول في الحياة طوال الايام التي عاشها. فإبان اقامته في تونس ، كان يتطلع بفارغ الصبر الى ذلك اليوم الذي يستطيع ان يشترك فيه في حرب عملية ضد ابناء شمالي افريقيا . وقد سنحت له فرصة ابراز نفسه وتحقيق النصر ايام زحفه على درنة . ولكن ، يا لقساوة القدر ! لقد قضى « توبياس لير » على الثمار – ثمار النصر – التي كان قد جناها « ايتون » .. فصار ينظر الى « توبياس لير » نظرته الى نذل ليس لديه من التمرس الدبلوماسي اكثر مما لدى مفاوضٍ مساومٍ هاوٍ .

اكثر من مرة ، كان النجاح في متناول يديه ، لكنه كان يفلت منه بطريقة او بأخرى . وفي آخر الامر ، اخذ « ايتون » يُعزّي نفسه بارجاعه مسؤولية فشله الى عدة عوامل خارجية ، شأنه في ذلك شأن العديدين سواه من الفاشلين .

ولم يخطر على باله ، ولو مرة واحدة ، ان صفاقته ، وطيشه ، وعدم لباقته ، وعجزه عن كتمان الاسرار .. ان جميع تلك الاسباب انما هي التي كانت مسؤولة عن وقوعه في الفشل .

والواقع ان المعجزات التي حققها « ايتون » ايام قيامه بمهام قنصل الولايات المتحدة في تونس من جهة ، وايام قيادته الحملة الاميركية على درنة من جهة ثانية ، كانت اهم وابعد بكثير مما عرفته الاجيال اللاحقة عنها . لقد ادرك اهمية سياسة العنف وفعاليتها في علاقات بلاده مع

بلدان افريقيا الشمالية ، اكثر مما ادركها معظم معاصريه .. والواضح ان السياسة التي دعا إلى انتهاجها في رسائله التي لا تحصى والتي كان يبعث بها الى وزارة الخارجية الاميركية ، ان تلك السياسة كانت ، في الواقع ، الاسلوب الوحيد الذي برهن عن جدواه ونجاحه في معاملة دول شمالي افريقيا المتبربرة .

ان « جفرسون » نفسه قد تبنى هذه السياسة ، لكنه وجـد نفسه مشلولاً حينما أراد تنفيذها وتطبيقها ، وذلك بسبب ضعف الأسطول ، هذا الضعف الناجم عن قانون سنة ١٨٠١ . وعندما سمح « الكونغرس » الضنين أخيراً باستعمال السفن اللازمة والضباط الملائمين ، صار حل القضية الافريقية الشمالية سهلاً نسبياً .

كان زحف « ايتون » عبر الصحراء الليبية واستيلاؤه على درنة أمراً أبعد بكثير من مجرّد كونه مغامرة دونكيخوتية قام بها متفاخر طائش ، او جندي متبجح ، او قاتل مستأجَر ، مثلما فسّرها أعداؤه . فعـلى الرغم من الضعف الذي تميز به أحمد قرامانلي ، فان خطة ابدال يوسف باشا قرامانلي بباشا جديد – هو اخوه في الواقـع – يكون دمية سهلة التحريك في ايدي الولايات المتحدة الاميركية ، كانت خطة سلمية ، ومضمونة ، وعملية .

فلو ان « ايتون » تلقى مساعدة فعالة من قائد الاسطول – « بارون » – فان هجوماً ثنائياً من البرّ ومن البحر معاً ، كان قميناً بأن يجعل الاميركيين مسيطرين على طرابلس بسهولة من جهة ، وبأن يرسخ النفوذ الاميركي في شمالي افريقيا بصورة دائمة من جهة اخرى ... ولكن ، مهما كانت الظروف والاحوال ، فالذي حدث ، باختصار ، هو ان الزحف عـلى درنة قد أرعب يوسف باشا قرامانلي رعباً لا حد له ، ودفعه الى عقد معاهدة صلح سلمية كانت في صالح الولايات المتحدة . وبالرغم من ان النقاد الكارهين « لايتون » قد يستخفون أهمية نتائج سقوط درنة ، فالواقع

ان الخطر الذي كانت تشكله قوات « ايتون » البرية هو الذي لفت نظر يوسف إلى معنى المجازفة بعداوة أميركا ، اكثر مما لفتت نظره الى ذلك التهديدات السخيفة التي كانت تقوم بها سفن « بارون » الساكنة وغير العاملة . وحتى اذا لم يحقق الزحف نفسه اية غاية سوى انه اثبت شجاعة بعض الاميركيين وبراعتهم ، فانه ليستحق ان يحتل مكانه من التاريخ العسكري للولايات المتحدة . وما دليلنا على ذلك ، إلا ان النشيد الرسمي للجسم البحري من الجيش الاميركي يكرّس ذكرى هذه الحملة .

وحسب « ايتون » انه احاط دول شمالي افريقيا علماً انه من الآن فصاعداً ، ستكون الولايات المتحدة قوة لا يستهان بها ، لا سيما وان الحل الأخير لمشكلة افريقيا الشمالية اخذ يلوح ويرتسم في الافق .

لقد كان بريق شهرته الآنية سريع الزوال . لكن الزمان أثبت عقلانية الخطط السياسية التي نصح حكومته بالعمل وفقاً لها ، فلم يدَع التاريخُ سجلّ مآثره يُنسى أو يموت .

١٠

تصفية الحساب

في نهاية المطاف

من بين القناصل الاميركيين الثلاثة الذين مثّلــوا الولايات المتحدة الاميركية في دول شمالي افريقيا اعتباراً من عام ١٨٠٠ ، بل وحتى قبل هذا التاريخ ، والذين كافحوا وناضلوا مواجهين صعوبات السنوات الأولى للمفاوضات الاميركية مع القراصنة ، من بين أولئك القناصل الثلاثة كان « ويليام ايتون » الوحيد الذي فشل في الاستفادة من مغامراته ، والذي لم يعش طويلاً مدة كافية كيما يتمكن من ان يتأمــل في رضاً وحبور النتائج الأخيرة التي وصلت اليها علاقات بلاده بدول شمالي افريقيا . فلو كُتِبَ له ان يعمّر خمس سنوات اخرى ، لكــان تسنّى له ان يرى قراصنة شمالي افريقيا مغلوبين على أمرهم ومقهورين الى الأبد ، كل ذلك بفضل السياسة عينها التي دعا اليها .

والواقع ان زميليه السابقين « ريتشارد اوبراين » ، و « جيمس لايندر كاثكارت » ، هما اللذان سنحت لهما تلك الفرصة ، فتلذّذا في مراقبــة

القراصنة المقهورين . أضف الى ذلك ، انهما استطاعا ان يحصّلا مبالغ نقدية لا بأس بها نتيجة مزاعمهم وطلبهم التعويضات من « الكونغرس ». فانتزعا أخيراً مجموعات هائلة من الاموال من الحكومة الاميركية – بواسطة الحاحهم واصرارهم – ، اكثر من تلك المجموعات التي كان يفكر « ايتون» في المطالبة بها ... فاشتهر كـل منهما ، في النتيجة ، بتوسّله لمجلس « الكونغرس » ، وتقديم عرائض الالتماس له .

وعندما رجع « اوبراين » الى الولايات المتحدة برفقة القائد « بريبل» – بعد ان كان قد عمل كمستشار مدني لذلك الضابط – ، أقام فترةً من الوقت في « فيلادلفيا » ، ومن ثم استقر نهائياً في « كارلايل » ، من اعمال « بنسلفانيا » ، حيث عمل مزارعاً قنوعـاً ، مرتاحَ البال والضمير . وكانت « كارلايل » تقع عـلى مقربة من « واشنطن » الى درجة كافية تسمح له ان يستعجل مطاليبه ، ويلاحق معاملاته مع الحكومة الاميركية شخصياً .

وكان مجموع ما تلقاه « اوبراين » من وزارة الخارجية الاميركيـة كمكافآت لخدماته وتعويضات عن نفقاته التي تكبدها في شمالي افريقيا ، وذلك اعتبـاراً من سنة ١٨٠٥ وحتى سنة ١٨٠٨ ، ٤٩,٧٦٢ دولاراً وربع الدولار ... وظل « اوبراين » يطالب الحكومة الاميركية بدفعات اخرى من حين الى آخر ، طوال الستة عشر سنة التالية ، على اساس انه لم يُعَوَّض عليه بصورة كافية عادلة . وخلال تلك السنوات ، تلقى ما يقدّر بـ ١٨,١٧٤ دولاراً و ٦٦ بنساً . وعندما توفي ، لم يتورّع ورثته عن مطالبة وزارة الخارجية من جديد ... غير اننا لا نعثر عـلى دليل تاريخي على استفادتهم من تلك الطلبات التي تقدّموا بها .

وقد كتب « جون كوينسي أدامس » ، وكان ناظر الخارجيـة الاميركية حينذاك ، كتب في دفتر يومياته في ٥ تموز (يوليو) سنة ١٨٠٢ ان « كاثكارت » و « اوبراين » كانا قد :

« استنبطا الوسائل لتبديد مجموعات طائلة من اموال الحكومـــة ، ورسما الخطط لفتح خزّان لا ينضب من الطلبات ، فاحتالا بذلك على حكومة الوطن » .

ويتابع « ادامس » مذكراته ، فيقول :

« كان « اوبراين » قد أبرم الرئيس وأزعجه بكثرة مطالبه ، وها هو الآن ينتزع قانوناً جديداً اقرّه « الكونغرس » مؤخراً ، سوف يقبض بمقتضاه عشرة آلاف دولار اخرى . ولا شك انه سوف يجدد طلباته في الصيف القادم » .

أما « كاثكارت » ، فانه كان يكسب الاموال بالتملق ، ويمتصها من الحكومة الاميركية عـــلى صورة تعويضات للمصاريف التي كان قد تحمّلها في افريقيا الشمالية . وقد صرّح « جون كوينسي ادامس » ان تعلّق « كاثكارت » بمطالبه « العتيقة السابقة لعهـــد الطوفان » كان أعنف وأشد من الحبّ ، فضلاً عن ان هذه الطلبات كانت متكررة الى حد ممل .

ففيما بين سنة ١٨٠٥ وسنة ١٨٣٦ ، قبض « كاثكارت » ما ينوف عن العشرة آلاف دولار ، بالاضافة الى تعويض سخي عما كان قد طلبه من وزارة الخارجية. ثم ان هذه الوزارة دفعت له مجدداً مبلغ ١٨،٤١٦ دولاراً و ٩١ سنتاً في سنة ١٨٠٦ ، لقاء النفقات والمصاريف التي كان قد تحمّلها أثناء مرافقته السفير التونسي في رحلة سياحية طويلة على طول شاطىء المحيط الاطلسي . وبعد مرور ثلاثين عاماً ، تذمر « كاثكارت » من ان هذه المبالغ لم تكن كافية ، وطالب بالمزيد . فأمر « الكونغرس » بأن تدفع له الولايات المتحدة دفعة جديدة وقدرها ١،٥٨٣ دولاراً و ٣٣ سنتاً ، شريطة ان يُعتبر طلبه هذا الطلب الأخير الذي يحق لـ « جيمس لايندر كاثكارت » ان يتقدم به .

والطريف ، ان « كاثكارت » كان قد تعلم فن العيش عـــلى نفقة

الحكومة ومن مالية الدولة . فانه ليتجلى لمن يراقب احداث حياة هذا الرجل ، انه كان يعمل موظفاً لدى الحكومة الاميركية في معظم مراحل حياته : ففي سنة ١٨٠٦ ، عاد « كاثكارت » الى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط ليعمل قنصلاً اميركياً ، أولاً : في « ماديره » ، وثانياً : في قادس ، وذلك حتى عام ١٨١٧ . ثم انه شغل منصب وكيل بحري مهمته المحافظة على غابات البلوط والسنديان في « فلوريدا » ، وذلك منذ سنة ١٨١٧ وحتى سنة ١٨٢٠ .

أما بعد سنة ١٨٢٠ ، فقد عمل مدة قصيرة موظفاً في وزارة المالية . وفي سنة ١٨٢٧ ، حاول الاستفادة من وساطة « ماديسون » ونفوذه ، لكي يضمن لنفسه وظيفة مُترجم في وزارة الخارجية . وقبل وفاته سنة ١٨٤٣ بعشر سنوات ، ظل محالاً الى التقاعد ومستفيداً من معاش هذا التقاعد.

•

ماذا عن أحمد قرامانلي ؟

الواقع انه لم يُصِبْ نجاحاً كبيراً ، اذ ان حليفه ومحاميه « ايتون » كان قد توفي قبـــل أن ينفض « الكونغرس » يده من قضية أحمد . فبالاضافة الى الألفين والاربعمائة دولار التي أقرها « الكونغرس » كتعويض مؤقت لأحمد قرامانلي في سنة ١٨٠٦ ، تلقى أحمد أيضاً مبلغ ٥,٨٩٥ دولاراً من المفوض البحري الاميركي في « سيراكوزة » .

والاكثر من ذلك كله ، ان النقمة العامة على اتفاقية « لير » السرية المعقودة مع يوسف باشا ، والمتعلقة بتحرير عائلة أحمد قرامانلي ، بصورة مناقضة لمحتوى المادة رقم (٣) من المعاهدة الاميركية — الطرابلسية ، ان تلك النقمة كانت من جملة العوامل التي حثّت « الكونغرس » على ان يُعامل الباشا الالعوبة سابقاً بسخاء وكرم . ولكنّ الدكتور «دايفيس» — القنصل الاميركي في طرابلس — أعلم حكومة بلاده ان يوسف باشا

قرامانلي اطلق مؤخراً سراح عائلة شقيقه أحمد ، وأنه عيّن شقيقه أحمد والياً على درنة ، فقرر « الكونغرس » ان احمد قد نال تعويضاً كافياً .
ولسوء الحظ ، ان يوسف سرعان ما طرد احمد من الولاية في سنة ١٨١٠ ، ونفاه الى مصر حيث توفي بعد فترة قصيرة .

●

وفي سنة ١٨٠٩ ، وصل مساعد « ايتــون » في حملته ، الجندي المرتزق « جون يوجين لايتنسدورفر » ، الى اميركا بصفة بحّار . وما عتم ان زار قائده السابق في « بريمفيلد » ، وحصل منه على رسائل توصية موجّهة الى مختلف المسؤولين في حكومة « واشنطن » . وهناك ، عثر « لايتنسدورفر » اخيراً على وظيفة متواضعة ، هي وظيفــة حارس في « الكابيتول » * ... وسكن في احدى الغرف غير المدهونة . ومن هذا المركز المناسب ، سرعان ما استطاع ان يتعرف على احد اعضاء « الكونغرس » عن بُعد ، فأصبح احد اطمع وأشره المطالبين بالتعويضات .
وبصورة عامة ، فقد كافأه « الكونغرس » في سنة ١٨١١ بـ ٣٢٠ أكراً من الأرض ، ومنحه مرتّب كابتن عن الأيام التي عمل فيها مع « ايتون » ... والحق ان هذا كان كافياً لاشباع رغباته . بيد انه بعد مرور أربعة وعشرين عاماً ، اي في عام ١٨٣٥ على وجه التعيين ، تقدم بطلب خدمة الوطن ، فأصدر « الكونغرس » قانوناً « بتحرير الكولونيل « جون يوجين لايتنسدورفر » من اداء واجبه » .
والجدير بالذكر ، انه قد ترقّى ، بمرور الوقت وكرّ الايام ، من رتبة كابتن الى رتبة كولونيل ... وان القانون الذي منحه قطعة ارض تبلغ مساحتها ٣٢٠ أكراً في ولاية « ميسوري » ، كان قد منحه ـ فوق ذلك ـ ايضاً :

---

* مبنى « الكونغرس » الاميركي بمدينة « واشنطن » . (المعرب)

« راتب ضابط مساعد للقائـــد وتعويضه ، مع راتب مفتش عام وتعويضه ، بالاضافة الى رتبة كولونيل عن الخيالة ، وذلك اعتباراً من اليوم الخـــامس عشر من شهر كانون الاول (ديسمبر) ، من عام ١٨٠٤، وحتى اليوم الخامس عشر من شهر تموز (يوليو) ، من عام ١٨٠٥ ، على اعتبار ان هذه هي المدة نفسها التي خدم فيها في جيش الولايات المتحدة في مصر وعلى ساحل افريقيا .

« ولما كانت رحلته من الاسكندرية الى درنة تقدّر مسافتها بحوالى ستمائة ميل تقريباً، فان « الكونغرس » يقرر ايضاً ان يكافأه بمبلغ مئتين وثمانية وثمانين دولاراً تدفع له كقائد للمشاة من اجل خدماته .

« كذلك ، فاننا نمنحه راتب ثلاثة اشهر اضافية كتعويض عما كان صرفه ايام انتقـــاله من مركزه في درنة ، الواقعة على ساحل شمالي افريقيا ، الى مكان اقامته » .

حقاً ، لقد توفي « ايتون » قبل الاوان ... ان فكرة الاستفادة من التعويض الميلي* ومطالبة «الكونغرس» به في لقاء الزحف عبر الصحراء، لم تخطر على باله اطلاقاً .

•

لطالما شدد « ايتون » ، طوال سنوات عديدة ، على ان القوة الكافية لنشر الذعر وبث الرعب في قلوب حكام دول افريقيا الشمالية لكفيلة بأن تضع حداً اخيراً لغطرستهم . هـــذا ، بصرف النظر عن ان سياسة القوة ستكلف اقل بكثير من الدفع المستمر للرشوات والاتاوات والبقاشيش التي كان يطلبها الحكام الشماليون الافريقيون ، ويفرضون التقيد بها كعادة من العادات الراهنة والمتداولة .

---

* التعويض الميلي Mileage هو تعويض يدفع لتغطية نفقات رحلة ، او نفقات السفر ، بنسبة معينة في الميل الواحد .

لكن الدليل على صحة هذه النظرية ، لم يظهر الا في اعقاب حرب سنة ١٨١٢ ضد بريطانيا العظمى . وفي غضون ذلك ، جدد القراصنة بين الفينة والفينة طلبات الفدية ، كما كانوا يقومون بأعمال عدائية وتهديدات حربية .

ان حنق داي الجزائر لتأخر شحنة المعدات البحرية ، التي كان من المفروض ان تدفعها له الولايات المتحدة على سبيل الفدية ، جعله يطلق فرغاطة من فرغاطاته بحثاً عن المراكب الاميركية ، وذلك في شهر تشرين الاول (اوكتوبر) ، عام ١٨٠٧ . وقد تمكن الجزائريون من الاستيلاء على ثلاث سفن تجارية اميركية ، في حين افلتت سفينة اخرى من ايديهم . اما القنصل الاميركي العام ، « توبياس لير » ، فانه توصل الى عقد معاهدة صلح ، كما امّن اطلاق سراح المراكب التجارية وأسراها .. حتى اذا مرّت ثلاثة اشهر ، عاد الداي الى المطالبة بمبلغ قدره ثمانية عشر الف دولار كتعويض عن تسعة رجال جزائريين كانوا قد ابحروا رغماً عنهم في مركب هارب . فدفع « لير » المبلغ قصد الحؤول دون استيلاء الجزائريين على السفن والمراكب الاميركية الاخرى .

ومع تفاقم خطر اندلاع الحرب مع انكلترة ، كانت الحكومة الاميركية تسحب سفنها من منطقة البحر الابيض المتوسط تباعاً ، فعظم تعجرف حكام الدول المتبربرة اكثر فأكثر .

وفي سنة ١٨١٠ ، هدد باي تونس باعلان الحرب ، حينما حاولت الولايات المتحدة الاميركية ان تسترجع سفينة اميركية كان قد استولى عليها قراصنة فرنسيون وباعوها الى وزير الباي الاول . ولما كانت الولايات المتحدة عاجزة عن تحقيق غايتها بالقوة ، فقد كان لزاماً عليها ان تخضع للامر الواقع وتدع التونسيين يحتفظون بالغنيمة .

لقد بلغت غطرسة الجزائريين ذروتها في سنة ١٨١٢ ، وذلك قبل ان تصل انباء الحرب الواقعة بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى الى

منطقة المتوسط بقليل . وكان الداي الحاكم آنذاك رجلاً متحجر القلب يدعى « الحاج علي » ، وكان هذا الداي يعيش في عــالم من الخوف والاوهام ، لا سيما وانه كان يخشى ان يقع ضحية الاغتيال ، مثلما حدث لسَلَفِيْه . وكان ربابنته القراصنة ، النهمون للضحايــا ، يطلبون شن حرب على تجارة الولايات المتحدة . وعندمــا وصلت سفينة التموين الاميركية « اليغاني » في شهر تموز (يوليو) ، وهي محملة بالجزية الاميركية التي كانت عبارة عن معدات وتجهيزات للسفن ، كان « الحاج علي » يعاني حالة عصبية دقيقة .

وبعد ان افرغت السفينة قسماً من البضائع ، اكتشف الــداي ان البضاعة كانت رديئة النوع ، فرفض قبولها . وبغضب كلي ، طلب من القنصل الاميركي العام ، « لير » ، ان يدفع له على التو دفعة نقدية قدرها سبعة وعشرون الف دولار اميركي لقاء جزية البضائع والمعدات المستحقة . وبنتيجة العمليــات الحسابيــة التي اجراها « لير » ، تبين له ان المبلغ الذي طالب به الداي انما يفوق الدين الذي كان يتوجب على الولايات المتحدة ان تدفعه بأحد عشر ألف دولار تمامــاً .. لكن الداي رفض التناقش في الموضوع .

ثم ان غضبه تجاوز الحد المعقول ، فأمر « لير » وجميع الاميركيين المقيمين ضمن حدود بلاده ان يرزموا امتعتهم ، وان يغادروا البلاد في خلال ثلاثة ايام ، مع التنويه بعقوبة الاسترقاق اذا ما اخلّوا بالشروط. ولكن ، كان عليهم ان يدفعوا المال قبل ان يغادروا الجزائر . واذْ لم يجد « لير » امامه من حل آخر سوى الوقوع بنفسه مع عشرين اميركياً آخرين في براثن العبودية والرق ، بالاضافة الى استيلاء الجزائريين على سفينة التموين الاميركية « اليغاني » ، فقد اقترض القنصل الاميركي العام المال المطلوب من احد اشقاء « بكري » — بفائدة خمس وعشرين بالمئــة — ، وابحر في الخامس والعشرين من شهر تموز (يوليو) ،

تاركاً الشؤون الاميركيـــة في عهدة القنصل السويدي . وبعد شهر من هذا التاريـــخ ، ألقى الجزائريون القبض على السفينة الشراعية بصارين « ايدوين » – وكانت احدى سفن مدينة « سالم » الاميركية – ، وأسروا ضباطها وطاقم بحارتها .

•

كان من شأن الحرب الدائرة رحاها فيما بين الولايات المتحدة وانكلترة ، ان ابقت السفن الاميركية خـــارج نطاق البحر الابيض المتوسط طيلة السنوات القليلة التالية ، فحالت بذلك دون وقوع المزيد من الضحايا في ايدي القراصنة .

وفي سنة ١٨١٣ ، ارسلت الولايات المتحدة « موردكاي م. نوح » قنصلاً لها في تونس ، وزودته بتعليمات كان من اهمها ان يبذل جهداً خاصاً لاطلاق سراح الاسرى الاميركيين في الجزائر . وفي سبيل تحقيق هذه المهمة الدقيقة والحساسة ، تعاون « موردكاي نوح » مع رجـــل اميركي ذي ميول تجاريـــة كان يقيم في اسبانيا ، واسمه « ريتشارد ر. كين » .

قدم « ريشارد كين » الى الجزائر متخفياً بشخصية مواطن اسباني . والمثير الذي يبعث على الاستغراب ، انه سرعان ما تلقّى كل معونـــة ومساعدة من واحد من ألد اعداء بلاده ، ألا وهو القنصل البريطاني . غير ان الداي كان فظاً وعنيداً ، ولم يتباطأ في اعلام المبعوث الاميركي ان :

« سياستي وآرائي الخ ... تهدف الى زيادة عدد الرقيق الاميركيين ، لا الى انقاصه . واني لن اطلق سراحهم ولو مقابل مليون دولار » .

ومع ذلك كله ، وبفضل وساطة القنصل البريطاني ، استعاد ستة من الاميركيين حريتهم ، في حين بقي عشرة اميركيين من رجال السفينة

الشراعية بصارين « ايدوين » في الاسر حتى نهاية حرب عام ١٨١٢ .

وكان السلام المعقود بين الولايات المتحدة وانكلترة اخيراً ، في عام ١٨١٥ ، فرصة مناسبة لتصفية الحساب مع الجزائر . ومما لا شك فيه ، ان الثأر الاميركي المتميّز بخاصتيّ السرعة والعنف ، كان كفيلاً بابهاج قلب « ويليام ايتون » المتوفى . ففي اليوم الثاني من شهر آذار (مارس) ، سنة ١٨١٥ ، اعلن « الكونغرس » الاميركي الحرب على الجزائر . وقد امر الرئيس « ماديسون » الذي كان قد نفد صبره على شمالي افريقيا منذ زمن طويل ، اسطولين مرعبين وهائلين بالتوجه الى حوض البحر الابيض المتوسط ... وكان الاسطول الاول بأمرة القائد « ويليام باينبريدج » ، في حين كان الاسطول الثاني بأمرة القائد « ستيفان ديكاتور » . وكان لكلا الرجلين احقاد قديمة على القراصنة ، فكانا الآن على استعداد للانتقام .

وصل « ديكاتور » اولاً ، ومعه ثلاث فرغاطات ، بالاضافة الى سلوّبين * وسفينتين شراعيتين كل منهما بصارين ، وسكونتين . وكان ضباطه وملاحوه المجرّبون في البحر مصممين على انهاء مهمتهم الانتقامية مع الجزائريين في اسرع وقت ممكن .

وكان التحام القائد « ديكاتور » الاول مع الجزائريين في اليوم السابع عشر من شهر حزيران (يونيو) ، حين التقى بالفرغاطة الجزائرية « المشودة » فسطا عليها . وكانت تلك الفرغاطة البارجة الخاصة بالاميرال « الريس حميدو » . كان هناك قرابة الثلاثين رجلاً منبطحين جثثاً هامدة لا حراك فيها على ظهرها . وكان الاميرال الجزائري نفسه مشطوراً الى شطرين بعد ان أُصيب بقنبلة مدفعية . اضف الى ما تقدم ، انه كان على الفرغاطة الجزائرية ، « المشودة » ، عدد لا حصر له من الجرحى .

---

* راجع شرح هذه الكلمة في مكان سابق من الكتاب .

وهكذا ، فقد بلغ عدد الاسرى ٤٠٦ اسرى . والآن ، اصبح في حوزة الاميركيين سبب قوي يضطر حتى الحاج علي نفسه الى الاهتمام بآرائهم ، ولكنه كان قد لقي حتفه . كان جنوده قد اغتالوه ، لينصّبوا عمر داياً جديداً مكانه .

وبعد يومين ، استولى القائد الاميركي « ديكاتور » على مركب آخر ، كان عبارة عن سفينة شراعية بصاريين اسمها « استيديو » ، وذلك على اثر تمكنه من قتل ثلاثة وعشرين رجلاً من بحارتها . ونجم عن هذا الاستيلاء ، وقوع ثمانين اسيراً جزائرياً في قبضة القائد الاميركي .

ثم وصل الاسطول الى الجزائر في ٢٨ حزيران (يونيو) . وعلى الفور ، ارسل « ستيفان ديكاتور » انذاراً للداي الجديد — « عمر » — الذي لم يصدق اذنيه لدى سماعه خرافة الكوارث التي حلت ببلاده . والجدير بالذكر ، ان « ديكاتور » ومفاوضه « ويليام شايلر » قد احاطا الداي الجزائري علماً بأن الولايات المتحدة لن تقبل اية تسوية لا تعطيها امتيازات الدولة المفضلة ، هذا بالاضافة الى :

« ان الولايات المتحدة ترفض دفع اية جزية للجزائر ، مهما كان شكل الاتفاق الذي ستتوصل اليه الدولتان » .

ومن البديهي جداً ، ان الاسرى الاميركيين سيطلق سراحهم في الحال.. وعلاوة على ذلك كله ، فيتعين على الداي ان يدفع مبلغ عشرة آلاف دولار كتعويض عن الاضرار الناجمة عن استيلاء الجزائر على السفينة الشراعية الاميركية « ايدوين » . ولا بد من الاشارة الى ان « ايتون » نفسه ما كان ليجعل طلباته في هذا الصدد جافة ومقتضبة على نحوٍ فظ الى هذا الحد ..

ماذا كانت محتويات المعاهدة ؟

نصت المعاهدة ، في معظم شروطها بصورة عامة ، على التخلي عن

فكرة دفع الولايات المتحدة الجزية الى الجزائر بصورة نهائية ، وعلى وجوب اعتاق اي عبد مسيحي يلجأ فاراً الى سفينة حربية اميركية مهما كانت جنسيته ، كما نصّت — ايضاً وايضاً — على ضرورة معاملة الاسرى الاميركيين ، اذا ما القى الجزائريون القبض على عدد منهم في وقت لاحق ، معاملة اسرى حرب .

والحقيقة ان دفع التعويضات كان مسألة خبرة جديدة بالنسبة للجزائر. لذلك ، فان عمر تلوّى تحت ضغط المطالب الاميركية . فاذا ما اذعن للمطالب الاميركية ، فمعنى ذلك انه يعرّض نفسه لخطر الوقوع ضحية في ايدي اتباعه الغاضبين انفسهم .. امـا اذا رفض الاذعان ، فان الاميركيين المتعطشين للدم سوف يبيدون اسطوله ، من غير ريب ، وسوف يقصفون عاصمة دولته .. لقد هوت امكانيات عمر وقدراته على الصمود الى مواضع رديئة محرجة .

رفض « ستيفان ديكاتور » ان يعطي الداي فرصة للمساومة والمماحكة . فلو انه لم يقبل بشروط المعاهدة الاميركية في الحال ، فلسوف ينطلق الاسطول الاميركي ليُغرق او يسطو على اي مركب جزائري يلمحه . وفيما كان الداي يستغرق في التفكير ملياً ، فان الاميركيين سيواصلون الحرب بصورة عملية .. والواقع ان فرغاطة اميركية كانت تطارد طراداً جزائرياً كان قد برز لها قرب الساحل ، في الوقت الذي كان يوقّع فيه الداي على اتفاقية الاستسلام .

وهكذا ، فقد ربحت الولايات المتحدة حرباً فاصلة تُعدّ بداية نهاية شمالي افريقيا باعتبارها خطراً مداهماً ومهدداً للتجارة الاميركية .

ولما كانت كل من تونس وطرابلس تستغل فرصة غيـاب السفن الحربية الاميركيـة كيما تغضّ النظر عن الالتزامات التي تتقيد بها في معاهدتها المعقودة سابقاً مع الولايات المتحدة ، فقد عقد « ديكاتور » النية على ان يدعو كلا البلدين للتباحث والتصافي . فالواقع ان تونس

وطرابلس كانتا قد سمحتا لبريطانيا العظمى بأن تخرق الاتفاقية التي تنص على حيادهما، وبأن تستعيد مراكب بريطانية سبق لقائد احد مراكب القرصنة الاميركيين ان ادخلها الى المرفأ . كان « حمودة »، باي تونس السابق، والذي كان كالشوكة في جسد « ايتون » ، قد توفي في سنة ١٨١٤ ، فجلس على العرش من بعده الباي التونسي الجديد « محمود » . هذا ، وقد طلب القائد الاميركي « ديكاتور » من الباي التونسي « محمود » – بكل برودة – ان يدفع له دفعة نقدية قدرها ٤٦,٠٠٠ دولار كتعويض عن خسارة القرصان الاميركي لمركبين من مراكبه .

فرفض « محمود » الطلب بسخط ، ثم انه القى نظرة على السفن الحربية الاميركية الراسية في الميناء ، فدفع المبلغ في الحال .

وكان يوسف قرامانلي، باشا طرابلس ، قد سمح هو ايضاً للبريطانيين باستعادة مركبين بريطانيين كانا في عداد الغنائم الاميركية . وعندما وصل « ديكاتور » الى طرابلس في الخامس من شهر آب (اغسطس)، وتساهل (بسخاء) مع الباشا بأن سمح له ان يبرّىء ذمته بدفعه مبلغ ثلاثين الف دولار كتعويض ، ثار الباشا الطرابلسي ، وهدد بالحرب . لكنه ، بدوره ايضاً ، أعاد النظر في قراره حين تأمل القوة الاميركية الضاربة الماكثة عند أبوابه .

ولما كانت الغنائم التي خسرها مركب القرصنة الاميركي في طرابلس تقدر قيمتها بحوالى خمسة وعشرين الف دولار فقط ، فقد خفّض « ديكاتور » مطالبه الى هذا الحد ... غير انه أصر على انه يجب على الباشا ان يطلق سراح عشرة اسرى مسيحيين ، علامة على توبته ، وعلى ندمه ، وعلى اسفه . وقد اختار « ديكاتور » رجلين دانماركيين وطلب اطلاق سراحهما ، وذلك اعترافاً بصداقة بلاده للقنصل الدانماركي ، « نيكولاس نيسان » ، الذي كان يعمل لصالح الولايات المتحدة ولصالح الاميركيين لعدة سنوات خلت . أما الثمانية الباقون ، فكانوا صقليين

– تقديراً منه لملك الصقليين للمؤن والذخائر التي كان قد زود بها الأسطول الاميركي في الحرب الطرابلسية .

صعقت شمالي افريقيا ، في طولها وعرضها وجميع انحائها ، لتلك النتائج التي واجهتها على أيدي الكلاب المسيحيين* . ولكن ، كان ينبغي على القراصنة ان يخنقوا غيظهم ، وان يكظموا امتعاضهم ، وان يكبتوا استياءهم ، في ذلك الحين على الاقل .

ومن ثم ، وصل القائد الاميركي الثاني « باينبريدج » ، بعد ان كان « ديكاتور » قد انهى مهمته على الوجه الاكمل . ومع هذا ، ومهما كانت النتيجة ، فقد قام الأسطول الجديد بزيارة كل من الجزائر ، وتونس ، وطرابلس ، في سبيل اثبات وجوده وتلقين تلك البلدان « درساً نظرياً » جديداً .

كان داي الجزائر لا يزال يأمل في ان يروغ ويتملص من المعاهدة التي كان قد وقّع عليها تحت الاكراه بالتهديد . فلما قام القائد الاميركي « جون شو » بتسليمه الوثيقة المصادق عليها ، في صيف عام ١٨١٦ ، اعلن الداي انه لم يعد لتلك المعاهدة ايما اثر ، لأن السفينة الشراعية بصاريين « استيديو » التي كان قد استولى عليها « ديكاتور » ، لم تعد الى الجزائر مثلما كان قد تم الاتفاق ... في الواقع ، ان الحكومة الاميركية كانت قد افلتت المركب وتركته حراً ، ولكن الحكومة الاسبانية كانت تحتجزه في ذلك الوقت ... فهدد « شو » ، بادىء ذي بدء ، باستئناف الحرب من جديد ، ولكنه عاد ووافق ، أخيراً ، على ان يسمح للباي بارسال خطاب احتجاج الى « واشنطن » .

وفي تلك الاثناء ، كانت التعزيزات البحرية الجديدة في طريقها الى البحر الابيض المتوسط . فقد وصلت الفرغاطة « واشنطن » ذات الاربعة

---

* Christian dogs

والسبعين مدفعاً الى المتوسط ، وقامت بزيـارة الجزائر في شهر تشرين الاول (اوكتوبر) . وكانت « واشنطن » بارجة قائد الأسطول الاميركي الجديد « اسحاق تشونسي » .

لقد جحظت عينا الداي الجزائري – عمر – لرؤية الاسطول الاميركي الجديد ... والحق انه قلق قلقاً شديداً ، لا سيما وان اسطولاً انكليزياً وهولندياً بأمرة اللورد « اكزماوث » كان قد حطّم حصونه ، وقضى على عدد كبير من سفنه ، وذلك في شهر آب (اغسطس) .

وفي شهر كانون الاول (ديسمبر) ، نقل القائد الاميركي «اسحاق تشونسي » جواب رئيس الولايات المتحدة ، ونقل معه انذاراً تطلب فيه الولايات المتحدة قبول الجزائر الفوري بتحضير نص جديد للمعاهدة بعد اعادة النظر فيها ثانية . ولم يكن من مفر يلجأ اليه الداي ، او من حجة يتذرّع بها ، اذ ان السفينة الشراعية « استيديو » كانت قد وصلت الى الجزائر . بيد ان عمر وضع حياته في احدى كفتي الميزان ، وخشي مغبّة موافقته... فالاغتيال كان في انتظاره اذا ما استسلم للاميركيين واذعن لما يطلبون .

واذا مـا اشفق « تشونسي » وزميله مفاوض السلام الاميركي ، « ويليام شايلر » ، على الداي الحرج الموقف والواقع في ورطة، فانهما لم يتزحزحا قيد شعرة عن مطالبهما . لكن « شايلر » وافق على ان يزود عمر بشهادة رسمية تشهد بأنه قد أجبر بالقوة على قبول المعاهدة ، وهو على فوهة المدافع الاميركية – إن جاز لنا التعبير .

وفي الثالث والعشرين من شهر كـانون الاول (ديسمبر) ، سنة ١٨١٦ ، صادق عمر على المعاهدة ، وأنقذ نفسه من الاغتيال طـوال تسعة أشهر . وبطريق السهو غير المقصود الناجـم عن وزارة الخارجية الاميركية ، فان الحكومة الاميركية قد تلكأت في عرض هذه المعاهدة على المصادقة حتى سنة ١٨٢٢ ... ولكن خلفاء عمر لم يعلموا شيئاً عن

هـــذا الاغفال ، فأضافوا تواقيعهم واختامهم مرتاحي الضمير ، مؤدين واجبهم على اكمل وجه .

لم يعد قراصنة شمالي افريقيا مصدر خطر عـــلى السفن الاميركية . فبالرغم من ان الولايات المتحدة أبقت عدداً قليلاً من المراكب للقيـــام بدوريات خاصة في البحر الابيض المتوسط ، وذلك الى حين سيطرت فرنسا على الجزائر في عام ١٨٣٠ ، فـان ذكرى « ستيفان ديكاتور » كانت تكفي لارعاب الاطفال والرجال في سائر انحاء افريقيا الشمالية .

لقد صدق اعتقاد كل من «ويليام ايتون» و «توماس جفرسون» ... فان القوة المستعملة بحزم وبذكاء ، قضت بسرعة على مصدر ازعـــاج خطير كان أشبه بالطاعون الذي ينخر العالم المسيحي طوال ستة قرون .

لائحة بأهم المراجع

من بين مجموعة المصادر والمراجع المختلفة والواسعة الانتشار المتعلقة بتاريخ شمالي افريقيا ، فان القارىء ليجد المعلومات الموجزة،والتفصيلات الاخرى اللازمة لدراسة اكثر توسعاً عن حروب الولايات المتحدة ضد دول شمالي افريقيا ، في الكتب والمؤلفات التالية :

1 — Sir Harry H. Johnston, A History of the Colonization of Africa by Alien Races (Cambridge, 1930).

2 — Stanley Lane-Poole, The Story of the Barbary Corsairs (New York and London, 1890).

3 — Samuel C. Chew, The Crescent and the Rose: Islam and England during the Renaissance (New York, 1937).

4 — Gardner W. Allen, Our Navy and the Barbary Corsairs (Boston, 1905).

5 — G. S. Laird Slowes, The Story of Sail (London, 1936).

6 — Roger B. Merriman, Suleiman the Magnificient, 1520-1566 (Cambridge, Mass., 1944).

فهرست الصور والخرائط

الفهرست